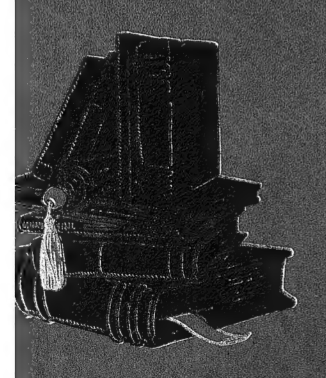
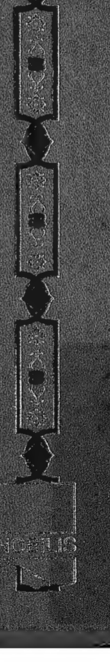
موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان، الأنظمة، الفرق، البدع في العالم





موسوعة عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

كنيسة روما



مجموعة مِن كبار الباحِثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء العاشر

كنيسة روما

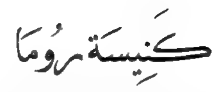
NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعة	: موسوعَــــة عَالَــــم الأديَــــان
	كُلُّ الأديَان والمَذاهِب والفِرَق والبَدَع في العَالَم
إسم الكِتَاب	: كَنِيسَــةُ رُومَــا
الجزء	: العَاشِر
المؤلّف	: مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفرّج
قياس الكتَاب	: ٢٠ × ٢٨
مكان النّشر	: بيروت
دَار النّشر والتّوزيع	: NOBILIS
تلفاكس	: ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتويات



اللاتين LATIN هم سكّان إقليم "لاتيوم" الأقدمون في إيطاليا. وكانت اللاتينيّة اللغة القديمة لإيطاليا واللغة النموذجيّة لمعظم مناطق الأمبراطوريّة الرومانيّة، انتشرت وتطوّرت إلى اللغات الرومانسيّة الحديثة[1]. واللاتينيّة التي لا زالت تدرّس اليوم في بعض المدارس، كانت اللغة النموذجيّة لشَيْشَرون[2] ويوليوس قيصر[3]. ويُطلق اليوم اسم اللاتين على المسيحيّين الكاثوليك الذين يستعملون اللغة اللاتينيّة في ممارسة طقوسهم الكنسيّة، إذ لا تزال لاتينيّة الآباء المسيحيّين اللغة الرسميّة للطقوس الدينيّة في الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة. لذلك سُمّيت الكنيسة اللاتينيّة.

---

١ ـ **اللغات الرومانسيّة الحديثة**: الكاتالونيّة في إسبانيا، الفرنسيّة القديمة، الفرنسيّة الحديثة، الإيطاليّة القديمة، الإيطاليّة الحديثة، المولدافيّة، البرتغاليّة القديمة، البرتغاليّة الحديثة، البروفنساليّة، الرومانيّة الإسبانيّة القديمة، الإسبانيّة؛ أمّا اللغات غير الرومانسيّة الطليانيّة فهي: اللاتينيّة القديمة والكلاسيكيّة والعاميّة والوسطى الأسكيّة والأومبريّة.

٢ ـ **شَيْشَرون أو قيقرون** CICÉRON (١٠٦ ـ ٤٣ ق.م.): أكبر خطيب وكاتب ومفكّر عرفته روما، تعاطى السياسة، قنصل ٦٣، من أشهر مؤلّفاته: دفاعه عن مورينا وميلو ومرافعاته ضدّ كاتيلينا وفرّيس، وخطبه ضدّ أنطونيوس المعروفة بـ"الفيليبيك"، وكتبه: "في الدولة"، و"في الشيخوخة"، و"في الشرائع".

٣ ـ **يوليوس قيصر** CÉSAR (١٠١ ـ ٤٤ ق.م.): من كبار رجال الدولة والقوّاد في روما والعالم، ألّف المثلّث الأول مع بومبيوس وكراسوس ٦٠ ق.م. انتُخب قنصلاً ٥٩ و٥٦، فتح غاليا ٥٨ ـ ٥١ وعاد إلى روما ففرض حكمه الفرد عليها رغم الحرب الأهليّة، تخلّص من بومبيوس بعد معركة فرسال ٤٨، عشق كليوبترة ملكة مصر ورُزق منها ولدًا، أعاد تنظيم الإدارة الرومانيّة، تآمرت عليه الطبقة الأرستقراطيّة في مجلس الشيوخ فاغتيل، له تاريخ حرب الغول والحرب الأهليّة.

إذا كانت الكنيسة الأورشليميّة تعتبر نفسها "أمّ الكنائس"، وكنيسة أنطاكية تعتبر أنّها المكان الأوّل الذي عُرف به أتباع يسوع بالمسيحيّين، فإنّ كنيسة روما تعتبر نفسها الوريثة الشرعيّة لبطرس الذي يُعتبر البابا الأوّل، أو الصخرة التي بنى المسيح عليها كنيسته. وقد استُشهد بطرس في روما حيث يقال إنّه صُلب مقلوبًا وفيها دُفن حوالى سنة ٦٧ في عهد نيرون (أمبراطور روما ٥٤ ـ ٦٨)، وفي السنة نفسها اعتُقل بولس "رسول الأمم" في القدس وسيق إلى روما حيث قُطع رأسه. ولطالما فاخرت الكنيسة الرومانيّة بأنّها تضمّ رفات الرسولَين القدّيسَين.

ويعتبر التقليد الكنسي أنّ أسقف روما القدّيس لينُس LINUS قد خلف بطرس حوالى ٦٧ ـ ٧٦ على كرسي روما، الذي خلفه بابا روما الثالث القديس أناكليتوس أو كليتوس نحو ٧٧ ـ ٩٠، وقد مات شهيدًا، فخلفه أحد الآباء الرسوليّين كليمنس أو اكليمنضس الأوّل حوالى ٩١ ـ ١٠٠ الذي من آثاره رسالة إلى القورنثيّين، ثمّ أفاريستُس نحو ١٠٠ ـ ١٠٧، فإسكندر الأوّل ١٠٧ ـ ١١٦، ثمّ سيكستُس الأوّل ١١٧ ـ ١٢٥، الذي خلفه تيليسفورُس ١٢٥ ـ ١٣٦، ثمّ هيجينُس ١٣٦ ـ ١٤٠، وبعده بيوس الأوّل ١٤٠ ـ ١٥٥، ثمّ أنيقيتُس ١٥٥ ـ ١٦٦ الذي استُشهد في عهد الأمبراطور مرقس أوريليوس (أمبراطور ١٦١ ـ ١٨٠)، ثمّ سوتر ١٦٦ ـ ١٧٤، الذي خلفه ألويتريوس ١٧٤ ـ ١٨٩، فالقدّيس فيكتور الأوّل الأفريقيّ ١٨٩ ـ ١٩٨ الذي أقرّ عيد الفصح نهار الأحد في روما. بعده اعتلى السدّة البابويّة زيفيرينُس ١٩٨ ـ ٢١٧، خلفه كاليكستُس الأوّل ٢١٧ ـ ٢٢٢ وهو قدّيس أصله عبد معتق، اشتهر بتسامحه في قبول الخطأة.

في هذه الحقبة، حصل خلاف في الكنيسة الرومانيّة فانتخب المعارضون بابا آخر هو هيبوليتُس HIPPOLYTE الكاهن الرومانيّ والكاتب الكنسيّ الشهير صاحب "معرض النظريّات الفلسفيّة"، وقد أحدث انتخابه انشقاقًا في الكنيسة دام حتّى وفاته سنة ٢٣٥،

وكان هيبوليتّس وأتباعه قد خالفوا البابا بشأن مصالحة الخطأة. أمّا البابا الذي خلف كاليكستُس الأوّل فكان القدّيس أوربانُس ٢٢٢ ـ ٢٣٠، وهو الأوّل بهذا الإسم، جاء بعده بونتيانُس الأوّل ٢٣٠ ـ ٢٣٥، ثمّ أنتيرُس ٢٣٥ ـ ٢٣٦، ففابيانُس ٢٣٦ ـ ٢٥٠ القدّيس الذي استُشهد في اضطهاد داقيُس. وخلف فابيانُس على كرسي البابويّة كورنيليُس ٢٥١ ـ ٢٥٣، فانتخب المعارضون بابا آخر هو نوفاتيانُس NOVATIANUS الكاهن الرومانيّ الذي أسّس مذهبًا سُمّي باسمه سنة ٢٥١ وقد اشتهر بموقفه المتصلّب تجاه الخطأة، وتوفّي نوفاتيانُس حوالى سنة ٢٥٨. وقد خلف البابا الأصيل كورنيليُس، لوقيوس الأوّل ٢٥٣ ـ ٢٥٤ وهو قدّيس كتب إلى القديس قبريانس رسالة بشأن مصالحة الخطأة. خلفه إسطفانُس الأوّل ٢٥٤ ـ ٢٥٧ الذي كتب إلى كنائس الشرق رسائل بشأن العماد المعطى على يد الهراطقة. ثمّ سيكستُس الثاني ٢٥٧ ـ ٢٥٨، فديونيسيُوس ٢٥٩ ـ ٢٦٨ القدّيس الذي له رسالة في الثالوث والتجسّد. بعد جاء فليكس الأوّل ٢٦٩ ـ ٢٧٤ القدّيس، ثمّ أوتيخانُس ٢٧٥ ـ ٢٨٣، ثمّ كايوس ٢٨٣ ـ ٢٩٦، فمرقيلينُس ٢٩٦ ـ ٣٠٤، فمَرقلُس الأوّل ٣٠٨ ـ ٣٠٩، فأوسيبيُس ٣٠٩ ـ ٣١١، فملقيادُس ٣١١ ـ ٣١٤، الذي خلفه سلفسترُس الأوّل ٣١٤ ـ ٣٣٥ القدّيس الذي في عهده عُقد المجمع النيقاويّ الأوّل سنة ٣٢٥.[1]

وهكذا نلاحظ أنّه قد تعاقب على كرسي كنيسة روما ٣٣ بابا قبل المجمع النيقاويّ الذي أقرّ لكنيسة "المدينة المقدّسة"، أورشليم، ميّزة شرفيّة. وإذا أضفنا إلى ذلك أنّ الكنيسة الرومانيّة لم تعرف منذ تأسيسها سوى اللغة اللاتينيّة في طقوسها، فيما كانت كنيسة أورشليم، من دون شك، تستعمل اللغة السريانيّة أو اليونانيّة، يصبح من البديهي

---

١ ـ حول المجمع النيقاويّ والمجامع المسكونيّة التي سبقته، راجع الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

اعتبار أنّ كنيسة روما هي أمّ الكنائس اللاتينيّة، مثلما هي أمّ الكنيسة الكاثوليكيّة الجامعة التي أسّسها السيّد المسيح ورتّب مؤمنيها تحت سلطان الرسل والأساقفة من بعدهم يرأسهم القدّيس بطرس هامة الرسل والحبر الأعظم خليفته، وهي تتفرّع، في وحدة الإيمان والسلطة، إلى كنائس تتباين بطقوسها ولغاتها[1]. والكاثوليك أو الكاتوليك، والواحد منهم "كاثوليكيّ" أو "كاتوليكيّ"، إسم شامل لجميع المسيحيّين المنضمّين تحت رئاسة البابا خلف القديس بطرس ونائب السيّد المسيح ورأس الكنيسة المنظور ومعلّمها. وأصل كلمة كاثوليك يونانيّ KATHOLIKOS ومعناها: عالميّ. وكان المقصود منها منذ إطلاقها سمةً للكنيسة الجامعة، وصف هذه الكنيسة بالعالميّة.

لقد كانت السلطة البابويّة هي السلطة العليا المعترف بها في الغرب كلّه، وكان البابا موضوع احترام جميع الشعوب الساكنة فيه. ويقسم المؤرّخون الكلاسيكيّون تاريخ البابويّة في الألف الأول إلى أربعة عهود: العهد البيزنطي حتّى سنة ٧٥٤، وعهد الحماية الفرنجيّة (٧٧٥ ـ ٨٨٧)، وعهد نفوذ الأسر الإيطاليّة (٨٨٧ ـ ٩٦٢)، وعهد الحماية الألمانيّة (٩٦٢ ـ ١٠٧٣). وظهرت في آخر القرن الحادي عشر شخصيّة البابا غريغوريُس السابع، وهي شخصيّة فذّة استطاعت أن تحرّر البابويّة من الحمايات، وتبسط الإصلاحات الضروريّة، فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الكنيسة الرومانيّة[2].

---

١ ـ المنجد في الأعلام، الطبعة الثانية، دار المشرق (بيروت،١٩٨٦) ص٥٧٨.

٢ ـ يتيم المطران ميشيل والارشمندريت أغناطيوس ديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة وأهمّ أحداث الكنيسة الغربيّة، منشورات المكتبة البولسيّة، ط٤ (بيروت، ١٩٩٩) ص ١٨٧.

بيـــنَ المَجمَعَــــين
النِّيقاويّ والخَلقيدُونِيّ

يذكر باحثون كنسيّون أنّه "في سنة ٣٨٠، جعـل ثيودوسيُوس[1] العقيدة الكاثوليكيّـة ديـن الدولـة، واعـترف بغريغوريُـس النازيـــانزي[2] أسـقفًا[3] للقســطنطينيّة، ودعـــا (ثيوديسيوس) إلى مجمع في عاصمته سنة ٣٨١ ما كان سوى مجمع شرقيّ، لـم تُحفظ منه إلاّ أربعة قوانين توجب الحفاظ على الإيمان المعلَـن في نيقيـة ورفض الهرطقـات المختلفة الحديثة الظهور...، وفي الغرب، انعقد مجمع في أكويلا[4] في السنة نفسها بناء على طلب الأمبراطور غراسيانُس[5] لم يضمّ سوى بضعة أسـاقفة مـن إيطاليـا الشـماليّة وغاليا عزلوا الأساقفة الآريوسيّين وطلبوا تدخّل الأمـبراطور لتنفيذ الحكـم، فـاختفت الآريوسيّة من الأمبراطوريّة شيئًا فشيئًا، لكنّهـا اسـتمرّت عند الـبربر الجرمـان الذين بشّرهم "ولفيلا"، وكان رسمه أسقفًا أحد زعماء الآريوسيّة: أوسابيوس النيقوديمي[6].

---

١ ـ **ثيودوسيُوس الأوّل**: أمبراطور رومانيّ ٣٧٩ ـ ٣٩٥، ثار عليه أهل تسالونيكي فأمر بذبحهم فلامه القدّيس أمبروسيوس، بعد موته قسّمت الأمبراطوريّة إلى قسمين: شرقيّة عاصمتها بيزنطية، وغربيّة عاصمتها روما.

٢ ـ **القدّيس غريغوريُس النازيانزي** (نحو ٣٢٩ ـ ٣٩٠): معلّم كنسيّ تعترف بقداسته الكنيسة الجامعة، كان صديقًا للقديس باسيليوس ورفيقه في الحياة النسكيّة، وكان شاعرًا وخطيبًا، إثر انتخابه بطريركًا للقسطنطينيّة احتجّ بعض الأساقفة بحجّة أنّه كان من قبل أسقفًا لضيعة صغيرة، حزّ ذلك في نفسه فعاد إلى بلاده ناسكًا فاختير بدله موظّفًا متقاعدًا.

٣ ـ الأصحّ "بطريركًا".

٤ ـ **أكويلا**: على البحر الأدرياتيكي بالقرب من تريستا.

٥ ـ **غراسيانُس أو غراتيانُس** GRATIANUS: أمبراطور رومانيّ ٣٧٥ ـ ٣٨٣، تقاسم أمبراطوريّة الغرب مع أخيه والنتينيانُس الثاني، حارب الوثنيّة والبدع المسيحيّة.

٦ ـ كمبي الأب جان، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، الطبعة العربيّة الثانية، دار المشرق (بيروت،٢٠٠٢) ص١٢٣.

ثمّ كان مجمع أفسس الذي دعا إليه الأمبراطور ثيودوسيُوس الثاني سنة ٤٣١ وسط تراشق بالمجامع المحليّة التي جرت من قِبَل الطرفين المتنازعَين على هامش ذلك المجمع المسكونيّ بالتهجّمات اللاهوتيّة. إلاّ أنّه في نهاية المجمع أمر الأمبراطور الحزبَين المتنافرَين أن يجتمعا في مكان واحد، وقام أحد رجال البلاط: يوحنّا قومس، بقراءة براءة أمبراطوريّة عليهم جاء فيها خلع نسطوريُس، ودعت البراءة إلى ضرورة التمسّك بنصّ الدستور النيقاويّ، وأمرت البطاركة والأساقفة بالعودة إلى أوطانهم[1].

رغم بعض الآراء غير المقدّرة لأهميّة ذلك المجمع التاريخيّ، فيكفي، بنظر علماء الكنيسة، أنّه حافظ على العقيدة المسيحيّة الأساسيّة الجامعة بتحريمه النسطوريّة. رغم ذلك فقد استمرّت الخلافات بين كنائس المسكونة حتّى كان مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١، الذي صدرت عنه مقرّرات حاسمة نتج عنها نشوء كنيسة جامعة واحدة تقول بمعتقد واحد وتعلّم تعليمًا واحدًا وتعتبر كلّ خارج عنها خارجًا عن تعاليم الكنيسة. ولقد كانت تلك المقرّرات بمثابة المفصل التاريخيّ المسيحيّ الذي قرّر وحدة الإيمان بطبيعة السيّد المسيح ومشيئته، بلاهوته وناسوته. واعتبر منذ ذلك التاريخ أنّ كلّ كنيسة تخلص لهذا الإيمان هي كنيسة مستقيمة الرأي، أي أنّها أرثذوكسيّة، وأنّ كلّ كنيسة تخرج عن تلك المقرّرات الإيمانيّة، لا تكون أرثذوكسيّة[2]. وما لا بدّ من توضيحه في هذا المجال، هو أن لا خلاف جوهريًا في المعتقد بين الكنيستَين الأرثذوكسيّة البيزنطيّة وفروعها، والكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة وفروعها، فالكنيستان تعترفان بمقرّرات المجامع

---

١ ـ راجع الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

٢ ـ راجع: الجزءين الثامن والتاسع من هذه الموسوعة.

المسكونيّة السبعة[1] الأولى وتعملان بموجبها. إلاّ أنّ الخلافات بين الكنيستَين على حقيقتها، إنّما بدأت خلافًا على السلطة، وراحت تتشعّب إلى مقرّرات لكلّ من الكنيستَين عبر مجامع، ليس فيها أيّ تناقض بين الفئتَين من حيث الإيمان والمعتقد[2].

حدّد القانون الثامن والعشرون لمجمع خلقيدونية الولايات الشرقيّة الأربع: القسطنطينيّة، أنطاكية، أورشليم، الإسكندريّة، وأضيفت إليها ولاية روما في الغرب، فصارت البطريركيّات الخلقيدونيّة خمس، وقد استمدّت وضعها القانونيّ في عهد يوستينيانُس الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥) منتصف القرن السادس. وقد تحدّث بعضهم إذذاك عن "بنتارخيّة" أي حكم خماسيّ للكنيسة[3]. وكانت البطريركيّة الغربيّة في روما تشمل أوروبّا الغربيّة وأفريقيا الشماليّة والبلقان[4] ما عدا تراقيا[5]. وكان البابا يدير مباشرة

١ ـ المجامع المسكونيّة السبعة الأولى هي كما جاء في الجزء العاشر: مجمع نيقية سنة ٣٢٥: حرّم أريوس وأعلن قانون الإيمان المعروف بالقانون النيقاويّ؛ مجمع القسطنطينيّة الأوّل ٣٨١: حرّم مقدونيوس؛ مجمع أفسس ٤٣١: حرّم نسطوريُس؛ مجمع خلقيدونية ٤٥١: حرّم أوطيخا ووضع دستورًا كنسيًّا جامعًا؛ مجمع القسطنطينيّة الثاني ٥٥٣: حرّم الكتبة الثلاثة؛ مجمع القسطنطينيّة الثالث ٦٨٠: حرّم المونوتوليّة؛ مجمع نيقية الثاني ٧٨٧: حرّم محاربي الأيقونات.

٢ ـ راجع الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٣ ـ راجع: كعبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٣٢.

٤ ـ **البلقان**: منطقة جبليّة جنوب أوروبّا، شبه جزيرة تضمّ جبال الألب الديناريّة وجبال رودوب، تحدّها من الشمال جبال البلقان ٢٣٨٥م وتضيق في الجنوب بين الأدرياتيك وبحر إيجة ومرمرة، ويحدّها من الشرق البحر الأسود، أهمّ دولها: رومانيا، ألبانيا، بلغاريا، اليونان، يوغوسلافيا (صربيا، الجبل الأسود، بوسنيا، الهرساك) وتركيا الأوروبيّة، سكّانها مزيج من الشعوب، خضعت للسيطرة التركيّة في نهاية القرن الرابع عشر، ثمّ للسيطرة الروسيّة والنمساويّة في القرن الثامن عشر، حصلت دولها على الاستقلال التامّ خلال القرنَين التاسع عشر والعشرين.

٥ ـ **تراقيا**: منطقة في جنوب أوروبّا الشرقيّة تشغل طرف شبه جزيرة البلقان، استوطن التراقيون الأوائل المنطقة الغربيّة من الإقليم ناحية البحر الأدرياتيكي، دفعهم الأليريون شرقًا نحو ١٣٠٠ ق.م. ثمّ المقدونيون في القرن الخامس ق.م.، ومع أنّ الإغريق أسّسوا في الإقليم مستعمرات مثل بيزنطية إلاّ أنّ تراقيا لم تقتبس الثقافة الإغريقيّة، أخضع فيليب الثاني جنوب تراقيا ٣٤٢ ق.م. وحكم ليسيماكس بعد ٣٢٣ ق.م. معظم الإقليم، أفاد الحكم الرومانيّ في القرن الأوّل قبل المسيح تراقيا كثيرًا، ظلّت منذ غزو البرابرة في

شؤون إيطاليا، وينيب عنه في البلقان رئيس أساقفة تسالونيك[١]، وفي أفريقيا الشماليّة رئيس أساقفة قرطاجة[٢].

ويرى علماء الكنيسة أنّه لا يمكن الكلام على "البابويّة" ولا على مفهوم "البابا" ـ بالمعنى الحاليّ ـ حتّى القرن السادس، "فقد كان لفظ "بابا" لقبًا جاريًا يمكن استعماله لأيّ أسقف، وكان يُعنى به دوره الأبويّ. وكان أسقف روما يلعب في الغرب اللاتينيّ دورًا شبيهًا بالدور الذي كان يلعبه أسقف الإسكندريّة مثلاً، في مصر وفي المدن الغربيّة الخمس (ليبيا)، ومع هذا، فمنذ البداية، احتلّت روما مكانة استثنائيّة في الكنيسة الجامعة. ذلك بفضل حضور واستشهاد الرسولَين بطرس وبولس فيها، وبفضل موقعها كعاصمة للأمبراطوريّة. فقد تدخّل أساقفة روما في حياة الكنائس الأخرى: فإنّ اقليمنس الروماني ذكّر سنة ٩٦ كنيسة قورنتُس بضرورة الوحدة والنظام، وحرم فيكتور أساقفة آسية الصغرى الذين لم يتّبعوا عادات روما والإسكندريّة في الاحتفال بعيد الفصح

القرن الثالث مسرحًا للمعارك، انتقل شرق تراقيا في القرن السابع إلى أيدي البلغار، وحكم الأتراك العثمانيّون كامل الإقليم بعد سقوط القسطنطينيّة ١٤٥٣ ثمّ أصبح اصطلاح تراقيا يشير فقط إلى الجزء الجنوبيّ من الإقليم بعد ضمّ بلغاريا أو روملّيا الشرقيّة ١٨٨٥، تتقاسمها منذ ١٩١٩ ـ ١٩٢٣ اليونان (تراقيا الغربيّة) وبلغاريا (تراقيا الشماليّة أو روملّيا الشرقيّة) وتركيا (تراقية الشرقيّة وأهمّ مدنها اسطنبول وأدرنة وجاليبولي).

١ ـ **تسالونيك أو سالونيك** SALONIQUE: مرفأ شمال اليونان (مقدونيا) كان قديمًا يُسمّى تسالونيكي، وجّه القديس بولس إلى أهله رسالتين نحو ٥٢.

٢ ـ **قرطاجة** CARTHAGE: مدينة قديمة صغيرة على شبه جزيرة في خليج تونس قرب مدينة تونس الحديثة، اشتقّ اسمها اللاتينيّ من اسمها الفينيقيّ ومعناه مدينة جديدة، يُنسب تأسيسها إلى ديدون الفينيقيّة أخت بغماليون ملك صور في القرن التاسع ق.م.، صارت عاصمة أمبراطوريّة جبّارة قاومت روما مدة الحروب الفونيّة التي انتهت ١٤٩ ـ ١٤٦ ق.م. بالقضاء على قوّة قرطاجة وتدمير المدينة التي شرع الرومان ١٢٢ ق.م. بإنشاء مدينة جديدة على أنقاضها دون أن تكتمل، أسّس يوليوس قيصر مدينة جديدة مكانها أصبحت في عهد أغسطس مركزًا هامًّا للإدارة الرومانيّة، في القرن السادس أصبحت قرطاجة أحد المعاقل المسيحيّة ولعبت دورًا كبيرًا في إقامة دعائم الكنيسة الغربيّة اللاتينيّة، قاومت غزوات المسلمين الأولى إلى أن استولى عليها القائد ابن النعمان ٦٩٨، توفّي فيها لويس التاسع ملك فرنسا في أثناء عودته من مصر عقب حملته الصليبيّة الفاشلة، وقرطاجة اليوم إحدى ضواحي مدينة تونس ولا يزال فيها بعض بقايا المدينة القديمة.

(نحو سنة ١٩٠)، ووبّخ إسطفانُس الرومانيّ قبريانُس بخصوص معموديّة الهراطقة... إلى آخر ذلك[1]. بينما يرى باحثون كنسيّون آخرون أنّ البابا لم يكن يتدخّل في شؤون الشرق إلاّ نادرًا، أي عندما كانت المحافظة على صحّة المعتقد تقتضي تدخّله أو إذا رُفعت دعوى إلى محكمته العليا. وكان يترك كلّ بطريركيّة تدبّر أمورها بنفسها تحت سلطة البطريرك المحلّي[2]. على أنّ روما كانت قد أصبحت منذ فتوحات يوستينيانُس الملك تحت حكم البيزنطيّين في أواسط القرن السادس. فكثرت علاقات البابوات بالشرق، ولعبوا دورًا مهمًّا في مقاومة مذهب المشيئة الواحدة. وقد قاسى البابا مرتينُس من جرّاء هذه المقاومة النفي والعذاب، وتوفّي في منفاه سنة ٦٥٤.[3] واعتلى السدّة البابويّة في هذه الحقبة عدّة بابوات من أصل شرقيّ، منهم ستّة من أصل سوريّ، وثلاثة يونان. وأبرز هؤلاء البابوات بحسب الترتيب الزمنيّ:

البابا ثودورُس (٦٤٢ ـ ٦٤٩): وهو مقدسيّ، حرم البطريرك القسطنطيني القائل بالمشيئة الواحدة، عيّن أسقف عمّان نائبًا عنه لإدارة شؤون بطريركيّتي أنطاكية والقدس في مدّة شغورهما بعد الفتح العربيّ؛ البابا سرجيوس (٦٨٧ ـ ٧٠١): وهو سوريّ الأصل، رفض المصادقة على مقرّرات مجمع القبّة الأول فحاول الأمبراطور خطفه لينفيه، فثار الجند على أوامر الملك ودافعوا عن البابا. وقد أدخل على الطقس الرومانيّ عادات وأعيادًا شرقيّة كثيرة؛ البابا قسطنطين الأول (٧٠٨ ـ ٧١٥): وهو سوريّ الأصل، قبل دعوة الأمبراطور يوستينيانُس الثاني فزار القسطنطينيّة، ولم يوافق على مقرّرات مجمع القبّة؛ البابا غريغوريُس الثالث (٧٣١ ـ ٧٤١): وهو

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٣٤.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٠٦.

٣ ـ راجع: الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة، ص٦٨ ـ ٦٩.

سوريّ الأصل، قاوم الملكَين لاون وقسطنطين محطِّمَي الأيقونات المقدّسة ورشقهما بالحرم في مجمع عقده في روما سنة ٧٣١، فانتقم لاون منه بأن فصل عن أبرشيّته مقاطعة البلقان وضمّها إلى سلطة بطريرك القسطنطينيّة؛ البابا زكريّا (٧٤١ ـ ٧٥٢): وهو يونانيّ الأصل، وآخر بابا من أصل شرقيّ[١].

في الواقع، لا يمكن تجاهل قيمة الدور العقائديّ الذي أبرزه مجمع خلقيدونية لأسقف روما حين صرّح الآباء بقولهم: "تكلّم بطرس بفم لاون[٢] ". وقد عبّر لاون الكبير نفسه في "العظة الرابعة" عن وراثة كرسي روما لبطرس بقوله:

> إختير بطرس وحده، دون المسكونة، ليتولّى دعوة كلّ الشعوب، وهو وحده وُضع على رأس جميع الرسل وجميع آباء الكنيسة. وهكذا الأمر في شعب الله: فرغم أنّ الكهنة كانوا عديدين، والرعاة كثيرين، كان بطرس يحكم، بصفة شخصيّة، وبكونه رئيسنا، جميع الذين يحكمهم المسيح. وفي عنايته الإلهيّة، أيّها الأحبّاء، منح الله هذا الرجل اشتراكًا كبيرًا ومدهشًا في قدرته (...) قيل لبطرس:"سأعطيك مفاتيح السماوات (...)" فمن المؤكّد أنّ حقّ ممارسة هذا السلطان قد انتقل أيضًا إلى باقي الرسل. وامتدّ التأسيس الذي نشأ من هذا الوعد إلى جميع أمراء الكنيسة. لكن، ليس دون جدوى أن يعهد إلى واحد ما قصد به الجميع. فإذا كان هذا السلطان، في الواقع، قد سُلّم إلى بطرس بصفة شخصيّة، فهذا يعني أنّ وضع بطرس يمتدّ إلى جميع رؤساء الكنيسة. إنّ امتياز بطرس في كلّ مكان فيه قضاء بفضل عدالته (...) فإلى بطرس، الراعي الصالح، نعزو هذا اليوم ـ ذكرى استهلالنا هذه الخدمة ـ وإليه نقدّم هذا العيد، إذ لنستحقّنا بحمايته أن ننتمي إلى كرسيه[٣] (...).

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ١٨٨.

٢ ـ لاوُن الكبير: بابا ٤٤٠ ـ ٤٦١، ترأس ممثّله المجمع الخلقيدونيّ، وهو الذي تصدّى لأتيلا على أبواب روما ٤٥٢، له مواعظ ومؤلّفات لاهوتيّة.

٣ ـ لاون الكبير، العظة الرابعة (٩٥) SOURCES CHRÉYIENNES، كما جاءت في كتاب: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٣٥.

أمّا البابوات الذين تعاقبوا على كرسي روما بين المجمعَين النيقاويّ والخلقيدونيّ فكانوا ١٢ بابا شرعيًّا إضافة إلى ثلاثة معارضين.

فبعد سلفسترُس الأول ٣١٤ ـ ٣٣٥ القدّيس الذي عُقد في عهده المجمع النيقاويّ الأول سنة ٣٢٥، جاء لأقلّ من سنة (١٨ كانون الأول (ديسمبر) إلى الأول من تمّوز (يوليو) ٣٣٦ البابا مرقس؛ خلفه يوليوس الأول (٣٣٧ ـ ٣٥٢) القدّيس الرومانيّ المولد نحو سنة ٢٨٠؛ جاء بعده ليباريوس (٣٥٢ ـ ٣٦٦) القدّيس الذي تحمّل النفي مدّة لدفاعه عن الإيمان النيقاويّ، وأقيم معارضًا له فيليكس الثاني (٣٥٥ ـ ٣٦٥)؛ وخلف ليباريوس داماسُس الأول (٣٦٦ ـ ٣٨٤) القدّيس الذي عهد إلى القديس هيرونيمُس بترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينيّة، وعمل على حلّ المشكلة الآريوسيّة، بينما خلف البابا المعارض أورسينُس (٣٦٦ ـ ٣٦٧)؛ وجاء بعد داماسُس البابا سيريقيوس (٣٨٤ ـ ٣٩٨)؛ ثمّ أنستازيوس الأول (٣٩٩ ـ ٤٠٢) الذي تدخّل في حلّ المشكلة الأوريجينيّة؛ وكان بعده أحد أعظم بابوات القرون الأولى: إينوقنتيوس الأول، الذي دافع بقوّة عن الرئاسة الرومانيّة؛ خلفه لسنة واحدة (٤١٧ ـ ٤١٨) القدّيس زوسيمُس الذي ساهم في حرم البدعة البيلاجيّة؛ ثمّ القدّيس بونيفاتيوس الأول (٤١٨ ـ ٤٢٢) الذي نصّب في مواجته البابا المعارض أولاليوس (٤١٨ ـ ٤١٩)؛ وخلف البابا الشرعي القدّيس قليستينُس الأول (٤٢٢ ـ ٤٣٢) المدافع الكبير عن أوغوسطينُس وصاحب الرسائل الشهيرة في المشكلة النسطوريّة؛ ثمّ البابا سيكستُس الثالث (٤٣٢ ـ ٤٤٠) الذي خلفه البابا لاون الأول (٤٤٠ ـ ٤٦١) وهو لاون الكبير الذي ترأس ممثّله المجمع الخلقيدونيّ سنة ٤٥١، والذي تصدّى لأتيلا على أبواب روما سنة ٥٥٢، وترك مواعظ ومؤلّفات لاهوتيّة قيّمة.

وكان قد برز في خلال هذه الحقبة في الكنيسة اللاتينيّة آباء حاكوا آباء الكنيسة في الشرق من حيث الفكر المسيحيّ الأصيل. فكان من هؤلاء أمبروسيوس (٣٤٠ ـ ٣٩٧) الذي كان حاكمًا لميلانو في صفة "الموعوظين" حين توجّب عليه السهر على حسن النظام إبّان الانتخاب الحرج لأسقف ميلانو الجديد، وعندئذ علا صوت طفل صائحًا: "أمبروسيوس أسقف". وفي خلال أيّام اقتبل "الموعوظ" العماد ثمّ الأسقفيّة. وسرعان ما وزّع أمبروسيوس أملاكه على الفقراء، وطلب إلى المسيحيّين تطبيق العدالة الإجتماعيّة تحت شعار: "الأرض للجميع، لا للأغنياء". وفرض على الأمبراطور ثيودوسيُوس أن يتمّم فرائض التوبة عن قتْلِه سبعة آلاف من سكّان تسالونيكي بسبب ثورتهم على حكمه. وقد قام أمبروسيوس بأداء كلّ مهام الراعي، فكان له مواعظ قيّمة وتعاليم للإعداد للعماد وأطروحة في البتوليّة وسوى ذلك من الأعمال الفكريّة والتوجيهيّة على خطّ المسيحيّة القويم. كما أدخل إنشاد التراتيم إلى كنائس الغرب، وكان في الوقت ذاته مؤلّفًا وملحّنًا.

وهناك هيرونيمُس (٣٤٧ ـ ٣٩٧) المولود في "دلماسيا[١] ـ يوغوسلافيا[٢]" المعاصرة. عاش أوّلاً حياة الطيش، ثمّ نجده في روما طالبًا مستهترًا. إلاّ أنّه، على ما يبدو، قد استهدى طريقه في الشرق حيث قبل الكهنوت بقلب كسير، وحين عاد إلى

---

١ ـ دلماسيا أو دلماطيا DALMATIE : منطقة ساحليّة في يوغوسلافيا شمال شرقي الأدرياتيك، قاعدتها "سبليت".

٢ ـ يوغوسلافيا YOUGOSLAVIE : جمهوريّة فدراليّة في جنوب شرق أوروبا تتكوّن منذ ١٩٩٢ من جمهوريّتَي صربيا والجبل الأسود، أمّا الجمهوريّات الأربع اليوغوسلافيّة الأخرى التي كانت أيضًا من جمهوريّات يوغوسلافيا منذ ١٩١٨ (سلوفانيا وكرواتيا والبوسنة ـ والهرسك ومقدونيا) فقد أعلنت استقلالها ١٩٩١ ـ ١٩٩٢، بلغ عدد سكّانها نحو عشرة ملايين و٥٠٠ ألف نسمة ١٩٩٨، يتألّف شعبها من أربع فئات: صربيّون ٦٣٪، ألبان ١٤٪، مجيار ٤٪، ومنتنغريون ٦٪، وأقلّيات أخرى ١٣٪، يعتنق ٦٥٪ من السكّان المذهب الأرثذوكسيّ، و٤٪ الكاثوليكيّة، و١٪ البروتستانتيّة، و١٩٪ الإسلام.

روما (٣٨٢ ـ ٣٨٥) وضع نفسه في خدمة البابا دماسيوس[١]، وراح يقوم بإرشاد مجموعات من السيّدات المتعبّدات، إلى أن انتهى به المطاف في بيت لحم حيث أسّس، بمعاونة رفيقاته في الخدمة، عدّة أديار للرجال والنساء[٢]. ولأنّه كان متقلّب المزاج ذا طبع حاد، عاداه الكثيرون بسبب عنف أسلوبه واتّهاماته الظالمة أحيانًا. وقد كرّس جلّ نشاطه للكتاب المقدّس. وكان البابا دماسيوس قد كلّفه بمراجعة النصّ اللاتيني. فشرع في ترجمة لاتينيّة جديدة للعهد القديم انطلاقًا من النصّ الأصليّ العبريّ والآراميّ. وقد أُطلق على مجمل هذا النصّ اللاتينيّ المراجع أو المترجم لفظ "الفولغانيّة" أي الترجمة "الشائعة". وهو النصّ الرسميّ والمرجع المعتمد في الكنيسة الكاثوليكيّة. ولهيرونيمُس تفاسير كتابيّة وكتابات جدليّة ورسائل ذات نفع عظيم.

على أنّ أعظم الآباء تأثيرًا في الفكر الدينيّ الغربيّ، كان أوغسطينُس (٣٥٤ ـ ٤٦٠) وهو من مواليد "تاغست" ـ نوميديا من أعمال "سوق أهراس" بالجزائر. وكانت أمّه، مونيكا، سيّدة ورعة. صار طالبًا ثمّ أستاذًا بقرطاجة. سافر بعد ذلك إلى روما وميلانو. وبقي لزمن طويل يبحث عن الحقيقة من خلال الفلسفات والبدعة المانويّة، وقد بدا له ارتباطه بسيّدة، أنجبت له ابنًا هو "أديودات"، عقبة في طريقه. لكنّه اهتدى إلى النور أخيرًا بتأثير أمبروسيوس الذي منحه سرّ العماد المقدّس سنة ٣٨٧، ثمّ سلك طريق الحياة الرهبانيّة بالقرب من "هيّبونا" أو "بون ـ عنّابة[٣]". حيث انتخبه المسيحيّون من أهلها كاهنًا لهم ثمّ أسقفًا سنة ٣٩٥. وطوال مدّة أسقفيّته المديدة أضطرّ

---

١ ـ دماسيوس أو داماسُس الأول (٣٦٦ ـ ٣٨٤) قابله في بداية ولايته البابا المعارض أورسينُس (٣٦٦ ـ ٣٦٧).

٢ ـ راجع بطريركيّة القدس اللاتينية، الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ هي عنّابة أو بونة: مدينة في شمال شرق الجزائر، ميناء على البحر المتوسّط كانت مستعمرة لقرطاجة وعاصمة لملوك نوميديا، ازدهرت في العصر الرومانيّ تحت إسم "هيبو ـ رجيوس" أو "هيبونا"، كانت مقرّ أسقفيّة القدّيس أوغسطينُس.

أوغسطينُس، أوّلاً، إلى مواجهة المهام المتعدّدة لخدمته الأسقفيّة، فالتزم أن يعظ ويسافر، عبر أفريقيا الشماليّة، ليلتقي بزملائه ويشارك في المجامع المحليّة، ويقضي الساعات الطوال في مجلس المجمع القانونيّ. وفوق كلّ ذلك، برزت المنازعات مع "الدوناطيّين"[1] الذين شكّلوا كنيسة منافسة، كما كانت المشادّة حول النعمة مع الراهب "بيلاجيُس"[2]. وفي النهاية، تكدّرت سنواته الأخيرة بغزو "الفندال"[3] فمات أوغسطينُس ومدينته "هيّبونا" تحت الحصار.

كانت أعمال القدّيس أوغسطينُس الأوفر حظًّا بين أعمال جميع آباء الكنيسة. إذ هي أكثر ما حوفظ عليه من بين تلك الأعمال. فبالإضافة لما حُفظ من إنتاجه الفكريّ في مجال التربية الرعاويّة والعظات، هناك تفسيراته المتمكّنة للكتاب المقدّس وأطروحاته الفلسفيّة واللاهوتيّة، الهادف بعضها إلى تقويم الأخطاء. وبين مؤلّفاته الأكثر شهرة: "الإعترافات" وهي صلاة شكر طويلة على اهتدائه؛ و"مدينة الله" وهي خواطر في التاريخ تهدف إلى طمأنة المسيحيّين المضطربين بعد سقوط روما في يد "ألاريك" زعيم الغوط سنة ٤١٠؛ والمقالة على "الثالوث". ويكفي للدلالة على مكانته أنّ

١ ـ **الدوناطيّون**: نسبة إلى دوناطُس أسقف قرطاجة ٣١٥، أنشأ بدعة عُرفت بتصلّبها مع الخطأة، أحدثت شقاقًا وفتنًا كثيرة في أفريقيا.

٢ ـ **بيلاجيُس** PÉLAGE (نحو ٣٦٠ ـ ٤٣٠): راهب بريطانيّ أنشأ بدعة عُرفت باسمه، قالت إنّ الإنسان لا يحتاج إلى نعمة الله في سبيل الخلاص.

٣ ـ **الفندال أو الوندال**: أقوام جرمانيّة قديمة مسيحيّون اريوسيّون، غزوا "غالية" ٤٠٦ إذ رفض الفرنجة السماح لهم بالاستيطان، ثمّ انتقلوا إلى إسبانيا حيث عقدوا صلحًا مع الأمبراطور هونوريوس، انتهزوا اضطراب الأحوال في أفريقيا فعبروا القارة وهزموا القائد الرومانيّ بونيفاس واستولوا على قرطاجة وسيطروا على معظم ولاية أفريقيا ووجّهوا حملات النهب إلى صقلّية وجنوب إيطاليا، وفي تاريخ لاحق استولوا على بقيّة الولايات الأفريقيّة، أنهى وجودهم كلّمة جيش يوستينيان الأوّل بقيادة بليساريوس ٥٣٣ في قرطاجة.

جميع اللاهوتيّين المتأخّرين، بمَن فيهم أهل الإصلاح، سوف يستشهدون به ويرتكزون على فكره اللاهوتيّ.

وهنالك عشرات الآباء اللاتين الآخرين الذين، وإن كانت أعمالهم الكتابيّة محدودة، فإنّ بعضها، مثل "مساعدات الذاكرة" لـ"منصور الليريني" قد حقّق شهرة واسعة. أضف إليهم البابا لاوُن الكبير الذي عاصر مجمع خلقيدونية؛ والبابا غريغوريُس (٥٩٠ ـ ٦٠٤) الذي يُعدّ الرابع بين الآباء اللاتين الكبار، وقد لقّب هو أيضًا بالكبير، وكان عهده فاتحة للعصر الوسيط، لكنّ كتاباته تكتفي غالبًا بمراجعة أفكار سابقيه، خاصّة القديس أوغسطينُس.

على الصعيد الديموغرافيّ والسياسيّ، فقد استولى الغوط[١] الغربيّون بقيادة "ألاريك" سنة ٤١٠ على روما ونهبوها، وَأقاموا في جنوب غاليا وفي إسبانيا. ثمّ جاء أقوام أسيويّون عُرفوا بالهياطلة أو الهون HUNS من سيبيريا أو من أواسط منغوليا، فاجتازوا "الفولغا[٢]" و"الطونة[٣]" دافعين أمامهم شعوبًا بربريّة أخرى، وبلغوا شواطئ "الدانوب[٤]" حوالى سنة ٤٠٥، ثمّ هاجموا الأمبراطوريّة الرومانيّة ونهبوها بقيادة "أتيلا[٥]"،

١ ـ **الغوط أو القُوط**: شعب رئيسيّ من الشعوب الجرمانيّة القديمة، المقول إنّهم يتحدّرون من الغوتار في جنوب السويد، وما إن وافى القرن الثالث حتّى كانوا استقرّوا في شمال البحر الأسود، وانقسموا في القرن الرابع إلى قسمين: الغوط الشرقيّون والغوط الغربيّون.

٢ ـ **فولغا** VOLGA: نهر في روسيا طوله ٣،٦٩٤ كلم وهو أطول نهر في أوروبّا، ينبع في أسيا الوسطى من جبال ألتابي ويمرّ في ما يُعرف بوادي الفولغا حيث تقوم فولغوغراد (ستالينغراد) وأسترخان، ويصبّ في بحر قزوين.

٣ ـ **الطونة**: هو إسم لنهر الدانوب.

٤ ـ **الدانوب** أو **الطونة** DANUBE, DONAU : نهر في أوروبّا طوله ٢،٨٦٠ كلم ينبع في الغابة السوداء في غرب ألمانيا ويخترق ألمانيا والنمسا ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا ليصبّ في البحر الأسود.

٥ ـ **أتيلا** ATTILA: ملك الهون ٤٣٢ ٤٥٣، انفرد بالحكم ٤٣٤، بعد غزوه للأمبراطوريّة البيزنطيّة هاجم غاليا فكسره أيتيوس في الحقول الكاتالونيّة ٤٥١، اجتاح مدن إيطاليا دون أن يمسّ روما ٤٥٢، انقرضت أمبراطوريّته بعد وفاته.

لكنّ الاتّحاد المقدّس الذي عُقد بين البرابرة[1] الجرمانيّين والجيوش الرومانيّة الأخيرة أوقف أتيلا بالقرب من ترَوا TROYES سنة ٤٥١، في حين نجح البابا لاون الكبير في التفاوض مع البرابرة حتّى غادروا روما سنة ٤٥٢، فاستقرّ بعضهم في الأمبراطوريّة الرومانيّة واندمج بالشعوب الأخرى. وبينما كان الهون يجتاحون الأصقاع، فرّت من أمامهم قبائل جرمانيّة مجتازة نهرَي الدانوب والرَين[2]، وتدفّقت على الأمبراطوريّة الرومانيّة. وفتح الوندال * بلاد أفريقيا الشماليّة كما ذكرنا في سيرة أوغسطينُس الذي توفّي سنة ٤٣٠ في مدينة أسقفيّته "هيبّونا*" المحاصرة. وسقطت قرطاجة سنة ٤٣٩. ونُهبت روما مرّة أخرى على يد الوندالي جنسريك[3] سنة ٤٥٥. وأخيرًا، قام أحد البرابرة بخلع آخر الأباطرة الرومانيّين سنة ٤٧٦. وبذلك سقطت الأمبراطوريّة الرومانيّة ولم يبق للعالم الغربيّ القديم، وهو العالم الرومانيّ المسيحيّ، وجود يُذكر، وكانت بداية عصر جديد إذ استمرّت الأمبراطوريّة في الشرق، لكنّ الغرب اللاتينيّ كان قد تفتّت إلى بضع ممالك بربريّة، منها الغوط الشرقيّون OSTROGOTHS الذين أذعنوا للهون، والغوط الغربيّون الذين تحرّكوا بضغط من شعب الهون إلى الغرب كما ذكرنا أعلاه، والبُرغوند[4] والوندال* والألمان ALMANES ... واعتقد كثيرون من

---

١ ـ **البرابرة** BARBARES: إسم أطلقه في الأصل اليونان ثمّ الرومان على الأجانب من الأمم، ثمّ أُطلق خاصّة على الشعوب الجرمانيّة والمغوليّة التي ابتدأت تجتاح الأمبراطوريّة الرومانيّة منذ القرن الرابع حتّى سقوطها سنة ٤٧٦.

٢ ـ **الرَين** RHIN: نهر في أوروبا الغربيّة طوله ١،٣٢٠ كلم، ينبع في جبال الألب ويخترق سويسرا وفرنسا وألمانيا الغربيّة وهولندا ليصبّ في بحر الشمال.

٣ ـ **جنسريك** GENSÉRIC (٤٢٨ ـ ٤٧٧): ملك الفندال أو الوندال، فتح أفريقيا وأسّس فيها مملكة واسعة.

٤ ـ **البُرغوند** BURGONDES : أقوام جرمانيّون، اعتنقوا المسيحيّة ولم يلبثوا أن أسّسوا مملكة برغونديا الأولى التي شملت جنوب شرق فرنسا، وامتدّت جنوبا حتّى أرل وغرب سويسرا، ثمّ فتحها الفرنجة ٥٣٤ واقتُسمت لأكثر من مرّة في العهد الميروفنجي، وبعد تقسيمات الأمبراطوريّة الكارولنجيّة أُسست مملكتان بُرغونديّتان: الجوريّة أو بروفنس في الجنوب ٨٧٩، وما وراء الجوار في الشمال ٨٨٨، اتّحدتا ٩٣٢ وكوّنتا مملكة بورغونديا الثانية.

المسيحيّين أنّ العالم قد أوشك على نهايته، ظنًّا منهم أنّ الكنيسة لن تستطيع أن تستمرّ بعد سقوط الأمبراطوريّة. فلقد أحدث الاستيلاء على روما عند *المؤمنين* صدمة عميقة. *ورأى فيه الوثنيّون عقابًا أنزلته الآلهة* بسبب التخلّي عن الديانة القديمة. وتساءل المسيحيّون لماذا لم يقم الرسل والشهداء الذين كان رفاتهم في روما بحماية المدينة. فقال بعضهم: أراد اللّه أن يعاقب المسيحيّين على خطاياهم. ولكن لماذا هلك بعض الأبرياء؟ وقد حاول أغوسطينُس، في هيّبونا، أن يأتي بتفسير لتلك الأحداث في كتابه "مدينة الله". وعلى العموم، فقد أدّى سقوط روما بين أيدي الوثنيّين إلى قلق حادّ في نفوس المعاصرين فساورهم الشكّ والخوف. وفي هذا الوضع المأساويّ، ظلّت الكنيسة المؤسّسة المنظّمة الوحيدة[1]، فالتفّ حول البابا الشعب المسيحيّ كلّه، إذ ظهر للناس الزعيمَ الأوحد والمدافع الأكبر عن القيم الحضاريّة والدينيّة القديمة، هذا علاوة على سلطته العليا التي كانت الشعوب المسيحيّة تعترف بها منذ القدم[2]. وقام أساقفة كثيرون بإدارة الأمور، حين عجزت عن ذلك السلطات في الأمبراطوريّة. فاستقبل أغوسطينُس اللاجئين في هيّبونا الأفريقيّة، وطلب إلى الكهنة والأساقفة أن يصمدوا مع شعبهم. وكان المدعو "ما شاء الله QUODVULTDEUS" محرّك المقاومة في قرطاجة. ودافع "إكسوبيرُس[3]" عن مدينة تولوز. وقام غيرهما بتموين مدينة "ليون[4]" والمدن المجاورة. وشدّدت "جنفياف GENEVIÈVE" وهي راهبة قدّيسة، عزائم سكّان باريس[5].

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٥٣.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٠٦.

٣ ـ إكسوبيرُس EXUPÈRE : أسقف تولوز حوالى ٤١١، قدّيس، عيده في ٢٨ أيلول (سبتمبر).

٤ ـ ليون LYON : مدينة في جنوب شرقيّ فرنسا على ملتقى نهرَي الرون والسون، مركز ثقافيّ وصناعيّ وتجاريّ عالميّ.

٥ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

كانت المسيحيّة قد دخلت بين قبائل القوط الجرمانيّين المتمركزين شمالي نهر الدانوب بواسطة الأسرى الذين سبوهم من الكَبادوك[1]، إبّان غزوتهم لآسية الصغرى في منتصف القرن الثالث. وفي القرن الرابع، عُهد إلى "أولفيلا"، وهو من سلالة أسرى الكبادوك، القيام بمهمّة في أنطاكية حيث كان الأمبراطور يقيم آنذاك، وكان أولفيلا ضليعًا باليونانيّة واللاتينيّة والقوطيّة، فوصل إلى أنطاكية سنة ٣٤١، وكان فيها إنذاك مجمع آريوسيّ، فتمسّك به أعضاء المجمع، ومنحه أوسابيوس أسقف نيقوميدية الدرجة الأسقفيّة وأشبعه من آرائه الآريوسيّة. فلمّا عاد إلى بلاده وضع حروفًا باللغة الجرمانيّة القوطيّة، وترجم إليها معظم فصول الكتاب المقدّس، وأقام الطقوس الدينيّة باللغة الجرمانيّة، وأدخل الآريوسيّة بين بني قومه. وبقي القوط متمسّكين بهذه البدعة بعدما تلاشت في المملكة الرومانيّة. ولمّا اجتاحت القبائل الجرمانيّة المملكة الرومانيّة الغربيّة وأقامت بها في القرن الخامس، كان بعضها لا يزال وثنيًا، والقسم الأكبر كان آريوسيًّا. وإذ تضعضعت النظم الإجتماعيّة في الغرب حيث اندثرت معالم الحضارة الرومانيّة على أثر اجتياح البرابرة، صمدت الكنيسة أمام هذا السيل الجارف، وتمكّنت من اكتساب الشعوب الجديدة وتحضيرها تدريجًا. فنشأت في الغرب حضارة مسيحيّة جديدة[2]. ويقول باحث كنسيّ في ذلك إنّه كان لا بدّ من الاتفاق مع أولئك الغزاة البرابرة، فضلاً عن أنّ بعضهم كان معجبًا إلى حدّ بعيد بالعالم الرومانيّ، وقد استخدم المحتلّون في دوائرهم بعض الموظّفين السابقين. وكتب "أوروز OROSE" أنّ تلك

---

١ ـ **الكبادوك**: نسبة إلى كبادوكيا، أو كبدوقيا، وهو إسم أُطلق قديمًا على البلاد الواقعة غربيّ تركيا الأسيويّة (الأناضول) وكانت عاصمتها قيصريّة، وعند منتصف القرن الثالث ق.م. قامت فيها مملكة كبادوكيا المستقلّة، احتفظ ملوكها بعرشهم في القرنين الثاني والأوّل ق.م. بفضل محالفتهم روما، وفي القرن الأوّل ميلادي ضُمّت كبادوكيا إلى الأمبراطوريّة الرومانيّة وأصبحت ولاية زاهرة قبل غزوها من قبل القوط، يؤلّف اليوم إقليم كبادوكيا جزءًا من تركيا.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٢٧.

الاجتياحات بشّرت بمرحلة جديدة في حياة الكنيسة. وكان الجرمانيّون الذين اعتنقوا المسيحيّة الآريوسيّة يُبدون، بوجه عام، تساهلاً مع الكاثوليك. ومع ذلك قام "الوندال" الآريوسيّون بشنّ اضطهاد عنيف على الكاثوليك في شمال أفريقيا[1]. أمّا الفرنجة[2] فقد استمرّوا في الوثنيّة. لكنّ كلوفيس ملكهم، اعتقد بأنّ انتصاره على الألمان، شأن قسطنطين في الماضي، قد تمّ بفضل إله زوجته "كلوتيلدا" التي كانت كاثوليكيّة. فكان لاهتداء كلوفيس إلى الكنيسة الكاثوليكيّة نتائج عظمى. ونال الفرنجة الحظوة عند الغاليّين[3] الرومانيّين السابقين. وإذ تغلّب كلوفيس على سائر الجرمانيّين الآريوسيّين، أخذ الكاثوليك، بعد أن أصبح أحدهم ملكًا، يخفّفون من اعتمادهم على القسطنطينيّة، إذ إنّ كلوفيس صار قسطنطين جديدًا[4]. وكان كلوفيس قد تمكّن من السيطرة التامّة على فرنسا كلّها، وبعدما اعتنق الديانة المسيحيّة الكاثوليكيّة سنة ٤٩٦، ساعد الأساقفة على استيعاب الكنيسة للفرنجة كلّهم في غضون القرنَين السادس والسابع، واختلط الفرنجة بالسكّان القدماء وانصهروا في شعب واحد. وكانت فرنسا أوّل الدول البربريّة التي دخلت في حظيرة الكنيسة الكاثوليكيّة، ولم تتضعضع فيها النظم الكنسيّة القديمة، وأقام

---

١ ـ بعد أن اضطهد هؤلاء الكنيسة الكاثوليكيّة هناك اضطهادًا عنيفًا طوال قرن كامل، تمكّن الأمبراطور البيزنطيّ يوستينيانُس من فتح أفريقيا الشماليّة (٥٣٣ ـ ٥٣٤) فأعاد للكاثوليك حريّتهم وممتلكاتهم، وظلّت المنطقة في حوزة البيزنطيّين مدّة قرن ونصف القرن استعادت في خلالها شيئًا من مجدها المسيحيّ العريق، على أنّها لم تؤلّف وحدة قوميّة متراصّة، فاستولى عليها العرب نهاية القرن السابع.

٢ ـ **الفرنجة** أو **الإفرنج** FRANCS: قبائل جرمانيّة استوطنت فرنسا في القرن الخامس وأسّست فيها الممالك الأولى وأعطتها إسمها، ثمّ أُطلق اللقب نفسه على الأوروبيّين إجمالاً بعد الحروب الصليبيّة.

٣ ـ **الغاليّين** GAULOIS: نسبة إلى غاليا GAULE، وهو إسم أُطلق قديمًا على البلاد الشاملة فرنسا وبلجيكا وإيطاليا الشماليّة، فتحها القائد الرومانيّ يوليوس قيصر بين ٥٨ و٥٠ ق.م.

٤ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٥٥.

البابا رئيس أساقفة آرل نائبًا على فرنسا كلّها. أمّا في إسبانيا، فإنّ الغوط الغربيّين الذين يدينون بالآريوسيّة، قد اضطهدوا الكنيسة الكاثوليكيّة الأصيلة أوّلاً وإن لم يبلغوا في اضطهادهم شراسة الوندال في أفريقية الشماليّة. ولم تستعد الكنيسة الكاثوليكيّة مكانتها السابقة في إسبانيا قبل اعتناق ملك الغوط "ريكاردو" الدين الكاثوليكيّ سنة ٥٨٩، فأعاد للكاثوليك كنائسهم المغتصبة وحريّتهم المفقودة. فعرفت الكنيسة الغوطيّة ازدهارًا رائعًا في ذلك العهد. وأصبحت "طليطلة[١]" المقرّ الأوّل للكنيسة الإسبانيّة وأقيم فيها مجامع عدّة إلى أن دخلها العرب واستولوا عليها أوائل القرن الثامن[٢].

أمّا الجزر البريطانيّة، فلم يحتلّ الرومان منها إلاّ مقاطعة إنكلترا الحاليّة وحدها. وكانت المسيحيّة قد دخلت إليها في القرن الثالث، ونظّمت فيها الكنيسة واتّسعت في غضون القرن الرابع. واجتاحت إقليم بريطانيا الرومانيّ في القرن الخامس قبائل جرمانيّة إنكليّة وسكسونيّة[٣] كانت وثنيّة، فقضت فيها على معالم الحضارة المسيحيّة، ولجأ السكّان القدامى إلى أطراف الجزيرة الغربيّة، وعبَر غيرهم بحر المانش[٤] وسكنوا في فرنسا حيث دعيت المقاطعة التي نزلوا فيها باسم "بريطانيا[٥]". ولم يهتمّ البريطانيّون المسيحيّون الأقدمون بتبشير الأنكلوساكسونيّين[٥] بالدين المسيحيّ، لأنّهم أظهروا

١ ـ **طليطلة** TOLEDO: مدينة في وسط إسبانيا قرب مدريد، فتحها طارق بن زياد ٧١٤، استردها ألفونس ملك قشتالة ١٠٨٥.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٢٧ ـ ١٢٨.

٣ ـ **إنكليّة وسكسونيّة أو أنكلوساكسون** ANGLO - SAXON: إسم أطلق على الشعوب الجرمانيّة التي احتلّت بريطانيا في القرن السادس، وكانت تلك الشعوب مشهورة بقوّتها البحريّة.

٤ ـ **مانش** MANCHE: بحر في أوروبا بين فرنسا وإنكلترا يصل بين بحر الشمال والأطلسيّ، عرضه في أضيق نقطة ٣١ كلم.

٥ ـ **بريطانيا أو بريتانيا** BRETAGNE: مقاطعة في شمال غرب فرنسا، تشكّل طبيعيًّا قسمًا من كتلة الأرموريك، أهم مدنها: رين، بريست، نانت.

للبرابرة كراهية عميقة وانفصلوا عنهم في مقاطعات السكن. فاهتمّ بأمرهم البابا غريغوريُس الكبير (٥٩٠ ـ ٦٠٤) وأرسل إليهم بعثة تبشيريّة برئاسة الراهب أوغسطينُس[١] سنة ٥٩٧. وكان ملكهم "أولير" قد تزوّج "برتَة" وهي أميرة فرنسيّة كاثوليكيّة، فسمح لأوغسطينُس بتبشير الشعب. ثمّ ما عتّم أن اعتنق الملك نفسه المسيحيّة، وتبعه في ذلك معظم أفراد شعبه. وأصبح أوغسطينُس سنة ٥٩٨ أوّل أسقف لـ"كَنتربري[٢]"،ورئيسًا أعلى لكنائس الإنكليز. وسوف تزدهر كنيسة إنكلترا ازدهارًا رائعًا برئاسة القدّيس ثاودوسيوس الطرسوسيّ الذي سيصبح رئيس أساقفة كَنتربري (٦٦٩ ـ ٦٩٠) وسينظّم الكنيسة الإنكليزيّة ويرفع مستوى العلوم ليتخرّج منها في القرنَين السابع والثامن مبشّرون وعلماء[٣]. وكانت إيرلندة واسكوتلندة قد بقيتا خارج العالم الرومانيّ، ولم تجتحهما قبائل البرابرة. وقد دخلت المسيحيّة إيرلندة في القرن الخامس، ورسولها الأعظم القدّيس "باتريك[٤]"، فعرفت الحياة الرهبانيّة فيها أثناء القرن السادس ازدهارًا عظيمًا، ولعبت إيرلندة دورًا هامًّا في تبشير الشعوب الأوروبيّة الوثنيّة. وكانت اسكوتلندة أولى البلاد التي قبلت المسيحيّة في القرن السادس بفضل إيرلندة. ولا يزال الإيرلنديّون متمسكين حتّى اليوم بمعتقدهم الكاثوليكي بقوّة[٥].

---

١ ـ **أوغسطينُس الكنتربري** AUGUSTIN DE CANTERBURY (ت نحو ٦٠٤): راهب إيطاليّ، جاء مع أربعين رفيقًا لتبشير الإنكليز.

٢ ـ **كنتربري** CANTERBURY : مدينة في إنكلترا جنوب شرق لندن، مركز رئيس أساقفة الكاثوليك ومن بعدهم الأنكليكان، شهيرة بكاتدرائيّتها العائدة إلى القرن الثاني عشر.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٩٢.

٤ ـ **القدّيس باتريك** PATRIICE OU PATRICK (٣٧٧ ـ ٤٦٠): وُلد في دامبرتون، أسّس أولى الرهبانيّات النظاميّة في الغرب ووضع لها القوانين، عيده في ١٧ آذار (مارس).

٥ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

يتّضح من كلّ ما سبق أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة قد ربحت المعركة منذ أواخر القـرن السادس في جميع أنحاء العالم الرومانيّ الغربـيّ. وبذلـك أنشـأت مدنيّـة جديـدة عُرفـت بمدنيّة القرون الوسطى.

كنيســـة رومَــــا
في القرُون الوسطى

في خـلال مخـاض ولادة المدنيّـة الجديـدة التـي عُرفـت بمدنيّـة القـرون الوسـطى، أظهرت الحقبة التـي تلـت اجتيـاح الـبرابرة لأوروبّـا أنّ انهيـارًا عامًّـا قـد أصـاب العـالم المسـيحيّ الغربـيّ. فضعفت إذذاك التجـارة بيـن المـدن ولـم يبـق ألاّ نشـاط فـي القـرى التـي كـانت تخضـع لسـيطرة كبـار الملاّكيـن. كمـا تدهـورت الأخـلاق العامّـة، فاتّسمت بـالعنف والخشـونة وانحـطّ الفكـر والفـنّ واختلطـت الديانـة ببقايـا وثنيّـة وبالخرافات. وقد كثر عدد الرعايا بين الجماعات القرويّـة فـي المقاطعـات الكبرى، ما أوجد مزيجًا وجدانيًا نشأ عن تمازج أهل المدن مع الفلاّحين وبساطة العيش بين الحقول وشعريّة الانتماء إلى الأرض، مصدر النماء. فكـان الإيمـان تعبيرًا عن أصالة القرويّ في تكريم القدّيسين وذخائرهم والإيمان القويّ بالمعجزات. كلّ هذا أوجد إيمانًا شعبيًّا لم يكن سائدًا بشكل واسـع مـن قبـل. وكـان الرهبـان يحـافظون علـى الحيويّة المسيحيّة أكثر بكثير من الكهنة والأساقفة الذيـن كـانوا فـي حاجـة إلـى تحسين سلوكهم. فكثيرًا ما كان الرهبان يحتلّون المكانة الأولى في مواصلة الكرازة، على مثال الرهبان الإيرلنديّين الذين كـانوا، فـي تنقّلاتهم، يذكّرون المؤمنين بمـا يقتضيـه الديـن المسيحيّ من فضائل. وهم الذين عمّموا صيغة جديدة للتوبـة، وهـي "الإعـتراف الشـخصيّ". كمـا كـان هنـاك رهبـان آخرون يعلنون البشـارة، كـالذين يتّبعون قوانيـن

القدّيس مبارك[1]، ومنهم أوغسطينُس* أسقف كنتربوري، ويفسّرون الكتاب المقدّس ويحافظون على التقليد اللاتينيّ أمثال "بيدس الموقّر[2]" وفي خلال تفكّك الممالك الميروفنجيّة[3] استطاعت إحدى أسر المحاربين، شيئًا فشيئًا، أن تحتلّ مركز الصدارة، وهي أسرة قهارمة قصر أوسترازيا[4] وكان أحدهم: شارل مارتيل، يتدخّل تدخّل الأسياد في شؤون الكنيسة، فيعيّن الأساقفة ورؤساء الأديرة ويتصرّف على هواه في أملاك الكنيسة، وهو الذي أوقف زحف العرب سنة ٧٣٢ في بواتييه[5]، ثمّ سنة ٧٣٧ في أفينيون[6]. وكان "بيبان القصير[7]" يتولّى الشؤون الهامّة في السلطة، فطلب إلى البابا زكريّا (٧٤١ ـ ٧٥٢) أن يقرّ بشرعيّة تلك الأوضاع. وفي الرسائل المتبادلة بين الكرسيّ الرسوليّ وبيبان، استشارة طلبها بيبان من البابا، فأجابه الأخير: "من الأفضل

١ ـ **مبارك أو بنديكتُس** BENOÎT (حوالى ٤٨٠ ـ ٥٤٧): راهب إيطاليّ، أحد منظّمي الحياة النسكيّة في الغرب ومؤسّس رهبانيّة البنديكتيين في جبل كاسينو ٥٢٩، وضع دستورًا للحياة الرهبانيّة لا يزال متّبعًا في الكثير من الرهبانيّات الغربيّة.

٢ ـ **بيدس الموقّر** BÈDE LE VÉNÉRABLE (٦٧٢ ـ ٧٣٥): راهب ومؤرّخ إنكليزي، قدّيس، عيده في ٢٧ أيّار (مايو).

٣ ـ **الميروفنجيّة**: نسبة إلى **الميروفنيين** MÉROVINGIENS وهم المعروفون بـ"**الملوك المتنابل**" FAINÉANTS: السلالة الأولى من ملوك الفرنجة، أسّسها "ميروفة MÉROVA (٤٤٨ ـ ٤٥٨).

٤ ـ **أوسترازيا أو أوستراسيا** AUSTRASIE: الجزء الشرقيّ من مملكة الفرنجة الميروفنجيّة في القرون ٦، ٧، ٨، كانت تشمل ألمانيا من شرق فرنسا وغرب ألمانيا والأراضي المنخفضة وكانت عاصمتها ميتز METZ، نشأت إثر تقسيم مملكة كلوفيس الأوّل بين أبنائه ٥١١.

٥ ـ **بواتييه** POITIERS: مدينة فرنسيّة جرت فيها تشرين الأوّل ٧٣٢ المعركة التي أطلق عليها المؤرّخون العرب إسم "بلاط الشهداء" حيث اصطدمت الجيوش العربيّة بقيادة عبد الرحمن الغافقي بالجيوش الفرنسيّة بقيادة شارل مارتل فاستقرّت المعركة عن فوز هذا الأخير.

٦ ـ **أفينيون** AVIGNON: مدينة في فرنسا على نهر الرون، انتقل إليها البابوات ١٣٠٩ ـ ١٣٧٧، من آثارها القصر البابوي.

٧ ـ **بيبان القصير** PÉPIN LE BREF (٧١٥ ـ ٧٦٨): إبن شارل مارتيل وخليفته ووالد شارلمان، لُقّب بـ"مختار الله"، و"داود الجديد"، دوق بورغونيا والبروفانس ثمّ أوسترازيا، ملك الفرنجة ٧٥١، أرغم الميارديين على التنازل عن "رافنا" للبابا.

أن يسمّي ملكا من يمارس السلطة...". وفي سنة ٧٥١ تُوّج بيبان ملكًا عن يد الراهب الأسقف بونيفاقيوس BONIFACE رسول الجرمانيّين. وحين تعرّض البابا[1] في روما لتهديدات اللومبرديّين الذين هدّدوا روما نفسها ولم يعد في إمكانه أن يعتمد على مساعدة أمبراطور القسطنطينيّة، سافر إلى فرنسا فمسح بيبان ملكًا كما مسح أبناءه، ومنهم شارلمان[2] وسأله أن يدافع عن "القدّيس بطرس". وفي سنة ٧٥٦، قام الملك الجديد، بيبان: "مختار الله"، و"داود الجديد"، فأقبل بجيوشه إلى إيطاليا وحارب اللومبرديّين وكسرهم وأرغمهم على فكّ الحصار عن روما واسترجع منهم الأراضي التي احتلّوها، وأعاد البابا إلى منصبه في روما وولاّه على الأراضي التي استرجعها من اللومبرديّين. وإذ أقبل وفد من القسطنطينيّة يطلب إلى بيبان أن يردّ للبيزنطيّين أراضيهم، أجاب بيبان أعضاء الوفد بأنّه "لم يقاتل لحساب دولة بشريّة بلّ حبًّا بالقدّيس بطرس وكفّارة عن خطاياه[3]". وإذ سلّم الأراضي إلى البابا، نشأت بذلك "الممتلكات البابويّة[4]"، وهكذا نشأت "الدول البابويّة"، فلقد أصبح البابا ملكًا، ولكنّه وقع في فلك ملك الإفرنج، إذ أصبح بحمايته، وجعل نفسه في وضع حرج تجاه أمبراطور القسطنطينيّة[5].

---

١ ـ فيما ذكر كمبي في تاريخ الكنيسة (مرجع سابق، ص ١٦٠) أنّ ذلك البابا كان زكريا، ذكر يتيم وديك، (مرجع سابق، ص١٨٩) أنّ ذلك البابا كان استفانوس الثاني (٧٥٢ ـ ٧٥٧) ويرأينا أنّ الرأي الثاني هو الأصحّ، لأنّ حملة بيبان على اللومبرديّين كانت في سنة ٧٥٦ أي في عهد استفانُس.

٢ ـ شارلمان CHARLEMAGNE (٧٤٢ ـ ٨١٤): ملك الفرنجة ٧٦٨ وأمبراطور الغرب ٨٠٠ ـ ٨١٤، مؤسّس السلالة الكارولنجيّة أو الكارولانجيّة، جعل "إكس لا شابيل" في "آخن" عاصمة له، حاول الاستيلاء على إسبانيا ففشل في سرقسطة ٧٧٨.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٨٩.

٤ ـ دامت تلك الممتلكات بابويّة حتّى سنة ١٨٧٠ وفيها اندمجت بالوحدة الإيطاليّة.

٥ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٦٠ ـ ١٦١.

واصل شارلمان سياسة أبيه بيبان. فعزّز وحدة أوروبّا الغربيّة وصدّ هجومات العرب في شمال إسبانيا ووسّع مملكته شرقًا، داعيًا السكسون إلى الدخول في المسيحيّة[1]. وإذ اضطرّ البابا أدريانُس (٧٧٢ ـ ٧٩٥) إلى أن يطلب مساعدة شارلمان ضدّ ملك اللومبَرديّين الذي كان يطمع، مرّة أخرى، في احتلال روما، حارب شارلمان ملك اللومبَرد ثلاث مرّات في إيطاليا وقضى على استقلالهم وحمل لقب "ملك الإفرنج واللومبَرديّين"، وجدّد هبات والده لروما ووسّع تخومها. وفيما ذكر باحثون كنسيّون أنّ شارلمان قد فرض آراءه على الكرسيّ البابويّ، وتحديدًا على البابا أدريانُس الذي توّجه أمبراطورًا[2]، يؤكّد آخرون على أنّ أدريانُس لم يسمح لشارلمان بأن يتدخّل في شؤون كنيسة روما الداخليّة، فقد وافق البابا أدريانُس على مقرّرات مجمع نيقية (٧٨٧) الذي يسمح بتكريم الأيقونات المقدّسة رغم معارضة شارلمان. كما أنّ لاون الثالث (٧٩٥ ـ ٨١٦) الذي وضع في عيد الميلاد سنة ٨٠٠ على رأس شارلمان تاج الأمبراطور على الغرب، لم يرضَ أن يزيد على صيغة قانون الإيمان لفظة "والإبن" رغم طلب شارلمان وإلحاحه في زيادتها[3].

كانت الأمبراطوريّة الجديدة، المتّسمة إلى حدّ بعيد بالطابع الجرمانيّ، تبغي أن تكون وريثة الأمبراطوريّة الرومانيّة. ويرى باحثون كنسيّون أنّ هذا الإجراء، كان بمثابة التشبّه بالمثال الأعلى، لكي تستمرّ الوحدة ويتحقّق السلام في الأمور السياسيّة والأمور الكنسيّة في آن واحد[4]. وبذلك أصبح قطبا المجتمع الغربيّ: البابا

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٦٢.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٦٢.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٨٩.

٤ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٦٢.

والأمبراطور. لكنّ بلاط القسطنطينيّة، الذي لا يقبل أن يُطلق لقب الأمبراطور خارج العاصمة البيزنطيّة، اعتبر الأمبراطور الجديد مغتصبًا، ما أضاف عنصرًا جديدًا إلى المسائل المتنازع عليها بين الشرق اليونانيّ والغرب اللاتينيّ[1]. فقد ظهر للبيزنطيّين أنّ البابا قد أضحى أجنبيًا عن الشرق، خاضعًا لنفوذ ملوك الفرنجة مع ما أبداه بعض البابوات من القوّة والتمسّك بسلطتهم، مثل نقولا الأوّل (٨٥٨ ـ ٨٦٧) وأدريانس الثاني (٨٦٧ ـ ٨٧٢)[2].

في هذا الوقت، كان الملوك الكارولنجيّون[3] يعتبرون من واجبات منصبهم أن يعيدوا الترتيب إلى الكنيسة وأن يضفوا عليها شيئًا من الهيبة. وفي هذا الصدد، دار الكلام على النهضة الكارولنجيّة فعلى عهد بيبان، قام الراهب الأسقف بونيفاقيوس (ت٧٥٤) بإعادة وضع بنية لأبرشيّات جرمانيا[4] وفي عدّة نصوص شرعيّة كثيرًا ما أوحى بها بعض الرهبان، أصلح شرلمان كنيسة الفرنجة إصلاحًا شديدًا، واختار الأساقفة اختيارًا حكيمًا، واعتبرهم من كبار الموظّفين. وشجّع قيام جماعات الكهنة القانونيّين بين الإكليروس الأبرشيّ. وأمّا الرهبان، فإنّ أحد رؤساء أديرتهم عمّم ممارسة القوانين البندكتيّة[5] وأصلح كثيرًا من الأديرة. وحاول، دون أن يوفّق دائمًا، أن يحيي عادة انتخاب رئيس الدير من قبل الرهبان.

---

١ ـ راجع الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٢ ـ يتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٨٩.

٣ ـ الكارولنجيّون أو الكاروليّون: أسرة فرنجة حاكمة أسّسها شارلمان في القرن السابع. راجع شارلمان أعلاه.

٤ ـ جرمانيا: إسم أُطلق قديمًا على منطقة واسعة من أواسط أوروبا امتدّت من البلطيك حتّى الفيستول والدانوب الأسفل، سكّانها الجرمانيّون.

٥ ـ راجع القدّيس مبارك، في حاشية سابقة، ص٣١.

أراد شارلمان أن يضع حدًّا لانحطاط الليتورجيا في غاليا[1] القديمة، فأدخل إلى مملكته كتب الليتورجيا الرومانيّة وفرض الالتزام بها. وكان الإصلاح مشبعًا بروح الكتاب المقدّس وخاصّة بالعهد القديم، وغمرته روح تنزع إلى الفرديّة، ما أضاع ملامح الصلاة الجماعيّة. وبما أنّ المؤمنين لم يعودوا يفهمون اللاتينيّة، أصبح القدّاس مشهدًا غامضًا ومقدّسًا. واستُخدم فيه الخبز الفطير بدل الخبز الطبيعيّ. وبدأ الكاهن يقيم القداس وظهره إلى الشعب ويتلو صلوات التقديس بصوت منخفض. وحاول بعض النصوص الشرعيّة أن يضع حدًّا لممارسة سرّ التوبة على الطريقة الماديّة كما مارسها الإيرلنديّون وأن يعيد إلى العمل الكنسيّ الممارسة الطقسيّة القديمة[2].

كان شارلمان من روّاد التجدّد الفكريّ، يوم طلب تأسيس مدارس لتخريج رجال الإكليروس. وفي قصر "إيكس لا شابيل[3]" أخذ "المجمع اللاتينيّ" يضمّ ألمع أدباء ذلك العصر، وكان أكثرهم من الرهبان، ليجتهدوا في إحياء اللاتينيّة الكلاسيكيّة، إلى جانب درس الكتاب المقدّس وآباء الكنيسة والليتورجيا. وظهر الاهتمام بالنسخ الذي أنتج كثيرًا من أروع المخطوطات بحسن كتابتها وزخارفها المتنوّعة. وقد أخرج هذا التجدّد ثماره في مطلع القرن التاسع. واشتهر علم اللاهوت ببعض الأسماء اللامعة والميل إلى المناظرات العقائديّة. وفي هذه الحقبة كانت مسألة الأيقونات موضوع خلاف بلغ حدّ الصراع بين الكنائس، وخاصّة بين الشرق والغرب[4]. غير أنّ الأزمات السياسيّة

---

١ ـ غاليا GAULE: إسم أطلق قديمًا على البلاد الشاملة فرنسا وبلجيكا وإيطاليا الشماليّة، فتحها القائد الرومانيّ يوليوس قيصر ٥٨ و٥٠ ق.م.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٦٢.

٣ ـ **إيكس لا شابيل** AIX - LA - CHAPELLE: مدينة في منطقة آخن، عاصمة أمبراطوريّة شارلمان، عُقد فيها مجمعان ٨١٦ و٨١٧.

٤ ـ راجع الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

وسواها، إن بين الشرق والغرب أم في داخل الغرب، لم تحُل دون مواصلة إعلان البشارة، سواء أكان ذلك تلقائيًا أم عبر تنظيم الأمراء والكرسيّ البابويّ. فقبل نهاية القرن السابع، تمّ تبشير "هولندا[1]" حيث أُسّست أقدم أبرشيّة هولنديّة في مدينة "أوترخت UTRECHT" سنة ٦٩٦. وفي هذا القرن نفسه دخلت المسيحيّة إلى سويسرا[2] الألمانيّة و"بافاريا[3]" إلى "بوهيميا[4]"، وجاء كثير من المبشّرين الإيرلنديّين[5]. وواصل القدّيس "بونيفاسيوس" الإنكليزي[6] أعمال التبشير بنجاح كبير، فنظّم كنيسة الفرنجة وأنشأ عدّة أبرشيّات وأديرة، قبل أن يموت شهيدًا لدى "الفريزون[7]" في هولندا. وفي نهاية القرن الثامن، دعا شارلمان السكسون الذين أخضعهم قبل وقت قصير، إلى قبول

١ ـ **هولندا** NEDERLAND: تُعرف أيضًا بالأراضي المنخفضة، دولة في أوروبّا الغربيّة تقع على بحر الشمال بين بلجيكا وألمانيا، استقرّت فيها خلال العصر الرومانيّ القبائل الباتافيّة الألمانيّة والقبائل الفرجيّة، سكّانها اليوم حوالى ١٦ مليون نسمة، عدد البروتستانت فيها يزيد على عدد الكاثوليك بنحو نصف مليون نسمة، عاصمتها الدستوريّة أمستردام والفعليّة لاهاي، نظامها ملكيّ وراثيّ (آل أورانج) ذو مجلسين نيابيّين.

٢ ـ **سويسرا** SUISSE: هي اليوم جمهوريّة إتحاديّة في وسط أوروبّا بين فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا تحمل اسم "الاتّحاد التعاهديّ السويسريّ" الذي يتألّف من ٢٢ كانتونًا عاصمتها برن، عدد سكّانها نحو ٧ ملايين و٤٠٠ ألف نسمة، ٧٢٪ يتكلّمون لهجات ألمانيّة، و٢٠٪ الفرنسيّة معظمهم في الجنوب الغربيّ، والباقون يتكلّمون الإيطاليّة، وتشكّل اللغات الثلاث اللغات الرسميّة للإتّحاد، تسود البروتستانتيّة نصف الكانتونات ومذهب ٥٧٪ من السكّان، والكاثوليكيّة مذهب ٤١ ٪.

٣ ـ **بافاريا** BAVIERE هي أيضًا BAYERM بلغة أهل البلاد، أوسع مقاطعة في ألمانيا الغربيّة (جنوب) ظلّت مملكة مستقلّة ضمن الأمبراطوريّة الألمانيّة، عاصمتها "مونش" أي "ميونيخ"، أهمّ مدنها أوغسبورغ ونورنبورغ وريغنسبورغ وأولم، دخلتها المسيحيّة أواسط القرن السابع، وكان أكثر المبشّرين من إيرلندا.

٤ ـ **بوهيميا** BOHEME: إقليم في غرب تشيكوسلوفاكيا عاصمته براغ.

٥ ـ يتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٩٢.

٦ ـ **بونيفاسيوس** WYNFRID BONIFACE (نحو ٦٨١ ـ ٧٥٥): مبشّر وقدّيس إنكليزيّ، رسول جرمانيا وهو أكبر مرسل في الغرب، جعله البابا غريغوريوس الثالث رئيس أساقفة مايس MAYENCE، مسّح الملك بيبان الجرمانيّ، نظّم الكنيسة الألمانيّة، قضى شهيدًا لدى "الفريزون"، عيده في ٥ حزيران (يونيو).

٧ ـ **الفريزون** FRISONS: شعب سكن منذ القرن الأوّل للميلاد بين الرين والإيمس، احتلّ أراضيه الرومان ثمّ السكسون قبل الفرنجة.

المعموديّة. وقد اكتمل تبشير سائر الأراضـــي الألمانيّة بعد فتوحات شارلمان[1]. وفي القرن التاسع، تقدّم إعلان البشارة نحو "همبورغ[2]" و"بريم[3]" والبلدان الإسكندينافيّة[4] وتنافس اليونان واللاتين في تبشير الصقالبة[5] في سهول الدانوب. كان بعض المرسَلين الجرمانيّين قد جاؤوا من "بافاريا*" إلى "مورافيا[6]". وفي الوقت نفسه، وجّه أمير مورافيا نداء إلى القسطنطينيّة طالبًا إرسال مبشّرين، فأرسل البطريرك القسطنطينيّ سنة ٨٦٣ الأخوَين "كيرلّس" و"ميتوديوس" السالونيقيَّين اللذَين كانا يُحسنان اللغة الصقلبيّة، فقاما بوضع أبجديّة لتلك اللغة التي كانت لغة شفويّة فقط. ونقلا إلى اللغة الصقلبيّة الكتب المقدّسة والنصوص الطقسيّة، لكنّهما دخلا في نزاع مع الأساقفة "البافاريّين BAVARAIS" الذين رأوا فيهما منافسَين، ورفضوا كلّ ليتورجيا لا تكون باللغة اللاتينيّة، زاعمين أنّ الصلاة لا تجوز إلاّ باللغات الثلاث التي استُعملت في الكتابة التي وضعها بيلاطس على صليب يسوع. لكنّ الأخوَين قاما برحلة إلى روما حيث لقيا أحسن استقبال. وقبل البابا يوحنّا الثامن (٨٧٢ ـ ٨٨٢)[7] إقامة الليتورجيا باللغة

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٩٢.

٢ ـ همبورغ HAMBOURG: مرفأ ومدينة في شمال غرب ألمانيا على نهر إلب، من أقدم مرافئ أوروبا وعاصمة ألمانيا التجاريّة.

٣ ـ بريم BRÊME: هي مدينة BERMEN الألمانيّة، مرفأ على الوايزر.

٤ ـ البلدان الإسكندينافيّة أو سكاندينافيا SCANDINAVIE: إسم يُطلق على جزء من أوروبا الشماليّة يشمل السويد والنروج والدنمارك، دخلتها المسيحيّة مطلع القرن التاسع ولكنّها لم تتأصّل فيها إلاّ في غضون القرن الحادي عشر.

٥ ـ الصقالبة SLAVES: هم الشعوب السلافيّة القاطنة بين جبال أورال والبحر الأدرياتيكيّ في أوروبا الشرقيّة والوسطى، وهم فرعان: صقالبة الشمال (الروس والروس البيض والبولونيّون) وصقالبة الجنوب أو اليوغوسلافيّون (الصرب والكرواتيّون والسلوفاكيّون والبلغاريّون) وأطلق العرب إسم الصقالبة على جماعة من العبيد المجنّدين في الخدمة العسكريّة وهم إمّا من الصقالبة الأصليّين أو من غيرهم من العبيد القادمين من الغرب.

٦ ـ مورافيا MORAVIA, MORAVIE: منطقة من تشيكوسلوفاكيا شرق بوهيميا يخترقها نهر MORAVA.

٧ ـ تختلف المراجع بين "كمبي" الذي ذكر أنّ هذا البابا هو يوحنّا السابع، ويتيم وديك حيث جاء أنّه يوحنّا الثامن، وبرأينا أنّ الثاني هو الأصحّ.

الصقلبيّة. وفي تلك الأثناء، توفّي كيرلّس فدُفن في كنيسة رومانيّة. أمّا ميتوديوس، فعيّن رئيس أساقفة مورافيا الكبرى. لكنّ الأساقفة الألمان حصلوا عند وفاته سنة ٨٨٤ من بابا جديد[١] على شجب الليتورجيا الصقلبيّة، وشنّ اضطهاد على تلاميذ ميتوديوس، فلجأوا إلى بلغاريا[٢]. وكان البلغاريّون[٣] يترددون في النظرة إلى روما والقسطنطينيّة، ولكنّهم تبنّوا هم أيضًا الأبجديّة التي وضعها الأخوان كيرلّس وميتوديوس، واتّخذوا الليتورجيا الصقلبيّة. وفي القرن التالي أخذ الروس عن البلغاريّين أبجديّتهم وليتورجيّتهم، لكنّ كلّ ذلك النشاط في إعلان البشارة تعرّض للخطر الشديد بسبب الاجتياحات الجديدة التي أتت إبّان القرن العاشر من الشمال والشرق والجنوب. فلقد انطلق النورمنديّون[٤] من الأراضي الإسكندينافيّة* ونزلوا على شواطئ بحر الشمال والبحر الأطلسيّ، وعبروا مجاري الأنهر وهم يقتلون وينهبون، فهرب كلّ مَن استطاع

---

١ - لعلّه البابا مارينُس الأوّل (٨٨٢ - ٨٨٤) أو البابا هادريانُس الثالث ٨٨٤ - ٨٨٥

٢ - بلغاريا BULGARIE: جمهوريّة في البلقان، تقع بين يوغوسلافيا واليونان ورومانيا وتركيا الأوروبيّة، عاصمتها صوفيا، احتلّها الأتراك ١٣٩٦ واستعادت استقلالها بمساعدة روسيا (معاهدة سان ستيفانو ١٨٧٨) جزّئت في مؤتمر برلين إلى: إمارة مستقلّة في الشمال وولاية الروملي في الجنوب وعليها حاكم مسيحيّ يعيّنه السلطان العثمانيّ حتّى توحّدت في دولة مستقلّة ١٩٠٨ ثمّ أصبحت جمهوريّة ١٩٤٦. .

٣ - البلغار أو البلغاريّون: قبائل أسيويّة مغوليّة اجتازت الدانوب في القرن السابع واستقرّت على ضفّته اليسرى (تراقيا) تأثّروا بالطابع الصقلبيّ أو السلافيّ إلى حدّ بعيد، اعتنقوا المسيحيّة في القرن التاسع وأخذوا السلافيّة لغة، خضعوا لبيزنطية ثمّ للعثمانيّين إلى أن أُسّست إمارة بلغاريا ١٨٧٨.

٤ - النورمنديّون NORMANDS: هم "أهل الشمال"، إسم أُطلق على الغزاة الفايكينغ القادمين من بحار اسكندينافيا في القرن الثامن، احتلّوا شواطئ أوروبا، مارسوا التجارة البحريّة وتوسّطوا بين البيزنط والعرب، استلم بعضهم الحكم في كييف ونوفغورود (روسيا)، اكتشفوا إيسلاندا في القرن التاسع، انصرفوا إلى القرصنة البحريّة، سكنوا مقاطعة في شمال غرب فرنسا إسمها نورماندي بموجب معاهدة ٩١١ ومنها احتلّوا بريطانيا ١٠٦٦، دعاهم مؤرّخو العرب في الأندلس "الأردمان" كما أُطلق عليهم علمة إسم المجوس.

إلى الداخل؛ وفي الشرق، انطلق المجريّون[١] من الأورال[٢]. واجتاحوا جرمانيا وبلغوا "برغونة[٣]" وفي الجنوب، انطلق المسلمون من إسبانيا وغزوا شواطئ إيطاليا و"بروفنسا[٤]".

في العام ٨٤٣ عُقدت معاهدة "فردان VERDUN" التي قسّمت ميراث "لويس الورع LOUIS LE PIEUX" (٨١٤ ـ ٨٤٠) إلى ثلاثة أقسام[٥]. فزالت بذلك وحدة الأمبراطوريّة الغربيّة الفرنجيّة، وفي مطلع القرن التاسع، زالت سلطة الأمبراطور[٦]. إذ إنّ سلطة ملوك الفرنجة من أسرة شارلمان قد ضعفت بسبب تفتّت الوحدة السياسيّة التي كانت

---

١ ـ **المجريّون أو المجر أو المجيار**: شعب هنغاريا أو المجر، ينتمي إلى الفصيلة اللغويّة الفينيّة ـ الأجريّة، كانوا قبائل رحّلاً هاجرت الأورال حوالى ٤٦٠ الى شمال القوقاز حيث اتّصلوا بالشعوب التركيّة، أكرههم شعب البتشنجر على الارتحال غربًا فاستقرّوا تحت زعامة "أرباد" في هنغاريا حوالى ٨٩٥، فتحوا مورافيا وتغلغلوا في ألمانيا، أوقف الأمبراطور "أوتو" زحفهم في لشفلد ٩٥٥، كان المجر وثنيّين، وفي أواخر القرن العاشر سمح ملكهم "جيزا" للمبشرين المسيحيّين بدخول أراضيه، فدخلوا وبشّروا الناس، وقبل المعموديّة ابنه الملك "إسطفانُس" أو "ستيفن" (٩٩٧ ـ ١٠٣٨) الذي يبدأ معه تاريخ هنغاريا أو المجر، فقد طلب إلى البابا سلفسترُس الثاني أن يرسل إليه مبشّرين آخرين، فلبّى طلبه وبعث إليه بالتاج الملوكيّ أيضًا، واستقلّ الملك لاديسلاس (١٠٧٧ ـ ١٠٩٥) عن سلطة الأمبراطور الجرمانيّ وعن سلطة البابا السياسيّة، وأصبحت المجر دولة مسيحيّة إلى أن قضى عليها السلطان العثمانيّ سليمان الثاني.

٢ ـ **أورال OURAL**: سلسلة جبال في الإتّحاد السوفياتيّ السابق تقع بين أوروبّا وآسيا، طولها ٢,٤٠٠ كلم، أعلى قممها ١,٨٩٤م. ينبع فيها نهر الأورال طوله ٢,٥٣٤ كلم ويصبّ في بحر قزوين.

٣ ـ **برغونة أو برغنديا BOURGOGNE**: إقليم في فرنسا، كما أُطلق الإسم على مملكتَين متتاليتين وعلى دوقيّة شملت كلّ منها أراضي واسعة خارج الإقليم الحالي.

٤ ـ **بروفنسا PROVENCE**: إقليم في فرنسا الجنوبيّة، قاعدته إيكس، وصل إليه العرب الفاتحون في القرون الوسطى وكانت لهم معه علاقات تجاريّة.

٥ ـ **معاهدة فردان**: قسّمت بموجبها إمبراطوريّة الفرنجة بين أبناء لويس الأوّل المعروف بلويس الورع الثلاثة ٨٤٣، فنال لويس الألمانيّ القسم الشرقيّ (ألمانيا)، وشارل الثاني الغرب (فرنسا)، والأمبراطور لوثير الأوّل الوسط (ولايات لوتارنجيا وبرغنديا وبروفانس وإيطاليا). وفردان مدينة في قسم ميتز في شمال شرق فرنسا على نهر ميتز، ضمّت إلى فرنسا ١٥٥٢ وصارت بعد ١٨٧١ قلعة منيعة شهدت ١٩١٦ أطول وأشرس معركة جرت خلال الحرب العالميّة الأولى وصمدت فردان جميع الهجمات، فيها أطلق الفرنسيّون شعار "لن يعبروا".

٦ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٦٦ ـ ١٦٧.

قائمة، إلى أن اندثرت. فاستقال آخر ملوكهم سنة ٨٨٧. وقامت مقام الدولة الكبيرة المنظّمة إمارات صغيرة، وأضحى المنصب البابويّ آلة بأيدي الأحزاب والأسر الكبيرة التي سيطرت على إيطاليا. على أنّ البابويّة، في آخر القرن التاسع، لم تكن قد فقدت كلّ ما لديها من هيبة وسيطرة. واشتهر آنذاك البابا يوحنّا الثامن (٨٧٢ ــ ٨٨٢) الذي أنهى الانشقاق بين روما والقسطنطينيّة بعد أن اعتلى البطريرك فوتيوس السدّة البطريركيّة للمرّة الثانية، وساند القدّيس ميتوديوس رسول السلافيّين ضدّ مضايقات الألمان المتمسكين باللاتينيّة، كما ذكرنا سابقًا[1].

سنة ٩٨٦، تأصّلت الأسرة "الكبيتيّة[2]" نهائيًا في فرنسا. وفي الوقت نفسه، استقرّ المجتاحون وألّفوا دولا جديدة. وأقام النورمنديّون* سنة ٩١١ في المنطقة التي تحمل اسمهم حتّى اليوم: النورمندي. وفي سنة ٩٦٥ هُزم المجريّون* فاستقرّوا في وادي الدانوب، ونشأت مملكة مع قبول الملك اسطفانُس المعموديّة المسيحيّة سنة ١٠٠٠. ونشأت كذلك دولة بولندا[3] الكاثوليكيّة سنة ٩٦٦. وحين قبل دوق روسيا الكبير

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٩٠.

٢ ـ **الأسرة الكبيتيّة أو الكابيه** CAPÉTIENNE: أسرة مالكة فرنسيّة حكمت بصفة مستمرّة ٩٨٧ ـ ١٣٢٨، الجدّ التاريخيّ لهذه الأسرة "روبرت كونت أنجو وبلوا"، انتُخب ابنه "يودس" كونت باريس ملكًا ٨٨٨ بعد خلع شارل الثالث أو شارل السمين، وتنقّل التاج ما بين ٨٩٣ و٨٩٧ بين الكارولنجيّين والكبيتيّة، وقع الاختيار على روبرت الأول ٩٢٢ ولكنه توفّي ٩٢٣ وإذ تخلّى ابنه "هيو الكبير" عن اللقب انتقل إلى صهره راؤول دوق برغونديا، وفي ٩٨٧ أصبح "هيو كابيه" الذي نُسبت إليه الأسرة ملكًا واستمرّ نسله المباشر في الحكم إلى وفاة شارل الرابع ١٣٢٨ فانتقل التاج إلى أسرة يتّصل نسبها بآل كابيه وهي أسرة "فالوا".

٣ ـ **بولندا أو بولونيا** POLSKA. POLOGNE: هي اليوم جمهوريّة في أوروبا الشرقيّة يحدّها شمالاً بحر البلطيق وغربًا ألمانيا وجنوبًا تشيكوسلوفاكيا وشرقًا روسيا، عاصمتها فرسوفيا، عدد سكّان بولونيا نحو ٣٩ مليون نسمة غالبيّتهم تعتنق المذهب الكاثوليكيّ، بدأ تاريخها أوائل القرن التاسع لمّا تمكّن البوليانيّون (سكّان الحقول) من السيادة على القبائل السلافيّة الأخرى التي كانت حطّت رحالها فيها، وحّدت أسرة "بياست" قبائلها في القرن العاشر وحكمتها ووسّعت ممتلكاتها، قبل ملك بولندا المعموديّة ٩٦٦ ومنها اتّسعت المسيحيّة شرقًا فشملت قسمًا كبيرًا من روسية الحاليّة، حاربت بولندا طويلاً في سبيل استقلالها لا سيّما في القرن الثامن عشر إذ شرعت روسيا والنمسا وبروسيا تتقاسم أراضيها، بعد الحرب العالميّة الأولى التأمت أجزاؤها حينًا وفقدت في الحرب الثانية أطرافها الشرقيّة وضمّت إليها ما يوازيها تقريبًا شمالاً وغربًا (راجع الجزء الحادي عشر)

فلاديمير سرّ المعموديّة سنة ٩٨٩، مدّ نفوذ كنيسة القسطنطينيّة إلى بلاده نحو الشمال، وأدخل روسيا بين الدول الأوروبيّة[١].

ما يمكن تأكيده أنّه في القرن العاشر، أخذت كنيسة روما تتخبّط في الفوضى والاضطراب تمزّقها المنازعات الحزبيّة والأطماع الدنيويّة. وسبب هذه الحالة البائسة سيطرة الأشراف والأمراء على روما[٢]. ففي خضمّ تفكّك الدولة جرّاء الانقسامات والاجتياحات والحروب الأهليّة التي شهدتها أوروبّا قبل نهاية الألف الأوّل، صارت الأرض ملك المحارب الذي يدافع عنها، وهو بدوره يحتمي بمولى أقوى منه يعترف له بامتلاك إقطاع أو امتياز وبإدارة شؤونه. فتحوّلت الروابط الإجتماعيّة إلى نظام هرميّ بين المحاربين والملاّكين. وكان للكنيسة أملاك واسعة، فتناولها النظام الإقطاعيّ هي أيضًا. فكان لكلّ صاحب وظيفة كنسيّة أرضه وامتيازه ومصدر رزقه. وكان الأسقف مولًى ومقطَعًا كالعلمانيّين، له على أرضه ولاية وقضاء. وكان ينفق على جيش. فلا عجب أن يطمح رجال الدولة، والحالة هذه، إلى مناصب كنسيّة. وأمّا القواعد القديمة التي كانت متّبعة في انتخاب الأساقفة من قِبَل الإكليروس ومن قِبَل الشعب، فلم تعد تراعى. وبما أنّ الأبرشيّات والأديرة لم تكن وراثيّة كسائر الإقطاعات، فإنّها كانت توزّع عند وفاة أصحاب كراسيها. وكان المولى أو الأمبراطور والملك والدوق... يتصرّفون فيها لصالح مَن يريدون. ولمّا كان الإقطاع الأسقفيّ يشتمل على ولاية مزدوجة: روحيّة وزمنيّة، كانت الولاية الزمنيّة تُمنح للأسقف حين يُكرّس في حفل واحد، فكان المولى يسلّم مرشّحه العصا والخاتم. إنّها التولية العلمانيّة، علمًا بأنّ التكريس الأسقفيّ كان يُمنح عن يد أحد الأساقفة، وعادة عن يد

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص١٦٦ ـ ١٦٧.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٩٠.

المتروبوليت، أي رئيس الأساقفة. وهكذا أصبحت نوعيّة الأساقفة دون المستوى السليم. لأنّ اختيارهم من قِبَل الأمراء لم يكن يخضع لاعتبارات دينيّة فقط. فقد تكون المواصفات المطلوبة في الأسقف من قِبَل أولياء الأمر أن يكون من العسكريّين الناجحين. وغالبًا ما كان أولئك الأولياء يرغبون في منح الرتبة الأسقفيّة إلى أبنائهم، أو أنّهم كانوا يبيعون المنصب أحيانًا لمن يدفع أكثر. وفي هذا الواقع، لا عجب أن يكون كهنة أولئك الأساقفة غير صالحين أيضًا. ما انعكس بشكل طبيعيّ على المؤمنين. وكان التشريع الكنسيّ حول زواج الكهنة وتبتّلهم غير واضح. ولم ترحم التجاوزات، وسط تلك الفوضى، الكرسيّ البابويّ في أعلى الهرم الكنسيّ. ففي القرن العاشر تسلّطت أسرة رومانيّة على أسقفيّة روما وعيّن باباوات لم يبلغ واحدهم سنّ العشرين[1]. فانحطّت هيبة البابوات ودُعي ذلك العصر المشؤوم "العصر الحديديّ"[2]. مع كلّ ذلك، حقّق النظام الإقطاعي بعض التوازن للمجتمع. ومنهم مَن رأى "مشيئة اللّه" في تنظيم مجتمع ثلاثيّ. فكانت نظريّة الطبقات الثلاث الشهيرة: "بعضهم يصلّي، وبعضهم يحارب، وبعضهم يعمل". وقد حاولت الكنيسة أن تحدّ من العنف، بفضل مؤسّسات السلام: "فسلام اللّه" ينهي عن التهجّم على الضعفاء، و"هدنة اللّه" تنهى عن شنّ المعارك في أيّام معيّنة. والوظيفة تقدّس باحتفال الفروسيّة الدينيّ[3]...

في نهاية القرن العاشر، بدأ شيء من الاستقرار، إذ أُعيد تأسيس الأمبراطوريّة ومُنح اللقب لملك ألمانيّ. فاستمرّت الأمبراطوريّة الرومانيّة الجرمانيّة المقدّسة إلى سنة

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٩٠.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

١٨٠٦.[1] وفيما فرض الأباطرة الألمان مرشحهم على الكرسيّ البطرسيّ، ثار أهل روما على التدخّل الألمانيّ، وساندهم في ثورتهم أباطرة القسطنطينيّة الذين كانوا، من الناحية السياسيّة، منافسين للأمبراطوريّة الرومانيّة الجرمانيّة. ولم يكن للبابوات، في ذلك العصر، شأن يذكر. وكان أشهرهم البابا سلفسترُس الثاني (٩٩٩ ـ ١٠٠٣) الذي كان عالمًا ترجم إلى اللاتينيّة عدّة كتب عربيّة. وكان أكثر بابوات ذلك العصر من الألمان[2].

عَهْدُ الزَّعَامَةِ البَابَوِيَّة

(١٠٧٣ ـــ ١٣٠٣)

قبل نهاية القرن الحادي عشر، لم يكن قد بقي من البلدان الأوروبيّة على الوثنيّة إلاّ بعض شعوب الشاطئ الشرقيّ من بحر البلطيق، وقد اعتنقت المسيحيّة في ما بعد، وكان آخرها شعب ليتوانيا الذي أصبح مسيحيًّا في القرن الرابع عشر[3].

كانت السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر في الغرب المسيحيّ بمثابة عهد جديد. وكانت حركة الإصلاح قد بدأت في عهد البابا لاون التاسع (١٠٤٨ ــ ١٠٥٤). وتتابعت في عهد البابا نقولا الثاني (١٠٥٩ ـ ١٠٦١) الذي عقد مجمعًا كبيرًا أقرّ أنّ حقّ انتخاب البابا منوط بالكرادلة وحدهم. وظهرت في آخر القرن الحادي عشر شخصيّة البابا غريغوريُس السابع (١٠٧٣ ــ ١٠٨٥) الذي اتّخذ تدابير جذريّة لرفع

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٩٠.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٩٣.

مستوى الإكليروس والأساقفة وتحرير الكنيسة من تدخّل الملوك والأمراء. لقد كان غريغوريُس السابع صاحب شخصيّة فذّة استطاعت أن تحرّر البابويّة من الحمايات، وتبسط الإصلاحات الضروريّة، فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الكنيسة الرومانيّة[1]. ومنذ ذلك التاريخ، حتّى وفاة البابا بونيفاسيوس الثامن سنة ١٣٠٣، أصبح الباباوات رؤساء الغرب كلّه من الناحيتَين الروحيّة والزمنيّة.على أنّه قد قُضي على زعامة البابا بعد سنة ١٣٠٣، وتقهقرت سلطته الزمنيّة وضعفت سطوته الروحيّة نفسها. وسبب تدهور هذه الزعامة منفى أفينيون، والإنقسام الغربيّ الكبير، وترَف الباباوات في خلال المرحلة الأولى من النهضة. ففي القرنَين الرابع عشر والخامس عشر عانى الغرب أزمة روحيّة وسياسيّة وفكريّة واجتماعيّة عنيفة، نتج عنها الإصلاح، فانبثقت حضارة العصر الحديث. وفي هذه الحقبة، كانت حضارة القرون الوسطى[2] قد بلغت أوجها. فإنّ الإصلاح الدينيّ الذي قام به الباباوات في القسم الثاني من القرن الحادي عشر قد شمل الأخلاق وحرّر الكنيسة ونظّمها وأدّى إلى نهضة مسيحيّة رائعة. فازدهرت المدارس اللاهوتيّة في ظلّ الكاتدرائيّات والأديرة، ثمّ أُنشئت الجامعات، وأشهرها جامعة باريس التي تمّ تنظيمها بين ١٢٠٠ و١٢١٥. وقد رافق هذه النهضة الدينيّة إطّلاع أوسع على الثقافة اليونانيّة بواسطة ترجمة الفيلسوف العربيّ "إبن الرشد"، ثمّ إطّلاع مباشر نتج عن الحملة الصليبيّة الرابعة. وقام الجدل الطويل بين علماء اللاهوت التقليديّ المتأثّر بأقوال القدّيس أوغسطينُس، وجماعة من الفلاسفة تأثّروا بتعاليم "إبن الرشد" و"أرسطو" المنحرفة عن مبادئ الدين. وكتب حينذاك القدّيس توما الإكوينيّ

١ - يثيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص١٨٧، ١٩١.

٢ - **القرون الوسطى**: أطلق علماء الغرب هذه التسمية بشيء من الازدراء على القرون العشرة التي تفصل بين العصور القديمة وعصر النهضة في القرن السادس عشر، وكأنّ تلك القرون هي الحقبة الفاصلة بين الحضارات القديمة التي كان المفكّرون المصلحون يسعون لإحيائها والنهضة التي ينادون بها وخصوصًا إبّان القرن السادس عشر.

الشهير (ت١٢٧٤) موسوعته اللاهوتيّة الشاملة، فاستخدم فيهـا فلسفة أرسطو وتجنّب انحرافاتهـا الدينيّـة. وتُلقّـب هـذه الحركـة الفكريّـة الفلسـفيّة اللاهوتيّـة "بالحركـة السكولاستيكيّة" أو بالحركة المدرسيّة. وقد ضعفت بعد القرن الثالث عشر، ونضب فيها الابتكار، وشكّ العلماء في قيمة فلسفة أرسطو، وأخذوا يبحثون عن فلسفة أخرى[١].

وفي هذه الحقبة، ازدهرت الحياة الروحيّة ونمت القداسة في قلوب الكثيرين، وذلك بفضـل الخطبـاء والوعّـاظ والرهبـان الذين امتـازوا بنُبل تعـاليمهم وسـموّ فضـائلهم، وأشهرهم القدّيس برنردوس (١٠٩٠ ـ ١١٥٣). وفي مطلع القرن الثالث عشر، ظهر نظام جديد للحياة الرهبانيّة، أنشأه القدّيس فرنسيس الأسيزي (١١٨٢ ـ ١٢٢٦) مؤسّس الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة، فأعطى الناس مثلاً رائعًا في الفقر والمحبّة وبساطة السيرة، في أيّام ساد فيهـا الترف والعنف والكبريـاء. وأسّس القدّيس دومينيك أو عبد الأحد (ت١٢٢١) الرهبانيّة الدومينيكانيّة، وهدفه منها إلقاء الوعظ ومحاربة البدع. وتجلّى إيمان ذلك العصر ببناء الكاتدرائيّات الفخمة التي لا تزال حتّى اليوم متّشحة بروعتها القديمة وجلالها الساحر، مثل كاتدرائيّة باريس وكاتدرائيّة سيّدة "شارتر" في مطلع القرن الثالث عشر[٢].

***

البابا القدّيس غريغوريُس السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥) هو الخليفة السادس والخمسون بعد المئة للقدّيس بطرس على الكرسيّ الرسوليّ. وقد انتُخب من قبل الكرادلة[٣] وحدهم

١ ـ يتيم و ديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٤٩.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

٣ ـ الكرادلة: كان المقصود بهم أبرز أعضاء الإكليروس في روما من أساقفة منطقة روما والمسؤولين عن أكبر كنائسها والشمامسة السبعة المكلّفين بإدارة شؤون الكنيسة.

بموجب توضيح قواعد انتخاب البابا الذي كان قام به البابا نيقولاوس الثاني (١٠٥٩ ـ ١٠٦١)، ويكتفي سائر الإكليروس والشعب بالمصادقة عن طريق الهتاف للمنتخَب الجديد. وإذ كان غريغوريُس عازمًا على القيام بإصلاح أخلاقيّ عامّ، كانت قرارات الكرسيّ الرسوليّ التي استهدفت سنة ١٠٧٤ ممارسة "السيمونيّة[١]" والكهنة الذين ما زالوا يعيشون حالة زواج، مستندًا إلى عون الأمراء والأساقفة. لكنّ تلك القرارات كثيرا ما قوبلت بالرفض. وبعد بحث وتأمّل داما حوالى السنة، رأى غريغوريُس أنّ انحطاط رجال الإكليروس متأتٍّ عن تدخّل الأمراء في أمر انتخاب الأساقفة وتعيينهم في مختلف الأبرشيّات، فصمّم على القضاء نهائيًا على تدخّل العلمانيّين من مختلف المستويات بشؤون الكنيسة[٢]. فعقد سنة ١٠٧٥ مجمعًا أعاد فيه حقّ الإنتخاب إلى الإكليروس والشعب، ونهى الأساقفة عن قبول منصبهم من أحد العلمانيّين، كما نهى المتروبوليت عن رسامة أيّ أسقف عن طريق التعيين من قِبَل العلمانيّين، ومن ثمّ أرسل موفدين للعمل على تطبيق قراراته، معلنًا بذلك سلطة البابا العليا في الشؤون الدينيّة والزمنيّة[٣]. وإذ كانت ردّة فعل الأمبراطور الجرمانيّ هنري الرابع (أمبراطور ١٠٥٦ ـ ١١٠٥) على هذه القرارات عنيفة، رشقه البابا بالحرم، ولمّا أرغمه أمراؤه على الخضوع للبابا، التزم بتأدية هذا الخضوع سنة ١٠٧٧.[٤] ثمّ توصّل البابا

---

١ ـ **السيمونيّة**: إصطلاح المقصود منه "المتاجرة بالأشياء والأمور المقدّسة"، منسوبة إلى "سيمون الساحر" وهو رجل سامريّ الأصل، كان ماهرًا في فنّ السحر، تنصّر وأراد أن يشتري من بطرس الرسول سلطان وضع الأيدي وصنع المعجزات فخُذل.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ١٧٤.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ١٧٤؛ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٤٦.

٤ ـ يبدو أنّ هذا الخضوع لم يدم طويلاً إذ إنّ هنري الرابع، الذي تذلّل أمام غريغوريُس سنة ١٠٧٧ لاستعادة سلطته، كان قد أعلن خلعه للبابا في "ورمس" ١٠٧٦ ثمّ عيّن مكانه بابا معارضًا ١٠٨٤ استمرّ حتّى ١١٠٠ ـ راجع الحاشية التالية ـ وقد توفّي غريغوريُس منفيًا عن كرسيه.

كاليكستوس الثاني (١١١٩ ـ ١١٢٤) إلى حلّ وسط مع الأمبراطور هنري الخامس (١١٠٦ ـــ ١١٢٥) عقدا بموجبه معاهدة "فورمس"[1] سنة ١١٢٢. وحاول الأمبراطوران بربروس فريديريك[2] وفريديريك الثاني[3] أن يتحرّرا من سيطرة البابا فلم يُفلحا في ذلك.

وقبل أن يجلس على السدّة الرسوليّة البابا إينوسنت (إينوقنطيوس) الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) الذي سيبلغ بالسلطة البابويّة إلى أوج عظمتها، كان قد خلف غريغوريُس البابا فيكتور الثالث (١٠٨٦ ـ ١٠٩٩)، ثمّ أوربانوس الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) الذي طلب إلى ملوك أوروبّا في مجمع كليرمون سنة ١٠٩٥ التوجّه إلى الأراضي المقدّسة، نزولاً عند طلب أمبراطور بيزنطية ألكسي الأوّل الذي كان الأتراك السلاجقة يهدّدون مملكته من كلّ جهة، فكان لهذا الطلب الصدى العميق في قلوب المؤمنين الذين هبّوا للقتال لتخليص الأراضي المقدّسة من أيدي الأتراك وتأمين زيارة القبر المقدّس من قِبَل الحجّاج الأوروبيّين، فكانت بذلك بداية الحروب الصليبيّة التي تناولنا موضوعها بإسهاب في الحديث عن بطريركيّة أورشليم. غير أنّ الحرب الصليبيّة الدائرة في

---

١ ـ **فورمس أو فورمز** WORMS: مدينة في ولاية راين بلاتينات الألمانية، عُقد فيها مجمع ١٠٧٦ بدعوة من الأمبراطور هنري الرابع خلع البابا غريغوريُس وعيّن مكانه بعد سنوات البابا المعارض كليمنس الثالث (١٠٨٤ ـ ١١٠٠) وفي ١١٢٢ تحقّق اتفاق في فورمس بين البابا كاليكستوس الثاني والأمبراطور هنري الخامس تنازل فيه الأمبراطور للبابا عن حقّ تقليد الأساقفة ورؤساء الأديرة، ولكنّه احتفظ بحقّ وقف انتخاب من يعترض عليه من كبار رجال الدين، ونصّت المعاهدة على أن يخضع الأسقف للأمبراطور في الشأن الزمنيّ فقط وعلى تثبيت الإصلاح الذي قام به غريغوريُس السابع وخلفاؤه.

٢ ـ **بربروس فريديريك** (١١٥٢ ـ ١١٩٠): أمبراطور ألمانيّ، سار في الحملة الصليبيّة الثالثة، مات غريقًا في قيليقية، دُفن في صور لبنان.

٣ ـ **فريديريك الثاني** (١١٩٤ ـ ١٢٥٠): حفيد بربروس، ملك صقلّية ثمّ أمبراطور ألمانيّ ١٢٢٠ ـ ١٢٥٠، كان واسع الثقافة ملمًا بالعربيّة، شاكًا في الدين، ويقال إنّه مال إلى الإسلام، قاوم البابويّة ثمّ قاد حملة صليبيّة ١٢٢٩، خلعه البابا إينوقنطوس الرابع في مجمع ليون ١٢٤٥، شجّع الآداب والفنون والعلوم وأنشأ في صقلّية دولة حديثة.

الشرق، والتي كان قادتها وجنودها من أبناء الكنيسة الغربيّة، لم تمنع التطاحنات والانقسامات على أرض الغرب. فنجد أربع باباوات معارضين ومتتالين بين ١١٠٠ و١١٢٠ هم: ثيودوريكيوس (١١٠٠)؛ وسلفسترس الرابع (١١٠٥ ـ ١١١١) وألبرتُس (١١٠٢٠)؛ وغريغوريُس الثامن (١١١٨ ـ ١١٢١). ونلاحظ أنّه في العام ١١٢٠ كان هناك ثلاث باباوات! إذ كان خلف أوربانُس الثاني على الكرسيّ الشرعيّ البابا باسكاليوس الثاني (١٠٩٩ ـ ١١١٨) ثمّ البابا جيلاسيوس الثاني (١١١٨ ـ ١١١٩) فالبابا كاليكستُس الثاني (١١١٩ ـ ١١٢٤). وفي عهد إينوقنطيوس الثاني (١١٣٠ ـ ١١٤٣) كان هناك البابا أناكليتُس الثاني (١١٣٠ ـ ١١٤٣) والبابا فيكتور الرابع (١١٣٨). ونجد في سلسلة باباوات القرن الثاني عشر بين ١١٥٩ و١١٨٠ اللائحة التالية: البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ ـ ١١٨١) وخلفه البابا لوقيوس الثالث (١١٨١ ـ ١١٨٥) وفي المقابل الباباوات المعارضين: باسكاليس (١١٦٤ ـ ١١٦٨) وكاليكستُس (١١٦٨ ـ ١١٧٨) وإينوقنتيوس (١١٧٩ ـ ١١٨٠).

أصبح البابا في عهد إينوقنطيوس الثالث الحاكم الأكبر لأوروبّا كلّها وسيّد الغرب بأجمعه[1]. وحاول، من الناحية الدينيّة، أن يعيد الوحدة إلى كنيستَي الشرق والغرب فلم يوفّق. وقاوم البدع الجديدة. وعقد المجمع اللاترانيّ الرابع سنة ١٢١٥ الذي شرح فيه البابا نظريّة السلطة البابويّة، وبحث المجمع وأقرّ قوانين كنسيّة إصلاحيّة[2]. وسعى

---

١ ـ يذكر بعض المراجع (كمبي) أنّ هذا البابا قد عيّن مرشّحه لتولّي السلطة في الأمبراطوريّة، وأخضع ملك الإنكليز لإرادته، وأنّه أكّد على أنّ للبابا في العالم المسيحيّ كمال السلطة، ففي المجال الروحيّ تخضع له جميع الكنائس، ويحتفظ باستقلاله الذاتيّ في المجال الزمنيّ، ولكنه باسم تفوّق البعد الروحيّ يتدخّل في القضايا السياسيّة إذا كان خلاص المسيحيّين معرّضا للخطر، وهو يتدخّل أيضا في الحالات الطارئة إذا لم يكن للأمراء من رؤساء إقطاعيين.

٢ ـ يرى "كمبي" أنّه ظهر في هذا المجمع ما يشهد على شعور البابا بجلال منصبه إذ إنّ المجتمعين راحوا يسنّون القوانين في جميع مجالات الحياة الكنسيّة.

كثيرًا في منع "الحملة الصليبيّة الرابعة" من غزو القسطنطينيّة، فباءت مساعيه بالفشل التام. وكان آخر باباوات ذلك العهد بونيفاسيوس الثامن (١٢٩٤ ـ ١٣٠٣) الذي اصطدم بملك فرنسا فيليب الجَميل[١] وأعلن سلطته العليا في الشؤون الدينيّة والزمنيّة، وفرضها على الأباطرة والملوك، فتعدّى الملك على كرامته وحريّته. وبوفاته سنة ١٣٠٣ زالت فكرة المجتمع المسيحيّ الأوحد بزعامة البابا، وانطوت الشعوب على نفسها وتمسكت بفرديّتها الضيّقة واستسلمت إلى خصوماتها ومشاحناتها التليدة[٢]. ويرى باحثون أنّ نتيجة الصراع الذي دار في تلك الحقبة بين الباباوات والأباطرة، قد هزّت مقام البابا جرّاء تورّطه في الشؤون السياسيّة، ممّا أفقده بعضًا من نفوذه الأدبيّ، كما أضعفت حكم الأمبراطور في آن. وقد كثر، في أواخر القرن الثالث عشر، عدد المطالبين بإصلاح الكنيسة، شعورًا منهم بتسرّب الضعف إلى المؤسّسات، إذ ظهر تقلّص في أنشطة الأديرة الروحيّة، وصعوبات متزايدة في كلّ انتخاب باباويّ بسبب الخلافات بين الكرادلة، وبالتالي بدا الحرص والاهتمام خوفًا من انقسام الكنيسة. وقد حاول مجمع ليون الثاني (١٢٧٤) أن يجد حلولا لتلك القضايا، لكنّ النتائج جاءت ضئيلة. كما أنّ محاولة المصالحة بين الكنيسة اللاتينيّة والكنيسة اليونانيّة لم تدم طويلاً، إذ لم يمهّد لها كما يجب، فلم يتقدّم الإصلاح. وفي ١٢٩٤ ظنّ الكرادلة أنّهم خضعوا لإلهام من الروح القدس، فأتوا بحبيس في الثمانين من عمره ليجعلوا منه البابا قليستينُس CÉLESTIM الخامس (١٢٩٤) فكانت الطامة الكبرى[٣].

---

١ ـ فيليب الجَميل PHILIPPE LE BEAU أو فيليب الرابع (١٢٦٨ ـ ١٣١٤): ملك فرنسا ١٢٨٥، استند إلى المشترعين في حكمه واستقلّ عن الكرسيّ الرسوليّ ودخل في نزاع معه، ألغى رهبانيّة الفرسان الهيكليّين وصادر أملاكهم، نظّم الإدارة والقضاء.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٤٦.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ١٧٦.

قرنا الخُسُوف البَابَاويّ
(١٣٠٣ ـــ ١٥١٧)

حدّد أكثر الباحثين أربعة أسباب أدّت إلى خسوف السلطة الباباويّة في أواخر القرون الوسطى، وتحديدًا بين بدايات القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر، وهي: منفى أفينيون، والإنقسام الكبير، ومبدأ تفوّق سلطة المجمع على سلطة البابا، وترف باباوات النهضة. وما يجب ألاّ يغيب عن الذهن في عتمة هذا الخسوف، هو أنّه في القرن الرابع عشر، عهد التفكّك الدينيّ والإنحلال الأخلاقيّ، ظهرت الحركات الصوفيّة الرفيعة التي قاومت التفكّك، ومن مظاهرها كتاب "الإقتداء بالمسيح" الصادر حوالى سنة ١٤٠٠. وسوف تنتهي القرون الوسطى، وتندثر بما فيها من إيمان عميق، وأخلاق فظّة، وطباع خشنة، وحروب دامية، وحضارة واسعة، جامعة في طيّاتها المتناقضات العميقة، ففيها الحروب الصليبيّة، وفيها الإنشقاقات البابويّة، وفيها الكنائس الفخمة، وفيها القداسة الرائعة. فهي مزيج من الظلمة والنور، والحريّة والاستعباد، والحضارة والهمجيّة. ولا عجب فقد حلّت وسطًا بين الحضارة القديمة الزاهية والحضارة الحديثة النيّرة[1].

قصّة منفى "أفينيون[2]"، أنّه بعد بقاء الكرسيّ الرسوليّ شاغرًا نحو سنة إثر وفاة البابا بونيفاسيوس الثامن عام ١٣٠٣، إنتُخب في سنة ١٣٠٥ للسدّة البابويّة رئيس أساقفة بوردو[3]، "برتران دي غوت BERTRAND DE GOT" وحمل اسم اكليمنضوس CLEMENT الخامس (١٣٠٥ ـ ١٣١٤) اختير أسقف بوردو لأنّه أظهر كثيرًا من روح

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

٢ ـ أفينيون AVIGNON: مدينة فرنسيّة على نهر الرون، من آثارها القصر البابوي.

٣ ـ بوردو BORDEAUX: مدينة ومرفأ في غرب فرنسا على مصبّ نهر الغارون.

المصالحة في الخلاف الذي قام بين ملك فرنسا "فيليب الجَميل" والبابا الراحل. ولمّا تُوّج البابا الجديد في مدينة ليون في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٣٠٥، كان فيليب الجميل حاضرًا، فطلب مساعدة البابا لتسوية الخلاف بين فرنسا وإنكلترا حول "غسكونيا[١]". ومن جهات أخرى، كانت "الدول البابويّة" عرضة للاضطرابات، فلم يتمكّن اكليمنضوس من الإقامة في روما بسبب معارضة الأحزاب، فأقام في أفينيون ـ فرنسا، وخلفه ستّ باباوات[٢]، جميعهم فرنسيّون، أقاموا حتّى سنة ١٣٧٨ في "أفينيون" الفرنسيّة التي اشتروها، أو في "فوكلوز[٣]" في فرنسا أيضًا حيث كان للكرسيّ الرسوليّ ممتلكات. وقد حافظ هؤلاء البابوات على الاهتمام الجادّ بالكنيسة الجامعة واهتمّوا إلى حدّ بعيد بالإرساليّات النائية وبمتطلّبات الحملات الصليبيّة، إلاّ أنّ إقامة البابا طوال هذه المدّة خارج إيطاليا، لم تكن أمرًا مألوفًا ولا مقبولاً من قبل الإيطاليّين، خاصّة وأنّ هؤلاء الباباوات الذين تعاقبوا كانوا جميعًا فرنسيّين، حتّى أنّ الكرادلة، في تلك الحقبة، كادوا أن يكونوا جميعهم فرنسيّين أيضًا. فبدا للناس أنّهم في خدمة ملك فرنسا. وهذا ما أضرّ بوضعيّة باباوات "أفينيون"، وما أدّى إلى الانشقاق الكبير في الكنيسة الغربيّة.

أخيرًا صمّم البابا غريغوريُس الحادي عشر على إعادة الكرسيّ البابويّ إلى روما نهائيًّا، وانتقل إليها بالفعل سنة ١٣٧٨، إلاّ أنّه قد توفّي بعد ذلك بقليل. وإذ جاء موعد الانتخاب، ثار أهالي روما مطالبين بأن يكون البابا من سكّان روما، أو على الأقلّ من

---

١ ـ **غسكونيا** GASCOGNE: دوقيّة فرنسيّة تمتدّ شمالاً حتّى جيروند، كانت مركزًا أسقفيًا

٢ ـ البابوات الستّة هم: يوحنّا ٢٢ (١٣١٦ ـ ١٣٣٤)؛ نيقولاوس ٥ (١٣٢٨ ـ ١٣٣٠)؛ بنديكتس ١٢ (١٣٣٤ ـ ١٣٤٢)؛ كليمنس أو اكليمنضس ٦ (١٣٤٢ ـ ١٣٥٢)؛ إينوقنتيوس ٦ (١٣٥٢ ـ ١٣٦٢)؛ أوربانس ٥ (١٣٦٢ ـ ١٣٧٠) أقام في روما ١٣٦٧ ـ ١٣٧٠ وعاد إلى أفينيون حيث توفّي؛ غريغوريُس ١١ (١٣٧٠ ـ ١٣٧٨).

٣ ـ **فوكلوز** VAUCLUSE: منطقة فرنسيّة عاصمتها أفينيون.

إيطاليا نفسها، بهدف ألاّ يعود إلى أفينيون. فسارع الكرادلة إلى انتخاب أسقف "باري" في إيطاليا الذي اتّخذ اسم أوربانوس السادس (١٣٧٨ ـ ١٣٨٩). وإذ عزم البابا الجديد على إصلاح الأوضاع الفاسدة ووقف منها موقفًا متصلّبًا، ما أزعج الكرادلة الفرنسيّين الذين ادّعوا أنّهم قد انتخبوه تحت تأثير الضغط، وأنّ انتخابه بالتالي غير شرعيّ، فغادروا روما واجتمع القسم الأكبر منهم مرّة ثانية وانتخبوا روبرت الجنويّ (الجنيفي) الذي اتّخذ اسم أكليمنضوس السابع (١٣٧٨ ـ ١٣٩٤) الذي قرّر ملك فرنسا شارل الخامس[١] الاعتراف به، فأقام في أفينيون بعد أن تعذّر عليه الذهاب إلى روما. وهكذا نشأ انشقاق كبير قسم الناس إلى قسمَين وفق الانتماء السياسيّ أو الجغرافيّ، دام نحو أربعين سنة. وبعد وفاة الباباوين، انتخب أنصار كلّ منهما بابا جديدًا، فكان البابا بونيفاتيوس التاسع (١٣٨٩ ـ ١٤٠٤) في روما[٢]، والبابا بنديكتس الثالث عشر (١٣٩٤ ـ ١٤٢٣) في أفينيون. وتحزّبت الدول الغربيّة لهذا أو لذاك ودام طوال مدّة هذا الإنقسام الذي استمرّ حتّى سنة ١٤١٧. وكان من نتائج تلك الفوضى أنّ الملوك تمكّنوا بسهولة من التدخّل في شؤون كنائس بلادهم. وإذ ظنّ كرادلة الطرفَين أنّ الخروج من المأزق قد يتمّ بالدعوة إلى مجمع عقدوه سنة ١٤٠٩ في المدينة التوسكانيّة الإيطاليّة "بيزا PISA" الشهيرة ببرجها المائل، بهدف حلّ قضيّة هذا الإنقسام في الكنيسة اللاتينيّة، قرّر المجتمعون إقالة كلّ من البابَاوين القائمَين، وانتخبوا بدلاً منهما بابا جديدًا هو اسكندر الخامس (١٤٠٩ ـ ١٤١٠)، إلاّ أنّ البابَاوين قد تمسّكا بمنصبَيهما، فأضحى للكنيسة ثلاثة باباوات واتّسع الشقاق. ولمّا توفّي اسكندر خلفه يوحنّا الثالث

---

١ ـ شارل الخامس: وُلد ١٣٣٨، ملك فرنسا ١٣٦٤ ـ ١٣٨٠، تولّى الوصاية بعد أسر الإنكليز لوالده أثناء حرب المئة سنة فرفع معنويّات بلاده، شيّد اللوفر والباستيل، اهتمّ بجمع المخطوطات فوضع بذلك أسس المكتبة الوطنيّة.

٢ ـ سيخلفه قبل نهاية الانقسام إينوقنتيوس السابع (١٤٠٤ ـ ١٤٠٦) ثمّ غريغوريُس الثاني عشر (١٤٠٦ ـ ١٤١٥)

والعشرون[1] (١٤١٠ ـ ١٤١٥) الذي فرض عليه الأمبراطور "سيجسموند[2]" الدعوة إلى مجمع عُقد في كونستانس CONSTANCE في سويسرا، حيث دام أربع سنوات (١٤١٤ ـ ١٤١٨). وإذ خاف يوحنّا الثالث والعشرون أن يُحكم عليه، غادر المجمع فاعتُبر متنحّيًا أي مستقيلاً. فأكّد المجتمعون بالمرسوم (SACROSANCTA) الصادر بتاريخ ٦ نيسان (إبريل) ١٤١٥ على سيادة المجمع على الكنيسة كلّها، بما فيها البابا. وتمّ انتخاب بابا جديد اعترف به الجميع وهو مرتينُس الخامس (١٤١٧ ـ ١٤٣١)، فرضخ غريغوريُس الثاني عشر في روما وتنحّى، وتمّ خلع بنديكتوس المتمركز في أفينيون. وبذلك أنهى المجمع "الإنشقاق الكبير". إلاّ أنّه أعلن مبدأ تفوّق المجمع على البابا، وإذ كان المجمع مصمّمًا على القيام بإصلاح عامّ في الكنيسة من خلال عقد مجامع دوريّة، فرض على البابا الجديد أن يعقد مجمعًا عامًّا كلّ عشر سنوات، ولكنّ البابا مرتينُس لم يقبل بمبدأ تفوّق المجمع إلاّ مُكرهًا، وذلك رغبة منه في إنهاء الإنشقاق. وقد دعا مرتينُس، بحسب الزمان المقرّر، إلى مجمع في "بافيا[3]" سنة ١٤٢٣، ثمّ في بال BÂLE سويسرا ١٤٣١، لكنّ هذا المجمع لم يضمّ من الأساقفة سوى عدد قليل، بل ضمّ عددًا كبيرًا من رجال الإكليروس ومن الجامعيّين، بعضهم من العلمانيّين. وكان الإصلاح على جدول الأعمال. على أنّ أغلبيّة المجمع كانت تعبّر عن معارضتها للبابا، لا سيّما في اختياره مكان لقاء مع ممثّلي الكنيسة اليونانيّة بهدف الوصول إلى إعادة الوحدة. وفجأة، مات البابا مرتينُس في خلال انعقاد المجمع، فخلفه البابا

---

١ ـ لا تأخذ الكنيسة الكثوليكيّة بالاعتبار حبريّة البابا المسمّى يوحنّا ٢٣ هذا، وسوف يحمل الإسم نفسه البابا الذي سيجلس ١٩٥٨ ـ ١٩٦٣.

٢ ـ سيجسموند SIGISMOND DE LUXEMBOURG: ابن شارل الرابع، وُلد ١٣٦٨، ملك هنغاري ١٣٨٧ ـ ١٤٣٧، أمبراطور جرماني ١٤١١ ـ ١٤٣٧، وملك بوهيميا ١٤١٩ ـ ١٤٣٧.

٣ ـ بافيا PAVIE: هي نفسها لمبارديا الإيطاليّة.

أوجانيوس الرابع EUGÈNE (١٤٣١ ـ ١٤٤٧). وفي أيلول (سبتمبر) ١٤٣٧، نقل البابا أوجانيوس مقرّ المجمع سنة ١٤٣٨ إلى مدينة فرّاره FERRARE في إيطاليا، حيث بدأت المحادثات مع الروم في سبيل الاتّحاد. وبقي أنصار مبدأ تفوّق المجمع في مدينة بال، حيث قرّروا عزل البابا أوجانيوس ونصّبوا آخر عوضنا عنه، فلم يلقَوا تأييدًا يُذكر، فزال هذا الإنقسام الأخير سنة ١٤٤٩. في هذه الأثناء، كان البابا أوجانيوس قد نقل سنة ١٤٣٩ مقرّ المجمع مرّة أخرى، وهذه المرّة إلى فلورنسا[1].

كانت الغاية الرئيسة من مجمع فلورنسا الوصول إلى اتّفاق بين الكنيستَين الشرقيّة والغربيّة، حول نقاط اختلفتا عليها منذ زمن. وقد اعتُبر المجمع مسكونيًّا لوجود الشرقيّين فيه. فقد حضره من الشرق ما يزيد على المئة ممثّل على رأسهم الأمبراطور يوحنّا الثامن وبطريرك القسطنطينيّة. ذلك أنّ الأمبراطور كان قد طلب مساعدة الغرب لردّ الأتراك الذين هدّدوا عاصمته. أمام هذا الواقع، طلب البابا أوجينيوس الرابع من الشرقيّين الاعتراف بما تقوله روما في النقاط المختلف عليها كانبثاق الروح القدس ووجود المطهر وأولويّة بابا روما. وبعد أخذ وردّ ودراسات طويلة، قبل الشرقيّون بطلب البابا ووقّع الجميع على معاهدة اتّفاق تامّ، إلاّ واحدًا منهم، هو "مرقس" أسقف أفسس. بينما كان متحمّسًا للوحدة "بيساريون" أسقف نيقية، و"إيزيدورُس" أسقف "كياف"، وكثيرون آخرون. أمّا بخصوص خبز الأفخارستيّا، فتقرّر أن تبقى كلّ كنيسة على موقفها في استعمال الخبز الفطير أو الخبز المخمّر. لكنّ هذا الاتّفاق لم يدم طويلاً، فمن جهة رفضته الكنائس الشرقيّة الأخرى، أي أنطاكيا والإسكندريّة وأورشليم، ومن جهة ثانية لم يتمكّن الأمبراطور من فرضه على شعبه الذي أثاره ضدّ

---

١ ـ راجع: يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨؛ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٠٨ ـ ٢١٢.

الاتّفاق "مرقس" أسقف أفسس وبعض الأساقفة الذين سحبوا تواقيعهم وراحوا يتّهمون الأمبراطور والبطريرك بالخيانة وبأنّهما باعا الإيمان الصحيح بمكاسب سياسيّة مريبة. وبالرغم من ذلك، أُعلنت الاتّفاقيّة في كاتدرائيّة "آجيا صوفيا" في الثالث عشر من كانون الأوّل (ديسمبر) ١٤٥٢. غير أنّه بعد خمسة أشهر، كانت القسطنطينيّة قد وقعت في أيدي الأتراك، وبذلك مات اتّحاد مجمع فلورنسا مع موت أمبراطوريّة بيزنطية. وجاء الحكم التركيّ ليمنع كلّ اتّصال بين الكنيستَين، فعمقت هوّة الفراق وراحت كلّ كنيسة تعيش منفصلة بالفعل عن الأخرى، وأُسدل الستار عن محاولات الوحدة إلى أن كان العمل المسكونيّ واللقاءات بين الشرق والغرب منذ أوائل القرن العشرين[١].

أمّا مسألة تَرَف باباوات النهضة، التي عُدّت من أبرز أسباب خسوف السلطة الباباويّة في أواخر القرون الوسطى، فقد فسّرها باحثون كنسيّون بأنّها جاءت نتيجة تأثّر الباباوات، منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، بعقليّة النهضة الإيطاليّة، فاهتمّ العديد منهم بالفنون الجميلة. ويقول باحث كنسيّ متعمّق إنّ الباباوات، بعد استعادتهم سلطتهم، كان بوسعهم الاهتمام بالإصلاح، لكنّهم انجرفوا في دوّامة السياسة الإيطاليّة والنهضة، فصرفوا أعظم اهتمامهم إلى الاحتفال بتزويج ذويهم وتزيين روما بالمباني الرائعة[٢]. وفي عهد البابا سكستوس الرابع (١٤٧١ ـ ١٤٨٤) بُني في الفاتيكان المعبد الرائع المعروف بالكابيلاّ السكستيّة. وانحطّت الأخلاق العامّة، ولم يرتفع عدّة باباوات إلى المستوى الأخلاقيّ الذي يتطلّبه منهم منصبهم الدينيّ الرفيع. فلم يتمكّنوا من إصلاح الأمور الدينيّة، ولم يفطنوا لأهميّة الأحداث التي نشأت في ألمانيا بتأثير ثورة "لوثر" على أوضاع الكنيسة الكاثوليكيّة. وكانت فشلت محاولات بعض الباباوات،

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢١٢.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

لا سيّما بيوس الثاني (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤) في توحيد جهود الملوك لصدّ هجمات العثمانيّين على أوروبّا[1].

بينَ الفتح العثمانيّ والإصـــــلاح

عند مستهلّ القرن السادس عشر، كان قد نشأ في الغرب أوروبّا جديدة، جرّاء التقلّبات الكثيرة التي حدثت في آخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر، ما أدّى إلى تكوّن الدول الأوروبيّة الحديثة التي تطلّعت إلى الاستقلال عن الدولتين القديمتين: البابويّة والأمبراطوريّة الألمانيّة، وقد سادت أقاليمها ومقاطعاتها سيطرة الملكيّة المطلقة. وزالت يومها في الغرب من رؤوس الناس فكرة الدولة المسيحيّة الواحدة تحت سلطة البابا الرئيس الأوحد، وبرزت بدلاً منها فكرة تأسيس دول مستقلّة وحديثة تجاري العنصريّة القوميّة والمصلحة الاقتصاديّة والعاطفة الوطنيّة. فاجتمع كلّ شعب حول ملكه، وأبى أن ينصاع لأوامر ملك آخر، ولو كان الآمر البابا نفسه. وعظم شأن الطبقة البورجوازيّة، وكثر عدد أفرادها، وتكدّست أموالها، واتّسعت ثقافتها، فعزمت على أن تتخلّص من طبقتَي الإكليروس والأرستقراطيّة النبيلة. فلقد كان لاكتشافات العالم الجديد عبر البحار، مثل أمريكا وطريق الهند، فعل إثراء الشعوب الأوروبيّة بشكل سريع. رافق ذلك نهضة للعلوم واتّساع في نطاق المعرفة بعد إحياء الثقافتَين اليونانيّة والرومانيّة، وكان لاختراع الطباعة تأثيره الفعّال في تلك النهضة على الصعيدين الدينيّ والدنيويّ، وأراد بعضهم، بعد انتشار المؤلّفات بين أيدي الناس، العودة إلى الجذور، فنفر العلماء والمفكّرون من الفلسفة المدرسيّة الكلاسيكيّة، وتعشّق

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص٢٤٨.

بعضهم الفلسفة الوثنيّة القديمة، واعتنقوا أقوالها وآراءها، فتغلغلت إليهم روح الشكّ والإلحاد، فيما تأثّر بعضهم الآخر بنصوص الكتاب المقدّس وآباء الكنيسة، ورأوا وجوب تطهير الكنيسة من بعض الشوائب، إذ إنّ مؤسّسات كنسيّة كثيرة ما عادت تلبّي رغبات المسيحيّين. فقد "أهمل رجال الدين واجباتهم الروحيّة، وتناسى بعض الباباوات أنّ رعاية النفوس هي أهمّ من المحافظة على الممتلكات الماديّة. كلّ هذا قد حمل المؤمنين، من جميع الطبقات الاجتماعيّة، على النظر إلى السلطة الدينيّة العليا نظرة حذرٍ وقلّةِ اعتبار[1]".

أمام هذا الواقع، قام في مطلع القرن السادس عشر أناس صمّموا على الشروع في إصلاح الكنيسة، ولكن على أثر سوء التفاهم وأعمال العنف المتبادلة بين الأطراف، أدّى عمل الإصلاح إلى تمزّق الكنيسة الغربيّة. فكان الإصلاح البروتستانتيّ وما تبعه من انقسامات، كما كان للإصلاح الكاثوليكيّ فعاليّته في الكنيسة اللاتينيّة، وقد رافق كلّ ذلك نشوء الأمبراطوريّة العثمانيّة الإسلاميّة التي طالت الشرق والغرب، فظهرت، في أواخر القرن السادس عشر، ملامح جديدة لجغرافية دينيّة، استقرّت نهائيًّا في القرن السابع عشر عند نهاية حرب الثلاثين سنة عام ١٦٤٨،[2] ما زالت قائمة إلى أيّامنا. وعلى صعيد موازٍ، كان لظهور إسبانيا كقوّة سياسيّة جديدة في الغرب، دخلاً في تطوّر الخارطة الجيوسياسيّة في الغرب. فقد بلغت إسبانيا أوج عزّها في القرن السادس عشر، في عهد كارل الخامس[3] الذي جمع تحت تاج واحد وصولجان واحد

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٠.

٢ ـ سيأتي الكلام على حرب الثلاثين سنة تحت عنوان القرن السابع عشر.

٣ ـ كارل الخامس أو شارلكان CHARLES QUINT: وِلد ١٥٠٠، أحد أباطرة الغرب الألمان ١٥١٩ ـ ١٥٥٦، ملك إسبانيا ١٥١٦ ـ ١٥٥٦، احتلّ تلمسان ١٥٣٠، وتونس ١٥٣٥ ونصف الجزائر ١٥٤١، انزوى في دير "يوست" وتوفّي فيه.

إسبانيا والغرب، وقاوم البروتستانت والعثمانيّين معًا. وأراد ملك فرنسا فرنسوا الأوّل[1] أن يؤمّن تحقيق أطماعه، فتحالف مع السلطان العثمانيّ سليمان الثاني الذي منح فرنسا حقوقًا وامتيازات خاصّة في الشرق[2]. واستأثرت فرنسا، في القرن السابع عشر، بزعامة أوروبّا بعد أن ضعفت إسبانيا وألمانيا، فلعب الدبلوماسيّون والمرسَلون الفرنسيّون في الشرق الأدنى دورًا هامًّا كانت إحدى نتائجه انضمام بعض الكنائس الشرقيّة إلى الكثلكة تحت جناح الكرسيّ الرسوليّ.

ففي تلك الحقبة المفصليّة من التاريخ، كانت حرب المئة سنة[3] قد أدّت في نهايتها سنة ١٤٥٣ إلى تحديد أراضي كلّ من فرنسا وإنكلترا. وقد وطّد ملوك فرنسا سلطتهم في جميع المجالات، وفي سنة ١٥١٦ نال الملك فرنسوا الأوّل من البابا لاون العاشر (١٥١٦ ـ ١٥٢١) عبر معاهدة عُقدت في "بولونيا[4]"

١ ـ **فرنسوا الأوّل** FRANÇOIS (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧): ملك فرنسا ١٥١٥، حارب كارل الخامس السالف الذكر، أقرّ الفرنسيّة لغة رسميّة في بلاده عوض اللاتينيّة، على أيّامه أُبرمت معاهدة الامتيازات الأجنبيّة بينه وبين السلطان سليمان القانوني.

٢ ـ **الامتيازات الأجنبيّة**: هي إنعامات خاصّة في التجارة والأحوال الشخصيّة تكرّم بها الباب العالي العثمانيّ على بعض دول أوروبّا بشأن رعاياها القاطنين في الأمبراطوريّة العثمانيّة، أشهرها الإمتيازات الفرنسيّة هذه التي عُقدت أولاها بين فرنسوا الأوّل والسلطان سليمان القانوني ١٥٣٥، وتجدّدت مرارًا ١٥٦٩، ١٥٨١، ١٥٩٧، ١٦٠٤، ١٦٠٧، ١٦١٢، ١٦١٤، ١٦٧٣، ١٧٤٠، فأعطت فرنسا حريّة حماية المرسلين وزوّار الأراضي المقدّسة ما أدّى إلى بسط حماية فعليّة للمسيحيّين الشرقيّين خاصّة الموارنة، وقد نال بموجب تلك الامتيازات الأجنبيّة امتيازات تجاريّة كلّ من إنكلترا ١٥٧٩، وهولندا ١٦١٣، ثمّ إسبانيا وروسيّا، ألغيت الامتيازات الأجنبيّة في ٩ أيلول (سبتمبر) ١٩١٤ قبل دخول تركيا الحرب.

٣ ـ **حرب المئة سنة**. بين إنكلترا وفرنسا ١٣٢٧ ـ ١٤٥٣، سبب اندلاعها أنّ ملوك إنكلترا الذين كانوا بوصفهم دوقات مقاطعة "جويين" الفرنسيّة أتباعًا لملوك فرنسا عارضوا سياسة العرش الفرنسيّ في جنوحها إلى تركيز السلطة في يده، ثمّ ادّعاء إدوارد الثالث ملك إنكلترا أحقّيته بالتاج الفرنسيّ بوصفه حفيد فيليب، إلى خلافات على امتلاك بعض الأراضي...

٤ ـ **بولونيا** BOLOGNE: مدينة في شمال إيطاليا الوسطى ترجع إلى عهد الرومان، انتقلت في القرن الثامن إلى حكم البابا، أصبح لها نظام حكم مستقلّ (كوميون) في القرن الثاني عشر، وفي القرنَين الرابع عشر والخامس عشر ساعد النزاع بين "الغولفيّين" أسرًا عديدة على السيطرة على المدينة وأهمّها أسرة "بنتفوليو"، أعيد الحكم البابويّ ١٥٠٦ الذي استمرّ حتّى توحيد إيطاليا ١٨٦٠ في ما عدا الحقبة ١٧٩٧ ـ ١٨١٥.

حقّ تعيين أساقفة المملكة ورؤساء أديرتها، فأصبح للملك سلطة واسعة جدًا على كنيسة فرنسا. ومع أنّ إنكلترا لم تكن يومها سوى مملكة صغيرة، فقد قام أحد ملوكها: هنري الثامن (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) بدور طليعيّ سياسيّ ودينيّ في أوروبّا. وفي إسبانيا، أدّى زواج "إيزابلاّ القشتليّة[١]" و"فرديناندُس الأرغوني[٢]" سنة ١٤٦٩ إلى ترسيخ وحدة الدولة. وكان استيلاء فرديناندس على المعقل العربيّ الأخير في الأندلس: غرناطة، سنة ١٤٩٢ توكيدًا على استعادة الأراضي الإسبانيّة وتوحيدها نهائيًا.

رافق ذلك إيلاء الملوك الكاثوليك عنايتهم لمصالح الكنيسة، معتبرين إيّاها من مصالح الدولة، فأعادوا تنظيم "محاكم التفتيش[٣]" سنة ١٤٧٨، ولكنّها أصبحت مؤسّسة وطنيّة يستخدمونها لمصالحهم. وكانت تلك المحاكم تلاحق بلا رحمة جميع مَن اعتبرتهم "هراطقة"، واليهود الذين لم يكن اهتداؤهم تامًّا. في الوقت نفسه، برزت قضيّة "قمع السحر" إثر إصدار البابا إينوقنطيوس الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢) براءة سنة ١٤٨٤ التي وصف فيها "حيلَ الشياطين" الذين يجرّبون النساء والرجال ليلاً، ودعا إلى قمعهم، وإذ كلّف راهبَين دومينيكيَّين بهذه المهمّة، حرّرا مقالاً في "الشياطين وفي

١ ـ إيزابلاّ القشتليّة ISABELLE DE CASTILLE: وريثة عرش قشتالة CASTILLA وهي منطقة تاريخيّة في وسط إسبانيا، تقسمها الجبال إلى قشتالة القديمة في الشمال وحوض نهر "إلدورادو"، وإلى قشتالة الجديدة في الجنوب التي يرويها نهرا "التخة" و"غواديانا" ومن مدنها مدريد، نشأت في قشتالة منذ القرن التاسع إمارة عاصمتها "برغس" في قشتالة الشماليّة، ثمّ انضمّت إلى مملكة ليون ١٢٣٠ وأخذت بالتوسّع على حساب الإمارات العربيّة قبل أن تتّحد مع "الأرغون" بعد هذا الزواج.

٢ ـ فرديناندُس الأرغوني FERDINAND D'ARGON (١٤٥٢ ـ ١٥١٦): هو فرديناند الثاني، ملك "أرغون" أوّلاً، وهو المعروف بالكاثوليكيّ، ملك قشتالة ١٤٧٤ ـ ١٥٠٤ بعد زواجه وريثة عرش قشتالة إيزابيلاّ، أخذ غرناطة من العرب ١٤٩٢ ووحّد إسبانيا تحت سلطته ونظّم إدارتها، في عهده اكتشف كريستوف كولومبُس أميركا.

٣ ـ نشأت "محكمة التفتيش" بالمعنى الدقيق ١٢٢٠ ـ ١٢٣٠ حين تعاونت السلطة المدنيّة والسلطة الدينيّة في البحث المنظّم (التفتيش) عن "الهراطقة" وفي معاقبتهم، وقد عمّت الحملة المنظّمة مجمل الكنيسة، وكانت عبارة "العقوبة المطلوبة" يومها تعني "الإعدام حرقًا"، فقد تغلّب في تلك المحاكم الوجه العقابيّ على الوجه العلاجيّ، مع أنّ الموت لم يكن أكثر العقوبات ورودًا، إذ كان هناك أيضًا السجن والغرامة وفرض الحجّ إلى الأراضي المقدّسة.

طريقة التصرّف للحصول على إقرارات السحرة والساحرات" الذين استمرّت ملاحقتهم حتّى منتصف القرن السابع عشر، والمقول إنّ عدد الذين هلكوا بالإحراق على مدى قرنين جرّاء تلك الملاحقة قد بلغ المئة ألف.

في ذلك الزمن، كانت بولندا تشكّل حدود المسيحيّة اللاتينيّة أمام العالم المسيحيّ الأرثذوكسيّ. وكانت مملكة كبيرة ذات حدود غير محكمة، تمتدّ من "ليتوانيا[١]" إلى "أوكرانيا[٢]" وكانت مؤسسات الدولة واهية. فيما كان ملكا موسكو الروسيّان إيفان الثالث (١٤٦٢ ــ ١٥٠٤) وإيفان الرابع (١٥٣٠ ــ ١٥٨٤) يعتبران نفسيهما وارثي القسطنطينيّة، وموسكو "روما الثالثة"، وكانت علاقة كلّ منهما بأوروبّا الغربيّة نادرة. وكان الأتراك العثمانيّون، منذ استولوا على القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣، قد استمرّوا يتقدّمون إلى قلب أوروبّا الشرقيّة مسيطرين على مناطق البلقان المسيحيّة الأرثذوكسيّة

١ ـ ليتوانيا LETTONIE, LATVIJA دولة أوروبيّة تقع شرق بحر البلطيق، دخلتها المسيحيّة في القرن الرابع عشر، كانت جزءًا من بولندا التي احتلّتها ١٥٦١، انتقلت الى السويد ١٦٢١، وإلى روسيا ١٧١٠، جمهوريّة مستقلّة ١٩١٨عاصمتها ريغل، ضمّت إلى جمهوريّات الاتّحاد السوفياتي ١٩٤٠، احتلّها الألمان مرة ثانية ١٩٤٠ ـ ١٩٤٤ حيث عادت إلى الاتّحاد السوفياتي.

٢ ـ أوكرانيا UKRAINE : من الجمهوريّات التأسيسيّة للإتّحاد السوفياتي السابق، تقع جنوب غربي البلاد، تُسمّى أيضًا "روسيا الصغرى" قاعدتها "كييف"، عدد سكّانها نحو ٥٢ مليون نسمة، ٨٠٪ منهم أوكران وهم شعب سلافيّ شرقيّ، أقلّيّاتها بولنديّة وروسيّة ويهوديّة، خضع معظم أوكرانيا لليتوانيا بعد غزو المغول لروسيا وأصبح جزءًا من الدولة البولنديّة الليتوانيّة، اتّحدت كنيستها مع روما ١٥٩٦ ما أدّى إلى حدوث ثورة داخليّة من قبل "القوزاق" المستقلّين صوريًّا، بعد حرب طويلة بين بولندا وروسيا تنازلت بولندا عن شمال شرق أوكرانيا بما فيه كييف لروسيا ١٦٦٧، أدّى ضمّ روسيا لـ"خانيّة القرم" ١٧٨٣ وتقسيمات بولندا ١٧٧٢ و١٧٩٣ و١٧٩٥ إلى استيلاء روسيا على أوكرانيا باستثناء "غاليسيا" (النمساويّة) و"روثينيا" (المجريّة)، أعلن القوميّون الأوكرانيّون استقلالهم ١٩١٨ وشهدت سنوات ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ صراعًا داميًا بين القوميّين الأوكرانيّين، الجيش الأحمر، الجيش الأبيض تحت قيادة دينيكين، والبولنديّين، نجح السوفيات في السيطرة على أوكرانيا فأصبحت إحدى الجمهوريّات التأسيسيّة الأولى في الجمهوريّات السوفياتيّة الاشتراكيّة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥، ضمّت إليها غاليسيا الشرقيّة وبوكوفيا الشماليّة وبسارابيا الجنوبيّة وروثينيا نتيجة الحرب العالميّة الثانية، انضمّت إلى هيئة الأمم المتّحدة وفي ١٩٥٤ انضمّ القرم إلى أوكرانيا، أعلنت استقلالها ١٩٩١، انضمّت إلى روسيا وبيلاروسيا لتأسيس كومنولث الدول المستقلّة في ٨ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٩١ ما عجّل بانهيار الاتّحاد السوفياتي.

ومعرّضين دول الغرب المسيحيّ، وبخاصّة المجر* والنمسا، للخطر. فيما حافظت الكنيسة اليونانيّة، تحت الحكم التركيّ، على نظامها الإداريّ، حيث كانت حصانة لبطريرك القسطنطينيّة وأساقفتها المتمتّعين بسلطة مدنيّة على جميع المسيحيّين في الأمبراطوريّة العثمانيّة، ولكن تحت أمرة السلطان. وفي ظلّ هذا الواقع، سعى بطريرك القسطنطينيّة إلى إخضاع كنائس الأمبراطوريّة العثمانيّة لكرسيه، وبخاصّة كنائس "صربيا[١]" وبلغاريا* و"رومانيا[٢]" وسواها من كيانات أوروبّا الشرقيّة.

---

١ ـ صربيا SERBES : جمهوريّة تأسيسيّة عدد سكّانها نحو ١٠ ملايين نسمة، كانت هي والجبل الأسود أكبر الجمهوريّات التي كوّنت يوغوسلافيا، عاصمتها بلغراد، اعتنق أهلها المسيحيّة في القرن التاسع، خضعت لسيادة الأمبراطوريّة البيزنطيّة وكوّن شعبها مملكة مستقلّة ١٢١٧، لها ارتباط تاريخيّ بالكنيسة الأرثوذكسيّة الشرقيّة، دخلها الأتراك حربًا في معركة كوسوفو ١٣٨٩ وضمّوها إلى سلطنتهم ١٤٥٧، أكرهت روسيا السلطان العثمانيّ في معاهدة أدرنة على الاعتراف بصربيا إمارة خاضعة لسيطرته الشكليّة ١٨٢٨، بقيت على الحياد في حرب القرم ولكنّ مؤتمر باريس ١٨٥٦ وضع الإمارات تحت ضمان الدول العظمى الأوروبيّة مع اعترافه بسيادة السلطان عليها، جلت آخر الكتائب التركيّة عن صربيا ١٨٦٧، اعترف مؤتمر برلين باستقلالها ١٨٧٨، حقّقت توسّعًا في حرب البلقان ١٩١٢ ـ ١٩١٣ وصارت الدولة السلافيّة الأولى في البلقان، كان اغتيال الأرشيدوق فرنسيس فرديناند وليّ عهد النمسا علي يد طالب صربيّ الشرارة التي أشعلت نار الحرب العالميّة الأولى ١٩١٤، انهزمت أمام النمسا ١٩١٥ وانسحب جيشها وحكومتها إلى جزيرة "كورفو" حيث أعلن ١٩١٧ مؤتمر الشعوب السلافيّة الجنوبيّة اتّحاد صربيا وكرواتيا وسلوفانيا والجبل الأسود تحت لواء الملك بطرس الأوّل ملك صربيا وأعلن رسميًا قيام الدولة الجديدة التي اتّخذت في ما بعد إسم يوغوسلافيا ١٩١٨، اكتسحت الجيوش الألمانيّة يوغوسلافيا ١٩٤١، عندما وضعت الحرب العالميّة الثانية أوزارها ١٩٤٥ جعل الدستور اليوغوسلافيّ صربيا إحدى جمهوريّات الدولة الاتّحاديّة وسلخ عنها مقدونيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك وفي ١٩٩٠ طالبت كرواتيا وسلوفينيا بالحصول على الاستقلال فقامت صربيا برئاسة سلوبودان ميلوسوفيتش بمحاولة الاحتفاظ بيوغوسلافيا تحت سيطرة صربيا وضمّ المناطق الصربيّة في الجمهوريّات الأخرى لتكوين صربيا الكبرى فقامت الحرب في كرواتيا والبوسنا والهرسك وفرضت الأمم المتحدة عقوبات اقتصاديّة على صربيا، إلى أن كان التدخّل العسكري التأديبيّ من قبل الولايات المتّحدة الأميركيّة وحلفائها الغربيين الذي أنهى حكم ميلوسوفيتش واعتقله وأحاله إلى المحكمة الدوليّة بتهمة ارتكاب جرائم حرب ووضع حدًّا للنزاع.

٢ ـ رومانيا ROUMANIA : جمهوريّة في أوروبا الجنوبيّة الشرقيّة، نحو ٢٣ مليون نسمة أغلبيّتهم روم أرثوذكس وفيها نسبة من الكاثوليك واليهود والمسلمين، فيها أقلّيات كبيرة العدد من المجر والألمان، لغة السواد الأعظم الرومانيّة المشتقّة من اللاتينيّة، عاصمتها بوخارست، كانت ولاية رومانيّة في القرنين الثاني والثالث، خضع أمراؤها لسلطان تركيا منذ القرن الخامس عشر، وحّد "ميشيل الشجاع" ولاياتها تحت حكمه وتمزّقت أمبراطوريّته بعد موته ١٦٠١، عاد الترك وحكموها عبر الولاة المعيّنين ١٧١١ ـ ١٨٢١، دخلت تحت النفوذ الروسيّ في معاهدة "كوتشوك قينارجي" ١٧٧٤، وقعت فيها ثورة داخليّة ١٨٤٨ أخمدتها روسيا،

في هذه الأثناء، كانت قضيّة الإصلاح وبروز الإصلاحيّين تشكّل الأحداث الأكبر على مسرح الكنيسة في دول الغرب قاطبة، وقد أفردنا جزءًا خاصًّا بهذا الموضوع يمكن الرجوع إليه[2]. وما لا بدّ من تبيانه هنا أنّ الحركة الإصلاحيّة قد أوجدت انفصامًا جديدا في كنيسة الغرب وشعوبه ودوله، وقد تريّث الأمبراطور كارل الخامس* طويلاً قبل أن يفقد الأمل بإعادة الوحدة إلى الأمبراطوريّة. لقد فكّر، على التوالي، وأحيانًا في الوقت نفسه، في عقد مجمع عامّ وفي النقاش الودّيّ وفي القتال المسلّح. وكان الأمراء الكاثوليك من جهة، والمناصرون للإصلاح من جهة ثانية، قد انتظموا في تحالفات متنافسة مستعدّة لخوض حرب أهليّة. وكان مجلس "إسبيرا[3]" سنة ١٥٢٨ قد أتاح للأمراء حريّة الإصلاح في نطاق حكم كلّ منهم. ولكنّ مجلسًا آخر عُقد في إسبيرا أيضا سنة ١٥٢٩، سحب هذا الامتياز. عندئذ قدّم الأمراء الذين اختاروا الإصلاح احتجاجا رسميّا، فجاء من هنا لقب "البروتستانت PROTESTANTS" أي "المحتجّون" الذي استُعمل منذ ذلك التاريخ للدلالة على جميع الذين انفصلوا عن روما على أثر قيام

قسّمها مؤتمر باريس إلى إمارتين مستقلّتين (الأفلاق والبغدان) ١٨٥٦ باستقلال ذاتيّ وتحت السيادة التركيّة بضمان الدول العظمى، اتّحدت الإمارتان ١٨٦١ تحت اسم رومانيا، انضمّت إلى روسيا في حربها ضد تركيا، ظفرت بالاستقلال التام وأُعلنت مملكة ١٨٨١، احتفظت بحيادها في حرب البلقان الأولى ولكنّها دخلت الحرب الثانية ضد بلغاريا ١٩١٣ وانتزعت منها أراض، انضمّت الى الحلفاء في الحرب العالميّة الأولى فهزمتها ألمانيا واحتلّتها، إلاّ أنّ معاهدتي "سان جرمان" ١٩١٩ وتريانون" ١٩٣٠منحتاها ترانسلفانيا والبانات وبوكوفينا كما ضمّتا إليها ١٩١٨ بارابا التي انتزعتها من روسيا السوفياتيّة وانضمّت رومانيا إلى "الاتفاق الوذي الصغير" ١٩٢١ لكي تؤمّن مكاسبها، انضمّت إلى دولتي المحور شريكًا محايدًا، تحت ضغط ألمانيا وروسيا تنازلت عن شمال بوكوفينا وبساراببا لروسيا، وعن جنوب دبروجه لبلغاريا، وعن جزء من ترانسلفانيا وبعض الأراضي الواقعة على الحدود لهنماريا ١٩٤٠، أعلنت الحرب على روسيا ١٩٤١ واسترجعت بمقتضى معاهدة باريس ١٩٤٧ ممتلكاتها ما عدا بوكوفينا وبساربيا وجنوب دبروجه، جمهوريّة شعبيّة ١٩٤٨، وضعت دستورًا جديدًا ١٩٦٥، انضمّت إلى الأمم المتّحدة وإلى حلف وارسو ١٩٥٥، ثار الشعب ضدّ حكومة تشاوشسيسكو ١٩٨٩ فتمّ عزله وإعدامه هو وزوجته.

٢ - راجع الجزء السادس عشر من هذه الموسوعة.

٣ - إسبيرا SPIRE وفي الألمانيّة SPEYER: مدينة ألمانيّة على الرين، تحتضن كاتدرائيّة من القرن الحادي عشر

الحركة الإصلاحيّة. وفي سنة ١٥٣٠ أراد كارل الخامس أن يبتّ في المسألة الدينيّة بالإقناع، وذلك في مجلس "أوغسبورغ"[١]. طالبًا أن يتقدّم كلّ طرف بتعاليمه. فقام "ميلانغتن" باسم أنصار "لوثر"[٢] وحرّر مذكّرة سمّاها "شهادة إيمان أوغسبورغ" ما زالت حتّى اليوم مرجع جميع أنصار لوثر. وقد أبدى ميلانغتن كثيرًا من الاعتدال، محاولاً تفادي أهمّ المسائل المتنازَع عليها[٣].

واصل المذهب اللوثريّ انتشاره. وقد ناصر الأمراء الألمان مذهب لوثر لأنّهم، بحسب المؤرّخين الكاثوليك، رأوا فيه واسطة ناجعة للاستيلاء على ممتلكات الكنيسة الواسعة[٤]. وإذ لم ينجح الحوار ولا انعقاد المجمع "التريدنتيني" في إعادة السلام والوحدة الدينيّة، قام الأمبراطور كارل الخامس بإعلان الحرب على البروتستانت؛ إلاّ أنّ المحالفة المعقودة بين السلطان العثمانيّ سليمان القانوني وملك فرنسا فرنسوا الأول قد أرغمته على التساهل معهم[٥]، فعقد اتّفاقيّة أوغسبرغ سنة ١٥٥٥ التي أقرّت وجوب الإعتراف بكيان الكنائس البروتستانتيّة في الدولة الألمانيّة، وفرضت المذهب البروتستانتيّ على السكّان متى كان الأمير بروتستانتيًا، وفيما احتفظ بعض الأمراء بممتلكات الكنيسة التي "اغتصبوها[٦]"، بقي آخرون على الكثلكة. وفي سنة ١٦١٨ حاول الأمبراطور فرديناندُس الثاني[٧] محاولة جديدة لقمع الأمراء البروتستانت في

---

١ ـ **أوغسبورغ** AUGSBOURG: مدينة في جنوب غرب ألمانيا (بافاريا).

٢ ـ بخصوص الإصلاحيّين وقادتهم راجع الجزء السادس عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

٤ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٦٢.

٥ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

٦ـ المرجعان السابقان.

٧ ـ **فرديناندُس الثّاني** FERDINAND (١٥٧٨ ـ ١٦٣٧): ملك بوهيميا والمجر ثمّ أمبراطور ١٦١٩، سبّب عداؤه للبروتستانتيّة حرب الثلاثين سنة.

ألمانيا، فكسر عدّة محالفات قاموا بها. إلاّ أنّ فرنسا خافت على نفسها من انتصار الأمبراطور، فآزرت البروتستانت وساندتهم. فعُقدت سنة ١٦٤٨ معاهدة "وتسفالي" التي منحت الناس الحريّة الدينيّة وأقرّت تجزئة ألمانيا وأضعفت سلطة الأمبراطور. وانتشر مذهب لوثر في معظم دويلات ألمانيا والدول الاسكندينافيّة (السويد ١٥٢٧، والدانمارك والنروج ١٥٣٧) وهولندا حيث أصبح المذهب الكالفينيّ دين الدولة، إضافة إلى دول البلطيق. ولمّا مات لوثر في ١٩ شباط (فبراير) ١٥٤٦ كان "كلْفين" الفرنسيّ قد دعا لتعاليم جديدة فيها الكثير من أقوال لوثر. فيما كان الشعب غير معنيّ بالأمر لأنّه لم يكد يشعر بأيّ تغيير لأنّ معظم العادات القديمة بقيت كما هي[١].

أمّا في إنكلترا، فقد قام بين الملك هنري الثامن[٢] وبين الكرسيّ الرسوليّ نزاع بسبب أنّ الأوّل لم يحصل من البابا على حكم بفسخ زواجه من "كاترينا الأرغونيّة D'ARGON" الإسبانيّة الأصل التي لم تنجب له إلاّ بنتًا، فطالب الإكليروس الإنكليزيّ بمنحه الفسخ وأعلن نفسه رئيس كنيسة إنكلترا سنة ١٥٣٤، وأعدم الذين ظلّوا أمناء لروما، ومنهم "توماس مور[٣]" والأسقف "فيشر FISHER" وكثيرون آخرون. إلاّ أنّ هنري الثامن حافظ على جوهر الإيمان الكاثوليكيّ. ولمّا كان وريثه إدوارد السادس ما زال

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٤٠.

٢ ـ **هنري الثامن** (١٤٩١ ـ ١٥٤٧): ملك إنكلترا ١٥٠٩ ـ ١٥٤٧، انتصر على الفرنسيّين ١٥١٣، انفصل عن الكنيسة الكاثوليكيّة ١٥٣٥، تزوّج ستّ نساء.

٣ ـ **السير توماس مور** MORE (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥) سياسيّ وكاتب إنكليزيّ، قصى عامين في أوكسفورد حيث تأثّر بالتعليم الجديد، ظلّ مهتمًا بالمذهب الإنسانيّ بعد أن كرّس حياته لدراسة القانون، كان كبير وزراء هنري الثامن واعتزل منصبه ١٥٣٢، أعدمه هنري لعدم موافقته على طلاقه فاتّهمه بالخيانة مع أنّه كان صديقًا له شغل مناصب هامّة في عهده، ألّف كتاب "يوتوبيا" العالميّ المعروف بكتاب "المدينة الفاضلة" نُشر باللاتينيّة ١٥١٦ وبالانكليزيّة ١٥٥١، أوجز فيه أراءه التربويّة فوصف مدينة مثاليّة تعمّ فيها الاشتراكيّة والتعليم والتسامح الدينيّ، وله مقالات دينيّة عديدة منها "دفاع سير توماس مور" ١٥٣٦، و"حياة جون بيكوس" ١٥١٠، ألّف "روبرت بولت" مسرحيّة عن حياته بعنوان "رجل لكلّ العصور"، تعتبره الكنيسة الكاثوليكيّة شهيدًا قدّيسًا.

قاصرًا (١٥٤٧ ـ ١٥٥٣) تغلغلت الأفكار "الكلفينيّة" إلى "كتاب الصلوات" سنة ١٥٤٩. وإلى "البنود الإثنَين والأربعين" سنة ١٥٥٢. وحين أصبحت "ماري تودور TUDOR"، إبنة هنري الثامن من كاترينا الأرغونيّة، ملكة، أعادت المذهب الكاثوليكيّ وأعدمت أكثر من مئتَي معارض فلُقّبت بالملكة السفّاحة. لكنّ إليزابيت الأولى (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) أنشأت المذهب "الأنكليكانيّ" في صيغته النهائيّة، واتّخذت لقب "حاكمة المملكة المطلقة في الأمور الروحيّة والزمنيّة"، وأعادت "كتاب الصلوات" الذي وافق عليه إدوارد السادس، وأصدرت "البنود التسعة والثلاثين" التي يقوم عليها الإيمان الأنكليكانيّ. وتمّت ملاحقة الكاثوليك والمنشقّين البروتستانت. واعتنقت اسكتلندا المذهب الكالفينيّ، وحصلت الكنيسة الإنجيليّة الاسكتلنديّة (المشيخة) على نظامها الأساسيّ الرسميّ سنة ١٥٦٠. أمّا إيرلندا فرفضت رفضًا باتًّا الإصلاح الذي حاولت إنكلترا فرضه عليها.

وفي فرنسا تأرجحت سياسة الملوك في تلك الحقبة، ما أدّى إلى منازعات أهليّة قُتل في خلالها سنة ١٥٤٥ ثلاثة آلاف من الإصلاحيّين. بينما أُنشئت كنائس بروتستانتيّة كثيرة في عدّة مدن فرنسيّة. وفي سنة ١٥٥٩ عُقد سينودس باريس الذي حضره ممثّلون من نحو خمسين كنيسة مصلحة، حيث حرّروا وثائق "النظام" و"شهادة الإيمان". وفي سنة ١٥٧١ أعاد سينودوس "لاروشيل[١]" النظر في النصوص. لكنّ البروتستانت الملقّبين بالـ"هوغنو HUGUENOTS" أي "المتحالفين" قد ألّفوا حزبًا سياسيًّا قصد الدفاع عن حريّته بالسلاح. وفي محاولة توفيقيّة قامت الوصيّة على العرش "كاترينا دي ميديسيس DE MEDICIS" والمستشار "ميشال دي لوبيتال DE L'HÔPITAL" بمنح الهوغنو بعض الحريّات (١٥٦١ و١٥٦٢)، لكنّ مجزرة البروتستانت

١ ـ لاروشيل LA ROCHELLE: عاصمة قسم "شارنت ـ ماريتيم" في غرب فرنسا، أهمّ موانئ فرنسا على الأطلنطيّ في القرون الوسطى، كانت آخر معاقل "الهوغنو"، استولت عليها قوّات ريشوليو بعد حصار ١٤ شهرًا ١٦٢٧ ـ ١٦٢٨.

في "فاسي[1]" سنة ١٥٦٢ كانت بداية الحروب الدينيّة التي استمرّت حتّى سنة ١٥٩٨. وكانت الحلقة الأدمى في تلك الحروب مجزرة "سان برتِلمي[2]" في ٢٤ آب (أغسطس) ١٥٧٢. فقد ادّعت كاترينا دي ميديسيس أنّها تريد إحباط مؤامرة بروتستانتيّة، فأفنت جماعة الهوغنو بباريس، وسار على مثالها العديدون في مدن فرنسيّة، ما أدّى إلى سقوط عشرات ألوف الضحايا. وبعد أن ارتدّ هنري الرابع[3] عن البروتستانتيّة، أعاد السلام بتوقيعه "مرسوم نانت[4]" سنة ١٥٩٨، الذي نصّ على حلّ وسط عدّه الكثيرون موقّتًا، فتمّ الاعتراف بحريّة الضمير، وأُقرّت حريّة العبادة مع بعض الشروط، وبذلك حصل البروتستانت على بعض الضمانات القانونيّة، وبقيت فرنسا الرسميّة كاثوليكيّة.

وفي نهاية القرن السادس عشر، كان العالم المسيحيّ في أوروبّا قد انقسم إلى عدّة كنائس معارضة لروما: اللوثريّة أو الإنجيليّة، والكنائس الكالفينيّة. فبُترت الكنيسة الرومانيّة إلى حدّ بعيد، لكنّها ستقوم بنهضة محاولة إصلاح نفسها، وسيندفع بعض الأمراء الكاثوليك إلى استعادة السيطرة بالسلاح. وهذا ما يُسمّى أحيانًا "الإصلاح المضادّ[1]".

---

١ ـ فاسي WASSY: مدينة في مقاطعة المارن العليا، قضى بنتيجة تلك المجزرة نحو ٦٠ بروتستانتيًا من أبنائها على يد أتباع دوق غيز ما أشعل حرب الديانات في فرنسا.

٢ ـ سان برتلمي SAINT BARTHELEMY: إحدى مقاطعات الأنتيل الفرنسيّة التابعة للغوادلوب.

٣ ـ هنري الرابع (١٥٥٣ ـ ١٦١٠) ملك فرنسيّ ١٥٨٩ ـ ١٦١٠ خلفًا لنسيبه هنري الثالث، كان بروتستانتيًا فنشأت بسبب ذلك أزمة سياسيّة، حارب معارضيه ثمّ ارتدّ إلى الكثلكة ١٥٩٣، دخل باريس ١٥٩٤ وانتصر على الإسبان، قضى اغتيالاً ١٦١٠ بعد إذاعته مرسوم نانت ١٥٩٨ الذي وضع حدًّا للحروب الدينيّة في بلاده، به يبدأ الفرع البوربونيّ في السلالة الفرنسيّة.

٤ ـ نانت NANTES: مدينة ومرفأ في غرب فرنسا وقاعدة محافظة اللوار الأطلسيّ على نهر اللوار، فيها مركز أسقفيّ، وقد أصدر هنري الرابع قرار أو مرسوم نانت في ١٣ نيسان (إبريل) ١٥٩٨ وحدّد فيه وضع الكنيسة الكلفينيّة القانونيّ في المملكة الفرنسيّة وما يسمح لها من حريّة دينيّة وحقوق سياسيّة وعسكريّة فوضع حدًّا للحروب الدينيّة، ألغى هذا القرار لويس الرابع عشر في ١٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٦٨٥ وشنّ حملة تضييق واضطهاد على الكلفينيّين فهاجر قسم منهم إلى سويسرا وألمانيا وهولندا.

٥ ـ كميي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

الإصـــــــلاحُ الكَاثُوليكـــــــــــيّ

فِي القَرنَين السَّادِس عَشَر والسَّابِع عَشَر

كانت الحركة البروتستانتيّة قد تزامنت مع ظهور الرغبة في الإصلاح داخل الكنيسة الرومانيّة. فقد لاحظت الكنيسة الكاثوليكيّة أنّ الخطر الدينيّ قد أحدق بها من كلّ جانب. فالشعوب الجرمانيّة انفصلت، والأخلاق المسيحيّة تدهورت، وسلطة البابا ضعفت، والعقائد الدينيّة تزعزعت، وعزائم رجال الإكليروس تراخت. فجمعت قواها وحقّقت الإصلاح المنشود. وقد تمّ ذلك بسعي البابوات، ونشاط الرهبانيّات، وقرارات المجمع "التريدنتيني".

كان أوّل البابوات المصلحون، في تلك الحقبة من التاريخ، البابا بولس الثالث (١٥٣٤ ـ ١٥٤٩) الذي أمر بعقد المجمع التريدنتينيّ. قبل ذلك التاريخ، كان البابا "هدريانُس السادس Hadrien" (١٥٢٢ ـ ١٥٢٣) الهولندي الجنسيّة، وهو آخر بابا غير إيطاليّ قبل انتخاب يوحنّا بولس الثاني البولونيّ المعاصر، قد اعترف بأخطاء الكنيسة الرومانيّة، لكنّ ولايته لم تدم طويلاً. أمّا خلفه اقليمنضُس السابع (١٥٢٣ ـ ١٥٣٤) فتحالف مع الملك الفرنسيّ فرنسوا الأوّل*، وقامت جيوش الأمبراطور التي كان بعض عناصرها من اللوثريّين، ودمّرت روما في أيّار (مايو) ١٥٢٧، حيث كانت سبعة أيّام من النهب والاغتصاب وتدنيس المقدّسات. غير أنّ بولس الثالث قد سلك خطاً مغايراً، وصمّم على عقد مجمع إصلاحيّ. فشكّل لجنة إصلاحيّة تضمّ كرادلة ممتازين. وفي أيّار (مايو) ١٥٤٢، أعاد البابا تنظيم "محكمة التفتيش الرومانيّة*" فاتّخذت تسمية "مجمع الإيمان". ثمّ توصّل المجمع إلى الانعقاد في "ترانتو[1]" في ١٣ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٤٥. وقد فرض الأمبراطور كارل الخامس* الاجتماع في "ترانتو" أملاً

---

١ ـ ترانتو Trento: مدينة في شمالي إيطاليا، عُقد فيها المجمع الإيطاليّ التاسع عشر فنُسب إليها وعُرف بالمجمع التريدنتيني.

منه في أن يستطيع الألمان أن يأتوا إلى تلك المدينة الأمبراطوريّة ذات الثقافة الإيطاليّة. على أنّه لم يحضر، عند افتتاح المجمع، سوى ٣٤ عضوًا من أصل ٥٠٠ أسقف كاثوليكيّ في العالم. لكنّ العدد ارتفع في أثناء المجمع حتّى بلغ ٢٣٧ في الجلسات الأخيرة. وكان معظم الآباء من حوض البحر المتوسّط، وشكّل الإيطاليّون غالبا ثلاثة أرباع المجلس، أمّا عدد الفرنسيّين فلم يرتفع إلاّ في النهاية. ولقد اعتبر أكثر الباحثين أنّ هذا المجمع كان بمثابة المسعى الأخير الذي يحاول به أهل الجنوب ملاقاة أهل الشمال، تفاديًا لشرّ أتى من الشمال. لكنّ أهل الشمال لم يحضروا لأسباب عدّة منها: تدخّل بعض السفراء والأمراء، والاحتفال بعيدَي الميلاد ورأس السنة، والنزاع حول مسائل بروتوكوليّة تختصّ بحقوق التصدّر، والذعر الناتج عن إشاعة الأخبار عن الأوبئة والحروب...؛ في أيّ حال، إستمرّ المجمع طويلاً، فبعد عقد سلسلة من الاجتماعات في ترانتو ١٥٤٥ ـ ١٥٤٧، انتقل الجميع إلى "بولونيا* BOULOGNE"، ولكنّه لم ينتج أيّ قرارات عن كلّ تلك الاجتماعات، وتوفّي البابا بولس الثالث سنة ١٥٤٩، وخلفه البابا يوليوس الثالث (١٥٥٠ ـ ١٥٥٥) الذي دعا إلى الاجتماع ثانية في ترانتو حيث استمرّ العمل في خلال سنتي ١٥٥١ و١٥٥٢. وقد حضر بعض المندوبين البروتستانت، ثمّ انفرط عقد المجمع بسبب انتصار البروتستانت في ألمانيا. في هذه الأثناء، أقرّ البابا يوليوس قوانين الرهبانيّة اليسوعيّة، وفتح في روما المدرسة الرومانيّة والمدرسة الجرمانيّة. وعندما توفّي يوليوس الثالث خلفه مرقلس الثاني سنة ١٩٥٥ ولكنّه لم يعش سوى أشهر. وإذ كان البابا بولس الرابع (١٥٥٥ ـ ١٥٥٩) الذي خلف مرقلس متقدّمًا في السنّ، ومصمّمًا على تحقيق الإنجاز الكبير في حياته، وقد اهتمّ بالإصلاح الكاثوليكيّ اهتمامًا بالغًا، حاول أن يصلح الكنيسة بمعزل عن المجمع بطرقه الخاصّة. وخلفه بيّوس الرابع (١٥٥٩ ـ ١٥٦٥) وقرّر استئناف المجمع

(١٥٦٢ ـ ١٥٦٣) الذي تمكّن من إنهاء أعمال المجمع التريدنتينيّ، وقد ساعده على ذلك ابن أخيه الكاردينال "شارل بورومه". فقد تمكّن الآباء الحاضرون من الموافقة على جميع المقرّرات التي اتّخذت منذ بدء انعقاد المجمع سنة ١٥٤٥، وصدرت تلك المقرّرات في ٣ و ٤ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٦٣، وتمّ افتراق الأساقفة بعدها بالعناق والبكاء فرحًا.

يُجمع الباحثون المعنيّون حول أنّه لم يقم أيّ مجمع بالأعمال العظيمة التي أنجزها المجمع التريدنتيني[١]. فقد وضح عددًا كبيرًا من الأمور العقائديّة التي لم تحدّد صراحة في الماضي، وفرض قيام إصلاحات في جميع مجالات العمل الراعويّ، فوُضعت نصوص كانت ثمرة تفكير طويل، كالتي تبحث في التبشير والتعاون بين الله والإنسان في الخلاص. كما وُضعت نصوص أخرى كانت أشدّ تأثرًا بمقاومة المذهب البروتستانتيّ، فشجبت بعض التصرّفات، لا لشيء إلاّ لأنّ البروتستانت كانوا يمارسونها، من مثل استخدام اللغات القوميّة في الليتورجيا. وعلى الصعيد الراعوي، اتُخذت قرارات حول إنشاء الإكليريكيّات كانت لها انعكاسات هامّة لمستقبل الكنيسة. وبالإمكان القول إنّ المجمع التريدنتينيّ قد أضفى على الكنيسة ذلك الطابع الذي

---

١ ـ كان من أبرز مقرّرات المجمع التريدنتيني، في **العقائد**: ليس للكتاب المقدّس تفسير آخر غير التفسير الذي تقدّمه لنا الكنيسة المقدّسة؛ تُغفر خطايا الإنسان الخاطئ نظرًا لاستحقاقات سيّدنا يسوع المسيح شريطة أن يكون نادمًا عليها، ولهذه الاستحقاقات مفعول حقيقيّ في النفس، فإنّه يبرّرها تبريرًا داخليًا، ويمحو دنسها ويجدّدها تجديدًا تامًا، ويعيد إليها حياة الله؛ إنّ للبابا السلطة العليا على الكنيسة الجامعة؛ إنّ في الكنيسة أسرارًا سبعة، ولهذه الأسرار مفاعيل في النفس لا تتحقّق إلاّ بشروط معيّنة. وفي **النظام والأخلاق**: اهتمّ المجمع بالنظام والأخلاق اهتمامًا بالغًا، ففرض على الأساقفة فتح مدارس إكليريكيّة لتربية من يرغبون في قبول سرّ الكهنوت. كما فرض عليهم أن يزوروا أبرشيّاتهم ويتفقّدوا شؤونها، ومنع احتكار الوظائف المتعدّدة التي تدرّ الأموال، وأوضح بالتدقيق واجبات الملوك والأمراء المسيحيّين. ولم يتمكّن هذا المجمع من إعادة البروتستانت إلى المعتقد الكاثوليكيّ إلاّ في بولندا والمجر، ولكنّه استطاع أن يحدّ من انتشار البروتستانتيّة، وأثار في الكنيسة الكاثوليكيّة نهضة روحيّة وفكريّة أعطت ثمارها في القرن السابع عشر.

حافظت عليه حتّى عهد قريب. فأصبحت كلمة "كاثوليك" تدلّ على مجموعة معيّنة من المسيحيّين، إلى جانب البروتستانت والأرثذوكس. وخرجت الكنيسة الكاثوليكيّة من المجمع مستقرّة ومنظّمة ومركّزة حول رأسها: البابا. فلقد دمج المجمع ماضي الكنيسة في حاضرها، لكنّه ظلّ صامتًا أمام عدد من المشاكل الجديدة، كالتطوّر الاقتصاديّ الاجتماعيّ[1].

وإذ عهد المجمع إلى البابا تطبيق قراراته، أصدر بيوس الرابع تلك القرارات وشكّل لجنة مكلّفة بتطبيقها. أمّا البابا القدّيس بيوس الخامس (١٥٦٦ ـ ١٥٧٢)، وهو عضو سابق في "محكمة التفتيش" التي أعلنت قداسته في ما بعد، فقد جعل في مقدّمة اهتماماته محاربة "الهراطقة"، والدفاع عن الشعوب المسيحيّة بمواجهة الأتراك، فكانت موقعة "ليبانتي[2]" سنة ١٥٧١، وقيل إنّه بصلوات البابا تغلّبت الجيوش المسيحيّة في تلك الموقعة على العثمانيّين[3]. ونشر بيوس الخامس على التوالي "كتاب التعليم المسيحيّ الرومانيّ" الذي سُمّي أحيانًا "كتاب التعليم المسيحيّ التريدنتيّ"، وكتاب "الفرض الرومانيّ"، وكتاب "القدّاس الرومانيّ". وأراد هذا البابا أن يكافح الفوضى الطقسيّة، ففرض نصًّا موحّدًا للقدّاس وطلب إلغاء الليتورجيّات التي لم يمضِ على وجودها أكثر من مئتي سنة.

وقام غريغورُوس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥) الذي أصلح التقويم اليوليانيّ، فحذف سنة ١٥٨٢ عشرة أيّام من ٤ إلى ١٥ تشرين الأوّل (أكتوبر) لكي تستعيد

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٤٧، ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

٢ ـ **ليبانتي أو ليبانت** LÉPANTE، LEPANTO. مدينة في اليونان على خليج "ليبانت"، عندها هزم "دون خوان" النمساويّ على رأس أسطول مسيحيّ الأسطول التركيّ ١٥٧١.

٣ ـ يتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق ص ٢٦٦.

الفصول تواريخها المألوفة، فدُعي باسمه التقويم الغريغوريّ. وأنشأ عددًا من المدارس والإكليريكيّات، منها الجامعة الغريغوريّة والمدرسة اليونانيّة[1] في روما. وأقام سفراء ثابتين لدى الملوك. أمّا البابا سكستُس الخامس SIXTE - QUINT (١٥٨٥ ـ ١٥٩٠) فقد اهتمّ بإصلاح الشؤون الماديّة في رومة، ونظّم الوزارات البابويّة. فجعل للكنيسة حكمًا مركزيًّا يديره ١٥ مجمعًا رومانيًّا، وهي عبارة عن وزارات تساعد البابا في إدارة شؤون الكنيسة والدولة البابويّة. ووُزّع الكرادلة على تلك المجامع فبلغ عددهم سبعين. وأخيرًا أصدر البابا بولس الخامس (١٦٠٥ ـ ١٦٢١) سنة ١٦١٤ "كتاب الرتب الطقسيّة الرومانّي"، وهو يضمّ النصوص والقواعد التي يجب العمل بموجبها في الاحتفال بالأسرار[2]. كما كان للرهبانيّات في هذه الحقبة أنشطة مميّزة على جميع الصعد استعرضناها في موضعها.

***

كانت إسبانيا المركز الأوّل للإشعاع الروحيّ في القرن السادس عشر، ففيها نشأ القدّيس "اغناطيوس دي لويولا" IGNACE DE LOYLA (١٤٩١ ـ ١٥٥٦) مؤسّس اليسوعيّين سنة ١٥٤٠. وفيها عاشت القدّيسة "تريزيا الكبرى" THÉRÈSE D'AVILA (١٥١٥ ـ ١٥٨٢)، والقدّيس "يوحنّا الصليبي" JEAN DE LA CROIX (١٥٤٢ ـ ١٥٩١)

١ ـ خرجت الكنيسة الغربيّة بعد المجمع التريدنتينيّ منتعشة متجدّدة، فأخذت تتطلّع إلى الشرق لتحقّق معه الوحدة المنشودة، وفهمت روما أنّه لن يقوم اتّحاد شامل بين الغرب والشرق، ما لم تتهيّأ له القلوب بتقارب الأفكار والآراء بين أبناء الكنيستين، فأسّس البابا غريغوريُس الثالث عشر سنة ١٥٧٦ مدرسة القدّيس أثناسيوس لليونان، وفي سنة ١٥٨٤ مدرستين أخريين لكلّ من الموارنة والأرمن، فربّت هذه المدارس نخبة من خيرة رجال الكنيسة الذين أحدثوا نهضة لاهوتيّة في الشرق، وخلقوا في القرنين السادس عشر والسابع عشر جوًّا من التقارب الفكريّ المرتجى.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩؛ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

وهما من كبار الرهبان الصوفيّين. ولم تنتشر في فرنسا أعمال المجمع التريدنتينيّ في وقتها، لأنّ إصلاحات المجمع لم تحظ بعطف السلطة الملكيّة والنبلاء. ورأى الأساقفة الفرنسيّون أنّ الحكومة تماطل في تطبيق مقرّرات المجمع التريدنتينيّ* فاجتمعوا وأقرّوا تطبيقها سنة ١٦١٤ في أبرشيّاتهم، رغم معارضة الحكومة. فعرفت فرنسا في القرن السابع عشر نهضة روحيّة وفكريّة رائعة. وكان أهمّ أركان هذه النهضة القدّيس "فرنسيس دي سال" FRANÇOIS DE SALES (١٥٦٧ ـ ١٦٢٢) الذي طبّق مبادئ الحياة الروحيّة على العلمانيّين؛ والقدّيس "منصور دي بول" VINCENT DE PAUL (١٥٨١ ـ ١٦٦٠) الذي أنشأ المشاريع الاجتماعيّة وقدّم للناس المثل الأعلى في محبّة الفقراء وخدمتهم؛ والكاتب الشهير "باسكال[١]" الذي دافع عن المعتقد الكاثوليكيّ بأسلوب رائع؛ والخطباء الكنسيّون "بوسويه[٢]" و"بوردالو[٣]" و"فينيلون[٤]" الذين أصلحوا المجتمع بخطبهم الرائعة. وأُسّست المدارس الإكليريكيّة فارتفع مستوى الإكليروس، ونشطت حركة الإرساليّات، وارتقت أساليب العلوم التفسيريّة والتاريخيّة[٥].

---

١ ـ بليز باسكال PASCAL (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢). فيلسوف ورياضيّ وأديب وفيزيائيّ فرنسيّ، له اكتشافات كالآلة الحاسبة ونواميس ضغط الهواء والماء وتوازن السوائل، وضع الخطوط الرئيسيّة لكتاب في الدفاع عن الدين المسيحيّ نُشرت بعنوان "الخواطر" فكان لها تأثير واسع.

٢ ـ بوسويه BOSSUET (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤): وُلد في ديجون فرنسا، أسقف مو، اشتهر بمواعظه وتأبينه الفصيحة ومؤلّفاته اللاهوتيّة والفلسفيّة والتاريخيّة.

٣ ـ لويس بوردالو BOURDALOUE (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤): يسوعي، من مشاهير الوعّاظ الفرنسيّين، امتازت عظاته بالوضوح والتحليل النفساني.

٤ ـ فرنسوا دي فينيلون FENELON (١٦٥١ ـ ١٧١٥): حبر وأديب فرنسيّ، عُيّن مديراً لدوق برغونيا حفيد لويس الرابع عشر ١٦٨٩، له "مغامرات تيليماك" و"محاورات الموتى" وكتاب في التربية.

٥ ـ يتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

في هذه الأثناء، لم يفقد الأمبراطور الألمانيّ أمله في إحياء الكثلكة في بلاده. وكان عدم قبوله بتقديم بعض التنازلات للبروتستانت في بوهيميا* السبب الذي أشعل أعمال عنف أدّت إلى "حرب الثلاثين سنة". ولمّا انتصر فردينانْدُس الثاني في أوّل أمره، أصدر مرسومًا أرغم فيه البروتستانت على ردّ الممتلكات الكنسيّة التي صادروها من الكاثوليك سنة ١٥٥٢، لكنّ البروتستانت تحالفوا مع السويد وفرنسا. فامتدّ الخلاف إلى مجمل أوروبّا، ولم ينتهِ إلاّ بتوقيع معاهدات "ويستفاليا[١]" سنة ١٦٤٨. بذلك عاد البروتستانت إلى ما كانوا عليه سنة ١٦١٨، وتمّ الاعتراف بالمذهب الكالفينيّ في الأمبراطوريّة[٢]. فاحتجّ البابا "إينوقنطيوس INNOCENT" العاشر (١٦٤٤ ـ ١٦٥٥) على ما في المعاهدات من بنود دينيّة، لكنّ الكرسيّ الرسوليّ كان قد فقد دوره في القرارات السياسيّة الدوليّة. وفي إنكلترا، كانت الحكومة تلاحق الكاثوليك والبروتستانت المنشقّين الذين يرفضون الرتب التقليديّة المتبقّية في المذهب الأنكليكانيّ. وبدءًا من سنة ١٦٢٠، أخذ بعض أولئك المنشقّين يهاجرون إلى أميركا ليعيشوا فيها وفقًا لمعتقداتهم. لكنّ "أوليفر كرومويل[٣]"، الذي تزعّم حركة المنشقّين، انقلب على الملك شارلز الأوّل

---

١ - **ويستفاليا** WESTPHALIE: منطقة في مونستير MUNSTER في الرين الأعلى، حصلت فيها تلك المعاهدات فنُسبت إليها، وكانت أهم الدول المشتركة في المفاوضات الحليفتين فرنسا والسويد وخصومهما إسبانيا والأمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة والدويلات التابعة للأمبراطوريّة والأراضي المنخفضة (هولندا)، وقد أضعفت المعاهدة سلطة ونفوذ الأمبراطوريّة وآل هابسبورغ فصارت الأمبراطوريّة مجرّد اتّحاد تعاهديّ يتألّف من دول ذات سيادة، وظفرت فرنسا بمعظم الألزاس وبعض المدن المحصّنة على الحدود، وحصلت السويد على غرب بومرانيا والمدينتين بريمن وفردن اللتين يحكمهما أسقفان، كما حصلت السويد والمقاطعات المتّحدة للأراضي المنخفضة على الاستقلال التام، ولكنّ فرنسا التي خرجت من الحرب منتصرة مظفّرة الجانب واصلت القتال ضدّ إسبانيا حتّى صلح البرانس ١٦٥٩.

٢ - راجع الجزء السادس عشر من هذه الموسوعة.

٣ - **أوليفر كرومويل** OLIVIER CROMWELL (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨): سياسيّ إنكليزيّ، عضو في البرلمان، تزعّم حركة المعارضة لسلطة الملك وبثّ روح الثورة وقاد رجالها فانتصر على جيش الملك شارلز الأوّل وحكم عليه بالإعدام ١٦٤٩، أخضع إيرلندا وحلّ البرلمان وتولّى الحكم بصورة ديكتاتوريّة ١٦٥٣.

وأعدمه سنة ١٦٤٩. وباسم الكتاب المقدّس، قام كرومويل بتقتيل الإيرلنديّين، لأنّهم رفضوا العدول عن معتقدهم الكاثوليكيّ. ولمّا أُعيد الحكم الملكيّ إلى بلاد الإنكليز، لم يتغيّر أيّ شيء بالنسبة إلى الكاثوليك. ومن مظاهر ذلك الواقع شنق رئيس الأساقفة الإيرلنديّ "أرماغ ARMAGH" سنة ١٦٨١.

إلاّ أنّه قد ظهر، طوال القرن السابع عشر أناس مسالمون، وإن كان عددهم قليلاً، عملوا على التقارب بين مسيحيّي مختلف المذاهب. وفي هذا الإطار جاءت المراسلات التي كان محورها الفيلسوف "لايبنيتز"[1]. ففي مرحلة أولى قام "سبينولا SPINOLA"، وهو أسقف فرنسيسكانيّ صديق للأمبراطور "ليوبولد الأوّل"[2] فاتّصل بكاهن لوثريّ في "هانوفر"[3] يدعى "مولانُس MOLANUS" كما اتّصل بـ"لايبنيتز"، ووضع الثلاثة سنة ١٦٨٣ نصّا سياسيًا بعنوان "قواعد لتوحيد عامّ للمسيحيّين". وفي مرحلة ثانية، أقيمت مراسلة مكثّفة بين "جاك بوسويه* BOSSUET" أسقف "مو" الفرنسيّ، ولايبنيتز (١٦٩١ ـ ١٦٩٤). وقد أراد لايبنيتز أن يعلّق العمل بموجب المجمع التريدنتينّي، ريثما يُعقد مجمع عامّ جديد. لكنّ الاتّفاق لم يتمّ، إذ إنّ بوسويه* كان يرى أن على لايبنيتز أن يصبح كاثوليكيًا، في حين كان يرغب لايبنيتز في أن يسلّم بوسويه بوجود عدّة وجهات نظر مسيحيّة[4].

---

١ ـ **غونفريد فيلهلم لايبنيتز** LEIBNIZ (١٦٤٦ ـ ١٧١٦): رياضيّ وفيلسوف ومخترع ألمانيّ، وُلد في لايبسك، حاول مع بوسويه وسواه دمج الكنيستين الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة، اكتشف أسس التحليل الحسابيّ، من أتباع الفلسفة المثاليّة، اشتهر بنزعته التفاؤليّة، له "المونادولوجيا".

٢ ـ **ليوبولد الأوّل** LÉOPOLD (١٦٤٠ ـ ١٧٠٥)، ملك المجر ١٦٥٥ ثمّ أمبراطور جرمانيّ ١٦٥٧، استعان بدول أوروبا لدفع الخطر العثمانيّ عن فيينا ١٦٨٣، عقد مع الأتراك معاهدة "كارلوفيتش" تضمن انسحابهم من البحر ١٦٩٩، اشترك في حرب الوراثة الإسبانيّة.

٣ ـ **هانوفر** HANOVRE: مدينة في وسط ألمانيا على نهر لينه، ومقاطعة بروسيّة سابقة أصبحت جزءًا من سكسونيا السفلى.

٤ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.

في هذه الحقبـة، نشـأ بعـض الأزمـات والنزاعـات الفكريّـة، فـي الكنيسـة الغربيّـة، مرافقة حركات الإصلاح. منها تلك التي تسبّبت بها "الجنسـينيّة JANSÉNISME" المنسـوبة إلى "جنسينيوس[١]"، وقد نتجت عن النقاش اللاهوتيّ الذي أثاره الإصلاح في موضـوع المكان الذي تحتلّه كلّ من النعمة والحريّة في خلاص الإنسان، فهناك تقليد أغوسـطينيّ قويّ يشدّد على النعمـة، وعلـى الاختيـار السـابق علـى حسـاب حريّـة الإنسـان. ومـن المعروف أنّ قضايا "بايوس[٢]" اللاهوتيّ البلجيكيّ، التي تسير في هذا الاتّجـاه، شُجبت سنة ١٥٦٦.[٣] وبالمقابل كان اليسوعيّون، كالإسـبانيّ "مولينـا[٤]" سـنة ١٥٨٨، يجتهـدون في الحفاظ على الحريّة، فيقولون بوجود نعمة كافية تصبح فعاليّة بحكم حريّة الإنسان[٥]. وإذ صـدر سـنة ١٦٤٠، بعـد وفـاة جنسـينيوس، كتـاب عنوانـه "أوغسـطينُس L'AUGUSTINUS" يحمل، استنادًا إلى القديس أوغسطينُس، تشاؤمًا شديدًا من الطبيعة البشريّة التي أسقطتها "الخطيئـة الأصليّـة"، قـام خصـوم الجنسـينيّين برفـع النـزاع إلـى روما، فشُجبت خمس قضايا من كتاب جنسينيوس سنة ١٦٥٣. لكنّ الخلاف استمرّ بين المدافعين عن كلّ من النظرتَين إلى الحياة المسيحيّة: الجنسينيّين واليسوعيّين. وكـان

١ ـ **كورنايل جنسينيوس** JANSÉNIUS, JANSEN (١٥٨٥ ـ ١٦٣٨): لاهوتيّ هولنديّ، من مؤلّفاته "أوغسطينُس" الذي بسط فيه تعاليمه في النعمة وحرية الإنسان والاختيار.

٢ ـ **بايوس** BAÏUS, MICHEL DE BAY (١٥١٣ ـ ١٥٨٩): لاهوتيّ من مقاطعة HAINAUT المقتسمة اليوم بين بلجيكا وفرنسا، علّم الكتاب المقدّس مع زميله جان هسلز HESSELS (١٥٢٢ ـ ١٥٦٦) وناهض التعاليم البروتستانتيّة، تأثّر بشكل رئيس بفلسفة أوغسطينُس، شرح مبادئه في كتابات ظهرت (١٥٦٣ ـ ١٥٦٦)، أدان ٧٦ مبدءًا من تعاليمه البابا بيوس الخامس ١٥٦٦، وإذ بقيت تعاليمه متداولة، جدّد البابا غريغوريُس الثالث عشر إدانته لها ١٥٧٩، نشر أعماله DOM GERBERON ١٦٩٦، يُعتبر من أهمّ المفكّرين اللاهوتيّين الذين انبثقت الجنسينيّة من تعاليمهم.

٣ ـ ENCYCLOPŒDIA UNIVERSALIS, (FRANSE S.A. 1968) 18 151.

٤ ـ **لويس مولينا** MOLINA (١٥٣٥ ـ ١٦٠٠): يسوعيّ إسبانيّ، نُسبت إليه "المولينيّة MOLINISME" التي قالت بضرورة ممارسة الحريّة مع تقدير النعمة.

٥ ـ PETIT LAROUSSE, 14E TIRAGE (PARIS,1963) P. 1546.

الجنسينيّون يؤكدون على أنّ القضايا الخمس التي شُجبت لا وجود لها عند جنسينيوس. فقام بليز باسكال* وساند الجنسينيّين في مقالته "الإقليميّات" (١٦٥٦ ـ ١٦٥٧) متهجّمًا، أمام الجمهور، على أخلاق اليسوعيّين "المتراخية". وبعد أن رفض الجنسينيّون، لمدّة طويلة، توقيع صيغة معيّنة لإنهاء الخلاف، قبلوا أخيرًا حلاً وسطًا سنة ١٦٦٨. ولكن بعد سنتين، وتحديدا في سنة ١٦٧٠، صدرت "الخواطر PENSÉES" لباسكال، وهي مذكّرات كان قد أعدّها دفاعًا عن المسيحيّة وردًّا على غير المؤمنين برأيه، فتجدّد النزاع سنة ١٦٩٥ لدى صدور "الخواطر الأخلاقيّة" التي وضعها الـ"أوراتوري[١] "كسنل[٢]". وكان الجنسينيّون يظهرون بمظهر المعارضين السياسيّين، ويلتجئ زعماؤهم إلى هولندا المعادية لفرنسا. فألقى لويس الرابع عشر[٣] كثيرا من الجنسينيّين في السجون، وحصل من البابا على شجب مئة قضيّة وقضيّة وردت في كتاب كسنل. ومع ذلك، استمرّت المعارضة الجنسينيّة طوال القرن الثامن عشر. فبقيت كمرادف لنزعة مسيحيّة صارمة متشدّدة. واقترح بعض الجنسينيّين أن تكون الليتورجيا أقرب إلى الشعب باستعمال اللغات القوميّة، وأن يكون للكهنة والعلمانيّين مكانة أفضل تجاه الأساقفة. على أنّ هناك من يرى أنّ تزمّت الجنسينيّين قد أدّى إلى النفور من الدين.

---

١ ـ ORATOIRE" أوراتوري. جماعة من القسس أسّسها القدّيس الفلورنسيّ فيليب نيري NÉRI (١٥١٥ ـ ١٥٩٥) في القرن السادس عشر لمعاونة الفقراء، وخاصّة الأطفال ورفع المستوى الدينيّ، أدخلها جون هنري نيومن إلى إنكلترا في القرن التاسع عشر. وتأسّست جماعة الأوراتوري في الولايات المتحدة الأميركيّة ١٩٦١.

٢ ـ كسنل QUESNEL (١٦٣٤ ـ ١٧١٩): لاهوتيّ باريسيّ جنسينيّ، فنّد مع أسقف باريس المبادئ الجنسينيّة التي نتج عنها الجنسينيّة الموحّدة

٣ ـ لويس الرابع عشر (١٦٣٨ ـ ١٧١٥): إبن لويس الثالث عشر وحنّة النمساويّة، ملك فرنسا ١٦٤٣ ـ ١٧١٥، بدأ حكمه الشخصيّ بعد وفاة الكاردينال مازاران ١٦٦١، أبعد فوكيه، عمل على إقرار النظام والأمن، أعلن الحرب على هولندا وإسبانيا، اصطدم بالبابويّة، بلغت فرنسا في عهده أوجها في حقول الأدب والفن والعلم فكان عصره ذهبيًا، أقام بلاطه في قصر فرساي.

أزمة أخرى، ظهرت على هذا الصعيد في الحقبة نفسها، وهي الناشئة عن النزعة "السكينيّة[١]" أو أزمة التصوّف. فقد كان للتصوّف، على مرّ الزمان، مكانة مرموقة في التقليد المسيحيّ، ومع ذلك كثيرًا ما تعرّض المتصوّفون لسوء الظنّ والاتّهام[٢]. فلقد اتُّهموا بالحطّ من قيمة التجسّد وناسوت المسيح، وبالميل إلى "الحلوليّة[٣]" وإلى "تبرير التراخي الأخلاقيّ حتّى في ما يتعلّق بالجنس"... ولا شكّ في أنّ شجب "المتصاوفين" في إسبانيا كان يستهدف مثل تلك الانحرافات، أحقيقيّة كانت أم خياليّة. ثمّ أحرز الكاهن الإسبانيّ "ميخائيل دي مولينُس MIGUEL DE MOLINUS" (١٦٢٨ ـ ١٦٩٦) نجاحًا عظيمًا في روما يوم أصدر "الدليل الروحي" سنة ١٦٧٥ الذي عرض فيه "تصوّف الاستسلام والمشاهدة المكتسبة". وقد حطّ بعض الشيء من دور الأعمال التقشفيّة. وفي سنة ١٦٨٧، حُكم على مولينُس بالسجن المؤبّد بسبب "بدعته وفساد أخلاقه". ويقال إنّ "ضلاله هو النزعة السكينيّة" نسبة إلى "السكينة". وكان "فينلون[٤]" من أنصار تلك النزعة، ولمّا أراد أن يبرّر نظرته الروحيّة، وضع سنة ١٦٩٧ كتابا بعنوان "شرح حكم القدّيسين في الحياة الباطنيّة"، مستندًا إلى الكتّاب التقليديّين. وممّا قاله: "جميع

---

١ ـ **السكينيّة** QUIÉTISM: مذهب مسيحيّ صوفيّ، معنى الكلمة "السكينة" أو "الراحة الكاملة"، أدانها البابَاوان إينوقنطيوس الحادي عشر ١٦٩٩ والثاني عشر (١٦٩١ ـ ١٧٠٠).

٢ ـ راجع: UNIVERSALIS, (FRANSE S.A. 1968) 13: 894

٣ ـ **الحلوليّة**: من "حلول الشيء بالشيء واختصاصه به"، يستعمل الصوفيّون لفظة "حلول" استعمالات إصطلاحيّة: فالمتكلّمون يعبّرون بها عن الصلة بين الجسم ومكانه، أو بين العرض وذاته. والفلاسفة يدلّون بها على الصلة بين الروح والجسد، أو بين العقل الفعّال والإنسان، والصوفيّون المسيحيّون يشيرون بها إلى الصلة بين الربّ (اللاهوت) والعبد (الناسوت)، كما عند النساطرة والمونوفيزيّين والملكانيّين من الفرق المسيحيّة.

٤ ـ **فرنسوا فينلون** FÉNELON (١٦٥١ ـ ١٧٣٥): أسقف وكاتب فرنسيّ، وُلد في قصر فينيلون في PÉRIGORD، اشتهر بوضعه ميثاق تعليم البنات، عُيّن مفتّشًا لبورغونيا ١٦٨٩، رئيس أساقفة كمبري ١٦٩٥، ناهض سياسة لويس الرابع عشر بشكل غير مباشر في كتاباته الرفيعة المستوى الفكريّ والإنسانيّ، ترك فكره تأثيرًا مباشرًا على نهضة القرن الثامن عشر.

الطرق الباطنيّة تنزع إلى المحبّة الخالصة والمنزّهة. وهذه المحبّة الخالصة والمنزّهة هي أعلى درجة في الكمال المسيحيّ. وهي الغاية التي تسعى إليها جميع الطرق التي عرفها القدّيسون". لكنّ الضغوط التي مارسها بوسويه* ولويس الرابع عشر* قد أدّت سنة ١٦٩٩ إلى حمل روما على شجب ثلاث وعشرين قضيّة وردت في كتاب فينلون. ويبدو أنّ الرقابة وجدت في الكتاب نزعة إلى اللامبالاة أمام الثواب أو العقاب الإلهيّين، لكنّ فينلون خضع وانصرف إلى مهمّته كرئيس أساقفة "كمبري[١]".

ويعلّق باحثون على نتائج مرحلة الإصلاح تلك بالقول: "لقد نجح الإصلاح الكاثوليكيّ أكثر ممّا يجب! ولم يبق، في مجتمع مشغوف بالنظام، مكان لما يخرج عمّا هو معقول ومحدّد الملامح، حتّى شمل الشكّ في التصوّف، كما سبق وشمل التديّن الشعبيّ[٢]".

على صعيد انتشار المسيحيّة الكاثوليكيّة ـ اللاتينيّة في القرن السابع عشر، كان للإرساليّات دورها الفعّال. وقد نشط عمل الإرساليّات بعد إنشاء "مجمع انتشار الإيمان" سنة ١٦٢٢ على يد البابا غريغوريُس الخامس عشر (١٦٢١ ـ ١٦٢٣) وتكليفه، أيضًا، بهداية المسيحيّين المنفصلين في أوروبا والشرق الأوسط. ولم يحل عدول الدول عن حقوق الوصاية ولا الخلافات في ما يتعلّق بالولاية على الكنيسة دون تحقيق تلك الإرساليّات نجاحات باهرة في مهمّاتها. فقد كان مجمع انتشار الإيمان عبارة عن وزارة تهتمّ بالإرساليّات، وبمبادرة من أمين سرّه الأوّل، أطلق عمليّة تحقيق واسعة عن النشاط الإرساليّ في العالم، وقدّم للإرساليّات بعض الإمكانات، من مطابع متعدّدة

---

١ ـ كمبري CAMBRAI: مدينة في الشمال على الإسكوت L'ESCAUT، مركز أسقفي، وقّعت فيها معاهدة كمبري ١٥٢٩ بعد مفاوضات جرت بين لويس دي سافوا ممثّل الملك فرنسوا الأوّل ومرغريت النمسا باسم شارل كوينت، احتلّها الألمان ١٩١٤، استُعيدت في معركة تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩١٨.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤.

اللغات إلى مدارس وإكليريكيّات وجامعات. كما أنشأ نظام "النوّاب الرسوليّين"، وهم أساقفة مرسَلون مرتبطون مباشرة بالبابا. وهكذا انطلق النشاط التبشيريّ عبر القارّات.

وكان التبشير قد بدأ في كندا، التي عرّفها الفرنسيّون باسم "فرنسا الجديدة"، بتأسيس "كيبك[١]" سنة ١٦٠٨ على يد "شمبلان[٢]" الذي أتى ببعض الرهبان الفرنسيسكان. وفي سنة ١٦٣٢ سُلّمت الإرساليّة الكنديّة إلى اليسوعيّين، فرافقوا الرحّل في تنقّلاتهم وحاولوا أن يهدوهم. وقد أحرز اليسوعيّون بعض النجاح لدى "الهورون[٣]" لكنّهم اصطدموا بمقاومة "الإيروكوا[٤]" الذين كان الإنكليز يدعمونهم. وفي سنة ١٦٣٩ استقرّت في كيبيك أوّل رهبانيّة مرسَلات، وهنّ الـ"أرسوليّات URSULINES"، وكان من أشهرهنّ مؤسّسة الرهبانيّة الأم ماري غويارت أو "مريم التجسّد[٥]" التي كانت في الوقت نفسه كاتبة صوفيّة نابغة، وهي تحتلّ مكانة مرموقة في تاريخ كندا الدينيّ، إذ إنّها سبقت المرسَلين إلى "فرنسا الجديدة" بنحو ٢٠ سنة[٦]. وقدم

---

١ ـ **كيبك** QUÉBEC: مدينة في كندا قاعدة إقليم، احتلّها الإنكليز (معاهدة باريس ١٧٦٣)، استقلّت ١٨٦٧، من أهمّ مدن إقليم كيبك في شرق كندا مدينة مونريال.

٢ ـ **شمبلان** SAMUEL DE CHAMPLAIN (١٥٣٧ ـ ١٦٣٥): رحّالة ومغترب فرنسيّ، وُلد في برواج، زار "فرنسا الجديدة" (كندا) نحو ١٦٠٣، أقنع هنري الرابع بإنشاء مستعمرة فكانت كيبك ١٦٠٨، ضابط في الجيش ١٦٢٠، حاكم ١٦٣٣، أمّن استمرار المستعمرة الجديدة قبل وفاته.

٣ ـ **الهورون** HURONS: هنود أميركا الشماليّة، تحمل اسمه أو إنه منسوب إلى بحيرة تقع بين كندا والولايات المتّحدة الأميركيّة.

٤ ـ **الإيروكوا** IROQUOIS: شعب هنديّ أقام حوالى بحيرات ERIÉ وONTARIO، تجمّع في شبه اتّحاد كونفيدراليّ سُمّي "الأمم الخمس".

٥ ـ **ماري غويارت** GUIYART أو **مريم التجسّد** (١٥٩٩ ـ ١٦٧٢): أولى مرسلات المسيحيّة، إسمها العلمانيّ ماري غويارت GUIYART، تزوّجت ١٦١٧ وترمّلت ١٦١٩، دخلت الدير ١٦٢٩ في تور TOURS، اتّخذت اسمًا رهبانيًا "مريم التجسّد" رأت كندا في الحلم ١٦٣٤ فسافرت إليها ١٦٣٩ وبقيت هناك حتّى وفاتها، وفيها أسّست جمعيّة الراهبات الأرسوليّات ورأستها، لها كتابات تصف فيها حلمها الذي رأت فيه الدعوة لأعمال التبشير في كندا.

٦ ـ UNIVERSALIS, (FRANSE S.A. 1968) 8 180.

"الـ"سلبيسيّون[1]" إلى "مونريال[2]" سنة ١٦٤٢، حيث استُشهد عدّة مرسلين، منهم "إسحق جوغ JOGUES" و"جان دي بريبوف JEAN DE BRÉBUF" و"شارل غارنييه CHARLES GARNIER". وبالرغم من وجود لامعين بين المرسلين، كانت النتائج ضئيلة، ولم يكن قد اهتدى، في نهاية القرن الثامن عشر، سوى ألفَي هنديّ. وفي القرن التاسع عشر، أنشأ المهاجرون الكاثوليك القادمون من فرنسا وإيرلندا جماعة لها كيانها في كندا، وأقاموا عدّة أسقفيّات وجامعات كاثوليكيّة، واحتفظت الكنيسة بحريّة بناء المدارس، كما سعت إلى تبشير الهنود الحمر وقبائل الإسكيمو[3].

وفي المقلب الآخر من الأرض، في الشرق الأقصى، كانت أولى محاولات تبشير الصين واليابان من قبل الغربيّين قد بدأت على يد فرنسيس كسافاريوس[4] أواسط القرن السادس عشر، ولكنّها لم تؤت نتائج تُذكر. ثمّ برز ميل اليابانيّين إلى مستجدّات الحضارة الأوروبيّة، بوجود الإقطاع في بلادهم. ما ساعد على الكثير من الاهتداءات إلى المسيحيّة. وإذ أراد الأسياد أن يعبّروا عن استقلالهم باختيار الدين المسيحيّ، بلغ عدد المسيحيّين، قبل نهاية القرن السادس عشر، نحو ثلاثمئة ألف، تمركزوا بشكل خاص في الجنوب. وكان من أعظم منظّمي الكنيسة اليابانيّة الأولى اليسوعيّ "فالينيانو VALIGNANO" الذي عُيّن زائرًا للإرساليّة ١٥٧٩ ـ ١٦٠٦. وكانت معيشة الإرساليّات متوقّفة على تبرّعاتٍ مرسلة من أوروبا، ولا سيّما تلك المتأتّية من الإسهام في التجارة بين أوروبّا واليابان، الأمر الذي أساء أحيانًا إلى التبشير. ثمّ إنّ التنافس بين

١ ـ **السلبيسيّون** SULPICIENS: جمعيّة كهنة أنشأها جان جاك أولييه في باريس ١٦٤٢ لتثقيف الشبّان وإعدادهم للكهنوت.

٢ ـ **مونريال** MONTREAL: مدينة كبرى في جنوب شرقي كندا على نهر سان لوران (كيبك)، أكثر سكّانها من أصل فرنسيّ.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٧٦، ٣٢٩.

٤ ـ **القدّيس فرنسيس كسافاريوس** (١٥٠٦ ـ ١٥٥٢): وُلد في نافارا الإسبانيّة، أحد معاوني اغناطيوس دي لويلا في تأسيس الرهبانيّة اليسوعيّة، رسول الهند واليابان، اشتهر بغيرته في التبشير فجعله الأحبار الأعظمون شفيع الرسالات.

الأوروبيّين، ورغبة بعض رؤساء الوزراء في إعادة الوحدة إلى اليابان على حساب الأسياد المحليّين، والتعارض بين البونيّين و"الشينتو[١]"، كلّ ذلك أدّى إلى اضطهاد المسيحيّين. ففي ١٥٩٧ أعدم في "ناغازاكي[٢]" ٢٦ شخصًا من مرسَلين ومؤمنين. وفي سنة ١٦١٤ حظّر التديّن بالمسيحيّة في جميع أنحاء اليابان، وأزداد عدد الذين حُكم عليهم بالإعدام بأبشع أنواع التعذيب. وعلى أثر فتنة "شيمابارا SHIMABARA" سنة ١٦٣٥، قُتل خمسة وثلاثون ألف مسيحيّ، وأغلقت أبواب اليابان في وجه المرسَلين حتّى القرن التاسع عشر. وجلّ ما كان توصّل إليه المرسَلون قبل ذلك التاريخ أنّهم قاموا بطباعة الكتب ونشرها، وأدخلوا بعض العناصر التي تمتاز بها الثقافة الأوروبيّة. وبشيء من التحفّظ، رسموا حوالى ١٤ كاهنًا سنة ١٦٤١، وأقام الأسقف في ناغازاكي (١٥٩٨ ـ ١٦١٤). إلاّ أنّ تنظيم الجماعات بإشراف رهبان ليسوا كهنة، وملقّني التعليم المسيحيّ ورؤساء القرى والأخويّات، قد مكّن المسيحيّة من الاستمرار في غياب الكاهن.

إنتقل اليابانيّون اليسوعيّون إثر فتنة ١٦٣٥ من بلادهم وتوزّعوا في "كوشنشين[٣]" و"كمبوديا[٤]" و"سيام[٥]". وراح اليسوعيّون يهتمّون بتلك المناطق منذ سنة ١٦١٥. فكتبوا

---

١ ـ **شينتو** SHINTOÏSTES: هي ديانة اليابان الرسميّة، لها عدد لا يحصى من الآلهة وأنصاف الآلهة أهمّها "أماترلسو" الشمس، تكرّم أرواح الأجداد وقوى الطبيعة ـ راجع الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

٢ ـ **ناغازاكي** NAGASAKI: مدينة ومرفأ في اليابان جنوب جزيرة كيوشو، ألقيت عليها القنبلة الذريّة الثانية في ٩ آب (أغسطس) ١٨٤٥ ما أدّى إلى سقوط ٤٠ ألف ضحيّة.

٣ ـ **كوشنشين** COCHINCHINE: منطقة في فيتنام الجنوبيّة، تشمل دلتا نهر ميكونغ وقسمه الأسفل، قاعدتها سايغون.

٤ ـ **كمبوديا** CAMBODGE: دولة في جنوب شرقي آسيا بين فيتنام الجنوبيّة وتايلاند، عاصمتها بنوم بنه، دينها الرسميّ البوذيّة.

٥ ـ **سيام**: هي تايلاند THAÏLAND اليوم، مملكة في جنوب شرقي آسيا (شبه الجزيرة الهنديّة الصينيّة) تقع بين بورما ولاوس وكمبوديا.

اللغة الفيتناميّة بالأحرف اللاتينيّة. وعلى مدى عشرين سنة (١٦٢٥ ـ ١٦٤٥) كانت فيتنام[1] في مقدّمة اهتمامات اليسوعيّ "ألكسندر دي رود DE RHODES" مع أنّه لم يستطع أن يقيم فيها باستمرار. وكان دي رود يرى أنّ أسُس التبشير هي إتقان لغة المبشَّرين، وتدريب ملقّنين للتعليم المسيحيّ من أهل البلاد ليؤمّنوا استمرار الرسالة، واستخدام الثقافة المحليّة، وفي هذه الحالة الفيتناميّة، وحسن تفهّم عادات الشعب وتقاليده. وكان يتمنّى إنشاء إكليروس محلّي. وإذ أدّت مساعي دي رود في أوروبّا إلى تعيين نوّاب رسولين باباويّين للشرق الأقصى سنة ١٦٨٥، فكانوا أساقفة بلا أبرشيّة، مرتبطين بالبابا عبر "مجمع انتشار الإيمان" بطريقة مباشرة لخدمة الإرساليّات. وقد وصل اثنان منهم إلى سيام سنة ١٦٦٤، فرسما الكهنة الفيتناميّين الأوّلين، وأسّسا إكليريكيّة في سيام لخدمة الشرق الأقصى بأسره، وابتعدا عن اليسوعيّين[2].

١ ـ فيتنام VIET-NAM : جمهوريّة في جنوب شرق آسيا، نحو ٧٦ مليون نسمة، تتألّف من المحميّات الفرنسيّة السابقة في تونكين وأنام ومستعمرة الهند الصينيّة السابقة، عاصمتها هانوي، وصلها الفرنسيّون والبرتغاليّون أواخر القرن السادس عشر وبدأت فرنسا تغزوها تدريجًا منذ ١٨٥٨ حتّى قبلت الحماية الفرنسيّة ١٨٨٤، احتلّتها اليابان ١٩٤٠، استجمع الوطنيّون قوّاتهم وكوّنوا عدّة جماعات منهم عصبة "فيت منه" أي الإستقلال وعلى رأسها الزعيم الشيوعيّ "هوتشي منه" الذي كانت تؤيّده الصين، أطاحت قوّات "فيت منه" بالأمبراطور "باو داي" الذي تؤيّده اليابان ١٩٤٥، وقاتلت القوّات الشيوعيّة والوطنيّة ١٩٤٦ ـ ١٩٥٤ فرنسا التي كانت ترغب في إرساء حكمها الاستعماريّ فتعرّضت لخسائر جسيمة وانتهى أمرها بالهزيمة في معركة "ديان بيان فو" في ٨ أيّار (مايو) ١٩٥٤ وتمّ وقف إطلاق النار في جنيف في ٢١ حزيران (يونيو)، في الوقت ذاته شكّل الأمبراطور المخلوع "باو داي" دولة في فيتنام الجنوبيّة برئاسته واتّخذ من سايغون عاصمة له وذلك بموافقة فرنسا ثمّ أيّدت الولايات المتّحدة الأميركيّة هذه الدولة عندما أعلن قيامها رسميًّا "نجو دينه ديم" في ٢٦ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٥٥، وهكذا بدأت حرب الفيتنامين التي تورّطت فيها الولايات المتّحدة إلى جانب فيتنام الجنوبيّة، وفي ١٩٦٨ حثّ الرئيس الأميركي جونسون على إجراء محادثات سلام فوافقت هانوي وبدأت محادثات في باريس وفي ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ تمّ توقيع اتفاقيّة باريس التي نصّت على انسحاب القوّات الأميركيّة من فيتنام وتبادل الأسرى ومنح الشعب الفيتناميّ الجنوبيّ حقّ تقرير المصير، استمرّت المناوشات بين الفيتنامين إلى أن توحّدتا ١٩٧٦ في جمهوريّة فيتنام الاشتراكيّة، هاجمت الصين فيتنام الشماليّة ١٩٧٩ لتدخلها في النزاع الكمبوديّ الداخليّ لصالح خصوم الصين، وفي ١٩٩٤ أنهت الولايات المتّحدة الحظر التجاريّ الذي كانت فرضته على فيتنام.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

من ناحية أخرى، كانت قد جرت محاولات غربيّة على أيدي البرتغاليّين[١] لاختراق التبشير الكاثوليكي المسيحيّة الأولى في الهند[٢]، إنطلاقًا من "غوا[٣]". وقد نجح يومها "فرنسيس كسافاريوس*" في منح العماد للكثيرين من أهل الهند ولكن من دون أن تنشأ أيّة كنيسة. وفي سنة ١٦٠٥ جاء إلى الهند "روبيرت دي نوبيلي DE NOBILI" (١٥٧٧ ـ ١٦٥٧) وهو يسوعيّ إيطاليّ، وبقي مدّة نصف قرن في "مادورا[٤]" في الجنوب، فتعلّم لغة "التامول[٥]" و"السنسكريتيّة[٦]" ورفض أن يُعدّ من المستعمرين، بل أراد أن يُعتبر "سنياسيًّا SANNYASI" أي مسيحيًّا على غرار "التائبين الهنود". واتّخذ نمط حياة "البراهمانيّين BRSHMANES"[٧] الذين يشكّلون الطبقة الراقية. ووجد هناك فرقًا بين التصرّفات الاجتماعيّة والممارسات الوثنيّة، فسلّم بأن يحافظ المهتدون على عادات

---

١ - نسبة إلى **البرتغال** PORTUGAL: جمهوريّة في أوروبّا الجنوبيّة غربي إسبانيا عاصمتها لشبونا، لغتها البرتغاليّة وهي إحدى اللغات الرومانسيّة من الفصيلة الفرعيّة الطلياتيّة للغات الهندو- أوروبيّة، عدد سكّانها اليوم نحو ١٠ ملايين نسمة أكثريّتهم الساحقة كاثوليك، وكانت البرتغال قد وقعت في قبضة القبائل الجرمانيّة بعد الرومان، فأخضع القوط معظم شبه الجزيرة لسيطرتهم في القرن الخامس، بينما بسطت الأمبراطوريّة البيزنطيّة سلطتها على الجارفة في القرنين السادس والسابع، ثمّ وقع شبه الجزيرة في أيدي الفاتحين العرب ٧١١، ولم تقم البرتغال كدولة إلاّ في القرن الحادي عشر عندما فتحها الأمراء المسيحيّون بعد حقبة طويلة سادتها الحروب المتواصلة بين العرب وملوك أستوريا، وبدأ تاريخ البرتغال بعد ١١٤٠ إذ استقلّت عن إسبانيا، توسّع الملوك البرتغاليّون على حساب العرب حتّى اكتمل توسّعهم ١٢٤٩ بفتح الجارفة، وأنشأوا في القرن السادس عشر أمبراطوريّة واسعة في الهند والبرازيل وأفريقيا لم يبقَ منها ما يُذكر.

٢ - راجع: الكنيسة الكلدانيّة، الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٣ - **غوا** GOA: مدينة في جنوب غربي الهند، قاعدة منطقة غوا، كانت تابعة للبرتغال حتّى ١٩٦١، أصبحت مطرانيّة ١٥٣٣، ثمّ مركزًا للمقدّم في رؤساء الأساقفة في الشرق كلّه، من رأس الرجاء الصالح إلى الصين، تشمل منطقة غوا اليوم "دمان" و"ديو".

٤ - **مادورا** MADURA: مدينة في جنوب شرق الهند، شهيرة بقصرها الذي يُعدّ من روائع فنّ البناء في الهند نحو ١٦٥٠.

٥ - **التامول** TAMOUL: إحدى لغات فصيلة "الدرافيديّة"، تدخل تحت اللغة المليالاميّة.

٦ - **السنسكريتيّة** SANSCRIT: لغة الهند الكلاسيكيّة النموذجيّة، من المجموعة الهنديّة للفصيلة الفرعيّة الهنديّة الإيرانيّة للغات الهنديّة ـ الأوروبيّة، أقدم صورة لها تمثّلها لغة "الفيدا"؛ راجع الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

٧ - راجع الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

طبقتهم، من خصلة شعر وحبل وغير ذلك، وبأن يهمل، في رتبة المعموديّة، ما ينفر منه الهنود، كالنفخ. فأثارت أساليب دي نوبيلي معارضة بعض المرسَلين ورفعوا القضيّة إلى روما. لكنّ البابا قبل بعض التكيّفات التي أدخلها دي نوبيلي سنة ١٦٢٣. واتّخذ بعض المرسلين نمط حياة "التائبين" من الطبقات الدنيا في المجتمعات الهندوسيّة ليضعوا أنفسهم في خدمة أفقر الناس. ثمّ انتقل إلى الهند بعض اللوثريّين فقصدوا "ترانكيبار TRANQUEBAR" سنة ١٧٠٦، وهذه الإرساليّة هي من أوائل الإرساليّات البروتستانتيّة منذ أن نشأت حركة الإصلاح. وفي سنة ١٧٣٣ رسم أوّل قسّ هنديّ[1].

وكان البرتغاليّون قد وصلوا إلى ماكاو[2] سنة ١٥٥٧، وفي سنة ١٥٦٥ أنشئ فيها دير للآباء اليسوعيّين، وعُيّن عليها مطران بعد ذلك بقليل. وكان على الصينيّين المهتدين أن يقصّوا شعر رؤوسهم ويتّخذوا نمط حياة أوروبّا. وفي سنة ١٥٧٨، أرسل زائر يسوعيّ يُدعى "فاليانو VALIANO" راهبَين إلى مناطق الصين الداخليّة وهما "أوجيري UGGIERI" و"متّى ريتشي RICCI". وقد مرّ ريتشي بخمس مراحل، من سنة ١٥٨٢ إلى ١٦٠١، قبل أن يصل إلى بيكين حيث بقي حتّى وفاته سنة ١٦١٠. وفي بيكين بدأ ريتشي نشاطه مقتديًا بالـ"بونز[3]" البوذيّ. ودرس طويلاً حتّى أصبح مقتدرًا في لغة الصين وحضارتها، فأدرك مكانة المثقّفين فيها، وهم تلاميذ "كونفوشيوس[4]"، وبدت له "الكونفوشيوسيّة" أقرب إلى المسيحيّة من سائر التيّارات الصينيّة،

---

١ - راجع الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

٢ - ماكاو MACAO: مقاطعة برتغاليّة في ما وراء البحار في جنوب شرقيّ الصين عند مصبّ نهر كانتون، أصبحت مركزًا للتجارة البرتغاليّة ١٥٥٧، كانت أهمّ وأوّل ثغور الصين التي فتحت للتجارة الخارجيّة ١٨٨٧، انتزعت منها الزعامة "هونغ كونغ" في القرن التاسع عشر، منحتها البرتغال الحكم الذاتيّ ١٩٧٦.

٣ - بونز BONZE رجل الدين أو الراهب البوذيّ.

٤ - راجع الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

كالـ"طاويّة TAIOISME" والبوذيّة. ومذذاك، اتّخذ ريتشي ثياب المثقّفين ونمط حياتهم. وانصرف إلى الخدمة الرسوليّة الفكريّة، بنشر العلوم الغربيّة، كعلم الفلك والرياضيّات. وعرض التعليم الكاثوليكيّ في كتاب وضعه باللغة الصينيّة سمّاه "العرض الصحيح لتعليم السماء". ويروي باحثون كنسيّون أنّه نشأت يومها مشاكل عسيرة بالنسبة إلى تبشير الصين. فهل يجوز للمسيحيّين إكرام أرواح الوالدين المتوفّين، وكونفوشيوس؟ وما هي الألفاظ الصينيّة التي يجب استخدامها للدلالة على حقائق الإيمان المسيحيّ بدون أن يقع اختلاط بينها وبين الديانة الصينيّة؟ ثمّ كيف الوصول إلى إنشاء إكليروس صينيّ؟ وأين يكون الكهنة؟ وهل اللاتينيّة لغة لا غنى عنها؟ أمام كلّ هذا، أذن البابا بولس الخامس (١٦٠٥ ـ ١٦٢١) أن يترجم الكتاب المقدّس والنصوص الطقسيّة إلى الصينيّة. لكنّ الليتورجيا باللغة الصينيّة لم تدخل حيّز التنفيذ[١].

من جهة أخرى، كان البلاط الأمبراطوريّ الصينيّ يقدّر خدمات اليسوعيّين العلماء، من وضع الروزنامة وصنع المدافع وغيرها من الفنون. وفي سنة ١٦٨٨ وصل إلى بيكين اليسوعيّون الاختصاصيّون في الرياضيّات ممّن كانوا في خدمة لويس الرابع عشر. وهكذا ظهر أنّ المسيحيّين الصينيّين كانوا في القرن السابع عشر يأملون خيرًا عظيمًا، إذ كان قد اتّبع المسيحيّة ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ ألف مؤمن، وكان في الصين نحو ١٢٠ مرسلاً. لكنّ الخلاف حول الشعائر[٢] والنزاع الذي نشب بين

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

٢ ـ **الخلاف حول الشعائر**: انقسم المرسلون البرتغاليّون واليسوعيّون في الهند والصين ـ على صعيد اللغة: كيف يُسمّى الله في اللغات المحليّة؟ ـ وعلى الصعيد الليتورجيّ: هل يجب تكييف الطقوس المسيحيّة؟ ـ وفي ما يتعلّق بالعادات التقليديّة: هل يجوز للمسيحيّين أن يكرّموا موتاهم ويحافظوا على نظام الطبقات ...؟ وفيما قبل اليسوعيّون التكييفات إلى حدّ بعيد، رأى مرسلو سائر الرهبانيّات (الدومينيكان والفرنسيسكان وإرساليّات باريس) في ذلك تنازلات لصالح عبادة الأصنام. وكان هذا التعارض يمثّل غالبًا التعارض القائم بين نظام الوصاية ومجمع انتشار الإيمان. وفضلاً عن ذلك، كان الخلاف أحيانًا يرجع إلى خلافات لاهوتيّة عرفتها الكنيسة القديمة بين اليسوعيّين والجنسينيّين وبين التيّار المتساهل والتيار المتشدّد.

الوصاية البرتغاليّة ومجمع انتشار الإيمان[1] أثارا استياء الأباطرة الذين ألقت تلك النزاعات في أذهانهم الشكّ في الأساليب الإرساليّة وفي موقف المسيحيّة من الثقافات المحليّة، فشنّوا عدّة اضطهادات على المسيحيّين، ولم يعد يُسمح بالإقامة في بلاط بيكين لغير العلماء اليسوعيّين من بين كافّة المبشّرين. وجاء حلّ الرهبانيّة اليسوعيّة بدءًا من سنة ١٧٦٢ ليزيد في الأوضاع سوءًا، كما زكّت الثورة الفرنسيّة المشكلة تعقيدًا. غير أنّ الإنجازات التي تمّت كانت قد وضعت الأسس لانطلاق المسيحيّة في الصين، ومنها امتدّ الدين المسيحيّ إلى كوريا[2] في القرنين السابع عشر والثامن عشر انطلاقًا من كتب أتت من الصين[3].

---

١ ـ اتّخذ هذا الخلاف شكلاً حادًا سنة ١٦٩٣ إذ نهى النائب الرسوليّ البابويّ في الصين المطران "ميغرو MAIGROT" المسيحيّين عن استخدام المفردات التي وضعها اليسوعيّون للدلالة على الله في اللغة الصينيّة، وعن ممارسة الشعائر الدينيّة التقليديّة الصينيّة كإكرام الأجداد وكونفوشيوس، لكنّ اليسوعيّين حصلوا من الأمبراطور "كنغ هي KANG - HI" على تفسير مختلف، ومع ذلك ففي ١٧٠٤ تبنّى مجمع الإيمان أهمّ ما ورد في موقف ميغرو، وأرسل البابا مندوبًا للبتّ في المشكلة في كانها، فنهى المندوب عن التكييفات التي جرت في الهند (الشعائر الملابارية) والصين، ثمّ توفّي تحت الإقامة الجبريّة في "ماكاو MACAO" ١٧١٠. وفي ١٧١٥ شجب البابا رسميًّا الشعائر الصينيّة والملابارية، لكن أمام الضجّة التي قامت في الإرساليّات عُيّن مندوب جديد منح بعض الترخيصات التي لم تحلّ المشكلة، وأخيرًا شُجبت الشعائر الصينيّة والملابارية مرّة أخرى ١٧٤٢ و١٧٤٤، وبقيت الأمور على ما هي حتّى سنة ١٩٣٩؛ حول كنيسة الملابار، راجع: الكنيسة الكلدانيّة، الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ كوريا CORÉE: شبه جزيرة في شرق آسيا بين منشوريا وبحر اليابان والبحر الأصفر، تضمّ حوالي ٣٤٢٠ جزيرة صغيرة معظمها مأهول، اكتشف الصينيّون كوريا في القرن الثاني عشر ق.م.، قامت فيها مملكة سيلا الوطنيّة ٣٥٠م، احتلّها المغول ١٢٣١ ـ ١٢٦٠، لمّا تولّت أسرة بي ١٢٩٣ ـ ١٩١٠ اتّخذت سيول عاصمة لها وجعلت الكونفوشيوسيّة الدين الرسميّ وابتكرت حروف هجاء واخترعت المطابع، وكان الديكتاتور الياباني هيديوشي ١٥٩٢ ـ ١٥٩٦ قد احتلّها في حملتين على الصين، وكانت تُعرف بالأراضي المنعزلة، أصبحت تابعة للصين أوائل القرن السابع عشر، أدّى انتصار اليابان في الحرب الصينيّة ـ اليابانيّة الأولى ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ ثمّ في الحرب الروسيّة ـ اليابانيّة ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ إلى انضمام كوريا إلى اليابان ١٩١٠، قسّمت بعد الحرب العالميّة الثانية إلى مناطق احتلال بين الروس (في الشمال) والأميركيّين (في الجنوب) وأصبح التقسيم ثابتًا ١٩٤٨ ونشأ في كلّ من القسمين دولة ونظام حكم، فهي اليوم دولتان: كوريا الشماليّة أو الجمهوريّة الديمقراطيّة الشعبيّة (نحو ٢٢ مليون نسمة) وعاصمتها بيونغيانغ ونظامها إشتراكي، والجنوبيّة أو جمهوريّة كوريا (نحو ٤٧ مليون نسمة) وعاصمتها سيول ونظامها رأسمالي؛ يعتنق معظم الكوريّين خليطًا من البوذيّة والكونفوشيوسيّة والمسيحيّة والطاويّة.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦.

أمّا في الشرق الأوسط، فقد أحدثت الإرساليّات الكاثوليكيّة اللاتينيّة، على يد مجمع نشر الإيمان الذي أسّس سنة ١٦٢٢، وعلى يد "ريشيليو*"، نهضة ظهرت في القرن السابع عشر بشكل واضح، ونمت لاحقًا بشكل مضطرد.

الكَنيسَـة الرُّومَانيَّـة في القَرن الثَّامن عشر

أخذت علامات تراجع عن الدين تظهر في أوروبّا منذ منتصف القرن الثامن عشر، ما فُسّر بـ"فلسفة الأنوار" التي استمدّت بعض أنصارها من خلال التهجّم على المسيحيّة. وبدت الثورة الفرنسيّة بمثابة نصر للأنوار ولخصوم الكنيسة. لكنّ السلطة السياسيّة قد وجدت نفسها بعد حين مرغمة على أن تعيد إلى الكنيسة مكانتها في المجتمع. ولم تأت جهود التجديد، التي بُذلت في القرن السابع عشر، بجميع ثمارها إلاّ في مطلع القرن الثامن عشر، ومن تلك الجهود مسائل: تكوين رجال الإكليروس، وتجديد شعائر العبادة، وتطوير الكرازة الداخليّة، وانتظام الممارسة الدينيّة، وسوى ذلك من الأمور التنظيميّة. وبقي عموم الأوروبيّين مسيحيّين مع بعض الفوارق بحسب المناطق. كما عرف القرن الثامن عشر صيغًا مختلفة للقداسة. فكان "ألفونسو دي ليغوري DE LIGORI" (١٦٩٦ ـ ١٧٨٧) من ملافنة الكنيسة إذ حرّرها، في اللاهوت الدينيّ، من النفوذ الجنسينيّ*، وأعطى دفعة جديدة لحملات الكرازة الشعبيّة بفضل تأسيسه رهبانيّة "الريدمبتوريست RÉDEMPTORISTES". في حين أتى "بنوا لابر BENOÎT LABRE" (١٧٤٨ ـ ١٧٨٣) بشكل من القداسة الصوفيّة مبنيّ على التنقّل بين الأماكن المقدّسة في التسوّل والتقشّف. ولكن بدءًا من منتصف القرن الثامن عشر، ظهرت مناطق فتور دينيّ في البلاد الفرنسيّة. فقد أخذت الممارسة الدينيّة تنخفض بوجه

ملحوظ في بعض المدن، وحتّى في بعض الأرياف أيضًا. وقد كانت تلك الظاهرة كناية عن زوال نمط معيّن للتديّن المسيحيّ لصالح نمط آخر. ورأى البعض أنّه قد بدا هناك خطّان متقاطعان: إنخفاض كميّ وارتفاع نوعيّ. ولم يخلُ ذلك القرن من الكهنة والأساقفة اللامعين، غير أنّه كلّما تقدّم القرن، كانت الأسقفيّة تنحصر في الأعيان، سواء في فرنسا أم في ألمانيا. أمّا الأديرة فأخذت تتناقص. وفي سنة ١٧٨٣ أغلق الأمبراطور "جوزيف الثاني[١]" جميع أديرة المتوحّدين في "النمسا[٢]" وهولندا*. وقد نُسب

١ - **جوزيف الثاني** (١٧٤١ - ١٧٩٠): أمبراطور جرمانيّ من آل هابسبورغ، إبن الأمبراطور فرنسيس الأوّل وماريا تيريزا، اشترك في حكم ممتلكات آل هابسبورغ مع أمّه ١٧٦٥ - ١٧٨٠، خلف أباه أمبراطورًا ١٧٦٥ - ١٧٩٠، كان مصلحًا ثوريًا مستبدًا سعى إلى رفع معيشة رعاياه وتركيز الإدارة بإصدار سلسلة من المراسيم الراديكاليّة ولكنّه لم يفلح بإلغاء الامتيازات الوراثيّة والكهنوتيّة للنبلاء وكبار رجال الكنيسة بل ألغى نظام موالي الأرض والمكوس الإقطاعيّة على الفلّاحين التعساء ومكّنهم من تملّك الأرض بثمن رخيص، ألغى التعذيب في التحقيقات القضائيّة وجعل قانون العقوبات يتّسم بالإنسانيّة ونظّم القضاء، منح رعاياه قسطًا كبيرًا من التسامح الديني ١٧٨١ لكنّه اتّخذ تدابير وإجراءات غير مستحبّة لدى الكهنوت فحظّر على المذاهب الدينيّة إطاعة القادة الأجانب وأغلق دور الجماعات المذهبيّة التي تقضي وقتها في التأمّل، ولم تثنه عن إصلاحاته الدينيّة زيارة البابا بيوس السادس له، أخفقت مشروعاته في فرض ضريبة موحّدة على الأرض وتقديم الطعام والعلاج مجانًا للمعدمين، أثارت محاولاته الإصلاحيّة القمعيّة لتركيز الهيئات الإداريّة بيد الحكومة في فيينّا الفتن في هنغاريا وبلجيكا التي كانت تتبع النمسا، أحبطت حرب الوراثة البافاريّة خطّته في ضمّ بافاريا إلى ممتلكاته، كما أحبط فريديريك الثاني ملك بروسيا مشروعه الخاص بإبدال بلجيكا ببافاريا ١٧٨٥، تحالف مع كاترين قيصرة روسيا في حربها ضد تركيا.

٢ - **النمسا** ÖSTERREICH, AUTRICHE: جمهوريّة في أوروبّا الوسطى بين ألمانيا وسويسرا وإيطاليا ويوغوسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا سابقًا، سكّانها حوالى ٨ ملايين نسمة يغلب عليهم المذهب الكاثوليكيّ، عاصمتها فيينّا، كانت دوقيّة في القرون الوسطى إلى أن ملكت عليها عائلة هابسبورغ ١٢٧٦ فامتزج تاريخ البلاد بتاريخ هذه السلالة التي أنجبت جميع أباطرة جرمانيا منذ ١٤٣٨ والتي توصّلت إلى مدّ ممتلكاتها لتشمل بوهيميا والمجر وبلجيكا وهولندا وشمال إيطاليا وأصبحت النمسا مركز أمبراطوريّة واسعة متعدّدة الشعوب مختلفة النزعات لا يوحّد بينها إلاّ شخص الأمبراطور، تقلّصت حدودها في القرن التاسع عشر بعد حروب نابوليون ١٨٠٦ والحركات التحرريّة ١٨٤٨ - ١٨٦٦، ألّفت دولة النمسا المجر ١٨٦٧ - ١٩١٨، أصبحت دولة فدراليّة ١٩٢٠ - ١٩٣٨، ضمّها النازيّون إلى ألمانيا ١٩٣٨ - ١٩٤٥ إلى أن فتحتها الجيوش الأميركيّة الروسيّة وأعيدت الجمهوريّة النمساويّة وقسّمت إلى خمس مناطق محتلّة بين فرنسا والولايات المتّحدة وروسيا وبريطانيا، اعترف بالنمسا رسميًا ١٩٤٦، تولّت الحكم وزارة إئتلافيّة كاثوليكيّة إشتراكيّة ١٩٥١، أعلنت معاهدة الصلح مع روسيا والغرب حياد النمسا والجلاء عنها ١٩٥٥، حكم الائتلاف الاشتراكيّ الكاثوليكيّ النمسا ١٩٤٥ - ١٩٦٦ عندما فاز حزب الشعب بأغلبيّة مطلقة في البرلمان، قبلت عضوًا في الأمم المتّحدة ١٩٥٥، انضمّت إلى مجلس أوروبا ١٩٥٦.

إلى الأمبراطور جوزيف الثاني تيّار تجدّديّ عُرف بالـ"جوزيفيّة JOSÉPHISME"، هو من التيّارات الفكريّة التي حرصت على الرفع من شأن الكنائس المحليّة ورجال إكليروسها تجاه الكرسيّ الرسوليّ، فكان جوزيف يتدخّل في شؤون الكنيسة، حتّى في الأمور الطفيفة، مثل الشؤون الطقسيّة ودفن الموتى وقرع الأجراس، ومنع الرهبان من الارتباط برئيس أجنبيّ، وقد كان هدفه من إقفال أديرة "المتوحّدين"، استخدام أموالها في إنشاء رعايا جديدة، وإعادة تنظيم الإكليريكيّات.

لم يكن تيّار جوزيف الثاني الأوّل الوحيد من نوعه، بل يربط باحثون كنسيّون وعلماء اجتماع نشأة ذلك التيّار بـ"أزمة ضميريّة أوروبيّة"، ظهرت بوادرها منذ نهاية القرن السابع عشر، وكان "بيار بيل[1]" من روّاد تلك النزعة الفكريّة التي قادها في القرن الثامن عشر كتّاب كبار من أمثال: "فولتير[2]" و"ديدرو[3]" و"دالمبير[4]"، تلقّوا علومهم غالبًا عند اليسوعيّين، فأرادوا أن يحكموا في كلّ شيء "بأنوار" العقل التي تختلف عن غموض الوحي. وإذا كانت "فلسفة الأنوار" هذه، قد عُرفت بأنّها "آلة حرب ضدّ المسيحيّة"، فإنّ العقلانيّة المثاليّة التي ميّزت تلك الفلسفة قد دأبت أيضًا على

---

١ ـ بيار بيل BAYLE (١٦٤٧ ـ ١٧٠٦) كاتب فرنسيّ، وُلد في كارلا في ارياج CARLA (ARIÈGE)، مؤلّف معجم تاريخيّ نقديّ (١٦٩٥ ـ ١٦٩٧)، وله "خواطر في المذنّب"، غذّت كتاباته فعّالة في نشوء نزعة حريّة الفكر في القرن الثامن عشر.

٢ ـ فرنسوا ماري أرواي فولتير VOLTAIRE (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨): من أئمّة المؤلّفين الفرنسيّين ونوابغهم في عصره، وُلد في باريس، أقام في بروسيا وسويسرا، تزعّم حركة الفلسفة المادّيّة وقاوم رجال السلطتين الدينيّة والمدنيّة بقلمه الرشيق اللاذع، كتب في الشعر والتاريخ والمسرح والمراسلة والفلسفة وأجاد في أكثرها، من مؤلّفاته "المحاورات الفلسفيّة" و"كنديدا" و"زئير" و"محمّد" و"شارل الثاني عشر".

٣ ـ ديدرو DIDEROT (١٧١٣ ـ ١٧٨٤): فيلسوف فرنسيّ أنشأ مبادئ الفلسفة العقلانيّة في القرن الثامن عشر، أسّس دائرة المعارف الفرنسيّة أو الأنسيكلوبيديا وأشرف على إصدارها.

٤ ـ دالمبير D'ALEMBERT (١٧١٧ ـ ١٧٨٣): كاتب وفيلسوف وحسّاب فرنسيّ، وُلد في باريس، أحد مؤلّفي دائرة المعارف الفرنسيّة أو الأنسيكلوبيديا، كان من المشكّكين في الدين والفلسفة.

التمييز بين المجالات المختلفة، فأخذ العلم يكتسب لغته الخاصّة ويبتعد عن الميتافيزيقيا. وقد شارك مسيحيّون ملتزمون في هذا الولع بالعقل. حتّى أنّ مَن أصبح، في وقت لاحق، البابا بيوس السابع (١٨٠٠ ـ ١٨٢٣)، وهو أوّل بابلوات القرن التاسع عشر، قد شارك هو نفسه، ولو في البدء (١٧٥١ ـ ١٧٧٢) في وضع المؤلّف الذي يُعدّ مرجع "الأنوار"، وهو "الموسوعة" أو "المعجم الاستدلاليّ للعلوم والفنون والحرف" الذي شارك في تحريره أيضًا بعض اللاهوتيّين. لذلك اعتبر مدقّقون أنّ الإلحاد بمعناه العميق كان نادرًا في تلك الحقبة بين الفلاسفة الكاثوليك، خاصّة وأنّ التعبير عنه، في حال وجوده، لم يكن يخلو من التعرّض للخطر. فكان معظم "الفلاسفة" يعتقدون بأنّ الدين حاجة من حاجات الشعب الأوّليّة: فاللّه يضمن النظام. فكان أكثرهم يميلون إلى "التأليه DEISME" أي إلى دين طبيعيّ يطابق العقل وينفي كلّ وحي. فالعقائد، في نظرهم، تعارض العقل والطبيعة. وإذ كانت الكنيسة متّهمة بعدم تسامحها، وبتأييدها للإستبداد على أنواعه، قام فولتير بحملة لإعادة الاعتبار إلى بعض ضحايا عدم التسامح الدينيّ، واعتبر أنّ المسيحيّة، برفضها مجاراة الطبيعة، تشكّل عقبة في سبيل سعادة الإنسان، "فلا بدّ من الكفاح لإزالة الكنيسة والمسيحيّة". إلاّ أنّ غلبة العقل، في تلك الحقبة، لم تمنع الناس في نهاية القرن الثامن عشر من العودة إلى المذاهب "الحدسيّة" وغير الخاضعة للنزعة العقلانيّة المجرّدة. فكان "روسّو [1]" غير راضٍ عن عقلانيّة فولتير "الجافّة"، وحاول أن يعيد إلى العاطفة مكانتها في "دين طبيعيّ"، موجّهًا الناس إلى تخطّي "رهبة الوحي" وممهّدًا الطريق للرومنطيقيّة. أمّا الكنيسة، فحاولت

---

١ ـ جان جاك روسّو ROUSSEAU (١٧١٢ ـ ١٧٧٨): كاتب فرنسيّ، وُلد في جنيف، له تآليف فلسفيّة واجتماعيّة، نادى فيها بطبيعة الإنسان وبالعودة إلى الطبيعة، منها "العقد الاجتماعي"، إميل"، "إعترافات"، كان لمبادئه تأثير في نشأة الثورة الفرنسيّة والرومنطيقيّة.

الدفاع عن نفسها في مواجهة التهجّمات بالطرق التقليديّة، كمراقبة المؤلّفات التي اعتبرتها "سيئة"، والمطالبة بتدخّل السلطات المدنيّة لردع الكتّاب المناوئين، وتأليف الكتب الدفاعيّة. على أنّها، في الوقت نفسه، لم تكتفِ بالنظر إلى تلك "المثاليّة العقلانيّة" نظرة سلبيّة، فانتقلت الكنيسة الكاثوليكيّة إلى التحقيق والإصلاح. ففي فرنسا مثلاً، صدرت مؤلّفات يأخذ مضمونها بعين الاعتبار روح العصر. أمّا في ألمانيا، فقد تُرجم ردّ الفعل الكاثوليكيّ بالعودة إلى الجذور، وتجديد علم اللاهوت، والميل إلى المزيد من التسامح والتقارب مع البروتستانت. وقام بعضهم بإعداد كتب تعليم مسيحيّ يمكن أن يستخدمها البروتستانت والكاثوليك في آن. ومن أشهر ممثّلي هذه الحركة الكاهن "سايلر [1]" الذي قام بعدّة مبادرات في حقل الروحانيّات، ومارس أعمالاً مسكونيّة قبل قيام "الحركة المسكونيّة[2]".

في الوقت نفسه، لا يمكن نكران ما كان لحركة "الأنوار" من تأثير سلبيّ على انتشار المسيحيّة الكاثوليكيّة في القرن الثامن عشر، وكان من أبرز تلك النتائج غير المباشرة، تجاه بابويّة مسالمة، حلّ الرهبانيّة اليسوعيّة في مختلف الدول الكاثوليكيّة، ثمّ تمّ القضاء على وجودها كليًّا سنة ١٧٧٣على يد البابا إكليمنضس الرابع عشر. وقد جاء ذلك نتيجة للجهود المتضافرة التي بذلها الفلاسفة والجنسينيّون وسائر الرهبانيّات. فدفع اليسوعيّون ثمن ضعف المَلَكيّات الأوروبيّة والإدارة البابويّة التي كانت في ما مضى أقوى سند لهم، كلّ ذلك لأنّ اليسوعيّين قد أبدوا حميةً شجاعة ونشطة في الصراعات اللاهوتيّة. وهكذا تمّت إعادة المرسلين منهم إلى بلادهم في ظروف يُرثى لها. أمّا البرتغال، التي كان مرسَلوها في حالة تنافس مع اليسوعيّين في الشرق

---

١ ـ سايلر J.M. SAILER (١٧٥١ ـ ١٨٣٢) كاهن من بفاريا، علّم اللاهوت الرعوي.

٢ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٨١ ـ ٢٨٦.

الأقصى وسواها من المناطق، فاستغلّت الوضع، وحاربت اليسوعيّين بعنف بالغ، حتّى أنّ الماركيز البرتغالي "دي بومبال[1]" قد أعدم أكثر من ثمانين يسوعيًّا. وبنتيجة إلغاء اليسوعيّين، فقدت الكنيسة الكاثوليكيّة أكثر من نصف مرسليها في العالم قاطبة. ثمّ جاءت الثورة الفرنسيّة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٩، لتزيد في شؤون الكنيسة تعقيدًا.

تداعيات الثّورة الفَرَنسيَّة على وضعيَّة الكَنيسَة

كانت الثورة الفرنسيّة، برأي أكثر الباحثين، عبارة عن ترجمة جزء من روح "الأنوار" إلى الواقع، أي "نصرة العقل في مجال السياسة ومحاربة المسيحيّة[2]". واعتبر بعضهم أنّ نشوب تلك الثورة قد جاء نتيجة أزمة فكريّة وأخلاقيّة واجتماعيّة، لم تلقَ أمامها رجالا بهم الكفاية ولهم العلم والمقدرة لحلّها حلاً مُرضيًا[3]. وبعد أن بدأت الثورة باستيلاء الثوّار على حصن الباستيل[4] في باريس في ١٤ تمّوز (يوليو) ١٧٨٩، أدّت مجموعة أحداث إلى القضاء على النظام الملكيّ العريق في فرنسا سنة ١٧٩٢، وزعزعت الأنظمة القديمة، بما فيها تلك التي لها علاقة بالكنيسة، وذلك تحت شعار المناداة بالمبادئ الديمقراطيّة والحريّة والمساواة والإخاء. وقبل نهاية القرن الثامن

---

١ ـ **الماركيز دي بومبال** SEBASTIANO MARQUIS DE POMBAL (١٦٩٩ ـ ١٧٨٢): رجل دولة برتغاليّ، وزير جوزيف الأوّل، حكم المملكة طوال ربع قرن، اعتنق بقوّة فلسفات القرن التاسع عشر ودعم أصحابها، قوّى السلطة الملكيّة، شجّع التجارة.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٩٢.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

٤ ـ **باستيل** BASTILLE: حصن في باريس كان معتقلاً للسجناء خاصّة السياسيّين منهم، اقتحمه الثوّار في ١٤ تمّوز (يوليو) ١٧٨٩ وحرّروا السجناء، غدا ذلك اليوم بداية تاريخ الثورة الفرنسيّة وأصبح الرابع عشر من تمّوز (يوليو) عيدًا وطنيًّا فرنسيًّا ولا يزال.

عشر، تعاقب على حكم فرنسا حكومات مختلفة، كان أولها: الجمعيّة القوميّة التأسيسيّة ١٧٨٩ ـ ١٧٩١. والملاحظ أنّه في التطواف الذي افتُتحت به الجمعيّة في ٥ أيّار (مايو) ١٧٨٩، كان الناس يحملون الشموع بأيديهم، وكان معظم ممثّلي الإكليروس، من كهنة الرعايا، قد قبلوا الانضمام إلى نوّاب الشعب لتشكيل الجمعيّة القوميّة التأسيسيّة. ولكن عندما برزت المطالب الثوريّة في خلال الاضطرابات التي ظهرت في الأرياف بعد حين، تخلّى الإكليروس والأشراف، ليلة ٤ آب (أغسطس) عن جميع امتيازاتهم. وفي ٢٦ آب (أغسطس) صوّتت الجمعيّة على "إعلان حقوق الإنسان والمواطن"، وهي المبادئ الأساسيّة التي قام عليها النظام الجديد. وكان هذا الإعلان مستوحى من تعاليم فلاسفة الأنوار، ومن الإعلان الأميركيّ لحقوق الإنسان الصادر بمناسبة استقلال الولايات المتّحدة سنة ١٧٧٦، وشعاره "الحريّة والمساواة والملكيّة حقوق مقدّسة". ولمّا كانت الكنيسة مرتبطة بالنظام الملكيّ، ومعظم أساقفتها من النبلاء، فقد اتّخذت الثورة طابعًا معاديًا للدين، وألغت منذ سنة ١٧٨٩ جميع امتيازات الإكليروس، واستولت على ممتلكات الكنيسة[1]. ففي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٩، وفقًا لاقتراح "تاليران[2]" أسقف "أوتون[3]" وُضعت جميع أملاك الإكليروس تحت تصرّف الأمّة، فأصبحت أملاكًا قوميّة، وتعهّدت الدولة بمعيشة جميع الإكليروس والخدمات التي يقومون بها، من رعاية وتعليم... ولمّا كانت الكنيسة تملك سدس الأراضي الوطنيّة، شكّل بيع هذه الأملاك نقل ملكيّة لا مثيل له. فقد بيعت تلك الأملاك

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

٢ ـ تاليران TALLEYRAND (١٧٥٤ ـ ١٨٣٨)، سياسيّ فرنسيّ، وفّق بدهائه في البقاء بمناصب الحكم رغم التقلّبات، وزير الخارجيّة مرارًا، لعب دورًا هامًّا في مؤتمر فيينّا ١٨١٤ ـ ١٨١٥.

٣ ـ أوتون AUTUN: مدينة فرنسيّة على ضفّة L'ARROUX أحد روافد نهر اللوار، مركز أسقفيّ، تحتفظ بآثار رومانيّة، شهيرة بكاتدرائيّة سان لازار الرائعة.

الوطنيّة للطبقة البورجوازيّة ولأغنياء المزارعين، ما أدّى إلى انضمام هاتين الطبقتين إلى الثورة. على أنّ ذلك أدّى أيضًا، مع شديد الأسف، إلى نهب عدد كبير من الثروات الفنيّة، فدُمّر بعض الكنائس والأديرة وحُوّل بعضها الآخر لاستخدامات مختلفة. وفي ١٣ شباط (فبراير) ١٧٩٠، منعت الجمعيّة التأسيسيّة النذور الرهبانيّة، وفرضت على الراغبين في مواصلة الحياة الرهبانيّة أن يعيشوا في بيوت يتجمّعون فيها. ويرى باحثون أنّ ذلك التدبير قد أدّى إلى نزيف خطير في أديرة الرجال، أمّا في أديرة النساء فكانت الأمانة للنذور أعلى وأوفر. وإذ أعادت الجمعيّة التأسيسيّة تنظيم الشؤون السياسيّة والإداريّة في فرنسا بشكل جذريّ، أرادت أن يكون التنظيم الكنسيّ أيضًا منسجما مع تلك الخطوة. وفيما يرى أنّ الذين ألهموا "دستور الإكليروس المَدَنيّ[1]" لم يكونوا أعداء للدين، بل متأثّرين بشكل واضح بروح الأنوار وبالمبادئ التي تشجّع "الجوزيفيّة*"، فكان المشرّعون يظنّون أنّهم يعودون بذلك إلى بداية الكنيسة[2]. يرى اخرون أنّ الثورة قد حاولت إقامة عبادة جديدة بدل عبادة الله، فعبدت "العقل"، وجهدت في نشر ديانة جديدة بدل الديانة المسيحيّة، ففرضت على الناس محبّة الإنسانيّة، وتابعت مع هذا قتل الناس، فكانت دماء الأبرياء تسيل أنهارًا[3].

على أيّ حال، فقد أدّت تلك التدابير، أيًّا كانت دوافعها الحقيقيّة، ولعلّها مزيج من الدوافع، الى تغيّر الجغرافيا الكنسيّة تغيّرًا تامًّا، إذ انخفض عدد الأبرشيّات من ١٣٥ إلى ٨٥، فأصبح لكلّ محافظة أبرشيّة، ولكلّ ستّة آلاف من السكّان رعيّة. وأصبح السكّان، بمن فيهم غير الكاثوليك، ينتخبون الأساقفة وكهنة الرعايا الذين يختارون

---

١ ـ أُقرّ هذا الدستور في ١٢ تموز (يوليو) ١٧٩٠ وأصدره الملك مرغمًا في ٢٤ من الشهر نفسه.

٢ ـ كمبي، سبيل الى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

بدورهم المسؤولين في المحافظات والمناطق الإداريّة. وأصبح على الأسقف أن يطلب التعيين من رئيس الأساقفة، من دون العودة إلى البابا إلاّ من أجل تبليغه التعيين وتعبيره عن الشراكة معه[1]. ذلك أنّ الجمعيّة التأسيسيّة في فرنسا قد أقرّت سنة ١٧٩٠ فصل الكنيسة الفرنسيّة عن كنيسة روما[2].

وإذ لم يأخذ المشرّعون برأي البابا في وضع ذلك الدستور، حصلت اعتراضات في خلال النقاش التأسيسيّ تبنّاها ثلاثون من الأساقفة الإثنين والثلاثين المندوبين في الجمعيّة التأسيسيّة، ورفعوا في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٧٩٠ وثيقة خطيّة احتجّوا فيها على عدم طلب الموافقة من البابا في تعديل نظام الكنيسة. أمّا البابا فلم يردّ على الفور. وعندما فرضت الجمعيّة في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠ على كافّة أعضاء الإكليروس الذين في الخدمة أداء يمين الولاء للأمّة وللملك، والتعهّد بالمحافظة على الدستور، بما في ذلك تنظيم الكنيسة الجديد، لم يؤدّ اليمين إلاّ سبعة أساقفة من أصل مئة وستّين. أمّا الكهنة، فاختلفت نسبتهم باختلاف المناطق، وعلى العموم، فقد انقسم هؤلاء مناصفة نسبة لعموم كهنة فرنسا، علمًا بأنّ بعض الموافقين قد أضافوا تحفّظات حول عدم اطّلاعهم على موقف البابا. والذين لم يؤدّوا اليمين كان عليهم أن يتخلّوا عن القيام بخدمتهم. وهؤلاء لم يتمّ استبدالهم إلاّ في نهاية سنة ١٧٩٠، إذ انتُخب كهنة رعايا "دستوريّون" انتَخبوا بدورهم أساقفة. ذلك أنّ الحكومة كانت قد أصدرت مرسومًا يقضي بانتخاب رجال الإكليروس والأساقفة على طريقة انتخاب نوّاب البرلمان، بدون أن يكون للبابا حقّ التدخّل في شؤون الكنيسة. فأبى معظم رجال الإكليروس الفرنسيّ الإنصياع لهذا التشريع المخطئ، فاضطهدتهم الثورة بعنف، وشرّدتهم وقضت على

---

١ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

حياة الكثيرين. وفي آذار - نيسان (مارس - إبريل) ١٧٩١، شجب البابا بيوس السادس دستور الإكليروس المدنيّ والمبادئ التي سار عليها المشرّعون في باريس، معلنًا "أنّ مبادئ الثورة الفرنسيّة مخالفة للوحي، لأنّها تنكر حقوق اللّه والحقيقة، بإعلان حريّة مطلقة"... وطلب البابا "أن يرجع جميع الذين أقسموا اليمين عن قسمهم، وحرّم جميع الوظائف على الأساقفة الذين تمّ انتخابهم". فكانت ردّة الفعل الرسميّة على اعتراض البابا بيوس السادس قيام الجيش الفرنسيّ باحتلال ممتلكاته، وأخذ البابا أسيرًا فمات في طريقه إلى فرنسا[١]. وبذلك حدث أوّل انشقاق كنسيّ بعد الثورة، فأصبح هناك، من جهة، "كنيسة دستوريّة" لا تعترف الدولة إلاّ بها، راحت تستعيد أماكن العبادة؛ ومن جهة أخرى، "كنيسة عاصية" متضامنة مع روما[٢]. فسادت البلبلة أجواء الحياة الدينيّة في فرنسا على مدى عشر سنين. لكنّ ممارسة العنف لم تكن متواصلة. فلقد غُضّ النظر عن "الكنيسة العاصية" حتّى ربيع ١٧٩٢. وكان قد خلف الجمعيّة التأسيسيّة في الحكم الجمعيّة التشريعيّة ١٧٩١ ـ ١٧٩٢. فبعد أن أُقصي، في نهاية عهد الجمعيّة التأسيسيّة، الكهنة الذين لم يُقسموا اليمين، عن أماكن العبادة، أخذ هؤلاء يقيمون الشعائر الدينيّة في أماكن أخرى. ولمّا أعلنت الجمعيّة التشريعيّة الحرب على النمسا في نيسان (إبريل) ١٧٩٢، وتراكمت الهزائم على فرنسا، رأى بعضهم في "الكهنة العاصين" أعداء في الداخل، وجرى التفكير في نفيهم. وإذ كان الأساقفة قد هاجروا، جاء دور الكهنة، فكانت النتيجة أن رحل إلى جميع بلدان أوروبّا ما بين ثلاثين إلى

---

١ - يتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

٢ - يلفت المؤرّخون الكنسيّون الكاثوليك إلى أنّه لا بدّ هنا من الحذر في تبسيط الأمور، فلم يكن كلّ كاهن أقسم اليمين بالضرورة كاهنًا سيّئًا، ولا كلّ من رفض القسم بالضرورة بطلاً، فالدوافع كانت متنوّعة وبعض الكهنة أقسموا اليمين ليتمكّنوا من البقاء مع رعاياهم، كما أنّ عدّة أساقفة دستوريّين كانوا رعاة يستحقّون كلّ الثناء. مع ذلك، فإنّ الإسراع في انتخاب أساقفة جدد، ثمّ في رسامة كهنة أدّى إلى انتخابات مشبوهة.

أربعين ألف كاهن، بينما تعرّض الآخرون للاعتقال. إذ أدّت الصعوبات التي نشأت في تلك الحقبة، في الداخل والخارج، إلى التشديد في التدابير المتّخذة ضدّ "العاصين"، ثمّ سرعان ما شملت جميع المظاهر الدينيّة. فسُجن نحو ثلاثمائة من رجال الكنيسة بسبب "عصيانهم"، وقد قضوا في خلال المجازر التي جرت في أيلول (سبتمبر ١٧٩٢) وأدّت إلى سقوط نحو ألف قتيل. وفي الشهر نفسه، نُزعت الأحوال الشخصيّة من سجلاّت الميلاد والزيجات والوفيّات، من يد الإكليروس، وعُهد بها إلى البلديّات، وأُبيح الطلاق، ففقدت "الكنيسة الدستوريّة" البقيّة المتبقّيّة لها من الهيبة، إذ لم يعد هناك حاجة إلى اللجوء إليها على وجه رسميّ. ولم يكن لإعدام الملك لويس السادس عشر [1] في عهد "المؤتمر الوطني [2]" معنىً سياسيٌّ فقط، فإنّ مدّ اليد على "مسيح الربّ" كان، في نظر المسيحيّ، خطيئة لا تُغتفر. ويُجمع المؤرّخون على أنّ قتل الملك، بالإضافة إلى رفض التجنيد من قِبَل الشعب، أدّيا إلى نشوب الانتفاضة في غرب فرنسا، والحروب الضارية التي ذهب ضحيّتها مئات الألوف من الناس. وقد بلغ بغض المسيحيّة والعزم على تدميرها ذروتهما في أيّام "الرعب" التي استمرّت يومذاك من أيلول (سبتمبر) ١٧٩٣ إلى تمّوز (يوليو) ١٧٩٤، وقد تخلّلها ما عُرف بـ"التقويم الجمهوريّ"، وتدمير المباني الدينيّة، والحفلات التنكّريّة في الكنائس، وتأليه العقل، وحملة من أجل تخلّي الكهنة وزواجهم، وإعدام العديد من الكهنة والراهبات والعلمانيّين كخونة متعصّبين. ويمكن القول بأنّ كثيرين منهم قد ماتوا شهداء حقيقيّين، وإن كانت المحاكم الثوريّة تتذرّع غالبًا بذرائع سياسيّة. وبسقوط روبسبيير في ٢٧ تمّوز (يوليو) ١٧٩٤، انتهت

---

١ ـ **لويس السادس عشر** (١٧٥٤ ـ ١٧٩٣): وُلد في فرساي، ملك فرنسا ١٧٧٤ ـ ١٧٩٢، تزوّج ماري أنطوانيت النمساويّة، اتُّهم بعد محاولة هربه في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٧٩١ بالتعامل مع الأجنبيّ وبالخيانة، قُتل في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٧٩٣.

٢ ـ **المؤتمر الوطني**: الحكم الثالث الذي عقب ١٧٩٢ ـ ١٧٩٥، بعد الثورة، الجمعيّة القوميّة التأسيسيّة ١٧٨٩ ـ ١٧٩١، ثمّ الجمعيّة التشريعيّة ١٧٩١ ـ ١٧٩٢، وقد خلف المؤتمر الوطني "مجلسُ الإدارة" ١٧٩٥ ـ ١٧٩٩.

أيّام الرعب وبدأت مرحلة من الراحة للدين. وما يمكن اختصاره هنا هو أنّه بعد انهيار الأمبراطوريّة الفرنسيّة في أيلول (سبتمبر) ١٧٨٠، مزّقت الحرب الأهليّة فرنسا، وانقسم الشعب إلى فئتين: فئة تسعى إلى عودة النظام الملكيّ استطاعت أن تسيطر على الجمعيّة الوطنيّة (البرلمان) وأغلب أعضائها من المحافظين والمزارعين، وفئة أخرى أثارت اضطهادا على كلّ ما هو دينيّ أو كنسيّ، وبخاصّة على الكنيسة الكاثوليكيّة، وراح كثيرون ضحيّة الصراع بين الفئتين[١].

إثر ذلك، جاءت المحاولات الرسميّة لإعادة التنظيم في عهد "مجلس الإدارة" ١٧٩٥ ـ ١٧٩٩. الذي عقب عهد "المؤتمر الوطنيّ". وفي أيلول (سبتمبر) ١٧٩٤، ألغت الجمعيّة العليا ميزانيّة العبادة، وفي ٢١ شباط (فبراير) ١٧٩٥، تمّ الاعتراف بحريّة العبادة داخل الكنائس. بذلك اعتمدت فرنسا نظام الفصل بين الكنيسة والدولة، واستمرّ هذا النظام حتّى سنة ١٨٠١. فشهد الصوم الكبير سنة ١٧٩٥ كنائس حافلة بالمؤمنين. لكنّ وجود كنيستين ظلّ قائما، وحاول كلّ منهما إعادة النظر في تنظيمه. وإذ أدّت انتصارات جيوش الثورة إلى انضمام بعض المناطق الأوروبيّة إلى الجمهوريّة، طُبّقت القرارات المتعلّقة بالدين في تلك المناطق بطرق مختلفة. ففي بلجيكا، أُقفلت الأديرة وبيعت أملاكها، كما نُفي بعض الكهنة والأساقفة لأنّهم رفضوا أن يؤدّوا يمين "البغض الأبديّ للملكيّة". وفي تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٧٩٧، أُغلقت أبواب جامعة "لوفان[٢]" ونُفي ستّمائة كاهن بلجيكيّ. وبالمقابل، أدّى الوجود الفرنسيّ في بعض المناطق التي كان قد سيطر عليها البروتستانت إلى تحرير الكاثوليك ومنحهم

١ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤، ٣١٨.

٢ ـ **لوفان** LOUVAIN, LEUVEN: مدينة في وسط بلجيكا، ترقى جامعتها الشهيرة إلى ١٤٢٦.

حريّة العبادة وجميع الحقوق المدنيّة. وفي النهاية، فقد اعُتبر عهد "مجلس الإدارة" ١٧٩٥ ـ ١٧٩٩ ممهّدًا الطريق لنابوليون[١].

وَضعُ الإرسَاليَّات في القَرن الثَّامن عَشَر

إنعكست الأزمات الأوروبيّة الداخليّة، التي جرت في القرن الثامن عشر، على الإرساليّات النائية، وأوقفت الثورة الفرنسيّة، إلى حين، ما نشأ من علاقات بين الكنيسة وبلاد ما وراء البحار. فقد باشر "آباء الروح القدس" تبشير السنغال سنة ١٧٧٦. واهتمّ بعض الكهنة في جزيرتَي "ريونيون[٢]" و"موريس[٣]" بالمغتربين من مستعمرين وعبيد. أمّا في منطقة "الأنهر الثلاثة" "باناما[٤]" و"باراغواي[٥]"

١ ـ **نابوليون الأوّل** NAPOLÉON (١٧٦٩ ـ ١٨٢١): وُلد في أجاكسيو من عائلة بونابارت، اشتهر في حملة إيطاليا الأولى ١٧٩٤ والثانية ١٧٩٦، قاد حملة على مصر ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ فانتصر في معركة الأهرام، جلب من الفاتيكان إلى مصر مطبعة بولاق وهي أوّل مطبعة عربيّة، قنصل أوّل ١٧٩٩ ثمّ قنصل مدى الحياة ١٨٠٠، ربط الكنيسة الفرنسيّة بالدولة (الكونكوردا ١٨٠١)، نشر القانون المدنيّ ١٨٠٤، سُمّي أمبراطورًا ١٨٠٤، اشتهر بانتصاراته في أوسترليتز وفيينا وفريدلاند وفاغرام، عزل ١٨١٤، انزوى في جزيرة إلبا، عاد إلى باريس بعد شهور قليلة وإذ تحالفت أوروبّا ضدّه هُزم في معركة واترلو ١٨١٥، نُفي إلى جزيرة القدّيسة هيلانة حيث توفّي.

٢ ـ **ريونيون** RÉUNION: جزيرة في المحيط الهنديّ جنوب شرقيّ أفريقيا، مقاطعة فرنسيّة منذ ١٩٤٦.

٣ ـ **موريس** MAURICE, MAURITIUS: جزيرة في الأوقيانوس الهنديّ شرقيّ مدغشقر، قاعدتها بورت لويس، مستعمرة فرنسيّة ١٧١٥ ـ ١٨١٤، ثمّ إنكليزيّة، استقلّت ١٩٦٨ وأصبحت عضوًا في الكومنولث.

٤ ـ **باناما** PANAMA: جمهوريّة في أميركا اللاتينيّة الوسطى، لغتها الإسبانيّة، عاصمتها باناما، نحو مليونين و٨٠٠ ألف نسمة، ثلثا سكّانها مولدون، والباقون بيض وهنود وزنوج، يسودهم المذهب الكاثوليكيّ.

٥ ـ **باراغواي** PARAGUAY: جمهوريّة في أميركا الجنوبيّة بين البرازيل والأرجنتين وبوليفيا، عاصمتها أسونسيون، نحو ٥ ملايين و٣٠٠ ألف نسمة، خليط متجانس من سلالة الإسبان وقبائل الغوراني الأصليّة، لغتها إسبانيّة وغورانيّة، الدين الغالب بقوّة المسيحيّة الكاثوليكيّة.

و"أوروغواي[١]" من أميركا اللاتينيّة، فقد أقدم اليسوعيّون على تبشير بعض السكّان والرحّل وعلى إحلال السلام في ما بينهم. فأسكنوهم في قرى مسيحيّة، أسموها "حواضر REDUCTIONS"، بمأمن من الاستغلال الاستعماريّ، وبلغ عدد تلك الحواضر الثلاثين، ضمّت ١٥٠ ألف ساكن. ونُظّمت في تلك الحواضر حياة جماعيّة مبنيّة على مبادئ المسيحيّة، فلم يكن هناك ملكيّة فرديّة ووراثيّة، بل كلّ شيء مشترك، وعلى رأس كلّ حاضرة يسوعيّان أو ثلاثة، وكان الأب الرئيس في البارغواي ينسّق بين جميع الحواضر. وعلى أثر ابرام "معاهدة الحدود" سنة ١٧٥٠، انتقلت الحواضر من الأملاك الإسبانيّة إلى الأملاك البرتغاليّة، وقضى حلّ الرهبانيّة اليسوعيّة في أوروبّا على الحواضر سنة ١٧٦٨، ولم يبق منها إلاّ القليل، لأنّ اليسوعيّين لم يدرّبوا السكّان على تسلّم المسؤوليّة. بيد أنّ المسيحيّة الكاثوليكيّة كانت قد انتشرت.

في هذه الأثناء، امتدّت المسيحيّة الكاثوليكيّة من الصين حيث كانت قد نشأت على أيدي اليسوعيّين ومرسلي مجمع انتشار الإيمان في القرن السابع عشر، إلى كوريا* حيث اكتشف بعض المثقّفين الكوريّين في القرنين السابع عشر والثامن عشر الدين المسيحيّ انطلاقا من كتب أتت من الصين. وفي سنة ١٧٨٤ كان أحدهم مارًا ببيكين، فقبل سرّ المعموديّة. وعند عودته إلى كوريا أعدّ مع مثقّف آخر علم لاهوت مسيحيّ، إنطلاقا من التقليد الكونفوشيوسيّ، ونظّم هو نفسه جماعة مسيحيّة، بما فيها المعموديّة والاعتراف والقدّاس. لكنّ الشكّ استولى عليه، فطلب كاهنًا من بيكين. غير أنّ الاضطهاد كان بالمرصاد لهذه الجماعة الأولى.

---

١ - **أوروغواي** URUGUAY: جمهوريّة في شرق أميركا الجنوبيّة بين البرازيل والأرجنتين والمحيط الأطلسيّ، عاصمتها مونتفيديو، حوالى ٣ ملايين و٤٠٠ ألف نسمة، شعبها إتنيّ من البيض والحمر الذين تنازعوا طويلاً، يسود شعبها الدين المسيحيّ الكاثوليكيّ.

أدّى اضمحلال الدول الكاثوليكيّة في الانتشار الاستعماري إلى الحدّ من النشاط الإرساليّ الكاثوليكيّ. فبمعاهدة "أوتريخت UTRECHT" سنة ١٧١٣، انتُزعت من إسبانيا وفرنسا السيطرة على البحار، وبمعاهدة باريس سنة ١٧٦٣ برز التفوّق الإنكليزيّ في أميركا والهند. ثمّ إنّ إلغاء الرهبانيّة اليسوعيّة في جميع الدول الكاثوليكيّة، وقيام البابا بحلّها سنة ١٧٧٣ قد وضعا حدًّا لنشاط ثلاثة آلاف مرسَل في العالم. وكان عدد العاملين من سائر الرهبانيّات أو الإكليروس العلمانيّ أقلّ بكثير. فوجد الكثير من المسيحيّين أنفسهم متروكين وشأنهم. وجاءت الثورة الفرنسيّة لتزيد من نضوب الموارد والنقص في العاملين. وأصبح سفر المرسَلين الكاثوليك خطِرًا بسبب سيطرة الإنكليز على البحار. فنشأت في بريطانيا الكبرى جمعيّات إرساليّة بروتستانتيّة وجدت الميدان خاليًا. وهكذا جاءت حصيلة مجمع انتشار الإيمان الأخيرة في القرن الثامن عشر مخيّبة للآمال[1].

في تلك الحقبة، بدا العالم الجديد: الولايات المتّحدة الأميركيّة، حيث كفل الدستور سنة ١٧٨٧حريّة واسعة لجميع الطوائف، وكأنّه يحمل شعلة الصحوة الدينيّة المسيحيّة. وكان الغرب الأميركيّ قد شهد هجرة أوروبيّة وافدة صحبتها مظاهر مسيحيّة ومواكبة دينيّة. وقد سبق الإيرلنديّون سائرَ الكاثوليك الغربيّين في إرساء أسس كنيسة كاثوليكيّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة، ضمّت، بنوع خاصّ، الطبقات الفقيرة من العمّال والمهنيّين، وقد استقرّ هؤلاء في أطراف المدن. وأُسّست أوّل أسقفيّة كاثوليكيّة أميركيّة في مدينة "بالتيمور BALTIMORE" الواقعة في شرق الولايات المتّحدة سنة ١٧٨٩. ثمّ اندمج الكاثوليك الفرنسيّون والإيطاليّون والألمان والبولنديّون في المجتمع الجديد. ولكي تحتفظ الكنيسة الكاثوليكيّة بطابع إيمانها ونظمها، أنشأت مؤسّسات تربويّة، ولا سيّما

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٨١ ـ ٢٨٣.

بعد أن توافدت جماعات كثيرة من الرهبانيّات إلى العالم الجديد. واللافت أنّ الكثلكة في الولايات المتّحدة قد وجدت مجالها الأوسع بين عمّال المدن. ولن يسعى الكاثوليك الأميريكيّون إلى الكرازة خارج البلاد قبل أن يستتبّ لهم الأمر بدءًا من سنة ١٩١١، حين ستنشأ "الجمعيّة الإرساليّة الأميركيّة" التي تُعرف بالـ"مارينول MARYNOLL"[١].

تحـــــــــــوُّلات

القَرن التَّاسع عشَر

قبل نهاية القرن الثامن عشر، كان الجمود قد دبّ في جهاز السلطنة العثمانيّة، وارتفع شأن الدولتين الكبيرتين، النمسا الكاثوليكيّة وروسيا الأرثذوكسيّة. وحافظت فرنسا على سيطرتها الثقافيّة. أمّا ثورتها الدمويّة التي جاءت نتيجة الأزمة السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة، فقد كان لها تأثير عميق في قلب الأوضاع الأوروبيّة القديمة وخلق أوضاع جديدة. ذلك أنّ نابوليون قد عمّم مبادئ الثورة بفتوحاته الكثيرة في أوروبّا والشرق، إذ نقلت الجيوش الفاتحة الأفكار الثورويّة إلى أنحاء أوروبّا بأسرها، وهكذا عمّت روح تلك الثورة ومفاهيمها أوروبا ثمّ العالم كلّه. وبينما كان الفرنسيّون يميّزون بوضوح بين الثورة والعهد النابوليونيّ، اعتبر سائر الأوروبيّين أنّ الأمرين سيّان. وقد اكتسحت العقائد الثورويّة سهوب روسيا. ورغم محاولات الرجعيّة تسلّم زمام الأمور السياسيّة في مؤتمر فيينّا سنة ١٨١٥، فقد توالت الثورات في أنحاء أوروبّا بين ١٨٣٠ و١٨٤٨، وقضت على الأنظمة القديمة نهائيًا[٢]. وإذ توحّدت كلّ من

---

١ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

٢ - بتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

ألمانيا وإيطاليا، فقدت الباباويّة ممتلكاتها الإيطاليّة. وتأثّر الشرق نفسه بمبادئ الثورة الفرنسيّة، فأخذت الشعوب البلقانيّة التي كانت تئنّ تحت النير العثمانيّ تطالب باستقلالها. فثار على العثمانيّين الصربُ واليونان والرومان والبلغار، وتمكّنوا من نيل استقلالهم. فتقلّصت رقعة السلطنة العثمانيّة، وسوف يضطرّ السلطان، في القسم الثاني من القرن التاسع عشر، إلى أن يمنح رعاياه الحريّات المنشودة، ويقوم بالإصلاحات الدستوريّة، ما سينعش حقوق المسيحيّين السياسيّة، وسوف يؤدّي هذا التطوّر إلى إصدار الدستور العثمانيّ سنة ١٩٠٨، وإلى خلع السلطان عبد الحميد، وتسلّم حزب تركية الفتاة زمام الأمور في الدولة.

في العَهدِ البُونَابَرتِي

قبل ذلك التاريخ، وفي مستهلّ القرن التاسع عشر، كان الكرادلة قد اجتمعوا في البندقيّة وانتخبوا بابا جديدًا في الرابع عشر من آذار (مارس) ١٨٠٠، خلفًا للبابا بيّوس السادس، اتّخذ اسم بيوس السابع (١٨٠٠ ـ ١٨٢٣). وكان البابا الجديد، حين كان أسقف إيمولا[١] قد صرّح بأنّ "صيغة الحكم الديمقراطيّة لا تتعارض مع الإنجيل". ولمّا أصبح نابوليون بونابّرت الحاكم الأول، رأى أنّه لن يستطيع أن يحكم بدون أن يتصالح الفرنسيّون على الصعيد الدينيّ. لكنّ رؤيته الدينيّة هذه كانت رؤية سياسيّة، أظهر من خلالها رغبته في إعادة السلام والهدوء إلى البلاد، فباشر، مع الكرسيّ الرسوليّ، مفاوضات بالغة الصعوبة، أدّت إلى إبرام "معاهدة الكونكوردا" بتاريخ ١٥ تمّوز (يوليو) ١٨٠١ التي حصل البابا بموجبها على استقالة جميع أساقفة النظام السابق،

---

١ - إيمولا IMOLA: مدينة إيطاليّة على ضفة السنترنو.

فمارس بذلك سلطة لا مثيل لها منذ نشأة الكنيسة. وقد قبلت الحكومة الفرنسيّة أن تأخذ على عاتقها مرتّبات رجال الإكليروس. بيد أنّ المعاهدة لم تتطرّق إلى مسألة الرهبان، وتبنّت أخيرا عددا من التدابير التي اتّخذها "دستور الإكليروس" المدنيّ ومعاهدة سنة ١٥١٦، من مثل قيام الحاكم الأول بتعيين الأساقفة، على غرار الملك، وقيام البابا بمنحهم الصفة القانونيّة. وقد كان الأهمّ في المعاهدة إعادة السلام الدينيّ بإعادة العلاقات مع روما. ولمّا عرض بونابرت المعاهدة على الجمعيّات الدستوريّة للتصويت، أضاف إليها ٧٧ بندًا "نظاميًّا"، فاعترض عليها البابا، شكليًّا. ويُجمع الباحثون على أنّ تلك المعاهدة قد سيّرت الأمور الكنسيّة في فرنسا مدّة قرن كامل[١].

في الثامن عشر من نيسان (ابريل) ١٨٠٢، يوم عيد الفصح، احتُفل في كاتدرائيّة باريس بإعادة ممارسة الشعائر الكاثوليكيّة في فرنسا، فعمّ الابتهاج جميع أنحاء البلاد[٢]. وفي الشهر نفسه، أصدر شاتوبريان[٣] كتابه "عبقريّة المسيحيّة"، عبارة عن إعادة اعتبار فكريّة وعاطفيّة للتديّن التقليديّ.

بيد أنّ شهر العسل هذا لم يدم سوى بضع سنوات. ذلك أنّ العهدين الدينيّ والمدنيّ اللذين ولدا معًا: عهد البابا بيوس السابع، وعهد نابوليون، لم ينهضا بالقدر نفسه. ذلك أنّ الكنيسة كانت تعاني رواسب العهود السابقة، فكان عدد العاملين قد أضحى محدودًا بعد هجرة ووفاة وترك العديد منهم، أمّا عدد الكهنة الذين رُسموا حديثا فكان قليلا. وكان لا بدّ من إعادة فتح الإكليريكيّات وتجديد أماكن العبادة وسوى

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٢٦٩.

٢ ـ تجدر الإشارة إلى أنّه قد جرى في الوقت نفسه تنظيم أحوال البروتستانت من قبل العهد الجديد.

٣ ـ شاتوبريان CHATEAUBRIAND (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨): من كبار الكتّاب الفرنسيّين بداية القرن التاسع عشر، من دعاة الحركة الرومنطيقيّة بغنى مخيّلته وتصاويره وطلاوة إنشائه، من مؤلّفاته: "آخر بني سراج"، "رينه"، "مذكرات ما وراء القبر"، "عبقريّة المسيحيّة"، زار الشرق ودوّن ذكرياته في "رحلة أورشليم".

ذلك من "الترميمات"؛ بينما بلغ بونابرت ذروة شعبيّته عند الكاثوليك، حين انتقل البابا من عرشه في روما إلى باريس ليتوّج نابوليون أمبراطورًا في كاتدرائيّة "سيّدة باريس NOTRE DAME DE PARIS" في الثاني من كانون الأوّل (ديسمبر) ١٨٠٤. ولمّا اجتاز بيوس السابع أرض فرنسا، لقي استقبالاً فخمًا. أمّا المسؤولون عن كنيسة فرنسا، فأخذوا يكيلون لنابوليون الثناء جزافًا، ناعتين إيّاه بـ"مسيح الربّ"، و"داود الجديد"، و"قورش"، و"قسطنطين"، و"شارلمان"[1]... ولكن لم يمض سنتان على هذا الحدث البارز، حتّى أخذت العلاقات بين البابا والأمبراطور بالتوتّر منذ سنة ١٨٠٦، لتستمرّ على حالها طوال عهد نابوليون. وكان مردّ نشوء هذا التوتّر، إرادة نابوليون، في صراعه مع إنكلترا، أن يُلزم البابا بواجبات "المقاطعة" مع إنكلترا وحلفائها. وإذ رفض البابا تلبية هذه الرغبة الأمبراطوريّة، نشأت حالة التوتّر بين القطبَين الدينيّ والزمنيّ، زاد في خطورتها رفض البابا بيوس السابع التوقيع معاهدة جديدة لها طابع غاليكانيّ[2]. وفي شباط (فبراير) ١٨٠٨، قامت الجيوش الفرنسيّة باحتلال روما. وفي أيّار (مايو) ١٨٠٩، ضُمّت الدولة البابويّة إلى الأمبراطوريّة الفرنسيّة. فردّ البابا برمي "المغتصبين" بالحرم، غير أنّ ردّ نابوليون لم يكن أقلّ قساوة، إذ أمر بوضع البابا في الإقامة الجبريّة في ٦ تمّوز (يوليو) من العام نفسه، وبقي رأس الكنيسة الكاثوليكيّة الذي توّج نابوليون أمبراطورًا في الإقامة الجبريّة في فرنسا بأمر من الأمبراطور نحو ثلاث سنوات انتهت في آذار (مارس) ١٨١٢، ولكن من دون السماح بعودة البابا إلى روما. على أنّ الحرم بقي قائمًا في فرنسا، بالرغم من ملاحقة الشرطة. بل صعّد البابا بيوس السابع في صلابة موقفه عندما رفض منح الولاية القانونيّة للأساقفة الذين عيّنهم

---

١ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

٢ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

نابوليون. فبقيت سبع عشرة أبرشيّة بدون أسقف. وإذ حاول نابوليون إيجاد مخرج من مأزق الأبرشيّات الخالية من أسقف، دعا إلى انعقاد مجمع قوميّ في باريس سنة ١٨١١، أكّد في خلاله الأساقفة على تعلّقهم بالبابا، لكنّهم لم يريدوا إسخاط الأمبراطور، فقصدوا البابا بيوس السابع في إقامته الجبريّة ليقنعوه، لكنّه رفض الخنوع بإباء. ولمّا أراد نابوليون أن يتزوّج من ماري تيريزا النمساويّة، حصل من سلطات باريس الدينيّة سنة ١٨١٢ على فسخ زواجه مع جوزيفين، لكنّ الكرادلة الرومانيّين الذين كانوا في باريس رفضوا حضور حفل الإكليل. وفي النهاية، اضطرّت الخسائر العسكريّة الأمبراطور إلى إعادة البابا إلى روما، فدخلها ظافرًا في الرابع والعشرين من أيّار (مايو) ١٨١٤. وبعد قليل، انزوى نابوليون منفيًّا في جزيرة "إلبا[١]" لأقلّ من سنة، عاد بعدها إلى باريس، ولكنّ تحالف أوروبّا ضدّه هزمه في معركة "واترلو[٢]" سنة ١٨١٥، فكان العزل والنفي هذه المرّة من نصيبه هو، فبقي منفيًّا في جزيرة القدّيسة هيلانة[٣] حيث توفّي بعد ستّ سنوات، بينما كان البابا بيوس السابع لا يزال الأب الأقدس.

* * *

في نهاية عهد نابوليون، كانت معظم أملاك الكنيسة، بنتيجة الثورة وتداعياتها، قد انتقلت إلى أيدي علمانيّين. ولم يحافظ من رجال الإكليروس سوى البابا وحده على سلطته الزمنيّة. وإذ أُدرجت حرّية العبادة في التشريع، أصبح ممكنًا للفرنسيّين أن

١ - **إلبا** ELBE: جزيرة في البحر المتوسط شرقي كورسيكا تخصّ إيطاليا.

٢ - **واترلو** WATERLOO: مدينة في بلجيكا جنوبي بروكسل، عندها انتصر الإنكليز وحلفاؤهم البروسيّون على نابوليون.

٣ - **القدّيسة هيلانة** SAINTE - HÉLÈNE: جزيرة بريطانيّة في المحيط الأطلنطيّ بين أفريقيا وأميركا الجنوبيّة. أقرب الشواطئ إليها أنغولا الأفريقيّة (١٩٠٠كلم) والبرازيل (٣٥٠٠كلم).

يعلنوا أنّهم ليسوا كاثوليكيّين أو ليسوا مسيحيّين. وبإنشاء الأحوال الشخصيّة المدنيّة، أفلتت مراحل حياة الفرد من متابعة الكنيسة، كما أنّ الكنيسة فقدت السيطرة على التعليم أيضًا. ويرى باحثون كبار أنّ الوقت لم يكن قد تهيّأ للعمل بالقرارات الحاسمة التي اتّخذتها الثورة في مجال الفصل بين الكنيسة والدولة. وفي الواقع، خرجت الكثلكة الفرنسيّة والأوروبيّة، من خضمّ الثورة وأمبراطوريّة نابّوليون، بتحوّلات عميقة. فقد قسم تراث الثورة الفرنسيّين، حتّى وقت قريب، إلى ليبراليّين ومحافظين. وفيما يرى الليبراليّون، وهم المستفيدون من الثورة، في المبادئ الثوريّة الحريّة والمساواة، ويحرصون على الاحتفاظ بمكاسبها، يرى، معظم الكاثوليك، في تلك الثورة "عمل الشيطان"، ذلك أنّ المضايقات التي تعرّض لها الباباوات على أيدي الحكّام الزمنيّين، قد هزّت مشاعر الشعب المسيحيّ البسيط، الذي يرى أنّ اللجوء إلى الكرسيّ الرسوليّ، هو الطريقة الوحيدة للدفاع عن الكنيسة ضدّ تدخّل السلطات المدنيّة، لذلك كانت أكثريّة الشعب ترى وجوب العودة إلى التنظيم القديم. فكان الكاثوليك، في القرن التاسع عشر، يتطلّعون إلى تجديد اجتماعيّ ودينيّ على نمط "النظام القديم" ويعارضون الليبراليّين الذين يتمسكون بالدفاع عن مكاسب الثورة. ونشأ إذذاك أدب عقائديّ ينبذ المبادئ الثوريّة ويشيد بقيم الماضي الأبديّة، من دين وأخلاق وسلطة كنسيّة، معتبرًا أن ليس للإنسان حقوق، بل عليه واجبات. وقد رأى "جوزيف دي ميستر[1]" في الثورة عقابًا إلهيًّا، "فلا بدّ من العودة إلى الملكيّة ذات الحقّ الإلهيّ، ومن الاعتراف بالبابا ككفيل للنظام الشامل". ولكن، لم يكن ممكنًا شطب خمس وعشرين سنة من التاريخ بجرّة قلم. فلقد حرص الليبراليّون على الربط، في تهجّماتهم، بين الأنظمة السياسيّة البائدة،

١ ـ جوزيف دي ميستر JOSEPH DE MAISTRE (١٧٥٣ ـ ١٨٢١): فيلسوف وكاتب فرنسي، ندّد في فلسفته وكتاباته ومؤلّفاته بالثورة الفرنسيّة ودافع عن البابا وعن الملكيّة.

السابقة للثورة، وبين الكنيسة لاعتبارها كانت متضامنة معها ومشاركة إيّاها، كانت الرغبة في "الإحياء الدينيّ" والعودة إلى الماضي السياسيّ تواجه أخطارًا جسيمة. ثمّ تحول هذا التباين إلى نزاع فكريّ داخل الكنيسة نفسها، ففي حين رأى بعضهم أنّ مبادئ معاهدة سنة ١٧٨٩ لا تنافي الإنجيل، وأنّ السعي إلى إحياء ماضٍ بائد أمر باطل، فإنّ إيمان المسيحيّين قد خرج من المحنة مطهّرًا، وعلى الكنيسة أن تعود إلى رسالتها الأساسيّة، وقد منحتها المعاهدة، لمدّة مئة سنة، ملامح ثابتة: فهناك إكليروس كفوء، تابع لتسلسل رئاسيّ دقيق وخاضع للرئاسة، وهناك أساقفة أحرار من كلّ تدخّل مدنيّ في أبرشيّاتهم، ينقلون كهنة الرعايا كما يرون الأمر مناسبًا. أمّا الكاهن، وهو الخارج من الأوساط الشعبيّة، فأصبح يتطلّع إلى أن يصبح خادمًا بسيطًا جادًّا ومجتهدًا، ما أتاح للكنيسة نوعا من التقدير الاجتماعيّ.

إعَادَة تنظيم دوليّ وكَنسِيّ

وسط تصارع المنظّرين إثر انهيار الثورة، باشر القادة الأوروبيّون وضع التسويات لإعادة تنظيم أوروبّا وفقًا لمبادئ الشرعيّة، وحلّ المشكلات التي أوجدها حكم نابوليون، فكانت معاهدة باريس سنة ١٨١٤، التي عقبها مؤتمر دوليّ في فيينّا (١٨١٤ ـ ١٨١٥) كان من أبرز أعضائه: أمبراطور النمسا "فرنسوا الأوّل[١]" و"مترنيخ[٢]"

١ ـ **فرنسوا الأوّل أو فرانتز** FRANZ (١٧٦٨ ـ ١٨٣٥): أمبراطور جرمانيّ ١٧٩٢ ـ ١٨٠٦ خلفًا لأخويه جوزيف الثاني وليوبولد الثاني، أصبح بعد إلغاء الأمبراطوريّة الجرمانيّة على يد نابوليون أمبراطور النمسا بالوراثة باسم فرنسوا الأوّل، قاوم نابوليون ثمّ زوّجه ابنته ماري لويز.

٢ ـ **كليمنس مترنيخ** METTERNICH (١٧٧٣ ـ ١٨٥٩): رجل دولة نمساويّ من كبار رجال السياسة في أوروبا في القرن التاسع عشر، سفير بلاده في باريس ثمّ مستشار الأمبراطوريّة ١٨٠٩ ـ ١٨٤٨، قام بدور كبير في مؤتمر فيينّا، قاوم الحركات التحرّريّة في بلاده وفي أوروبا.

النمسا، وقيصر روسيا اسكندر الأوّل[1]، وملك بروسيا "فريديريك غليوم الثالث[2]" ومندوب بروسيا كارل أوغوست هاردنبرغ[3] ووزير خارجيّة إنكلترا "كاستلريه[4]"، ووزير خارجيّة فرنسا "تاليران"*، ووزير خارجيّة الفاتيكان "كونسالفي[5]"، ومعهم مئات من الموفدين والوكلاء. وكان من أعقد المشكلات في ذلك المؤتمر الخطير قضيّة بولندا[6] و"سكسونيا[7]" التي اصطدمت فيها المصالح الروسيّة والبروسيّة ضدّ المصالح

---

١ ـ **اسكندر الأوّل** (١٧٧٧ ـ ١٨٢٥): قيصر روسيّا ١٨٠١، هزمه نابوليون في "إيلو" و"فريدلند" ١٨٠٧.

٢ ـ **فريديريك غليوم أو فريديريش فيلهلم الثالث** (١٧٧٠ ـ ١٨٤٠): ملك بروسيا ١٧٩٧، كسره نابوليون في يانا ١٨٠٦ وقسّم ممتلكاته في معاهدة تيلسيت ١٨٠٧.

٣ ـ **كارل أوغوست هاردنبرغ** KARL AUGUST HARDENBERG (١٧٥٠ ـ ١٨٢٢): ديلوماسيّ بروسيّ مثّل بلاده في مؤتمر فيينّا.

٤ ـ **الفيكونت هنري روبرت ستيوارت كاستلريه** VICOMTE HENRY - ROBERT STEWART CASTLEREAGH (١٧٦٩ ـ ١٨٢٢): سياسيّ إنكليزيّ، عُيّن وزيرًا لإيرلندا فقضى ١٧٩٨ على ثورتها التي شجّعتها فرنسا، وزير الحربيّة ١٨٠٥ ـ ١٨٠٦ و١٨٠٧ ـ ١٨٠٩ ووضع خطّة حرب شبه الجزيرة في معركة إنكلترا ضد نابوليون حيث نسّق القوى البريّة والبحريّة، أمدّ دوق ولنغتون بالذخيرة والمؤونة، تولّى الخارجيّة ١٨١٢ ـ ١٨٢٢ وعاون على تنظيم التحالف الأوروبيّ ضدّ نابوليون، كان نواة التحالف الرباعيّ في هذا المؤتمر حيث حثّ على فرض شروط معتدلة على فرنسا وشجّع سياسة التوازن الدوليّ.

٥ ـ **الكاردينال إركول كونسالفي** ERCOLE CONSAI VI (١٧٥٧ ـ ١٨٢٤): كاردينال وسياسيّ، وُلد في روما، وزير خارجيّة الفاتيكان، ناقش اتفاق الكونكوردا مع نابوليون.

٦ ـ بارتقاء ناخبي سكسونيا عرش بولندا ملوكًا في القرن السابع عشر، فقد البولنديّون استقلالهم الفعلّي ولم يستطع "ستانسلاوس الثاني" المنتخب ١٧٦٤ الاحتفاظ بعرشه إلاّ بمساعدة روسيا، واضطرّ ١٧٧٢ إلى التنازل عن رقعة فسيحة من بلاده لروسيا وبروسيا والنمسا في ما سُمّي التقسيم الأوّل لبولندا، وحاول إجراء إصلاح دستوريّ ١٧٩١ ولكنّ التقسيم الثاني لبولندا بين روسيا وبروسيا ١٧٩٣ ثمّ التقسيم الثالث بعد فتنة كرسيسكو الفاشلة ١٧٩٥ بين بروسيا وروسيا والنمسا محوا بولندا من خريطة أوروبا، وناصر نابوليون دوقيّة وارسو ١٨٠٧ ـ ١٨١٣ وجعلها دولة حامية أو حزامًا أمنيًّا ضد عدوان روسيا ووضعها تحت حكم ملك سكسونيا، أعطى مؤتمر فيينا بروسيا الغربيّة ومقاطعة بوزنان لبروسيا، وغاليسيا للنمسا، وجعل كراكاو جمهوريّة منفصلة سوف تضمّها النمسا ١٨٤٦، وأقام مملكة بولندا ووارسو العاصمة في صيغة اتّحاد مع روسيا على أن تحكم طبق دستورها الخاص.

٧ ـ انضمّت **سكسونيا** إلى فرنسا في حروب نابوليون وصارت ١٨٠٦ مملكة تحت حكم فريديريك أوغوست الأوّل الذي كلّفه ولاؤه لنابوليون نصف مملكته في مؤتمر فيينا، وسوف تنضمّ ساكسونيا بعد هزيمة بروسيا في حرب النمسا وبروسيا ١٨٦٦ إلى الاتّحاد الألمانيّ الشماليّ التعاهديّ، وإلى الأمبراطوريّة الألمانيّة ١٨٧١.

النمساويّة والفرنسيّة والإنكليزيّة، وكادت الحرب أن تندلع حينما عقدت الدول الثلاث الأخيرة تحالفا دفاعيًا في كانون الثاني (يناير) ١٨١٥ إثر عودة نابوليون إلى فرنسا، بيد أنّ تدخّل تاليران ومساعدة كاسلريه، كفلا توازن القوى الأوروبيّة، فحقّق المؤتمر قراره النهائيّ الذي عُرف بمعاهدة فيينّا في ٩ حزيران (يونيو) ١٨١٥ عقب وصول نابوليون إلى فرنسا. وكان من أهمّ المقرّرات: إنشاء ثلاث وحدات دوليّة جديدة: مملكة متّحدة تتألّف من بلجيكا[١] وهولندا*؛ واتّحاد ألمانيّ تعاهديّ يتألّف من ٢٩ دولة مرتبطة ببعضها من دون أن يكون لها إدارة مركزيّة؛ وقيام كراكاو[٢] مدينة حرّة. كما نصّت المعاهدة على إعادة الحكم للعائلات الحاكمة الشرعيّة في إسبانيا و"نابولي[٣]"

---

١ ـ **بلجيكا** BELGIQUE: كانت قسمًا من الأقاليم المتّحدة (هولندا) منذ القرون الوسطى وخصصت مثلها لعائلة هبسبورغ إلى أن استقلّت هولندا ١٥٧٩ وبقيت بلجيكا تحت السيطرة الإسبانيّة، انضمّت إلى فرنسا بعد الثورة ١٧٩٥، ثمّ إلى هولندا في معاهدة فيينّا هذه، استقلّت نهائيًا بعد ثورة ١٨٣٠، هي اليوم دولة ملكيّة دستوريّة، عدد سكّانها نحو ١٠ ملايين و٢٠٠ ألف نسمة، تضمّ ثلاث مجتمعات عرقيّة معترف بها سياسيًا (فرنسيّة وفلمنكيّة وألمانيّة) تتوزّع على ثلاث مناطق ذات استقلال ذاتيّ جزئيّ (بروكسيل والفلاندر وولونيا)، يغلب على مجتمعاتها الدين المسيحيّ الكاثوليكيّ.

٢ ـ **كراكاو أو كراكوف** KRAKOW, CRACOVIE: هي اليوم مدينة في بولندا على نهر الفستولا عدد سكّانها نحو ٧٥٠ ألف نسمة، كانت عاصمة بولندا من القرن الرابع عشر إلى أواخر القرن السادس عشر. فيها أسقفيّة عمرها ألف سنة، بقي ملوك بولندا يتوّجون ويُدفنون فيها بعد أن أدّى حريق ١٥٩٥ إلى نقل العاصمة إلى وارسو، آلت إلى النمسا في تقسيم بولندا الثالث ١٧٩٥، وأصبحت مع المنطقة المحيطة بها جمهوريّة تحت حماية النمسا وروسيا وبروسيا بمقتضى قرارات مؤتمر فيينّا هذا، سوف تُضمّ بعد ثورة ١٨٤٦ للنمسا، لتعود لبولونيا ١٩١٩.

٣ ـ **نابولي** NAPOLI: هي اليوم مدينة ومرفأ في جنوب إيطاليا على البحر التيراني بالقرب من الفيزوف، فيها جامعة ومتحف وقصور وأبنية أثريّة، كانت عاصمة مملكة نابولي القديمة التي فتحها النورمان وحلفاؤهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، صارت جزءًا من مملكة صقلية، كانت أملاكها من إقطاعيّة البابا، شهدت حروبًا للسيطرة على عرشها، احتلّها شارل الثامن ملك فرنسا ١٤٩٥ ثمّ آلت إلى ملوك إسبانيا، نقل صلح أوترخت حكمها إلى النمسا ١٧١٣ ولكنّ الاسبان استعادوها ١٧٥٩ وحكمها البوربون الإسبان الذين طردهم نابوليون ١٨٠٦ وأعطى المملكة إلى أخيه جوزيف ١٨٠٦ ثمّ إلى المارشال جوشان مورا ١٨٠٨ ـ ١٨١٥، بعد رجوع البوربون اتّحدت مع صقلية في مملكة واحدة سقطت في يد سردينيا حينما شرعت إيطاليا تحت حكم أسرة سافوا.

و"بيدمون[١]"، و"توسكانيا[٢]" وسواها، وأُعيد قيام الاتّحاد التعاهديّ السويسريّ مع ضمان حياده الدائم، كما أعيد للنمسا مقاطعات عدّة. وحصلت بروسيا على بعض مقاطعات وعلى قسم كبير من سكسونيا[*] و"وستفاليا[٣]" واتّحدت "النروج[٤]" مع "السويد[١]" واستعادت

---

١ - **بيدمون أو بيدمونت أو بيومونتي** : منطقة إيطاليّة في الشمال الغربيّ عاصمتها تورين، كانت مركزيّة آلت مع مركزيّة إفريا في القرن الحادي عشر إلى أسرة سافوى التي أصبحت بحلول القرن الخامس عشر القوة الرئيسيّة في بيدمونت والتي حكمت مملكة سردينيا منذ ١٧٢٠، ضمّت إلى فرنسا ١٧٩٨، أعيدت إلى سردينيا ١٨١٤.

٢ - **توسكانيا أو توسكانا** TOSCANA: مقاطعة في إيطاليا الوسطى قاعدتها فلورنسا، هي بالتقريب "أتروبيا" القديمة. نشأت فيها دوقيّة كبرى حكمتها أسرة مديتشي ١٥٦٩ - ١٧٣٨، أغارت عليها قوات الثورة الفرنسيّة ١٧٩٩، ضمّت إلى إقليم أتروبيا ١٨٠١ - ١٨٠٧، حكمتها دوقيّة بارما قبل أن يضيفها نابوليون إلى فرنسا، دوقيّة عظمى مرة ثانية ١٨١٤ ابان حكم فرديناند الثالث وليوبولد الثاني وفرديناند الرابع من أسرة هابسبورغ - اللورين، خضعت للنمسا ثمّ ضمّت إلى الدولة الإيطاليّة ١٨٦٠.

٣ - **وستفاليا** WESTPHALIE: منطقة في شمال غربيّ ألمانيا، كانت تشكّل الجزء الغربيّ من دوقيّة سكسونيا التي قسّمت ١١٨٠، انتقل القسم الأكبر منها إلى حكم الأمراء الأحبار، أقام نابوليون مملكة وستفاليا ١٨٠٧ التي تألفت من أجزاء من وستفاليا الأساسيّة ومن أراض متاخمة مثل "هس - كاسل" ونصّب عليها أخاه جيروم، بعدما أعطى مؤتمر فيينا معظم وستفاليا لبروسيا صارت مقاطعة عاصمتها مونستر، صارت جزءًا من ولاية "راين - وستفاليا" الشماليّة ١٩٤٥.

٤ - **النروج** NORGE: هي اليوم مملكة اسكاندنافية ذات نظام دستوريّ في شمالي غرب أوروبّا، عدد سكّانها نحو ٤ ملايين و٤٥٠ ألف نسمة، معظمهم على المذهب اللوثريّ، حكمها الولاة الدنماركيّون حتّى ١٨١٤، حاولت أن تقيم نفسها مملكة منفصلة تحت حكم الأمير كريستيان الثامن ملك الدنمارك في ما بعد ولكنّها أكرهت على الخضوع للسويد ولو أنّ ميثاق الاتّحاد ١٨١٥ اعترف بها مملكة مستقلّة متّحدة في شخص الملك مع السويد، أعلن البرلمان النروجيّ حلّ الاتّحاد مع السويد ١٩٠٥ التي سلّمت بالأمر واختارت النروج "هاكون السابع" ملكًا عليها، سوف تغزوها ألمانيا ١٩٤٠ وتحتلّها حتّى ١٩٤٥ حين استعادت استقلالها.

٥ - **السويد** SVERIGE: هي اليوم مملكة اسكاندنافية ذات نظام دستوريّ بين النروج وبحر البلطيق، عدد سكّانها نحو تسعة ملايين نسمة، معظمهم باستثناء "اللابيّين" و"الفنيّين" من أصل جرمانيّ وهم اليوم على المذهب اللوثريّ، حكمها ملوك الدنمارك حتّى ١٥٢٠ اذ ثارت عليهم وصارت دولة أوروبيّة عظمى فتحت العديد من الأقاليم المجاورة، جعلها تدخّلها في حرب الثلاثين سنة الدولة البروتستانتيّة الكبرى في أوروبّا، تفوّقت في الحروب على بولندا والدنمارك ولكنّها سُحقت عندما تألّف حلف عظيم تزعمته روسيا في الحرب الشماليّة ١٧٠٠ - ١٧٢١ فخسرت بعض مناطقها ونشبت فيها نزاعات أهليّة خلال القرن الثامن عشر، انضمّ ملكها المستبد غوستاف إلى التحالف الدوليّ ضد نابوليون ١٨٠٥ واضطرّ إلى أن يتنازل عن فنلندا لروسيا ١٨٠٨، أسقطته ثورة ١٨٠٩ وأجلست عمّه كارل الثالث عشر ولكنّ السياسة السويديّة صارت منذ ١٨١٠ في يد وليّ العهد بالتبنّي المارشال برنادوت الذي سيصبح كارل الرابع عشر، كافأها مؤتمر فيينا بأن ضمّ إليها النروج التي ستنفصل عنها كما جاء في التعريف عن النروج أعلاه، التزمت الحياد في جميع الحروب منذ ١٨١٥.

بريطانيا "مالطة[١]" و"رأس الرجـاء الصـالح[٢]" و"سيلان[٣]" و"توبـاغو[٤]" و"سـانتا لوشيا[٥]"

---

١ ـ **مالطة** MALTE: مجموعة جزر في المتوسّط جنوب صقلّية تشكّل اليوم جمهوريّة عدد سكّانها نحو ٣٤٥ ألف نسمة معظمهم كاثوليك، تناوب على إخضاعها الفينيقيون والقرطاجيّون واليونان والرومان والعرب إلى أن استولى عليها الصليبيّون ١٠٩٠ وآلت إلى فرسان مستشفى القديس يوحنّا الذين حكموها منذ ١٥١٨ حتّى هزيمتهم أمام نابوليون ١٧٩٨، ضُمّت لبريطانيا ١٨١٤، لعبت دورًا هامًا في الحرب العالمية الأولى، مُنحت حكمًا ذاتيًا محدودًا ١٩٤٧ ونالت استقلالها ١٩٦٤ وانضمّت لدول الكومنولث ثمّ أعلنت جمهوريّة ١٩٧٤، أجلت بريطانيا آخر قوّاتها من أراضيها ١٩٧٩، تتبع اليوم سياسة الحياد.

٢ ـ **رأس الرجاء الصالح (الكاب** CAP): هي اليوم مقاطعة الكاب في جنوب جمهوريّة جنوب أفريقيا على المحيطين الهندي والأطلنطي، عدد سكّانها نحو خمسة ملايين نسمة، كان البرتغالي بارتولوميو دياز أوّل من دار حول رأس الرجاء الصالح في القرن الخامس عشر وسمّاها "رأس الزوابع" ولكن الهولنديين كانوا أوّل من استقرّ فيها حيث أنشأوا مدينة كاب تاون ١٦٥٢، شهد الجزء الأخير من القرن السابع عشر تدفّق "الهيغونوت" الفرنسيين على المقاطعة، ضمّتها بريطانيا ١٨٠٦ باسم مستعمرة الكاب ووصل إليها المستوطنون البريطانيون ١٨٢٠، أدّت معارضة "البوير" للحكم البريطاني إلى هجرة كثير من فلاحيهم إلى الشمال، بقيام جنوب أفريقيا ١٩١٠ أصبحت المستعمرة إحدى ولايات الاتّحاد.

٣ ـ **سيلان** CEYLAN: هي اليوم جمهوريّة سري لانكا SRI LANKA عاصمتها كولومبو، جزيرة في جنوب شرقي الهند، عدد سكّانها نحو ١٩ مليون نسمة، سمّاها العرب بلاد "سرنديب"، أقام فيها أوّل مملكة "سنهاليّة" أحد الأمراء الآريين "فيغايا" الذي هزم سكّانها الأصليّين في القرن السادس ق.م.، دخلتها البوذية في القرن الثالث ق.م. وأصبحت مركزًا بوذيًا عظيمًا، استولى البرتغاليّون على جزء كبير من ساحلها في القرن السادس عشر حتّى طردهم الهولنديّون ١٦٥٨، استولى عليها البريطانيّون ١٨١٥ ـ ١٩٤٨ حيث أصبحت دولة مستقلّة في نطاق الكومنولث، تشكّلت فيها أقلّيات مسيحيّة، حصلت على دستور جديد ١٩٧٢ وغيّرت اسمها إلى سري لانكا، نشبت فيها موجة عداء عرقيّ منذ تسعينات القرن العشرين على يد قوّات "التاميل" لا تزال ناشطة.

٤ ـ **ترينيداد وتوباغو** TRINIDAD & TOBAGO: جمهوريّة قوامها جزيرتان من جزر الأنتيل، عدد سكّانها نحو مليون و٥٠٠ ألف نسمة، اكتشف كولومبس ترينيداد ١٤٩٨ ثمّ راح القراصنة الإنكليز والهولنديّون والفرنسيّون يغيرون عليها حتّى تنازلت عنها إسبانيا لإنكلترا ١٨٠٢ فأصبحت مستعمرة بريطانيّة، وتقع توباغو شمال ترينيداد مباشرة وهي ربوة جبليّة تغطّيها الغابات الكثيفة، نالت ترينيداد وتوباغو استقلالهما في نطاق الكومنولث البريطانيّ ١٩٦٢، أعلن قيام الجمهوريّة ١٩٧٦.

٥ ـ **سانتا لوشيا** SANTA LUCIA: هي اليوم ضمن جزر **ويندوارد** WINDWARD ISLANDS، وهي المجموعة الجنوبيّة من جزر الأنتيل الصغرى، تتألف من "مارتينيك" الفرنسيّة وجزر "ويندوارد" البريطانيّة وهي دومينيكا وسانتا لوشيا وسانت فنسنت وغرانادا، ومن "غرينادين" وهي عدّة جزر صغيرة، اكتشف كولومبس هذه الجزر ولم يستعمرها الإسبان، كان التنازع على ملكيّتها جزءًا من الصراع الإنكليزيّ ـ الفرنسيّ في القرنين السابع عشر والثامن عشر ومن الصراع العالميّ بين الدولتين، اعتمد مؤتمر فيينا ملكيّة هذه الجزر لبريطانيا ما عدا المارتينيك، وفي ١٩١٧ حصلت الجزر البريطانيّة على الحكم الذاتي واحتفظت بريطانيا بشؤون الدفاع والسياسة الخارجيّة، وكوّنت الجزر مع "أنتيغوا" و"سانت كتس" و"إنغويلا" اتّحاد دول جزر الهند الغربيّة التابع للكومنولث البريطاني

وتولّت الحماية على الجزر[1] الأيونيّة[2]. والبابا بيوس السابع استعاد دولة روما، ووقّع، مع أمبراطور النمسا وملك بروسيا، معاهدة التحالف المقدّس في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٨١٥. والملوك، الذين يمثّلون ثلاثة مذاهب مسيحيّة، ومنهم قيصر روسيا اسكندر الأوّل الذي كان يعبر مرحلة من التصوّف، تعهّدوا، "باسم الثالوث القدّوس الذي لا ينقسم"، باتّخاذ المبادئ المسيحيّة قاعدة لهم وبالتعاون المتبادل[3].

شكّل سقوط نابوليون وبالتالي مؤتمر فيينّا تحوّلاً سريعًا في شكل التعايش بين الكنيسة والعروش في أوروبّا، وكذلك بين الإكليروس والمؤمنين على كافّة المستويات. غير أنّ التعديلات في حدود المحافظات قد أوجدت إرباكات جديدة، ففي ألمانيا، أدّت تعديلات الحدود والتقسيمات الجديدة إلى تبدّل المبدأ القديم القائل بأنّ "الناس على دين ملوكهم"، إذ أصبح هناك كاثوليك تحت سلطة أمراء بروتستانت. وكان لا بدّ من العثور على حلول مقبولة، أدّت إلى مفاوضات طويلة وغالبًا إلى توتّرات. وكان من مظاهر تلك التحوّلات في فرنسا، أن أعضاء الحكومة والأشراف الذين عادوا من المنفى، أصبحوا يحضرون القدّاس ويشاركون في التطوافات الدينيّة، وعادت الكثلكة كدين للدولة الفرنسيّة. ثمّ تمّ انتخاب أكثريّة الأساقفة من بين الأشراف، وارتفعت نسبة ممارسة العبادة عمومًا. واستمرّ العمل بموجب "معاهدة الكونكوردا" المعقودة سنة

---

١ ـ **الجزر الأيونيّة أو جزر أيونيا**: مجموعة جزر غرب اليونان في البحر الأيوني بمحاذاة سواحل ايبروس وبيلوبونيسيس، سادها اليونان فالرومان فالبيزنط، وقعت تحت سيادة البندقيّة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فكّكت معاهدة كامبوفورميو جمهوريّتها ١٧٩٧، احتلّتها فرنسا ثمّ استولى عليها أسطول روسي ـ تركي ١٧٩٩، أصبحت جمهوريّة تحت الحماية الروسيّة، سلّمتها روسيا إلى فرنسا ١٨٠٧ بموجب معاهدة تلست، احتلّ الأسطول البريطانيّ مجموعة هذه الجزر باستثناء كورفو ١٨٠٩، بعد وضعها تحت الحماية البريطانيّة في مؤتمر فيينا ١٨١٥ ضُمّت إلى اليونان عقب اعتلاء جورج الأوّل العرش.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ط٢، دار الجيل (بيروت، ٢٠٠١) ٤: ٢٣٦٥.

٣ ـ كمي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

١٨٠١ والتي مكّنت البابا من أن يمارس سلطة لا مثيل لها منذ نشأة الكنيسة، وفي سنة ١٨٢٢ أنشئ نحو عشرين أبرشيّة إضافيّة في فرنسا، وحُفظت حريّة العبادة، وأُلغي الطلاق الذي كان قد اعتُبر من انجازات الثورة. ويرى باحثون أنّ عمل السياسيّين قد اتّسم غالبا في هذه المرحلة بالرياء، ذلك أنّ الرأي العام لم يقبل دائمًا التدابير المتّخذة لصالح الدين. بيد أنّه قد تمّ التوصّل، رغم ذلك، إلى استحداث التجديد دينيّ، وقد قصدت الكنيسة، من خلال ذلك، إعادة الطبقات الشعبيّة إلى أحضان المسيحيّة، بعد أن تزعزعت ممارستها الدينيّة في عهد الثورة، فعادت الكنيسة إلى الحملات الرسوليّة في الداخل لتُعيد الجماهير إلى الممارسة الدينيّة، وأُعير اهتمام خاصّ في اختيار كهنة الغد، بإعادة تنظيم الإكليريكيّات الكبرى، وبتعزيز عدد الإكليريكيّات الصغرى التي تفلتت من مراقبة الدولة. وبعدما كان عدد السيامة الكهنوتيّة قد انخفض إلى ٥٠٠ في عهد الأمبراطوريّة، بلغ ٢.٣٥٧ سيامة سنة ١٨٢٩، وهو رقم قياسيّ. وبذلك أصبح ممكنًا زيادة عدد الرعايا، لا سيّما في الأرياف. وبالفعل، فقد أنشئ نحو خمسة آلاف رعيّة جديدة في خلال نصف قرن، إلى الرعايا السبعة وعشرين ألفًا التي كانت قائمة سنة ١٨٢٥. واستعاد الكهنة وسائل الماضي في إطار مثير، وأكثروا من الرتب التكفيريّة عن جرائم الثورة[١]. ويخصّ باحثون في هذه الحقبة بالذكر القدّيس جان باتيست ماري فيانيه SAINT JEAN - BAPTISTE - MARIE VIANNEY (١٧٨٦ ـ ١٨٥٩)، وهو كاهن رعويّ كان له تأثير كبير في رفع شأن خادم الرعيّة الريفيّ، وإكساب رسالته بهاء لم تبلغه قطّ

---

١ - ذكر باحثون أنّ التقوى، في مطلع القرن التاسع عشر، كانت متأثّرة برومنطيقيّة ما بعد الثورة، فـ"هنالك إله رهيب يطالب بضحايا تكفيريّة". وكانوا يعبّرون عن العاطفيّة الدينيّة بأسلوب مزخرف: "سيول من الدموع" و"نشوات لا توصف" و"مناجيات رقيقة" و"انعطافات سامية"، ثمّ ظهرت تيّارات جديدة، فأصبح "الله الرهيب" "الله الرؤوف"، وتركّزت التقوى على المسيح بفضل انتشار عبادة قلب يسوع والإفخارستيّا، وممّا أسهم في إكرام العذراء، إنشاء أخويّات مريميّة وظهورات مريم. كالظهور في "ساليت" SALETTE ١٨٤٦، وفي "لورد" LOURDES ١٨٥٨.

من قبل. وتشير إحصاءات كنسيّة إلى أنّ نسبة الممارسة الدينيّة قد اختلفت في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر باختلاف المناطق والجنس، فتراوحت بين ١٠٪ في بعض المناطق، وبين ٩٠٪ في مناطق أخرى، وأظهرت الإحصاءات أنّ قلّة الإيمان ومعاداة الإكليروس قد تميّزت بهما البورجوازيّة المتأثّرة بالأفكار الثوريّة دون الطبقات الشعبيّة. وزاد ارتفاع نسبة ممارسة الشعائر الدينيّة في منتصف القرن، فأصبحت أكثريّة الشعب تلتمس المعموديّة والتناول الأوّل والزواج والدفن في الكنيسة. وتعاطفت الحكومة مع شعب فرنسا، وسرى تيّار يجدّد النشاط الدينيّ، فشُيّدت كنيسة ضخمة على اسم "قلب يسوع" فوق رابية "مونمارتر[١]" على أطراف باريس رمزًا لتضامن الشعب الفرنسيّ مع الكنيسة الكاثوليكيّة. ونُظّمت رحلات الزيارة إلى مناطق لها سمات دينيّة خارقة مثل "لورد[٢]" و"باراي لومونيال[٣]" وبدا للكثيرين كأنّ الحرب الأهليّة قد نزلت عقابًا على الاضطّهاد الظالم وموجات الضلال. فسار منظّمو النهضات الروحيّة والمواكب الدينيّة في الشوارع، يحملون الشموع هاتفين: "أيّتها العذراء مريم أنقذي باريس وروما". وحقّق الكاثوليك تقدّمًا كبيرًا في علاقتهم بالحكومة وحصلوا على مزيد من الحريّة في شؤون التعليم وإقامة الجامعات والمدارس. وإذ كانت الكنيسة عاجزة عن العودة إلى تسلّم كلّ مراحل التعليم، سعت إلى تشجيع أبنائها في تنظيم تعليم الدولة، فأصبح بعض الكهنة مديري معاهد أو أساتذة فلسفة. كما نشطت الرهبانيّات من جديد، فعادت الحياة شيئًا فشيئًا إلى الرهبانيّات القديمة، ونشأت رهبانيّات جديدة أعطت الكنيسة شخصيّات لامعة في رسائل التبشير والتعليم والتربية. ومنذ سنة ١٨١٤، أعاد

---

١ - **مونمارتر** MONTMARTRE: ضاحية ضُمّت إلى باريس سنة ١٨٦٠.

٢ - **لورد** LOURDES: مدينة في فرنسا ظهرت فيها العذراء للقديسة برناديت ١٨٥٨، من المزارات الدوليّة المعروفة إلى اليوم.

٣ - **باراي لومونيال** PARAY - LE - MONIAL: بلدة فرنسيّة على "السلوون واللوار". فيها كنيسة رومانيّة أثريّة، محجّ للمتعبّدين للقلب الأقدس.

البابا بيوس السابع تنظيم اليسوعيّين، لكنّهم لم يُقبلوا في فرنسا إلاّ بتحفّظ. وفي الحقبة ما بين ١٨١٥ و١٨٧٠، نشأ عدد كبير من الرهبانيّات الجديدة، الرجّاليّة والنسائيّة، في فرنسا، وفي بلاد أخرى. وقدّمت الجمعيّات الرهبانيّة الجديدة مدرّسين ومدرّسات للتعليم الابتدائيّ الرسميّ ثمّ أسّست مدارسها الخاصّة عند سنوح الفرصة سنة ١٨٣٣. وكان كثير من التجمّعات الدينيّة الصغرى التي تكوّنت تلقائيًا في عهد الثورة، قد تحولت في عهد الإصلاح إلى جمعيّات رهبانيّة. وكانت جميع هذه الجمعيّات تتوخّى غالبا تلبية الاحتياجات المحليّة: من تعليم، وخدمة المرضى والفقراء. أمّا الإرساليّات النائية فأصبح للبعض منها أبعاد جديدة. وكانت الروحانيّة تستند إلى التيّارات التقليديّة: الإغناطيّ والدومينيكانيّ والفرنسيسكانيّ، وإلى التعبّد للقلب الأقدس وإكرام العذراء[1]، وإلى مواضيع ذلك العصر، كموضوع التكفير. في الوقت نفسه كثرت المؤسّسات التقويّة والخيريّة والأخويّات المتنوّعة، كأخويّات "إنتشار الإيمان" ١٨٢٢، و"المسبحة الورديّة الحيّة" ١٨٢٦، وجمعيّات القدّيس منصور ١٨٣٣.[2] غير أنّ المعارضين للأنشطة الكنسيّة لم يقفوا مكتوفي الأيدي وهم الذين يتمسكون بشعارات ثورة ١٧٨٩، مثل "الماسونيّين" و"الفولتيريّين[3]"، ودعاة "المذهب الطبيعيّ"، ولبثوا يتحيّنون الفرصة الملائمة لتحقيق أهدافهم، حتّى نجحوا في الاستيلاء على الحكم ومؤسّساته في فرنسا بعد سنة ١٨٧٥ بقليل، ثمّ قاموا بإنشاء مؤسّسات تنافس مؤسّسات الكنيسة. وبدا لفظ "جمهوريّ" يعني من يرفض الملكيّة وسيطرة رجال الدين.

---

١ ـ نشأ في هذه الحقبة نحو ٧٠٠ جمعيّة رهبانيّة تحمل اسمًا مريميًا.

٢ ـ كسبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢.

٣ ـ نسبة إلى "فولتير" الذي تزعّم حركة الفلسفة المادية.

وفيما انتشرت في بعض أنحاء إيطاليا ظاهرة معاداة رجال الدين، وقد ساعدت على ذلك جمعيّات سريّة مثل جمعيّة "كربوناري CARBONARI"، حافظ جنوب إيطاليا على نظامه القديم، في حين بدا الشمال أكثر نشاطًا بفضل إنشاء رهبانيّات جديدة ومؤسّسات خيريّة مثل "كوتولنغو COTOLENGO" و"دون بوسكو DON BOSCO"[١]، وبفضل النشاط الفكريّ لبعض الكهنة الفلاسفة. وفي ميونيخ، أنهى "موهلر[٢]" تعليمه كمؤرّخ ولاهوتيّ للكنيسة، وفي كتابه "الوحدة في الكنيسة"، حاول التخلّص من النظرة القانونيّة والسلطويّة إلى الكنيسة، لإدراك طبيعتها ورسالتها انطلاقًا من مبدئها الباطنيّ، أي الروح القدس، المعبّر عنه في حياة الشركة. أمّا في بريطانيا الكبرى، ففيما كان عدد الكاثوليك لا يبلغ المئة ألف، وهم في حالة غير حيويّة، لكن في إيرلندا كان الكاثوليك يشكّلون أكثريّة السكّان البالغ عددهم ستّة ملايين. وقد اضطُهد الإيرلنديّون الكاثوليك مدّة طويلة بسبب انتمائهم، وكان الملاّكون البروتستانت يستغلّونهم، ما جعلهم شبه محرومين من حقوقهم السياسيّة. لكنّ الجهود التي بذلها "أوكونيل[٣]" أدّت، سنة ١٨٢٩، إلى تحرير جميع كاثوليك المملكة المتّحدة، وأصبح الكاثوليك مؤهّلين لشغل جميع الوظائف. ثمّ أحدثت هجرة الإيرلنديّين إلى إنكلترا تعزيزًا في عدد الكاثوليك، حيث بلغ نحو سبعمائة ألف في منتصف القرن الثامن عشر، وقد أسهم أشخاص بارزون في رفع شأن تلك الجماعة الآيلة إلى الانقراض، أوّلهم

---

١ ـ القدّيس يوحنّا دون بوسكو DON BOSCO (١٨١٥ ـ ١٨٨٨): راهب إيطالي، أسّس الرهبانيّة السالسيّة ورهبانيّة مريم معونة النصارى ١٨٧٢.

٢ ـ جون آدم موهلر MOHLER (١٧٩٦ ـ ١٨٣٨): لاهوتيّ ألمانيّ كاثوليكيّ.

٣ ـ أوكونيل O'CONNEL (١٧٧٥ ـ ١٨٤٧): سياسيّ إيرلنديّ، عضو في مجلس العموم البريطانيّ، طالب بالحريّات السياسيّة والاقتصاديّة لبلاده ونال بعضها ١٨٢٩، أسّس حركة الانفصال وتزعّمها.

"نيكولا وايزمان[1]" الذي مهّد الطريق لتحوّل "هنري نيومان[2]".

بيد أنّ البورجوازيّة الليبراليّة، لا سيّما في فرنسا، لم تلبث أن أبدت معارضة شديدة لاستئناف الكثلكة للنظام القديم، فتعدّدت طبعات مؤلّفات فولتير*، زعيم حركة الفلسفة الماديّة، الذي قاوم رجال الكنيسة بقلمه الرشيق اللاذع. وجاء إلغاء حريّة الصحافة من قبل "شارل العاشر[3]" سنة ١٨٣٠ ليثير شعب باريس ٢٧ ـ ٢٩ تمّوز (يوليو) ١٨٣٠. وإذ فعلت التحريضات البورجوازيّة فعلها، سلكت الأحداث مجرًى عنيفا معاديا لرجال الدين، وأطلّ طيف الماضي الدامي مهدّدًا من جديد عندما نُهبت مطرانيّة باريس وتمّ التعدّي على الكهنة المرتدين الثوب الكهنوتيّ. ودُمّرت الصلبان... ولكن سرعان ما عادت المياه إلى مجاريها شيئًا فشيئًا.

في هذا الوقت، كان البلجيكيّون قد استاؤوا من دمجهم في مملكة هولّندا، وراحوا يتململون إلى أن برزت لهم الفرصة للتحالف مع الليبراليّين ضدّ الملك الهولّنديّ، فلم يتردّدوا. وبذلك نظّم البلجيكيّون مملكة بلجيكا المستقلّة في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٨٣٠، على أسس ليبراليّة، تقوم على شبه فصل بين الكنيسة والدولة، وعلى حريّة العبادة والتعليم والصحافة. واعتبر باحثون أنّ الكاثوليك في بلجيكا قد سخّروا الأفكار

---

١ ـ **نيكولا وايزمان** WISEMAN (١٨٠٢ ـ ١٨٦٥): مفكّر وأسقف وكاتب وسياسيّ. كان طالبًا في الكليّة الإنكليزيّة في روما، ثمّ أصبح مديرًا لها. اظهر كثيرا من الانفتاح على تيّارات زمنه الفكريّة فشجّع الكاثوليك الإنكليز وعرّفهم بحيويّة الكثلكة في أوروبا. اختاره بيوس التاسع كرئيس أساقفة على وستمنستر WESTMINSTER حين أعاد الرئاسة الكاثوليكيّة في إنكلترا ١٨٥٠. له كتاب "فابيولا" FABIOLA الشهير ومؤلّفات أخرى.

٢ ـ **هنري نيومان** NEWMAN (١٨٠١ ـ ١٨٩٠): كان كاهنًا أنكليكانيًا وأحد آباء حركة أوكسفورد التي توخّت تجديد الكنيسة الأنكليكانية العائدة في خضوعها للسلطة المدنيّة ١٨٣٣. حمله البحث في مؤلّفات آباء الكنيسة على التساؤل عن أسس الأنكليكانية وعن تطوّر العقائد. وبعد بحثه هذا أصبح كاثوليكيًّا ١٨٤٥، ووضع الصلاة المعروفة باسم "النور المقيد".

٣ ـ **شارل العاشر** (١٧٥٧ ـ ١٨٣٠): وُلد في فرساي، ملك فرنسا ١٨٢٤ ـ ١٨٣٠، في عهده جهزت الحملة على الجزائر في الرابع من تموز (يوليو) ١٨٣٠ التي انتهت باحتلالها، تنازل لحفيده.

الليبراليّة لخدمتهم. ولم يكن بوسع الكرسيّ الرسوليّ إلاّ أن يوافق على كلّ هذا وهو في حيرة ممّا يجري. ذلك أنّ تقاطع المصالح بين الليبيراليّين والكاثوليك البلجيكيّين قد أوجد حالة من التحالف المربك، ما أدّى إلى تلك النتائج الوسطيّة التي أرضت الطرفَين. أمّا بولندا، التي جعل مؤتمر فيينّا مملكتها في صيغة اتّحاد مع روسيا على أن تحكم طبق دستورها الخاص، فكانت، عمليًّا، خاضعة لقيصر روسيا، فثارت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٣٠ وأعلن الثوّار استقلال الدولة. لكنّ الروس سحقوا البولنديّين واستعادوا "وارسو" في الثامن من أيلول (سبتمبر) ١٨٣٢، وقد جاءت عمليّة القمع رهيبة، فالتمس البولنديّون تدخّل البابا، كما فعل، في الوقت نفسه، غاغارين GAGARINE ممثّل القيصر الروسي. وكانت النتيجة أن أذاع البابا[1] رسالة في التاسع من أيلول (سبتمبر) ١٨٣٢، دعا فيها البولنديّين إلى الخضوع. فعمّ السخط والدهشة في بولندا وأوروبّا. وبرز الفيلسوف الفرنسيّ "لامنيه[2]" وأصدقاؤه عبر جريدتهم "المستقبل"

---

١ - كان على السدّة البابويّة في ذلك التاريخ البابا غريغوريُس السادس عشر (١٨٣١ - ١٨٤٦)، وهو البابا الرابع بعد بيوس السابع (١٨٠٠ - ١٨٢٣) الذي واجه نابوليون وفي عهده جرى مؤتمر فيينّا ١٨١٤ - ١٨١٥؛ خلفه البابا لاون الثاني عشر (١٨٢٣ - ١٨٢٩)؛ ثمّ بيوس الثامن (١٨٢٩ - ١٩٣٠).

٢ - **لامنيه** FELICITÉ ROBERT DE LAMENNAIS, OU: LA MENNAIS (١٧٨٢ - ١٨٥٤) فيلسوف فرنسيّ كاثوليكيّ ليبيراليّ. وُلد في سان مالو SAINT - MALO فرنسا، ترعرع على عهد الثورة ونشأ عصاميًا بمطالعاته المتواصلة، سيم كاهنًا ١٨١٦ وكرّس حياته لرسالة القلم والصحافة، جعلت منه الـ "نبذة في عدم الاكتراث بالدين" ١٨١٧ واحدًا من أشهر كتّاب المملكة، أراد أن يمنع مواطنيه من الانزلاق بهدوء نحو الإلحاد معلنًا أنّه "بغير الدين كلّ شيء ينهار"، أظهر شيئًا من المغالاة في انتقاده للتعليم الرسميّ، كان متمسكًا بالكرسيّ البابويّ ويرى أنّ البابا المعصوم عن الخطأ هو على قمّة البناء الأساسيّ الدينيّ، أسّس رهبانيّتين صغيرتين للاهتمام بالتعليم الابتدائيّ، وأراد أن يساهم في تكوين إكليروس مطّلع على تقليد الآباء ومنفتح على عقليّة عصره، استعان بأصدقائه أمثال "لاكوردير LACORDAIRE" و"مونتالانبير MONTALEMBERT" وغيرهما فأنشأ جريدة "المستقبل" وشعارها "اللّه والحريّة" وقد نادت بحريّة الصحافة والتجمّع واهتمّت بالشعوب التي تناضل في سبيل استقلالها كبولندا وإيرلندا، وأثارت اهتمام قرّائها لطرحها القضيّة الاجتماعيّة، أدان البابا كتاباته، خاب أمله بالجمهوريّة الثانية فمات يائسًا، ولكنّ كلّ ما تمنّاه لامنيه نراه اليوم محقّقًا: الفصل بين الكنيسة والدولة، وحريّة التعليم والصحافة.

وشعارها "الله والحريّة" متسائلين: أفلا يجب على الكنيسة أن تأخذ بعين الاعتبار تطلّعات الشعوب إلى الحريّة؟ أولم تحن ساعة المصالحة بين الله والحريّة؟ ولكن... لم يكن بوسع البابا أن يؤيّد الثورة في بولندا. وإذ اقترح لامنيه تجديد الكنيسة والمجتمع تجديدا مبنيّا على الحريّة، حريّة الضمير والعبادة، والفصل بين الكنيسة والدولة، اعتبر الأساقفة فكرة الفصل هذه غير معقولة وأبدوا عدم موافقتهم، فتوقّفت الجريدة عن الصدور في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٣١، وقرّر لامنيه أن يرفع القضيّة إلى البابا الذي ما زال يؤيّده، لكنّه وصل هو وأصدقاؤه المحرّرون في الجريدة إلى روما في وقت غير مناسب: يوم صدور رسالة البابا التي دعا فيها البولنديّين إلى الخضوع للروس. فاستاء لامنيه ورفاقه من هذا الموقف وأقفلوا راجعين. وبتاريخ ١٥ آب (أغسطس) ١٨٣٢، أصدر البابا رسالة عامّة، يشجب فيها، بدون تسمية، أفكار لامنيه وأفكار جريدة "المستقبل". وفي نيسان (ابريل) ١٨٣٤ أصدر لامنيه كتابه "أقوال مؤمن" عبّر فيه عمّا يجيش في قلبه من بغض لكلّ أنواع الطغيان وعن ثقته بالشعب. لكنّ البابا ما لبث أن شجب الكتاب وصاحبه في رسالة عامّة ثانية.

الثّورة الاجتماعيّة الأوروبيّـــــــة

لطالما ارتبطت المسائل الإجتماعيّة في مسيرة البشريّة بمسائل الدين والإيمان. فإنّ يسوع نفسه كان ملاذ الفقراء وأمل المنبوذين، وبشارته كانت رجاء للمساكين. وهكذا نرى أنّه في فرنسا وأوروبّا، طالت شظايا الثورة الفرنسيّة، وما تبعها من تداعيات، المسائل الإيمانيّة إلى حدّ بعيد. وفي هذا الإطار، لم تقتصر اهتمامات جريدة المستقبل على شأن حريّة التعليم وفصل الدين عن الدولة، بل تعدّتها إلى شؤون اجتماعيّة

واقتصاديّة خطيرة. وفي تلك الحقبة، كان المفكّرون والناشطون الاجتماعيّون الكاثوليك قد عاصروا الاشتراكيّين الأوّلين الذين استوحوا أفكارهم من المبادئ المسيحيّة، رافضين "الصدقة" ومطالبين بالحصول على العدالة بتغيير الاقتصاد والمجتمع. ذلك أنّ التصنيع كان قد خطا خطوات كبيرة في إنكلترا، في حين كانت نسبة القرويّين في فرنسا، في منتصف القرن التاسع عشر، نحو ٧٥٪. رغم ذلك فإنّ أعمال المناجم وصناعة النسيج قد أوجدت تكتّلات سكنيّة في المدن، ساد فيها بؤس رهيب. وكانت الليبراليّة الاقتصاديّة لا تعترف بأيّة قاعدة في ما يتعلّق بالأجور والضمانات الصحّيّة. وكان بعض الكاثوليك المحافظين في السياسة يأسفون لزوال "الفرق المهنيّة" التي كانت في النظام القديم، إذ إنّها كانت تفرض احترام بعض القواعد الضامنة لحدّ أدنى من شؤون العمّال، فأخذوا يُنشئون المؤسّسات الخيريّة للتخفيف من أحوال البؤس، وقد ندّد لامنيه، في جريدة "المستقبل"، بظاهرة "استقلال العمّال"، وعرض تنظيمًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا جديدًا، يستند إلى الديمقراطيّة السياسيّة. وعمل "أوزانام[1]" على المصالحة بين الطبقات الاجتماعيّة. إلاّ أنّ تلك المحاولات الإنسانيّة لم تكن كافية لتصحيح الأوضاع. بل نشأ تحالف بين الناقمين من جمهوريّين، وكاثوليك متمسّكين بالعهد الملكيّ البائد، وعمّال بطّالين، إلى نشوب ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨. وسرعان ما رحّب الجميع بالجمهوريّة لدى إعلانها في ٢٥ شباط (فبراير). ولم تغفل الحكومة الموقّتة التي نشأت آنذاك "الطلب إلى الشعب أن يغمرها بصلواته"، كما لم يغفل الكهنة مباركة "أشجار الحريّة"، وبدا وكأنّ المصالحة شملت جميع الفئات. بيد أنّ الخوف الذي أثارته أحداث وقعت في حزيران (يونيو) ١٨٤٨ دفع بالأساقفة والقيادات

١ ـ فريديريك أوزانام FRÉDÉRIC OZANAM (١٨١٣ ـ ١٨٥٣): كاتب كاثوليكيّ فرنسيّ، من مؤسّسي جمعيّة القدّيس منصور دي بول، أصدر صحيفة "العصر الجديد"، عمل على إيجاد فكر يجمع بين الديمقراطيّة والحريّة والإصلاحات الاجتماعيّة.

الكاثوليكيّة للانضمام إلى فئة المحافظين المؤيّدين لسياسة نابوليون الثالث المستبدّة، فأظهروا معارضة شديدة لكلّ حركة اشتراكيّة. وفي يوم عيد الفصح، جرت الانتخابات في أجواء حماسيّة، وكانت أكثريّة الناخبين من القرويّين السذّج، فخضعوا لتعليمات الوجهاء، من أعيان وكهنة، وانتخبوا مجلسًا من المحافظين ممّن يجهلون مشاكل العاصمة الاجتماعيّة. وهكذا، فعندما تدفّق البطّالون إلى باريس ليعملوا في "الورش القوميّة" الموعودة، وجدوا أنفسهم بطّالين من جديد وفي أوضاع أكثر بؤسًا من السابق، ذلك أنّ "الورش" بدت كثيرة التكلفة فأُقفلت.

بالمقاربة التحليليّة لهذا الموضوع، نجد أنّ الطبقة العاملة قد قامت يومذاك في فرنسا خارج الكنيسة. وإذا كان الأساقفة، وجلّهم من وجهاء الريف، لم يتعاموا جميعهم عن البؤس الصارخ في ضواحي المدن العمّاليّة، فإنّهم لم يتمكّنوا من تحليل أسباب هذا البؤس ومن إيجاد دواء له. ذلك أنّ سكّان الأرياف المتكدّسين في الضواحي الصناعيّة، كانوا قد اقتُلعوا من جذورهم، من دون أن تكون قد توفّرت لاستقبالهم أيّ بنية مناسبة. وفي الوقت نفسه، شهدت المدن تضخّمًا ديموغرافيًّا شديدًا، فانقطع اللقاء الشخصيّ بالكاهن، وقد جاء في مدوّنات أنّ أحد كهنة باريس كان يشكو من هذا الوضع المستجدّ في تلك الحقبة[1]. أمّا التعليم المسيحيّ، فكان لا يزال مقتصرًا على مستوى الأخلاقيّات الفرديّة الضيّقة، إذ كان الكهنة يكتفون بالطلب إلى المموّلين أن يكونوا أسخياء، وإلى العمّال أن يتمسّكوا بالفضيلة وألاّ ينزلقوا إلى تعاطي المسكر والدعارة وأن يحترموا وصايا الله كراحة الأحد وسواها. وإذ لم تكن تلك الانشطة لتثمر حلاًّ عمليًّا للمشاكل الاجتماعيّة الخطيرة الناشئة، نزل العمّال اليائسون إلى شوارع باريس حيث أقاموا

1 - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٣٩.

الحواجز الغاضبة، ما أدّى إلى نشوب حرب أهليّة طبقيّة، أهرقت فيها الدماء، وسقط ألوف القتلى. ولكن قبل نهاية العام، هدأت الأحوال بانتخاب الأمير لويس فيليب في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٨ رئيسًا للجمهوريّة، وآلت الأمور إلى ولادة مجلس نوّاب يضمّ أكثريّة من الكاثوليك المحافظين وأنصار الملكيّة.

لقد ارتكزت التيّارات الإشتراكيّة الأولى على المسيحيّة، في مناهج نهضتها الإقتصاديّة، ولكن بعد سنة ١٨٤٨، بدأت تلك التيّارات تبتعد شيئًا فشيئًا عن مصدر وحيها المسيحيّ، آخذة منحى لادينيًّا، مناصبة الكنيسة العداء، معتبرة إيّاها متضامنة مع السلطة السياسيّة والاقتصاديّة المستثمِرة. فقد اعتبر الفيلسوف الفرنسي "برودون[1]" "المُلكيّة سرقة والله شرًّا، فيجب إحلال فكرة العدالة محلّ فكرة الدين". وعندما أصدر السياسيّ والفيلسوف الإجتماعيّ الألمانيّ كارل ماركس (١٨١٧ ـ ١٨٨٣) بالتعاون مع زميله "فريديريك إنغلز[2]" "البيان الشيوعيّ" سنة ١٨٤٨، ثمّ "الرأسمال[3]" سنة ١٨٦٧، واضعًا أسس الإشتراكيّة العلميّة، وصف "صراع الطبقات بأنّه محرّك التاريخ"، و"الدين بأنّه أفيون الشعوب". وبدا التجمّع الدوليّ للعمّال سنة ١٨٦٤، وكأنّه كنيسة تناوئ الكنيسة القائمة. فما كان من رجال الدين إلاّ أن قاوموا هذه الاشتراكيّة بشراسة وحماس، ولكنّ محاربتهم تلك قد اقتصرت على تشديدهم على الدعوة إلى الطاعة المسيحيّة، والتشجيع على تأسيس الجمعيّات الخيريّة.

---

١ ـ برودون PROUDHON (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥): من روّاد الفكر الإشتراكي في القرن التاسع عشر، دعا إلى ثورة لتحقيق العدالة الاجتماعيّة والحريّة المطلقة، نادى بإشتراكيّة ليبراليّة مناهضة لاشتراكيّة الدولة التي قالت بها الماركسيّة.

٢ ـ فريديريك إنغلز ENGELS (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥): إشتراكيّ وفيلسوف ألمانيّ، اشترك مع كارل ماركس في وضع "البيان الشيوعي" ١٨٤٨، نشر "الرأسمال" بعد موت ماركس.

٣ ـ كتاب **الرأسمال أو رأس المال**: يُعتبر عرضًا لنظريّة كارل ماركس، وأصبح في ما بعد دستور الماركسيّة والنظام الشيوعي.

على الصعيد العلمانيّ الكاثوليكيّ المحافظ، لم يكن الكاثوليك المهتمّون بالقضايا الاجتماعيّة في فرنسا يومذاك من المتحرّرين، بل من المحافظين. وقد اعتبر هؤلاء تيّار الحريّة الاقتصاديّة مسؤولاً عن البؤس الذي عمّ شرائح واسعة من أبناء المجتمع، لأنّه ألغى بُنى النظام القديم: النظام العائليّ والحِرَفيّ. فرأوا وجوب العودة إلى الماضي بثورة معاكسة، وإعادة بنيان مجتمع رئاسيّ HIÉRARCHIQUE يعي فيه الأشراف واجباتهم، ويحيطون بعنايتهم ذوي الدخل المتواضع، في نظام حرفيّ CORPORATIF. وقد تبنّت بعض هذه الأفكار معامل خاصّة برأسماليّين مسيحيّين، بلغت نحو خُمس العمّال المتدرّبين الباريسيّين سنة ١٨٧٠، وكان مبدأ ذلك التيّار يقول بأنّ "أعضاء هذه المؤسّسات يؤلّفون عائلة كبرى ويكنّون لوالديهم ولمعلّميهم وللمحسنين إليهم كلّ احترام وغيرة". وكان هؤلاء يجتمعون للتفكير معًا كما في "جمعيّة الإقتصاد الخيريّ" التي أسّسها سنة ١٨٤٧ "أرمان دي مولان ARMAND DE MELUN" أحد أعضاء "الكاثوليك الإجتماعيّين" الأكثر فعاليّة. بيد أنّ هذه النزعة الأبويّة PATERNALISME لم تؤدّ إلاّ إلى غيظ العمّال الذين اجتذبتهم الاشتراكيّة. وسنة ١٨٧١، أقرّ دي مولان بفشله معلنًا أنّ "نجاح الأراء الاشتراكيّة لا يعود إلى أنّه يدغدغ الغرائز فحسب، بل إلى أنّه أيضًا يبدو كحلّ، كنظام متكامل، يجيب على صعوبات المعضلة الاجتماعيّة. أمّا نحن فلم نقدّم شيئا يوازيه[١]...". وكانت أحداث "بلديّة ١٨٧١" في باريس قد سبّبت ردّة فعل لدى البورجوازيّين، لكنّها في الوقت نفسه حملت بعض الكاثوليك الأسخياء، أمثال "ألبير دومان ALBERT DEMUN" و"رينيه دو لا تور دي بان RENÉ DE LA TOUR DU PIN" على التفكير: كيف صارت الأمور على ما عليه؟ وبعد تأمّل في حقيقة الواقع، أسّس هذان الرجلان "حركة النوادي الكاثوليكيّة للعمّال" سنة ١٨٧١، وأعلنا عن أنهما

---

١ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٢٤١.

يعارضان "الثورة المضادّة وإعلان الملكيّة". وعملا في سبيل اللقاء بين مختلف الطبقات الاجتماعيّة، محمّلين الطبقة العليا مسؤوليّة الطبقة الدنيا. ومع أنّ تلك النوادي كانت عبارة عن مجرّد "حانات فاضلة" يقصدها قلّة من العمّال، لكنّها أسهمت في توعية الطبقة البورجوازيّة المسيحيّة على المشاكل الاجتماعيّة، كما عرّفت بإنجازات رجل الأعمال المسيحيّ، "لاون هرمل" (١٨٢٩ ـ ١٩١٥). ففي مصنعه، في "فال دي بوا" قرب مدينة "ريمس"، وضع لاون هرمل المبادئ المسيحيّة موضع التنفيذ. وقد كان ذلك نوعًا من أنواع "النزعة الأبويّة" مطعّمًا بالديمقراطيّة. ذلك أنّه أراد أن يُشرك العامل بإدارة المصنع وبكلّ إنجازاته، وكان من شعاراته: "خير العامل بواسطة العامل ومع العامل وليس بدونه، وبخاصّة ليس ضدّه". وقد تحقّقت في فال دي بوا، شبكة من الانجازات محكمة الربط، ترافق حياة العامل من المهد إلى اللحد وتغيّرها تغييرًا تامًّا. ونظّم هرمل زيارات يقوم بها العمّال إلى روما. كما قام بينه وبين البابا لاون الثالث عشر تبادل آراء حول القضيّة الاجتماعيّة[1].

وإذ كانت عدوى الثورة قد أصابت سائر الشعوب الأوروبيّة، اكتسحت الانتفاضات الشعبيّة أوروبّا بأسرها. ففي ألمانيا، كانت التنمية الصناعيّة قد ظهرت متأخّرة نسبيًّا، ولكن يبدو أنّ الكاثوليك هناك قد فهموا الرهان على وجه أفضل. فلم تقتصر القضيّة الاجتماعيّة على الوعظ والإرشاد وتنظيم المساعدات، بل تطلّبت تنظيمًا للاقتصاد جديدًا وتدخّلاً من قِبَل الدولة. وكان الممثّل الأوّل للكاثوليكيّة الإجتماعيّة في ألمانيا: الأسقف "ويلهلم كتلر[2]" فقد كان تحرّريًّا بعض الشيء، كما كان يحنّ إلى نظام القرون

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٤٢ ـ ٣٤٣.

٢ ـ **ويلهلم عمانوئيل كتلر** KETTELER (١٨١١ ـ ١٨٧٧): أسقف ماينز MAYFNCE، من روّاد الاشتراكيّة المسيحيّة، من مؤلّفاته "القضيّة العمّاليّة والمسيحيّة" ١٨٦٤.

الوسطى الحرفيّ. لكنّه كان يتطلّع إلى نهضة في البنيان الإقتصادي وإلى عدالة اجتماعيّة صحيحة، ومن أقواله الشهيرة: إنّ "الغنيّ يسرق الفقير ما أعدّه اللّه لكلّ الناس". فهو يعارض الرأسماليّة التحرّريّة والاشتراكيّة على حدّ سواء، ويتمنّى تنظيمًا حرفيًا للمجتمع، ويطلب من الدولة التدخّل للحدّ من ساعات العمل، ولفرض راحة الأحد، ولإشراك العمّال في الربح ومساعدة أمّهات العائلات. وقد أسّس، في مدينة فيينّا في النمسا، أحد تلامذة كتلر: "البارون فوجلسنغ VOGELSANG"، مجلّة أصبحت لسان حال الكاثوليك الإجتماعيّين النمساويّين. وقد انتقد فوجلسنغ الرأسماليّة المتحرّرة، وطالب بتدخّل الدولة لتحقيق العدالة الاجتماعيّة، حتّى اتّهم بأنّه "اشتراكيّ مسيحيّ". وهناك كاهن ألمانيّ آخر: "كولبنغ" KOLPING (١٨١٤ ـ ١٨٦٥) كان قبل سيامته إسكافيًا، عمل على إعادة تنظيم رابطة العمّال، فأسّس في أنحاء ألمانيا دُورًا للعمّال الشباب، راغبا في أن ينتظّم العمّال في ما بينهم بعيدا عن عيون أصحاب الرأسمال. وفيما نجحت تجربة كولبنغ في ألمانيا، فإنّه لم يستطع، مع ذلك، إقناع الكاثوليك الفرنسيّين أصحاب "النزعة الأبويّة" باعتمادها[١].

وكان الأسقف "مرميلود MERMILLOD" قد نظّم في مدينة "فريبورغ FRIBOURG في غرب سويسرا منذ سنة ١٨٨٤، اجتماعات سنويّة للكاثوليك الإجتماعيّين المنتمين إلى عدّة بلدان، بهدف تأسيس "الإتّحاد الكاثوليكيّ للدراسات الإجتماعيّة". وفي إيطاليا، تطوّرت الحركات الإجتماعيّة داخل "حركة المؤتمرات"على يد أستاذ اسمه "طونيولو". وبرز في الولايات المتّحدة سنة ١٨٨٧ الكاردينال "جيبّونيس" مدافعا عن حركة "فرسان العمل". وفي لندن نشط الكاردينال "مانينغ" الذي أُقيم حكمًا في قضيّة إضراب عمّال

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٤٢

البحريّة سنة ١٨٨٩. ويرز الكاردينال "موران" في سيدني داعيًا الكاثوليك إلى الدخول في "الاتّحاد التجاريّ". كلّ هذه الاتّجاهات الفكريّة والإنجازات أدّت إلى صدور الرسالة البابويّة "الشؤون الحديثة" سنة ١٨٩١.

في ذلك العصر، كان قد اعتلى السدّة البطرسيّة البابا بيوس التاسع (١٨٤٦ ـ ١٨٧٨)، في أطول حبريّة في تاريخ الكنيسة. فقد أنشأ هذا البابا ٢٩ أسقفية بإمرة رئيس أساقفة و١٣٢ أسقفية يديرها أسقف في شتّى أنحاء العالم. وقد سجّل مؤرّخون مستقلّون أنّ الإيمان قد انتعش من جديد في عهد البابا بيوس التاسع، وارتقت الحياة المسيحيّة، واستعادت السلطة البابويّة هيبتها، وقويت المركزيّة في الكنيسة الرومانيّة، وتضاءلت النعرات القوميّة في كنائس فرنسا والنمسا وألمانيا[1]. وكانت إعادة تأسيس البطريركيّة الأورشلميّة، إحدى إنجازاته الكبرى، قد طُرحت على بساط البحث في عصر سلفه البابا غريغوريُس السادس عشر (١٨٣١ ـ ١٨٤٦)[2]. ولكنّ باحثين يأخذون على البابا بيوس التاسع قلّة مرونته في علاقاته مع الدول الناشئة، وعدم تماشيه مع التطوّر الاجتماعيّ والفكريّ[3]. ويرى آخرون أنّ البابا بيوس التاسع كان قد حاول أن يقوم بالإصلاحات المدنيّة في دولته، لكنّ وزيره "روسّي Rossi" لقي مصرعه. فخاف البابا وغادر روما، وأعلن الإيطاليّون قيام الجمهوريّة في شباط (فبراير) ١٨٤٩. غير أنّ تهديد سلامة البابا قد هزّ الشعب الفرنسيّ، ما جعل نابوليون الثالث[4]، مراعاة للرأي

---

١ ـ يتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠

٢ ـ كلداني الأب د. حنا من كهنة البطريركيّة اللاتينيّة، المسيحيّة المعاصرة في الأردن وفلسطين (عمان، ١٩٩٣)، موجز عنه في كتاب: دليل الى قراءة تاريخ الكنيسة، دار المشرق (بيروت،١٩٩٧) ٢: ٢٥٦ ـ ٢٥٨.

٣ ـ يتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

٤ ـ نابوليون الثالث (١٨٠٨ ـ ١٨٧٣): ولد في باريس، أمبراطور فرنسا ١٨٥٢ ـ ١٨٧٠، خُلع عن العرش بعد فشله في الحرب ضدّ ألمانيا ١٨٧٠ فاعتزل في إنكلترا حيث توفّي.

العام الكاثوليكيّ في فرنسا، وبطلب من ملك إيطاليا فيكتور عمّانوئيل الثاني[1]، يرسل جيشًا إلى إيطاليا دخل روما، ما أتاح عودة البابا إليها[2]. وقد أبقت فرنسا بعض القوّات في روما للدفاع عن سيادة البابا على روما وضواحيها. وكان من أهمّ الأحداث الكنسيّة، في تلك الحقبة، تحديد عقيدة الحبل بلا دنس سنة ١٨٥٤. إلاّ أنّ الكنيسة الرومانيّة قد فقدت في عهد البابا بيوس التاسع ممتلكاتها الباباويّة، بعد أن استولى عليها ملك إيطاليا سنة ١٨٧٠ ليحقّق وحدة بلاده[3]. وبذلك أفقد قيام الوحدة الإيطاليّة الكرسيّ الرسوليّ ممتلكاته التي أصبحت تقتصر على كنيسة القدّيس بطرس والبلاط الباباويّ وملحقاته بالإضافة إلى القصور والبنايات الموجودة في العاصمة الإيطاليّة و"كاستل غوندولفو" خارج حدود مدينة الفاتيكان[4]. وبقيت مسألة الأراضي الرومانيّة معلّقة بين الفاتيكان وإيطاليا حتّى سنة ١٩٢٩، إذ عُقدت بين الكرسيّ الرسوليّ والحكومة الإيطاليّة في تلك السنة معاهدة لاتران التي نصّت على استعادة البابا لحقوقه الزمنيّة داخل دولة الفاتيكان[5].

---

١ ـ **فيكتور عمّانوئيل الثاني** VICTORIO EMMANUELE: ملك سردينيا ١٨٤٩ ثمّ إيطاليا ١٨٦١، أنشأ الوحدة الإيطاليّة بمساعدة وزيره كافور.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣١١.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

٤ ـ المنجد في الأعلام، مرجع سابق، ص٥١٦.

٥ ـ جرت تلك المعاهدة في عهد البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩).

أزمـــة
الحداثة

في خضمّ تداعيات ثورة القرن الثامن عشر، وجّه فلاسفة نهاية ذلك القرن والقرن الذي تلاه، كما العلماء والكتّاب والمصلحون والمفكّرون، وجّهوا نقدهم للمسيحيّة عمومًا وللكاثوليكيّة بوجه خاصّ. وبرزت مسألة العلاقة بين العقل والإيمان. فذهب الفيلسوف "كانت[1]" إلى القول بأنّنا "لا ندرك الأشياء بل ظواهرها الحسيّة في الزمان والمكان"، ما يعني "أنّ اللّه لا يُدرك بالعقل" غير أنّ "العقل لا يستطيع أن يعرف اللّه"، وهكذا فإنّ "فكرة اللّه لم تعد ضروريّة وهي استعباد للإنسان". كما أنكر الفيلسوف "الوضعي" "أوغوست كونت[2]" كلّ ما هو فائق الطبيعة، وقال بأنّ "عصر الدين والميتافيزيقيا، أي الماورائيّات، وهو لبّ فلسفة القرون الوسطى، قد انتهى، ووصلت البشريّة إلى عصر العلم والوضعيّة... وفلسفة اليوم تؤمن بتقدّم علميّ غير محدود وبتراجع نهائيّ للأديان في عصر خطت فيه علوم الطبيعة والتاريخ خطوات عملاقة". وكان في تلك الحقبة قد نشأ "علم ما قبل التاريخ" على أيدي علماء الآثار[3] أعاد أصل الإنسان إلى مئات ألوف السنين. ودلّت المخلّفات الحجريّة البشريّة على تطوّر الإنسان الذي جعل منه "داروين[4]" مذهبًا في كتابه "أصل الأجناس" سنة ١٨٥٩.

---

١ ـ عمانوئيل كانت KANT (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤): فيلسوف ألمانيّ مثاليّ، له "نقد العقل النظري"، ونقد العقل العملي"، و"نقد الحكم العقلي"، وهي مؤلّفات فلسفيّة خطيرة، استنتج من الشريعة الأدبيّة وجود الله والحريّة وخلود النفس.

٢ ـ أوغوست كونت COMTE (١٧٩٧ ـ ١٨٥٧): فيلسوف فرنسيّ، وُلد في مونبلييه، أسّس المذهب "الوضعي" القائل إن لا سبيل إلى تملّم المعرفة إلاّ باتّخاذ أوضاعها من الملاحظة والخبرة.

٣ ـ علم ما قبل التاريخ: كان من أبرز منشئيه العالم الأثريّ الفرنسي "بوشيه دو برت BOUCHER DE PERTHES (١٧٨٨ ـ ١٨٦٨).

٤ ـ داروين DARWIN (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢): إنكليزيّ عالم بالطبيعة، صاحب نظريّة التطوّر في الأجناس الحيّة، قال إنّ ذلك نتيجة "اختيار طبيعيّ" لصالح الأجناس الأكثر أهليّة للبقاء.

وكان تساؤله: هل الإنسان يتحدّر من القرد ويتطوّر؟ فما معنى فعل الخلق الإلهيّ والخطيئة الأصليّة والتأريخ في الكتاب المقدّس؟

والى جانب ولادة "علم ما قبل التاريخ"، نتج عمّا نشر في القرن التاسع عشر من كتابات عديدة مستندة إلى مراجع تاريخيّة، حول الحقبات القديمة والقرون الوسطى، ولادة علم الأديان، فحُلّت رموز كتابات الشرق الأوسط، والهيروغليفيّة المصريّة، والمسماريّة، والبابليّة. ودُرست نصوص الكتاب المقدّس وقوبلت بغيرها، تمامًا كنصوص أيّة ديانة أخرى لا تُعتبر سماويّة، في حين كان المسيحيّون يظنّون أنّ النصوص الموحاة مستثناة من هذا النوع من الأبحاث. وفي كتابه، "حياة يسوع" الذي صدر سنة ١٨٣٥، رأى "دافيد فريديريك شتراوس[١]" في شخص يسوع "أثرًا لمخيّلة الجماعات المسيحيّة الأولى". وقد رأى ناقدون في كتاب "سيرة يسوع" للكاتب الفرنسيّ "إرنست رينان[٢]" أنّه قد جعل من يسوع مجرّد إنسان عظيم[٣]، بينما "رينان" في الواقع، قد شكّك في جميع الأديان، من اليهوديّة إلى الإسلام مرورًا بالمسيحيّة، منطلقًا من رؤيته العرقيّة الآريّة التي ترى فارقًا عميقًا بين الجنس الآريّ الذي يمتاز، حسب رينان، بملكة الخلق والإبداع، وبين الجنس الساميّ الذي تنعدم فيه هذه الملكة. ونحن نرى في أدب رينان عنصريّة نازيّة سبقت أدولف هتلر بنحو نصف قرن. ولا نرى في عنصريّة هتلر سوى امتداد وتفعيل لتلك النظريّة "الرينانيّة".

---

١ ـ دافيد فريديريك شتراوس STRAUS (١٨٠٨ ـ ١٨٧٤): لاهوتيّ ألمانيّ.

٢ ـ إرنست رينان RENAN (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢): مستشرق وكاتب وعالم آثريّ ومؤرّخ وناقد فرنسيّ، له "حياة يسوع"، كان من أوّل المهتمّين بالتنقيب عن الآثار في لبنان وفلسطين.

٣ ـ كميي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣١٢ و٣٤٧.

تلك المستجدّات الفكريّة، أوجدت في العالم الغربيّ النشط، وخاصّة في الكنيسة الرومانيّة، ما يُعرف بـ"أزمة الحداثة". وقد وصف جدليّون "الحداثة" بأنّها "كلمة جدليّة يتغيّر فحواها بتغيّر مستعمليها". فالمؤرّخ يجد في أزمة الحداثة "كلّ الجهود السعيدة أو التعيسة الهادفة إلى التوفيق بين مكاسب المعرفة الحديثة ومتطلّبات الإيمان الدائمة". إلاّ أنّ المفكّرين الكاثوليك الكنسيّين "الرسميّين"، إذا صحّ التعبير، أي الذين يُعتبرون من داخل الدوائر الفاتيكانيّة، سوف يتّخذون، بشأن المجابهة، مواقف متباينة إلى حدّ التناقض أحيانًا. فالمحافظون المتصلّبون يرفضون كلّ استعمال للعلوم الحديثة في التعبير عن الإيمان. و"التقدّميّون" يضعون المواد العلميّة في خدمة الدين مع المحافظة على متطلّبات الإيمان الدائمة. والذين يستحقّون لقب "محدثين" يظنّون أنّ العلم الحديث يفرض إعادة نظر عميقة في الأفكار المتداولة. فالعلم هو الأوّل، وعلى المسيحيّة أن تتكيّف معه، فهذا هو حظّها الأخير لكي تحيا. فيجب تغيير الكنيسة من الداخل. هؤلاء هم الذين أصبحوا يُعرفون بالعقلانيّين. بيد أنّ "أزمة الحداثة" لم تتخطّ إطارًا محدودًا داخل الكنيسة الكاثوليكيّة، يضمّ عددًا قليلاً من الكهنة المهتمّين بقضايا الفكر، إضافة إلى بعض العلمانيّين. والملاحظ أنّ الجدل الذي نشأ في تلك الحقبة، كان ضمن جوّ من الاتّهامات التي غالبًا ما تكون دون سند، فكانوا يكتبون تحت أسماء مستعارة، حتّى أنّ بعضهم كان يستعمل "لغتين" في الوقت نفسه. وعلى العموم، فإنّ الكنيسة الكاثوليكيّة قد بادرت في البداية إلى مجابهة الحداثة على كلّ صعيد: سياسيّ واجتماعيّ وعقائديّ. فالكلام على الحداثة لا يقتصر على تلك الأفكار العلميّة التي طلع بها الباحثون في علوم الطبيعيّات والأحياء والآثار واللغات القديمة، بل هو يخصّ أيضًا الذين حاولوا خلق تقارب مسكونيّ، مثل الراهب اللعازاريّ "فرنان بورتال" الذي اهتمّ باتّحاد الكاثوليك والأنكليكان، عند مفترق القرن التاسع عشر والقرن العشرين. لكنّ الأزمة

أصابت، بوجه خاصّ، مجال الدراسات الكتابيّة ومعنى العقائد، على ما فيه من صلة بين هذين المجالين. وهي لم تقتصر على الجدل حول شخصيّة المسيح، وأصول الديانات السماويّة، ومسألة قدرة العقل على إدراك الله...، بل تعدّت كلّ تلك المسائل أحيانًا إلى مواضيع بسيطة وبرينة، منها على سبيل المثال، أنّ بعض اللاهوتيين، كالأب "لابرتونيار الأوراتوريّ"، قد أصبح، مع النهضة والحداثة، يستعمل في مجلّة "حوليّات الفلسفة المسيحيّة" لغة عصريّة لم تعد لغة القدّيس توما، فاتُّهم بأنّه غير موضوعيّ. ولمّا تعدّدت مثل هذه الحالات، كتب "إدوار لوروا[1]" سنة ١٩٠٥ مقالاً بعنوان: "ما هي العقيدة؟" أحدث ضجّة كبرى، إذ جاء فيه: "لم يعد للبراهين التقليديّة تأثير على العقول المعتادة التفكير العلميّ والفلسفة المعاصرة، فيجب التمييز بين صياغة العقائد وحقيقتها التي تتخطّى كلّ صياغة، إذ إنّ العقيدة، قبل أن تكون تعبيرًا عقليًا، تحمل معنى أدبيًا ومعنى حياتيًا[2]".

كانت ردّة الفعل الكنسيّة الأولى تجاه تلك المستجدّات الفكريّة والعلميّة: الدفاع. فاتّهمت العلوم التي تهاجم "الوحي الإلهيّ" بأنّها من وحي الشيطان، وقالت بوجوب منع قراءة "الكتب الخبيثة" التي تقع تحت الحرم. وقد حرّمت الرسالة البابويّة "SYLLABUS" سنة ١٨٤٦، بوجه خاصّ، وبطريقة رسميّة، عددًا من هذه النظريّات. وحاولت السلطات الدينيّة كسب تأييد السلطة المدنيّة في هذا الصراع الخطير، فأوقفت محاضرات "رينان*" في "الكوليج دو فرانس" بعد نشر "حياة يسوع". وكتب بعض المدافعين عن الإيمان دفوعًا عن الحقائق الدينيّة بطريقة لم تكن دائمًا عمليّة. وسيحاول

---

١ - إدوار لوروا EDOUARD LE ROY (١٨٧٠ - ١٩٥٤): فيلسوف ورياضيّ باريسيّ، عضو الأكاديميّة الفرنسيّة.

٢ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

المجمع الفاتيكانيّ الأول (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠) الخروج بنوع من التوضيح العقائديّ بخصوص علاقة العقل بالوحي[1]. بيد أنّ كلّ تلك المحاولات لن يكون بوسعها كبت ما سوف يتوالد من نظريّات، ولن يكون بوسع أيّ رادع أن يبقيها في حيّز المحرّمات.

وسط ذلك الجدل الحديث، أعطت الكنيسة الفرنسيّة الأولويّة لاختيار الدعوات الإكليريكيّة والاهتمامات الراعويّة والخلافات السياسيّة، في حين تُرك البحث الفكريّ جانبًا. لكنّ الأب "مينْي[2]" أظهر جهدًا جبّارًا في نشر مكتبة شاملة للإكليروس، ضمّت حوالى ألف كتاب، أهمّها للآباء اليونان واللاتين. كما كان لمدرسة "الكرمليّين" التي أسّسها المونسينيور "أفر" سنة ١٨٤٥ نشاطًا ملحوظًا في هذا المجال. أمّا نقطة انطلاق التجديد اللاهوتيّ في فرنسا فكانت حريّة التعليم العالي التي أُقرّت سنة ١٨٧٥. ولاحظ باحثون أنّه في نهاية القرن التاسع عشر، كان رئيس الجامعة الكاثوليكيّة في باريس، المونسينيور "دولست"، رجلاً منفتحًا. وبرز الأب "لويس دوستان" (١٨٤٣ ـ ١٩٢٢) الذي أجرى دراسات دقيقة في الأصول المسيحيّة. وتابع الأب "ألفرد لوزي" الاختصاصيّ باللغات الشرقيّة، في باريس، الأبحاث الكتابيّة الألمانيّة وتأثّر بها في تعاليمه. أمّا "موريس بلونديل[3]" وكان فيلسوفًا في جامعة الدولة الفرنسيّة، ففي أطروحته "العمل L'ACTION" سنة ١٨٩٣، فكّر في أنّه، للوصول إلى معاصريه، يجب الانطلاق من تحديد للإنسان يقبل به الجميع. وبأنّه انطلاقًا من العمل، يمكن اكتشاف الحقيقة الآتية: "إنّ الإنسان يتوق إلى حقيقة تتخطّاه". هذه هي الطريقة الحضاريّة التي

---

١ ـ الفصل ١٥ من مقرّرات المجمع الفاتيكانيّ.

٢ ـ الأب جاك ـ بول مينْي MIGNE (١٨٠٠ ـ ١٨٧٥): كاهن فرنسيّ وُلد في سان فلور، له مؤلّفات لاهوتيّة في التراث اللاتينيّ واليونانيّ.

٣ ـ موريس بلونديل MAURICE BLONDEL (١٨٦١ ـ ١٩٤٩): فيلسوف فرنسيّ، وُلد في ديجون.

تقول بأنّ الإنسان يشعر بحضور اللّه وجدانيًا، لكنّه سيعجز عن جعل هذا الحضور موضوع علم واضح. وهكذا فقد كان على هؤلاء المفكّرين والباحثين أن يدافعوا عن مواقفهم على جبهتين في الوقت نفسه: جبهة بعض الكاثوليك المحافظين، وجبهة الملحدين.

وفي ألمانيا، لمّا عادت الجامعات إلى التدريس، بعد الأزمة الثوريّة، برز في هذا المجال "يوهان دولنغر"[1]، أمير العلماء الكاثوليك في ألمانيا" وصاحب المؤلّفات التاريخيّة. وقام الإنكليزي "جون هنري نيومن" بنشر كتابه "محاولة في التطوّر" الذي ألقى من خلاله ضوءًا تاريخيًا على صياغة العقائد بطريقة تدريجيّة[2].

في إنكلترا اهتدى إلى الكثلكة "جورج تيريل" TYRELL، فدخل الرهبانيّة اليسوعيّة وأحرز شعبيّة كبرى لدى الطلاّب. وقد كان هدفه خلق فلسفة ماورائيّة وإيمانيّة تتّفق وفلسفة العصر. كان يظنّ أنّه يستلهم "نيومن"، فيقول: "إنّ الكنيسة مُساقة حتمًا إلى التعبير عن عقائدها بتعابير جديدة. والوحي هو عمل إلهيّ به يصل المؤمن إلى اللّه بعلاقة صوفيّة. لا يوجد قبل ذلك أيّ تشخيص أو أيّة معطيات للحقيقة، لكنّ هذه الحقيقة يجب التّعبير عنها. إنّها معرفة نبويّة بتعابير مأخوذة من الثقافة المعاصرة، يفسّرها علم اللاهوت بالنسبة إلى ثقافة كلّ عصر. فالعقائد تعبير عن الإختبار الدينيّ. لها قيمة أدبيّة وهي مفيدة للتقدّم البشريّ. فالوحي ليس شيئًا خارجيًا. ويجب أن يتطوّر التعليم المسيحيّ بالتمييز بين الإيمان الحيّ واللاهوت الميت". ولكنّ هذه المفاهيم سبّبت طرد "تيرال" من الرهبانيّة وحرمته سنة ١٩٠٧.

---

١ - يوهان دولنغر DOLLINGER (١٧٩٩ - ١٨٩٠): لاهوتيّ ألمانيّ، حالف عقيدة العصمة البابارية وأسّس كنيسة "الكاثوليك القدماء"

٢ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٤٨.

أحدثت كلّ تلك المسائل معركة فكريّة واسعة في أوروبّا بين اللاهوتيّين والفلاسفة، فصدرت الكُتب وملأت المقالات صفحات المجلاّت وغزرت المراسلات. وكان "هنري بريمون[1]" الذي ترك الرهبانيّة اليسوعيّة سنة ١٩٠٤ واقترب من "برتران راسل[2]"، من أهمّ "المحدثين" في فرنسا وأوروبّا، وقد اتّهمه "جوزيف ترمل" كاهن مدينة "ران RENNES" ومؤرّخ العقيدة، بإنّه "أراد هدم أسس العقائد الإيمانيّة". وفي إيطاليا، برز الكاهن والفيلسوف والمؤرّخ "إرنستو بونايوتي (ت١٩٤٦) في محاولة جريئة لتكييف المسيحيّة مع العصر، ولإدخال القيم المسيحيّة في حضارة جديدة مسكونيّة. كما شكّل النمساويّ الأصل "فريدريك فون هيغل" (١٨٢٥ ـ ١٩٢٥) القاطن في إنكلترا، عامل تواصل وارتباط بين مفكّري ذلك العصر ممّن ذكرنا، فقد كان عميق التديّن، ولم يفقد معنى الإيمان والكنيسة، وكان يأمل دائمًا في الوصول إلى التوفيق بين الكنيسة والعلم، في حين راح الكثيرون يدافعون عن الحقيقة ويندّدون بالمحدثين واصفينهم بالخطرين.

في غمرة طفرة الحداثة تلك، حُرّمت قراءة كُتب عديدة، وأُوقفت مجلاّت عن الصدور، وأُبعد كهنة عن التعليم ولم يكونوا كلّهم محدثين، بل تقدّميّين، أمثال الآباء "لاغرانج" و"لابرتونيار" و"بورتال" وسواهم. حتّى أنّ البابا بيوس العاشر قد أدان الحداثة في وثيقتين ظهرتا سنة ١٩٠٧: مرسوم "LAMENTABILI" الذي يضمّ خمسًا وستّين قضيّة مُدانة، ثمانون بالمئة منها مأخوذة من كتب "لوازي*" من دون أن يسمّيه، وصفها المرسوم بأنّها "أخطاء حول العلوم الدينيّة وتفسير الكتاب المقدّس وسرّ الإيمان"؛ ثمّ البراءة الرسوليّة "PASCENDI" التي عرضت صورة نموذجيّة عن الحداثة،

١ ـ هنري بريمون HENRY BREMOND (١٨٦٥ ـ ١٩٣٣): كاهن وناقد فرنسيّ، له "التاريخ الأدبيّ للحسّ الدينيّ الفرنسيّ".

٢ ـ برتران راسل BERTRAND RUSSEL (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠): رياضيّ وفيلسوف إنكليزيّ، من بناة المنطق الحديث، عارض بشدّة استعمال الأسلحة الذرّيّة، حائز جائزة نوبل ١٩٥٠.

جمعت حول شخص واحد سمات أشخاص عديدين مختلفين لا علاقة بينهم في غالب الأحيان. واستنتجت تلك البراءة أنّ "الحداثة هي ملتقى كلّ الهرطقات"، وردّت أسباب الحداثة إلى "الجهل والكبرياء والفلسفة المعاصرة"، ثمّ تطرّقت البراءة إلى طرق "محاربة هذه الهرطقة المتعدّدة الوجوه". أمّا إدانة "SILLON" التي صدرت سنة ١٩١٠، فأدانت "الحداثة الإجتماعيّة" التي وجد فيها المسؤولون الروحيّون "تهديدًا للتنظيم الرئاسيّ في الكنيسة، نظرًا إلى تعظيمها للديمقراطيّة". وهكذا بدت الكنيسة كقلعة محاصَرة من كلّ الجهات. لكن لا ننسَ أنّ أزمة الحداثة تلك قد ترافقت مع اشتداد الحرب على الإكليروس، وحصول الفصل بين الكنيسة والدولة[1].

كان من الطبيعيّ أن تعني تلك الادانات للحداثة، دعوة الإكليروس للعودة إلى فلسفة القدّيس توما. وترتّب على الأبرشيّات أن تكون بمثابة ديدبان ساهر على منشورات الكهنة وتعاليمهم، ومخبر يرفع التقارير إلى روما. أمّا الكهنة المشبوهون، فلا يُسند إليهم سوى أعمال غير ذات أهمّيّة. ولم يعد بوسع الإكليريكيّين الذهاب إلى جامعات الدولة، بدون إذن مسبق، إذ إنّ "أكثر المحاضرات خطرًا هي محاضرات التاريخ والفلسفة". رافق ذلك تأسيس "معهد كتابيّ" في روما في سنة ١٩٠٩، وفي السنة التالية أُجبر طالبو الدرجات الكهنوتيّة الكبرى وطالبو الشهادات اللاهوتيّة العليا والذين يولّون بعض الوظائف على "أن يؤدّوا قَسَمًا ضدّ نزعة الحداثة". ولم نعلم بأيّة تدابير قد اتّخذت بحقّ الكهنة القليلين الذين رفضوا تأدية ذلك القَسَم، والذين بلغ عددهم حوالي الأربعين كاهنًا، سوى أنّهم حُرموا من الدرجات الكهنوتيّة الكبرى. ولكنّنا نعلم

---

١ ـ راجع: كمبي، مرجع سابق، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

أنّ "لوازي" قد حُرم سنة ١٩٠٨، على أنّه تابع عمله في "الكولّيج دي فرانس" كشارح للكتاب المقدّس وكمورّخ[1].

كانت قد نشأت في تلك الحقبة، لأسباب متعدّدة وسط الصراعات التي لم يكن بوسع الكنيسة أن تبقى بمنأى عنها، نزعة مسيحيّة أصوليّة مناهضة لتيّارات الإلحاد، فلم يقبل الكاثوليك أن يروا البابا مجرّدًا من دولته، ظنًّا منهم أنّ السلطة الزمنيّة ضمان لاستقلال البابا الروحيّ. فكان الكثير من الكاثوليك يودّون لو تُحدّد عصمة البابا عن الخطأ، وذلك في مواجهة التيّارات الفكريّة المناهضة للإيمان الكاثوليكي. فقد أراد الناس أن يتأكّدوا من أنّ معتقدهم الكاثوليكيّ إنّما هو الصحيح. ما دفع بالبابا بيوس التاسع إلى التأكيد بوجه غير مباشر، على عصمة البابا عن الخطأ، عند إعلانه عقيدة الحبل بلا دنس سنة ١٨٥٤. وقد أدّى تلقيب الأصوليّين الكاثوليك للبابا يومها بأنّه "نائب الله لدى البشريّة"، إلى سخرية التيّارات الفكريّة الليبراليّة بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الفكر المسيحيّ. ما جعل بعض الأساقفة يلحّون على البابا بيوس التاسع ليتّخذ موقفًا من "أضاليل عصره"، فأصدر في الثامن والعشرين من كانون الأوّل (ديسمبر) ١٨٦٤ وثيقتَين، الأولى بعنوان "الرسالة العامّة QUANTA CURA" وقد شجب فيها تجاوزات العقلانيّة والاشتراكيّة والليبراليّة، على غرار ما فعل سابقه غريغوريُس السادس عشر (١٨٣١ ـ ١٨٤٦). وأضاف إلى الرسالة العامّة: "قائمة SYLLABUS" التي ضمّت أربعًا وعشرين قضيّة مشجوبة. ما أوحى بأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة تضمر رفضًا للمجتمع الليبراليّ المعاصر بأسره. أمام هذا الواقع، ابتهج الكاثوليك المتشدّدون، أمّا المعادون لرجال الدين، فقد سخروا، واستولى الدهش على الكاثوليك الليبراليّين.

---

١ ـ كمبي، مرجع سابق، ص٣٥١.

وللخروج من المأزق، حاول الأسقف "دوبنلو DUPANLOUP" أن يضفي على النصوص البابوية معنى مقبولاً، وذلك من خلال وثيقة أكّد فيها على تمسّكه بسلطة البابا الزمنيّة، فسارع البابا إلى إعلانه عن قبول توضيحات دوبنلو، فهدأت المعارضة نسبيًا.

يتطرّق باحثون كنسيّون إلى تلك التحوّلات الاجتماعيّة الدراماتيكيّة بالقول إنّ الكنيسة في فرنسا، كانت قبل سنة ١٧٨٩، تعتبر نفسها مسؤولة عن سائر قطاعات الحياة البشريّة. وبعد تصدّعات الثورة الفرنسيّة، قام عالم جديد خارج أسوار الكنيسة: إنّه مجتمع الصناعة والمدينة، عالم التيّارات الفلسفيّة الحديثة، عالم العلوم الطبيعيّة والتاريخيّة، فراح هذا العالم الغريب عن الكنيسة يحارب تقاليد حافظت عليها الكنيسة منذ عصور. وكان لا بدّ من أن يأتي زمن يرى فيه المسيحيّون ضرورة الأخذ بالحسبان متغيّرات هذا المجتمع الذي يعيشون فيه، وإلاّ عُدّوا غرباء وتعطّلت كلّ إمكانيّة للتبشير بالإنجيل. فبنتيجة ذلك النهج الكنسيّ المحافظ، غالبًا ما رُدّدت في فرنسا عبارة منسوبة إلى البابا بيوس الحادي عشر: "لقد خسرت الكنيسة الطبقة العاملة في القرن التاسع عشر"، وأصبح القول بأنّ الكنيسة تساند الطبقات المالكة مبتذلاً. كما كان على الكنيسة الكاثوليكيّة، في الوقت نفسه، أن تتعايش وسائر الكنائس المسيحيّة التي لم تكن قد اعترفت بها سابقًا. وظلّ المسؤولون الدينيّون، مدّة طويلة، يرفعون الحواجز في وجه تهديدات هذا العالم الخارجيّ. وبدا الوضع وكأنّ البابا أعاد توطيد النظام اللاهوتيّ. وكان الموضوع يهمّ الكهنة بوجه خاصّ، في حين لم يبدُ أنّه طال الشعب المسيحيّ. لكنّ موضوع التقاء الإيمان والحداثة ظلّ مطروحًا. وهو لا يزال مطروحًا اليوم بأشكال جديدة. أمّا آنذاك فقد خلقت الإدانات جوًّا محمومًا، وجاءت النتائج سيّئة، إذ إنّ كثيرًا من الرجال المنفتحين والأمناء للكنيسة مُنعوا من التعبير عن آرائهم وعاشوا معزولين؛ وقوّت الإدانات التيّار المتصلّب وولّدت ما أسموه التطرّف. وفي

تلك الظروف، "كثيرون في روما أتقنوا فنّ الوشاية. لكنّ البابا بندكتس الخامس لم يرضَ عن تلك الأعمال[1]".

المَجمَـــــــعُ الفَاتيكَانِي الأوّل

في أجواء متوتّرة من العلاقات بين الكنيسة والعالم المعاصر، ومن الخلافات الفكريّة القائمة في داخل الكنيسة، وقبل استعار معركة الحداثة، قرّر بيوس التاسع أن يدعو إلى انعقاد المجمع الفاتيكانيّ الأوّل (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠) بهدف "مقاومة المبادئ اللادينيّة التي تسرّبت إلى النفوس في العصر الحديث، وإعادة تنظيم الكنيسة". وبعد أن دار النقاش حول "العلاقة بين العقل والإيمان"، أدان المجمع المبادئ الفلسفيّة العامّة المنافية للدين[2]، وحدّد "وجود إله شخصيّ يستطيع العقل أن يدركه"، مؤكّداً في الوقت نفسه، على "ضرورة الوحي"، وعلى أنّه "لا مجال للنزاع بين العقل والإيمان". واعتبرت دوائر الفاتيكان أنّ ذلك كان بمثابة الردّ "على أضاليل العقلانيّة والحلوليّة والنزعة التقويّة[3]". كما خرج المجمع بتأكيد على رئاسة البابا وعصمته عن الخطأ "في العقائد التي يعلنها بسلطان رسوليّ[4]". و"عندما يعلّم الكنيسة جمعاء بصفة كونه رئيسًا أعلى لها[5]". ولم تكن عصمة البابا من القضايا المدرَجة في

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٣٩، و٣٥١.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣١٢.

٤ ـ كمبي، المرجع السابق.

٥ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

البرنامج[1]، لكنّ الرأي العام أثارها، وقام حولها جدل عنيف في ألمانيا وفرنسا، فطرحها بعض مناصريها على المجتمعين لدرسها وإبداء الرأي فيها، فعارضها فريق من اللاهوتيّين والمؤرّخين، وانضمّ إليهم بطريرك الروم الكاثوليك غريغوريُس يوسف[2] ومعظم البطاركة الشرقيّين، لأنّهم رأوا أنّ تحديدها يوسّع الهوّة بين الكاثوليك والأرثذوكس. ثمّ خضع بطريرك الروم الكاثوليك لقرارات المجمع ووقّعها وزاد هذه العبارة على صكّ التوقيع "مع المحافظة على جميع حقوق البطاركة وامتيازاتهم[3]".

تعزّزت سلطة البابا الروحيّة بشكل واضح من خلال مقرّرات المجمع الفاتيكاني الأول. غير أنّ أعمال ذلك المجمع لم تكتمل بسبب الأحداث، ففي اليوم التالي لصدور الدستور Pastor Aeternus الذي أعلن عصمة البابا بشكل غير مباشر، أُعلنت الحرب بين فرنسا وألمانيا في التاسع عشر ١٩ من تمّوز (يوليو) ١٨٧٠. فسحب نابوليون الثالث من روما الجيوش التي كانت تحمي البابا. وفي ٢٠ أيلول (سبتمبر) احتلّت الجيوش الإيطاليّة روما، فأصبحت عاصمة مملكة ايطاليا، ما حتّم تعليق أعمال المجمع

١ - انعقد المجمع بتاريخ ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٦٩، وكانت الأهداف المقترحة غامضة وعامّة، لكنّ الجميع كانوا يعتقدون بأنّ الموضوع الأساسيّ هو تحديد عصمة البابا عن الخطأ ومن أصل ألف أسقف يشغلون مناصبهم، شارك في المجمع أكثر من ٧٠٠، فكان العالم كلّه ممثّلاً، لكن بأساقفة أوروبيّين فقط، وكانت اللجان قد أعدّت عددًا كبيرًا من الملفّات في جملة مواضيع، لكنّ الظروف السياسيّة والعسكريّة قصّرت أعمال المجمع على محالين. فقد تمّ التصويت على الدستور المسمّى "ابن الله Dei Filius" بتاريخ ٢٤ نيسان (إبريل) ١٨٧٠ الذي حدّد وجود إله شخصيّ يستطيع العقل أن يدركه، مؤكّدًا في الوقت نفسه، على ضرورة الوحي؛ أمّا عصمة البابا عن الخطأ فلم ترد رسميًا في جدول الأعمال، لكنّ أكثريّة الأساقفة طلبوا أن تُدرج في النقاش، في حين أنّ الأقلّيّة عارضت ذلك، معتبرة الأمر غير ملائم. وكان بين المعارضين أساقفة ألمان وفرنسيّون، منهم المطران دوبنلو، فغادروا قاعة المجمع لئلاّ "يشكّكوا الكاثوليك"، فصوّت الآباء على الدستور Pastor Aeternus بتاريخ ١٨ تمّوز (يوليو) ١٨٧٠ وسط هتاف وحلبة، وهي الوثيقة التي في جوهرها تأكيد على رئاسة البابا وعصمته عن الخطأ في العقائد التي يعلنها بسلطان رسوليّ

٢ - غريغوريوس يوسف الأول سيّور بطريرك الكنيسة الملكيّة الكاثوليكيّة (١٨٦٤ - ١٨٩٧)، راجع: الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة

٣ - يتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠؛ راجع: الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة.

من قِبَل البابا إلى أجل غير مسمّى. ويجمع المؤرّخون المعتنون بهذا الحدث على أنّ الترحيب بقرارات المجمع الفاتيكانيّ الأوّل كان عامًا، ولم يرفضها إلاّ بعض الجامعيّين الألمان. ولكنّ ذلك المجمع أوجد، في الوقت نفسه، حالةً من عدم التوازن، بسبب اقتصار مقرّراته على الأمور المتعلّقة بسلطة البابا دون الأساقفة، أمّا السبب في ذلك فكان ضيق الوقت الذي يعتبر البعض أنّه "قد جاء في وقته تدبيرًا من العناية الإلهيّة"، مبرّرين ذلك بأنّ "النتائج المترتّبة على إعلان العصمة كانت، في نهايّة الأمر، أقلّ من النتائج المترتّبة على رئاسة البابا. ذلك أنّ البابا لم يستخدم "عصمته" إلاّ حين أعلن "عقيدة انتقال العذراء" سنة ١٩٥٠. وبالمقابل، فإنّ المجمع بتأكيده رئاسة البابا، اعترف له "بولاية عاديّة مباشرة أسقفيّة على الكنيسة بأسرها". فالرئاسة عزّزت المركزيّة الرومانيّة ورفعت من شأن المقام البابويّ وقدرته في الوقت الذي كان فاقدًا فيه سلطته الزمنيّة. فكان لا بدّ من التوفيق بين هذه الرئاسة وسلطة الأساقفة. على أنّ تأكيد هذه الجماعيّة سيتمّ في المجمع الفاتيكانيّ الثاني.

بَابَـا العُمَّـال

والتحوّلات الجَديدَة

وهكذا فعندما توفّي البابا بيوس التاسع سنة ١٨٧٨، وهو الذي ظلّ بابا الكنيسة الكاثوليكيّة زمنًا يقرب من اثنتين وثلاثين سنة، ولعلّ ولايته كانت أطول ولاية بابويّة مرّت على تاريخ الكنيسة، كانت الكنيسة الرومانيّة قد اتّخذت طابعًا نهضويًا بدأ يشقّ الطريق إلى تجديد عميق في بنيانها، لكنّها، في الوقت نفسه، بدت غير منسجمة مع نزعات الشعوب إلى الحريّة والديمقراطيّة وحقوق العمّال. بينما كان قد برز شعور لدى بعض الكاثوليك العلمانيّين بضرورة النهوض بالمؤسّسات الإجتماعيّة والخيريّة، فكان، على سبيل المثال، إنشاء "الجمعيّة الخيريّة للمؤتمرات" سنة ١٨٧٥، وهي التي

أسهمت، بنوع خاصّ، بجهد رائع في نشر الفكر الدينيّ وتعميقه لتنشأ أجيال مسيحيّة على الإيمان القويّ. وهكذا بدا أنّه كان على البابا الجديد: لاون الثالث عشر (١٨٧٨ ـ ١٩٠٣)، خاتمة باباوات القرن التاسع عشر، أن يعير جلّ اهتماماته لقضايا عصره، فقام بجهود كبيرة لتلبية متطلّبات الأوضاع الجديدة، وبنشاط واسع إيجابيّ لمجابهتها، وحثّ الكاثوليك على عدم التمسّك بالأنظمة السياسيّة البائدة. ونشر رسالته العامّة الشهيرة "الأوضاع الجديدة" أو "الشؤون الحديثة" RERUM NOVARUM سنة ١٨٩١ الهادفة إلى حلّ المشاكل الإجتماعيّة الناجمة عن التطوّر الصناعيّ، ولمساندة حقوق العمّال والحقوق الإجتماعيّة للناس، والتي ترسم خطوط العمل الكاثوليكيّ في مجال الرسالة المسيحيّة خلال هذه الحقبة، فلُقّب بـ"بابا العمّال[1]". ودعت الرسالة المسيحيّين إلى التعمّق في العلوم الكنسيّة واتّباع الأساليب العلميّة في البحث والتنقيب، كما حثّت الناس على احترام قوانين الزواج وعلى التقوى[2]. إلاّ أنّ القوانين الفرنسيّة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ قد أحدثت تحوّلاً تامًّا في نظام التعليم بمراحله كلّها، وطُرد الرهبان اليسوعيّون والدومينيكان والفرنسيسكان. وسادت روح مناهج التعليم العلمانيّة وكأنّها خطوة لهيمنة العلمانيّة على كلّ شؤون الدولة، ثمّ بدأت مرحلة أخرى حين أُعلنت حرّية الطلاق، وفُرضت الخدمة العسكريّة على جميع الطلبة المعدّين للكهنوت أو الرهبنة. كما مُنعت الصلاة التي اعتاد البرلمان الفرنسيّ أداءها عند بداية الجلسات، ونُفّذت هذه القوانين بعنف وشراسة فاقتُحمت الأديرة ولم تراعَ حرمتها، ونُزعت الصلبان، فكانت صدمة

١ ـ إثر صدور رسالة البابا الاجتماعيّة "الأوضاع الجديدة" سنة ١٨٩١، ملأت الآفاق روح الحماسة الرسوليّة فانبرى الكثيرون يتبرّعون بإصدار الصحف المسيحيّة، وتأسيس الأنشطة الاجتماعيّة التي تدعو إلى "ديمقراطيّة مسيحيّة"، وتبارى الكثيرون في الدعوة إلى قيام حرب ديمقراطيّ مسيحيّ، ومنهم كهنة ومعلّمون وصحافيّون وبعض النوّاب البرلمانيّين. لكنّ هذا الاندفاع أثار قلق بعض الأساقفة الذين تخوّفوا من أن يسري تيّار العلمنة بين صفاف رجال الإكليروس.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٤.

عنيفة للكاثوليك الذين اضطرّوا إلى اتّخاذ الوسائل الممكنة لتنشئة أولادهم على الإيمان. فقامت سنة ١٨٨٢ مجموعات من المتطوّعين لتدريس الدين، وناشد الأساقفة الكهنة والعائلات تحمّل تبعات تربية الأجيال على إيمانهم المسيحيّ، وحسَم الكاثوليك الأمر حين تصدّوا لكلّ الكتب المدرسيّة التي لا تحترم القيم المسيحيّة، وأسّسوا المدارس الكاثوليكيّة الحرّة، وتعمّدوا أن يقيموا مؤسّسات توازي ما تقيمه الحكومة من منشآت غير دينيّة، فظهرت بوضوح ازدواجيّة الحياة في فرنسا. غير أنّ البابا لاون الثالث عشر، الذي أخذ قلقه يتصاعد منذ بدء حبريّته في شأن تصاعد الاشتراكيّة والفوضى، ناشد الكاثوليك، حفاظًا على وحدة الوطن وحرصًا على مصالح الكنيسة الروحيّة، أن يقيموا جسور تضامن وتعاون مع الدولة، وأن يتقبّلوا بروح نبيلة ومعارضة شريفة كلّ تشريع يصدر مخالفًا للإيمان المسيحيّ. لكنّ الكاثوليك ظلّوا على موقفهم المتحفّظ إزاء التعاون مع "الجمهوريّين". بيد أنّ البابا لاون الثالث عشر لم يهمل حثّ الكاثوليك على اتّباع الأساليب العلميّة في البحث والتنقيب، كما حثّ الناس على احترام قوانين الزواج وعلى حياة التقوى[1]. ولكن عندما قامت إضرابات دامية ومحاولات اغتيالات فوضويّة سنة ١٨٩٠، أصبح العالم العمّاليّ في خطر التحوّل التامّ إلى الاشتراكيّة، وقد لاقت محاولات الكاثوليك الإجتماعيّين معارضة الكاثوليك المتمسّكين بالحريّة الاقتصاديّة والمناوئين لكلّ تنظيم عمّاليّ. حتّى أنّ الكاثوليك الإجتماعيّين أنفسهم لم يكونوا على اتّفاق في ما بينهم. فكان بعضهم يتمنّى تدخّل البابا ومساندته لهم للخروج بفكر وعمل مشتركين. فجاءت رسالة البابا بعنوان "الشؤون الحديثة"، في الوقت ذاته، ثمرة كلّ هذه الاتّجاهات الاجتماعيّة ونتيجة ظروف ١٨٩٠. فقد رأت الرسالة، وإن متأخّرة، أنّ "المجتمع قد تغيّر وأنّ تكديس الثروات يؤدّي إلى بؤس لا يستحقّه العمّال"، وأنّ

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣١٤، ٣١٨ ـ ٣١٩.

"الإشتراكيّة دواء مزيّف لأنّه يفرض إلغاء المُلكيّة الفرديّة التي أرادها اللّه... أمّا الدواء الصحيح فهو في اتّباع المبادئ المسيحيّة التي تعلّمها الكنيسة: فعدم المساواة هي إحدى شرائع الطبيعة، واتّحاد الجميع ضروريّ، وصراع الطبقات غير مقبول، إذ لا رأسمال من دون عمل، ولا عمل من دون رأسمال ... وتدخُّل الدولة واجب لأجل توزيع لائق للخيرات ولساعات العمل ولفرض الراحة الأسبوعيّة والأجر العائليّ... والحريّة الاقتصاديّة المطلقة مرفوضة". وأخيرًا فـ"إنّ الجمعيّات المهنيّة ضروريّة ومفيدة". وأبدت الرسالة تفضيل الكرسيّ الرسوليّ قيام "الإتّحادات الحِرَفيّة" بين أصحاب العمل والعمّال، من دون رفضه قيام النقابات العمّاليّة. ولم يتطلّع البابا إلى الماضي، وطلب إلى الكاثوليك أن ينظروا إلى العالم حيث يعيشون، وأن يعيشوا في إطار المؤسّسات الراهنة، أي الأنظمة السياسيّة والنقابات.

وإذا كانت رسالة البابا لاون الثالث عشر لم تكن لتلاقي الترحيب الحارّ في عالم العمّال والاشتراكيّين، ولم تُعرف أهمّيّتها العميقة إلاّ داخل الكنيسة، فهي قد حرّرت الكاثوليك الإجتماعيّين، وأعطتهم حماسًا جديدًا، إذ شعروا أنّ البابا يؤيّدهم. وفي فرنسا ارتبطت نتائج الرسالة بالرسالة حول "جمع الشمل" التي أصدرها البابا بعنوان "وسط الاهتمامات" سنة ١٨٩٢. فكانت الرسالتان سبب انطلاقة لمحاولات اجتماعيّة جديدة. وكان من ثمار الرسالتَين تأسيس جمعيّة "الأخدود LE SILLON" على يد "مارك سانييه[1]" سنة ١٨٩٤؛ وتأسيس "الوقائع الإجتماعيّة" لمدينة ليون سنة ١٨٩٢ على يد "ماريوس غونان GONIN" وهو موظّف صغير، كان شارك في الحركة الديمقراطيّة المسيحيّة، وجاءت حركته لتبتعد عن السياسة ولينصبّ اهتمامها على المشاكل الإجتماعيّة،

---

١ ـ مارك سانييه MARC SANGNIER (١٨٧٣ ـ ١٩٥٠): صحافيّ وسياسيّ فرنسيّ باريسيّ، نادى بالديمقراطيّة المسيحيّة.

كالنقابات والتعاونيّات. لكنّ النزعة "الأبويّة" ظلّت قائمة وسط المجتمعات العاملة. وقاوم "التجمّع الكاثوليكيّ لأصحاب العمل" في شماليّ فرنسا قيام نقابات عمّاليّة مسيحيّة، ورفض مبدأ تدخّل الدولة، وواصل تأسيس أخويّات للعذراء في المصانع صارت هدفًا لهجمات الاشتراكيّين. ومنذ سنة ١٨٨٧، كانت قد قامت نقابات مسيحيّة منفردة تجمّع الموظّفين بوجه خاصّ. وسوف يفسح تقدّمها في المجال، سنة ١٩١٩، أمام تأسيس "الإتّحاد الفرنسيّ للنقابات المسيحيّة". وكان "الأسبوع الاجتماعيّ" الذي نُظّم سنة ١٩٠٤، الأوّل في سلسلة طويلة من تلك "الأسابيع" التي ستنتظّم كلّ سنة في أماكن مختلفة، وكأنّها "جامعة متنقّلة" راحت تدرس المشاكل الإجتماعيّة على ضوء الإنجيل وتعاليم الكرسيّ الرسوليّ. ولكنّ الزمن لم يطل حتّى قامت الخلافات بين الكاثوليك الاجتماعيّين والسلطة الكنسيّة التي لم يكن بعض قادتها قد تصوّر بعد إمكانيّة استقلال العلمانيّين عن الإكليروس في الأمور الاجتماعيّة التي تمسّ السياسة. ويبدو، بحسب باحثين متعمّقين[1]، أنّ البابا بيوس العاشر الذي خلف لاون الثالث عشر (١٩٠٣ ـ ١٩١٤) والأساقفة قد تخوّفوا من التعاون مع غير الكاثوليك، مثل "النقابات المشتركة" في ألمانيا، وأرادوا مراقبة توجيهات الحركات الديمقراطيّة والإجتماعيّة، إذ كان ما زال يراودهم الحلم بمسيحيّة كبرى. فانصاع بعضهم أمثال ماريوس غونان* ومارك سانييه*، في حين انشقّ "مورّي"[2] في إيطاليا عن الكنيسة سنة ١٩٠٩.

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٤٦.

٢ ـ رومولّو مورّي ROMOLO MURRI (١٨٧٠ ـ ١٩٤٤): كاهن إيطاليّ تلميذ روما سيم ١٨٩٢، رفض الوظائف العالية في الفاتيكان وفضّل العمل الاجتماعيّ في أوساط الجامعيّين الشبّان، من مؤسّسي "الديمقراطيّ المسيحيّ" في إيطاليا، أسّس مجلّة "الثقافة الاجتماعيّة CULTURA SOCIALE" وأصدرها ١٨٩٨ ـ ١٩٠٦، دخل في نزاع ضد القادة التقليديّين للحركة الكاثوليكيّة، أسّس "الجمعيّة الديمقراطيّة الوطنيّة" ١٩٠٥، أعلن معارضته لقرارات توجيهات الحركات الديمقراطيّة والإجتماعيّة من قبل روما ١٩٠٧ وأعلن انفصاله رسميًا عن الكنيسة ١٩٠٩ حين انتُخب نائبًا، هُزم في دورة ١٩١٢ فتزوّج وانصرف للصحافة، توفّي كاثوليكيًا مؤمنًا متصالحًا مع الكنيسة

وقد ظهرت في تلك الحقبة الصاخبة من الصراع في فرنسا بين تيّارَي العلمنة ومناهضيها، حركة متطرّفة عُرفت باسم "العمل الفرنسيّ ACTION FRANÇAISE" وذلك سنة ١٨٩٨، وهي الحركة التي أسّسها "شارل موراس[١]" الذي لم يكن يمتّ بصلة إلى الإيمان المسيحيّ، ولكنّه كان منبهرًا بالنظام الكنسيّ، فسعى إلى ضمّ الكثيرين من رجال الكنيسة إلى حركته بدعوى العمل على تقويض النظام الجمهوريّ والعودة إلى النظام الملكيّ. فكسب عطف الكثيرين الذين وجدوا في الحركة حلفًا قويًّا ضدّ نظام اضطّهدهم، واتّسع نشاط الحركة، وضمّت كرادلة وأساقفة وطلبة إكليريكيّين. ولكنّ هذه الحركة سوف تثير الشك عند البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩) وسوف يحرّمها كما سيأتي لاحقًا. على أنّه يبدو من خلال هذه الظاهرة أنّ طوابير خامسة قد تسلّلت إلى مسرح الأحداث في فرنسا قبل نهاية القرن التاسع عشر، عاملة على تحقيق أهداف مشبوهة ليست لصالح أيّ من الطرفَين المتصارعَين.

من جهة أخرى، فإنّ إعلان قيام الأمبراطوريّة الألمانيّة سنة ١٨٧١، كان قد أدّى إلى التفاف الشعب الألمانيّ حول بروسيا وحول عاهلها الأمبراطور فيلهلم الأوّل[٢]، وبدأ القلق يساور الكاثوليك في ألمانيا، إذ كيف ستسير الأمور وهم أقليّة في خضمّ أغلبيّة بروتستانتيّة يقودها سياسيّ داهية هو بسمارك[٣]. أمام هذا الواقع الجديد، نظّم الكاثوليك صفوفهم وأسّسوا حزبًا سياسيًّا أطلقوا عليه اسم "حزب الوسط" كردّ فعل على إنشاء "الحزب الوطنيّ الحرّ"، وأعلنوا برنامجًا اجتماعيًّا تقدّميًّا، أغضب بسمارك،

---

١ ـ شارل موراس CHARLES MAURRAS (١٨٦٨ ـ ١٩٥٢): كاتب فرنسيّ، سوف يُدان رسميًّا ١٩٤٥ بتهمة التعاون مع العدوّ.

٢ ـ فيلهلم أو وليم الأوّل WILHEGM (١٧٩٧ ـ ١٨٨٨): من آل هوهنزولرن، ملك بروسيا ١٨٦١، ثمّ أمبراطور ألمانيا ١٨٧١.

٣ ـ أوتو فورست فون بسمارك BISMARCK (١٨١٥ ـ ١٨٩٨): من مشاهير السياسيّين الألمان، أحد أبرز الذين حقّقوا الوحدة الألمانيّة وجعلوا ألمانيا في مقدّمة الدول الاستعماريّة في القرن التاسع عشر.

خاصّة وأنّ الكاثوليك كانوا متحفّظين إزاء الوحدة الألمانيّة ومتعاطفين مع حكومة النمسا. أضف إلى ذلك ما أثاره إعلان عصمة البابا من استياء لدى الغالبيّة البروتستانتيّة في البلاد. وإلى أنّ الكثلكة في ألمانيا، بقيت ضاربة جذورها في المحيط العمّاليّ، على عكس ما كان الوضع عليه في فرنسا. كلّ ذلك أدّى إلى مناهضة الأنشطة الكاثوليكيّة رسميًّا، فطُرد بعض الرهبان وأُجبر طلبة المعاهد الإكليريكيّة على مواصلة الدروس داخل ألمانيا، كما طورد الذين انتقدوا الحكومة وسُجن بعضهم وحُكم على بعضهم الآخر بغرامات ماليّة ثقيلة. فكان من الطبيعيّ، في هذا المناخ، أن يتناقص عدد رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكيّة الألمانيّة. وقد أطلق الألمانيّ "أدالبرت فالك[1]" على هذه المرحلة من التاريخ اسم "الصراع الثقافيّ KULTUR KAMPF". ولكنّ هذا الوضع في ألمانيا بدأ في التحوّل مع انتخاب البابا لاون الثالث عشر، إذ رأى بسمارك في التيّار الاشتراكيّ الوافد من روسيا خطرًا يفوق خطر الكثلكة، ومن ثمّ بدأ يخفّف من قبضته على حريّة الكنيسة الكاثوليكيّة، وإن كان قد تمسّك بحرمان اليسوعيّين من نشاطهم وبسيادة القانون المدنيّ في عقود الزواج[2].

في الوقت نفسه كان تيّار العلمنة قد سرى في مجمل أنحاء أوروبّا، وامتدّ "الصراع الثقافيّ" إلى النمسا وسويسرا حيث أقرّت الدولتان علمنة المدارس وتثبيت القانون المدنيّ في عقود الزواج وإلغاء الأديرة ومصادرة حقوقها. وتركّز الصراع في بلجيكا وهولّندا حول المدارس. وبينما نجح الكاثوليك ببلجيكا في الحصول على تشريعات مُرضية، أكّدت هولندا الرسميّة على روح العلمنة في المدارس ومنعت أيّ

---

١ ـ أدالبرت فالك ADALBERT FALK (١٨٢٧ ـ ١٩٠٠): سياسيّ ورجل دولة، وزير الشؤون الكنسيّة، مساعد بسمارك، واضع القانون المناهض للكاثوليك في ألمانيا.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣١٧.

نفوذ دينيّ على المعاهد والشؤون التربويّة. وامتدّ الصراع إلى شبه جزيرة إيبيريا (إسبانيا والبرتغال) وظلّ محتدمًا لا يستقرّ على حال. وكانت الكنيسة الكاثوليكيّة تنجح حينًا في السيطرة على الأمور الخاصّة بالمدارس والتعليم، وتفشل حينًا آخر. وقام بعض الثوّار الذين يحاربون الكنيسة بتدمير الأديرة وقتل الرهبان والكهنة حتّى تمّ فصل الكنيسة عن الدولة. أمّا في إنكلترا فقد اختلفت الأوضاع، إذ شهد منتصف القرن التاسع عشر نهضة حقيقيّة في حياة الكنيسة الكاثوليكيّة. وأشاد البابا لاون الثالث عشر بفكر "نيومن[١]" ومنحه رتبة الكاردينالية سنة ١٨٧٩. أمّا في إيرلندا فقد ظلّت الكنيسة تعاني الفقر وهجرة أبنائها إلى البلدان الغربيّة المجاورة. ولكنّها حملت روح الجهاد متضامنة مع شعبها في السعي للحصول على الحريّة والاستقلال.

الانتِشارُ الجَديـد

إذا كانت المسيحيّة قد ولدت في الشرق، وامتدّت بسرعة غريبة، رغم الاضطهادات المقتدرة، إلى الغرب، حيث شيّدت لها قلعة حصينة لم تقوَ عليها تقلّبات العصور، فهي على مدى ثمانية عشر قرنًا من مولدها، قد شهدت ما يشبه الردّة، إذ كان عليها أن تعود لتتّجه بأنظارها إلى أرض المنبت: الشرق، كما كان عليها أن تكمل أمميّتها على مساحة الكوكب في كافّة أطرافه. وقد شهد القرن التاسع عشر نشاطًا ملحوظًا في هذا المجال.

---

١ ـ الكاردينال جون هنري نيومن JHON HENRY NEWMEN (١٨٠١ ـ ١٨٩٠): كاردينال ولاهوتيّ إنكليزيّ، وُلد في لندن، وضع دفاعًا عن الدين المسيحيّ الكاثوليكيّ نشره في كتابه L'APOLOGIA PRO VITA SUA.

في بدايات ذلك القرن، كانت المعاهدة الخاصّة بالملاحة الدوليّة (١٨١٤ - ١٨١٥) قد حدّدت حريّة الملاحة وحركتها، وبرزت إنكلترا وفرنسا كقطبَين يتحكّمان في الطرق الملاحيّة الدوليّة، وقد ورثت هاتان الدولتان، الأمبراطوريّتَين الإسبانيّة والبرتغاليّة، بعد أن تقلّص نفوذهما وحصلت بلدان المستعمرات على الاستقلال، وظهرت إنكلترا حامية للكنيسة البروتستانتيّة وإرساليّاتها، وفرنسا حامية للكنيسة الكاثوليكيّة. ترافق ذلك مع ما اتّخذه العمل الإنجيليّ والتبشريّ من أبعاد جديدة، إذ صدرت مؤلّفات تشجّع على التضحية في سبيل هدف نبيل وهو تبشير الشعوب بنور الإنجيل، كما رغب كثيرون في بناء الكنائس في المناطق البعيدة، وكأنّها محاولة لإقامة مسيحيّة متحرّرة من قيود مسيحيّة الغرب وتقاليدها. في البلدان الأوروبيّة، اهتزّ ضمير المسيحيّين إبّان القرن التاسع عشر، وشعر بواجب نشر الإيمان والحضارة في بقاع الأرض، ولعلّ سمة التضحية حتّى الاستشهاد والعطاء في سخاء، من السمات التي تلفت نظر الباحثين في مسيرة التاريخ خلال تلك الحقبة التي لم يكن فيها مفهوم الكرازة واضحًا وفق منهج محدّد، إلاّ أنّ الوجدان المسيحيّ امتلأ حماسة ورغبة في البذل لخدمة البلدان الفقيرة. ولا يُنكر جهد الجماعات البروتستانتيّة وبخاصّة الجماعة المعمدانيّة التي كانت قد برزت منذ سنة ١٧٩٢، ثمّ تبعتها جماعات أخرى سعت إلى نشر الإيمان والحضارة[١].

كانت ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغات المحليّة نقطة انطلاق الكرازة المسيحيّة. لم يكن الأمر سهلاً ميسّرًا، كما قد يُظنّ، بل قامت الخلافات والمشادّات بين مختلف الكنائس والجماعات. لكنّ الأمر الذي لا شكّ فيه هو أنّ التنافس بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة البروتستانتيّة جاء لصالح الشعوب إذ تبارت الكنيستان في الخدمة والتضحية. وتبلورت الإرساليّات في الكنيسة الكاثوليكيّة حتّى أُسّست "جمعيّة نشر الإيمان" سنة

---

١ - راجع الجزء السادس عشر من هذه الموسوعة.

١٨٨٢ كمؤسّسة تضمّ كافّة الاهتمامات وترعى الدراسات الخاصّة لنشر الإيمان المسيحيّ. بدأ المرسَلون نشاطهم في أغلب الأحيان، بوسائل فرديّة أو بمبادرات شخصيّة، وكان منهم كهنة ورهبان، يرحلون إلى البلدان البعيدة تحت رعاية أسقف، وتلا هذه الخطوة مبادرة الجماعات الرهبانيّة الكبرى التي أرسلت من قبلها جماعات منظّمة، وكان أبرزها "رهبانيّة الآباء اللعازاريّين" و"جمعيّة الروح القدس" و"الآباء اليسوعيّين" و"الفرنسيسكان" و"الدومينيكان" من مختلف جنسيّات الدول الأوروبيّة. وقد أعارت روما اهتمامًا خاصًّا بتلك الإرساليّات، إذ أعلن البابا غريغوريُس السادس عشر* سنة ١٨٣٩ رفضه القاطع لكلّ ألوان الاستعباد، وفي سنة ١٨٤٥، أصدر وثيقة بعنوان: "لا أحد بكلّ تأكيد NEMINEM PROFECTO" طالب فيها بإقامة كنائس محليّة مستقلّة ترتكز حياتها على أبنائها الوطنيّين من أهل البلاد، ليتحمّلوا مسؤوليّة الرسالة في وطنهم. ممّا جاء في تلك الوثيقة:

> ... على رؤساء الإرساليّات أن يبذلوا وسع جهدهم ليصل المسيحيّون من أبناء الوطن إلى خدمة الكهنوت. إنّه أمر في غاية الأهميّة. وينبغي أن تفتح المعاهد الإكليريكيّة أبوابها ليجد فيها الشباب المدعوّ إلى الخدمة الكهنوتيّة مجالاً للتكوين ودرس العلوم الدينيّة، حتّى يمكن ترقيتهم إلى الأسقفيّة. إنّنا نرفض ما جرت عليه العادة في أن يتّخذ الأسقف من الإكليروس المحليّ مجرّد معاونيه. ذلك وضع ينبغي أن يُلغى لأنّ خَدَمة الإنجيل متساوون كلّهم، سواء كانوا من الأوروبيّين أم من أهل البلاد[1]...

تمّ افتتاح الممرّ البحريّ، قناة السويس، سنة ١٨٦٩. وكانت له نتائج خطيرة على كلّ وسائل الملاحة الدوليّة، وعلى العلاقات الاقتصاديّة والسياسيّة بين الدول. ولعلّ من أهمّ هذه النتائج بعث روح المغامرة عند الشعوب الأوروبيّة لاكتشاف العالم من حولهم،

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

فكثر المغامرون واندفع سيل من المهاجرين الذين يبحثون عن أرض جديدة وعن الثروات. وكان البابا لاون الثالث عشر، رغم انشغاله بالقضاية الساخنة التي اجتاحت أوروبّا، قد أظهر تفهّمًا لأوضاع الشرقيّين، فاستدعى البطاركة إلى روما واستمع إلى مطالبهم، وأصدر رسالته "مقام الشرقيّين" سنة ١٨٩٤ التي تقضي باحترام الطقوس الشرقيّة وتحدّد واجبات المرسَلين الكاثوليك في الشرق، حيث برزت إلى الوجود، في مطلع القرن التاسع عشر، النهضة الفكريّة العربيّة، وأخذت تنمو وتزدهر، وقد ساعدها على النموّ والازدهار، الاستقلال الداخليّ في لبنان، والحريّة الواسعة في مصر، أيّام محمّد علي وخلفائه الخديويّين. وهبّت النهضة القوميّة العربيّة تطالب، في بادئ الأمر، بحقوق العرب داخل السلطنة العثمانيّة، ثمّ أخذت تسعى في الانفصال عن الدولة العثمانيّة واستقلال البلاد. وكان للمسيحيّين حظّ كبير في بعث النهضتَين الفكريّة والقوميّة، ولم يعودوا يُعتبرون "أهل الذمّة والجيرة"، بل أضحوا مواطنين يتمتّعون بملء الحقوق كمواطنيهم المسلمين.

وفي أفريقيا، كانت أعمال التبشير قد سبقت حركة الاستعمار الغربيّ، وقد عُرفت أفريقيا بأنّها مقبرة المرسَلين، إذ راح كثيرون ضحيّة الأمراض المستوطنة فيها وبخاصّة الحمّى الصفراء. لكنّ ذلك لم يمنع تدفّق المبشّرين منذ تطلّع إليها المرسَلون سنة ١٨١٩. وقد أدّى الصراع، بين المرسَلين الكاثوليك من جهة، والمرسَلين البروتستانت من جهة أخرى، وبخاصّة في جزيرة مدغشقر[1] إلى بعض النتائج السلبيّة. وكان المرسَلون البروتستانت قد وصلوا إلى الجزيرة سنة ١٨٢٠، وبعدهم وصل

---

١ - مدغشقر MADAGASCAR: جزيرة في المحيط الهنديّ جنوب شرقيّ أفريقيا، سكّانها نحو ١٤ مليون نسمة، يسمّون "مالاغاش" وهم خليط من أصل زنجيّ وملايي وربّما بولينيزيّ، لغتهم من أصل ملاويّ، يدين بعضهم بالمسيحيّة وبعضهم بـ"حيويّة المادّة" وأقليّة بالإسلام، كانت جمهوريّة ضمن الأسرة الفرنسيّة منذ ١٩٥٨، استقلّت ١٩٦٠، عاصمتها تاناناريف أو أنتاناناريفو.

اليسوعيّون، وقد تعرّض البروتستانت هناك لأعمال اضطهاد في البداية، غير أنّ الأوضاع تغيّرت إيجابًا في وقت لاحق. بينما استمرّت البعثات الكاثوليكيّة تتسرّب إلى "السنغال"، حيث قامت جمعيّات رهبانيّة بنشر الكلمة، كـ"جمعيّة القدّيس يوسف" سنة ١٨٢٩، و"جمعيّة الروح القدس"، ومؤسّسها "ليبرمان[١]"، و"جمعيّة مريم"، ومؤسّسها "مازينود" سنة ١٨٥٠، و"جمعيّة الإرساليّات الأفريقيّة"، ومؤسّسها "موريون بريزيلاك" في مدينة ليون سنة ١٨٥٦، كما أُقيم مركز للرسالة في الغينيّتَين[٢] سنة ١٨٤٢، كنيابة رسوليّة، ولم يستطع المبشّرون التوغّل كثيرًا في أعماق غابات أفريقيا. وكان عار تجارة الرقيق لا يزال يلطّخ العلاقات بين أوروبّا وأميركا من جهة، وبين المستعمرات الأفريقيّة من جهة أخرى، كما قام التجّار العرب بدور في تسيير مهمّة هذه التجارة البشعة، بالرغم من تحريمها من قِبَل دول كثيرة. وقد برز في تلك الحقبة اسم الكاردينال "لافيجيري[٣]" مقترنًا بالجهاد في سبيل إلغاء تجارة الرقيق. وقد اعتقد لافيجيري، صاحب الإسم الخالد في تاريخ تبشير أفريقيا، أنّ الجزائر هي نقطة الانطلاق إلى القارّة السوداء. ومنذ سنة ١٨٦٧، حيث عُيّن رئيسًا لأساقفة الجزائر، بدأ نشاطًا في همّة لا تكلّ، وأسّس "جمعيّة الآباء البيض" سنة ١٨٦٨، و"جمعيّة الإخوة والأخوات المزارعين" سنة ١٨٦٩، و"جماعة الإخوة لمرافقة وحماية المرسَلين" سنة

---

١ - **فرنسيس ليبرمان** FRANCIS LIBERMANN (١٨٠٢ - ١٨٥٢): كاهن فرنسيّ، ابن حاخام يهوديّ، دخل المسيحيّة الكاثوليكيّة وأسّس جمعيّة الروح القدس، من روّاد الإرساليّات المسيحيّة إلى أفريقيا.

٢ - **الغينيّتان**: غينية الإسبانيّة وهي اليوم بلاد مستقلّة تتألف من ولايتَين: الأولى تضمّ جزرًا مختلفة منها "فرناندو بو" و"أنوبون"، والثانية هي "ريو موني" بين "الكامرون" و"الغابون"؛ وغينيا البرتغاليّة، وهي ولاية برتغاليّة في أفريقيا الغربيّة جنوبي السنغال، عاصمتها "بيساو".

٣ - **الكاردينال لافيجيري** CHARLES LAVIGERIE (١٨٢٥ - ١٨٩٢): كاردينال فرنسيّ، أسّس جمعيّتَي "مدارس الشرق" و"الآباء البيض"، رئيس أساقفة أفريقيا، نادى بالانضمام إلى "الجمهوريّة" ١٨٩٠.

١٨٧٩. في تلك الحقبة، وُقّعت معاهدة برلين سنة ١٨٧٨،[١] التي عدّلت معاهدة سان ستيفانو[٢] المعقودة في السنة نفسها، فقسم الأوروبيّون قارّة أفريقيا إلى مناطق نفوذ، ونصّت المعاهدة على حريّة الكرازة تحت ظلال الحماية الاستعماريّة، بل واشترك الاستعمار مع الإرساليّات في إقامة الأنشطة وبخاصّة إنشاء المدارس والمستشفيات، ولاحظ باحثون[٣] أنّ جنسيّات جلّ المرسَلين والمرسَلات كانت تتّفق مع جنسيّة الدولة المستعمرة، إذ كان من الأمر البديهيّ أن يفضّل المستعمر المرسَلين من أبناء أمّته. لكنّ ذلك لم يمنع نشوب خلافات بين المستعمِر والمرسَلين المسيحيّين، وبخاصّة عندما كانت تتعارض مصالح الدولة المستعمرة مع القيم المسيحيّة والمبادئ الإنسانيّة. وهكذا فقد وقفت الحكومة الفرنسيّة، التي تخضع لها الجزائر كمستعمرة فرنسيّة، سدًّا مانعًا أمام طموح الكاردينال لافيجيري، وبخاصّة بعد أن أصبح رئيسًا لأسقفة قرطاجة سنة

١ ـ **معاهدة برلين:** دعت إلى مؤتمر برلين الدول الموقعة على معاهدة باريس ١٨٥٦ لإعادة النظر بمعاهدة "سان ستيفانو" التي فرضتها روسيا على الأمبراطوريّة العثمانيّة ١٨٧٨، وكانت بريطانيا والنمسا والمجر التي أصرّت على التعديل، وقد أدّى ذلك التعديل إلى الاعتراف باستقلال الجبل الأسود، وصربيا، ورومانيا التي أُرغمت على التنازل عن "بسارابيا" الجنوبيّة لروسيا مقابل "دوبروغا"، وقسّمت بلغاريا إلى بلغاريا الشماليّة وجعلت إمارة تحت السيادة التركيّة الإسميّة، و"الروملي" الشرقي تحت حكم أمير مسيحيّ يعيّنه الباب العالي وله استقلاله الذاتي، ومقدونيا بما فيها أدرنة تحت السيادة المطلقة، أمّا "البوسنا والهرسك" التي شكّلت السبب الأساسيّ في الحرب الروسيّة التركيّة ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ فقد أُعطيت للنمسا والمجر لتقوم بإدارتها واحتلالها، وفي آسيا حصلت روسيا على أردهان، وباطوم، وقبرص من تركيا، وانتقلت قبرص إلى بريطانيا باتّفاق منفصل، ووعدت كريت بحكومة دستوريّة، وتضمّنت الشروط الأخرى للمعاهدة تعديلاً هامًّا في الحدود اليونانيّة التركيّة، ونزع السلاح في منطقة الدانوب السفلى، وحماية الأرض والأقليّات الدينيّة الأخرى في تركيا.

٢ ـ **معاهدة سان ستيفانو.** عُقدت بين روسيا وتركيا ١٨٧٨ ووُقّعت في بلدة سان ستيفانو قرب اسطنبول فأنهت آخر الحروب الروسيّة ـ التركيّة، أكرهت تركيا عبرها على التنازل عن أجزاء من أرمينيا وإقليم "دبروغة" لروسيا، وتمّ في المعاهدة الاعتراف باستقلال رومانيا وصربيا والجبل الأسود، وجعلت بلغاريا إمارة ذات حكم ذاتيّ على أن تشمل جزءًا كبيرًا من مقدونيا، أدّت المغانم الكبيرة التي كسبتها روسيا من خلال هذه المعاهدة إلى انزعاج إنكلترا، فأكرهت روسيا بمساعدة بسمارك الألماني على عقد مؤتمر برلين ١٨٧٨ الذي وافقت في خلاله روسيا على تعديل مضمون المعاهدة.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

١٨٨٤ ونال سلطات كنسيّة واسعة، فكرّس جهدًا لصياغة منهج للكرازة في المناطق الصحراويّة، لعلّ من أهمّ ما كانت تسعى إليه تكيّف المرسَلين بالبيئة التي يعملون فيها وتجاوبهم مع ملابسات مجتمعها وتقاليد الجماعات البشريّة وتراثها. ولقد ضحّى كثيرون بحياتهم من أجل الرسالة المسيحيّة في أفريقيا يومها، فلم تكن طرق الكرازة معبّدة، ولا نشر الإيمان والحضارة سهلاً. وراح الكاردينال يتجوّل في بلدان الغرب يدعو لوقف عار الشعوب، أي تجارة الرقيق، ولم ينجح إلاّ سنة ١٩٠٢، حين أعلنت الحكومات الأوروبيّة المستعمرة منع تلك التجارة. ثمّ جاء "شارل دي فوكو[١]" بحياة ذات طابع روحيّ جديد، وبمفهوم مغاير لمعنى الكرازة، أسّسه على خبرة عمليّة نادرة، وسلوك مسيحيّ رائع. فبعد أن عاش حياة الجنديّ المحارب، جذبته الصحراء بهدوئها العميق وصمتها الرهيب، صحراء الجزائر الممتدّة جنوبًا بلا نهاية. قضى هناك، في منطقة "بني عبّاس" و"تماناراست"، حياة النسك والتأمّل. رفض الكرازة بالكلمات، بل صمت في صلاة ممتدّة أمام سرّ القربان المقدّس، يعلن إيمانه ويعلن بشارة الإنجيل لممارسة الحياة النقيّة وسلوك العطاء الذي لا يجفّ، ومشاطرة الفقير فقره والغريب غربته والضعيف آلامه. وامتدّت رسالة دي فوكو، وكأنّها في امتدادها تطوي صفحات من تاريخ الكرازة الذي مضى عليه قرن من الزمان، وتبدأ برؤية جديدة لحركة الكرازة، تشرق بالحبّ والتأمّل والبذل، حتّى قدّم حياته ذبيحة لرسالته واستُشهد بيد مَن كان قد كرّس نفسه لخدمتهم سنة ١٩١٦.[٢]

---

١ ـ شارل دي فوكو DE FOUCAULD (١٨٥٨ ـ ١٩١٦): ضابط فرنسيّ، زار بعض مناطق المغرب العربيّ في رحلة استكشافيّة علميّة، اعتزل العالم وعاش متنسكًا في "تمانارست" في صحراء الجزائر وفيها قُتل.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٢٤.

إختلطت الثقافة المسيحيّة الوافدة إلى أفريقيا بالديانات القديمة وهزّتها بعنف، وزعزعت أسس التقاليد والعادات الوثنيّة، ولكنّ ذلك لا يعني أنّه يمكن القضاء، بسهولة وسرعة، على تراث عقائديّ قبليّ متوغّل في وجدان الشعوب منذ آلاف السنين. خاصّة وأنّ المسيحيّة، التي حملها الرجل الأبيض إلى أفريقيا، بعثت شيئًا من الخوف من الوافد الغريب الذي يأتي بديانة جديدة. ومن منطلق محاولة تسريب الروح المسيحيّة بتوهّجها الإلهيّ إلى صميم وجدان تلك الشعوب، على أمل أن تمتزج بما يحمل من قيم انسانيّة، تطهّره من كلّ ملامح وثنيّة، سعى بعضهم إلى اجتهاد لصياغة مسيحيّة أفريقيّة، تحمل الإيمان والجوهر وتمتزج بالطقوس الأفريقيّة. وسعى بعضهم الآخر إلى إقامة كنيسة مسيحيّة مستقلّة ذات طابع خاصّ، كما حدث في الحبشة سنة ١٨٩٢. لكنّ بعض العادات الأفريقيّة المتأصّلة ستبقى متغلغة في الوجدان الشعبيّ، كعادة التعبّد للموتى وشفاء المرضى برقيّات سحريّة وبحركات الشعوذة التي ستظلّ زمانًا طويلاً ضمن العادات الممارَسَة، حتّى يبرز كيان مسيحيّ أفريقيّ واضح[١].

أمّا أميركا اللاتينيّة، بعد غروب شمس أمبراطوريّة المستعمرات الإسبانيّة والبرتغاليّة، فقد كان لها وضعها الخاص. فبنتيجة الهزيمة التي ألحقها نابوليون بإسبانيا والبرتغال، خيّم على المجتمع وعلى الكنيسة في أميركا اللاتينيّة مناخ من الفوضى والقلق، ذلك لوقوف الكنيسة ورجالها في صفوف المحافظين، ما أثار حفيظة المجاهدين المتحرّرين الذين ردّوا بمناصبة العداء لرجال الدين. كما أنّ وضع الهنود الحمر، الذين ظلّ مجتمعهم بائسًا منبوذًا، وهم أهل البلاد الأصليّين، قد أوجد وصمة عار. وكانت نتيجة تلك الأوضاع، أنّه عندما حصلت دول أميركا اللاتينيّة على الاستقلال ١٨١٧ ـ ١٨٢٣، كان التوهّج المسيحيّ في تلك الأصقاع قد خبا، وانتشرت

---

١ ـ المرجع السابق.

المبادئ الداعية إلى نزعة طبيعيّة وضعيّة، وهي المبادئ التي فجّرها الفيلسوف أوغست كونت * AUGUSTE COMTE (١٧٩٧ ـ ١٨٥٧) كما سبق أن ذكرنا، ولاقت قبولاً عند قادة الفكر وأصحاب السلطة. وقد حاول الأساقفة الكاثوليك في أميركا اللاتينيّة في خلال مجمع عام عُقد في روما سنة ١٨٩٩، إعلان الدعوة إلى تجديد شامل للكنيسة. إلاّ أنّ اندلاع ثورة المكسيك سنة ١٩١٠ سوف يعيق تحقيق هذا النداء، وبخاصّة أنّ الثورة جنحت إلى الحدّ من نفوذ الكنيسة ورجالها ومؤسّساتها إلى حين.

ولم يصل الكاثوليك إلى جزر المحيط الهادي قبل سنة ١٨٢٧، يوم قصد الجزء الشرقيّ من جزيرة تاهيتي[1] بعض من أعضاء "رهبانيّة القلب المقدّس"، و الجزء الغربيّ أعضاء من "جمعيّة الآباء المريميّين". بينما كانت تلك الجزر قد استقبلت المبشرّين البروتستانت منذ سنة ١٧٩٧. واحتُفل بأوّل قدّاس كاثوليكيّ في تاهيتي سنة ١٨٤٣.

أمّا غينيا الجديدة[2] فقد دخلتها المسيحيّة ببطء، ممثّلة بجمعيّة المريميّين التي أسّست فيها رهبانيّة للنساء. ولعلّ أهمّ ما يُلاحظ في تبشير هذه الجزر اختلاط الفكر المسيحيّ بتراث شعوبها، وما حمله هذ التراث من أساطير قديمة. وظلّ المسيحيّون الجدد من

---

١ ـ **تاهيتي** TAHITI: أهمّ جزر أرخبيل السوسييتي في بولينيزيا الفرنسيّة (أوقيانيا)، سكّانها من الشعب البولينيزي وعددهم نحو ١٢٠ ألف نسمة، اكتشفها "صموئيل واليس" الإنكليزي ١٧٦٧ وزارها جيمس كوك ١٧٦٩ ثمّ وصلتها السفينة البريطانيّة "بونتي" ١٧٨٨، فشل الإسبان في محاولة استعمارها، اضطرّت الملكة "بوماري" الرابعة إلى أن تقرّ إقامة محميّة فرنسيّة في الجزيرة ثمّ نزل ابنها الملك بوماري الخامس عن العرش ١٨٨٠ وبذلك خضعت الجزيرة للفرنسيّين.

٢ **غينيا الجديدة** NOUVELLE - GUINÉE: ثانية جزر العالم مساحة بعد غرينلاند، وهي من جزر أوقيانيا، تقع شمالي أستراليا في المحيط الهادئ، أوّل من شاهدها من الأوروبيّين البرتغاليّ "أنطونيو دابرو" ١٥١١، زارها بعد قليل مستكشفون برتغال وإسبان، ثمّ هولنديّون وإنكليز وألمان في القرنَين التاليين، ضمّت هولندا نصفها الغربيّ ١٨٢٨ وأخذت بريطانيا ساحلها الجنوبيّ الشرقيّ وألمانيا الساحل الشماليّ الشرقيّ ١٨٨٤، تسلّمت أستراليا الجزء البريطانيّ ١٩٠٥ والألمانيّ ١٩٢٠ وآل الجزء الهولنديّ إلى إندونيسيا ١٩٦٣ وعُرف باسم "إيريان الغربيّة"، غزا اليابانيّون شمالها ١٩٤٢ وحرّرها الحلفاء ١٩٤٤.

أهل الجزر متمسكين بكثير من عاداتهم وتقاليدهم، بل حاولوا مزجها بتعاليم الكتاب المقدّس[1].

في الشرق الأقصى، وفي الهند تحديدًا، كان تنافس الكنيستَين الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة، ونظام الإقطاع الذي كان سائدًا، قد ساعدا على قيام طوائف انعزاليّة، تسودها روح قبليّة، كما كان عاملاً من عوامل البطء الشديد في إعداد إكليروس محلّيّ لخدمة بلاده. إلاّ أنّ اليسوعيّين نجحوا سنة ١٨٤٧ في إنشاء دير لإعداد الرهبان بغضّ النظر عن تعصّب المناطق وعزلة الطوائف فيها، وقبل الدير شبّانًا من مختلف أنحاء الهند[2]، فكانت تلك فاتحة نشاط جديد للكنيسة الكاثوليكيّة في الهند.

أمّا في الصين، حيث كان النزاع الذي نشب بين الوصاية البرتغاليّة ومجمع انتشار الإيمان قد اتّخذ شكلاً حادًا سنة ١٦٩٣، كما ذكرنا سابقًا، ما أثار استياء الأباطرة الذين ألقت تلك النزاعات في أذهانهم الشكّ في الأساليب الإرساليّة وفي موقف المسيحيّة من الثقافات المحليّة، فشنّوا عدّة اضطهادات على المسيحيّين، ولم يعد يُسمح بالإقامة في بلاط بيكين لغير العلماء اليسوعيّين من بين كافّة المبشّرين، ثمّ جاء حلّ الرهبانيّة اليسوعيّة بدءًا من سنة ١٧٦٢ ليزيد في الأوضاع سوءًا، استمرّ رفض قبول المرسَلين، بل منعت الصين دخول التجّار من أهل الغرب الأوروبّيّين أراضيها. ولم يبدأ الوضع في التغيّر إلاّ بعد أن وقّعت الصين معاهدة بينها وبين بعض بلدان أوروبّا سنة ١٨٤٢، فأتاحت المعاهدة بين الصين وفرنسا للأخيرة بوجه خاصّ، فرصة إقامة علاقات مع الصين، وأمدّت الحماية الفرنسيّة المرسَلين ببعض الحريّة للعمل في الصين، فأخذوا يلجأون إلى حمل جواز سفر فرنسيّ ليتمتّعوا بالقبول الصينيّ والحماية

---

١ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٣١.

٢ - المرجع السابق.

الفرنسيّة. ولكن عندما حاول البابا لاون الثالث عشر إيفاد مبعوث يفتح بابًا إلى الصين، تصدّت فرنسا لمحاولته التي باءت إذذاك بالفشل. ويبدو أنّ الصينيّين كانوا، في نهاية القرن التاسع عشر، لا يزالون ينظرون إلى الوافدين من بلدان أوروبّا نظرة ريب، سواء أكانوا مرسلين للكرازة أم تجّارًا. ذلك أنّ التجّار الغربيّين قد حاولوا تدمير الإقتصاد الصينيّ بقصد إخضاع الصين لسيطرة أوروبّا. وقد سجّلت سنة ١٩٠٠ حادثًا جللاً في هذا المجال، عُرف بحادث بيكين، حين ثار بعض الصينيّين على الأوروبّيّين الوافدين، فقتلوا عشرات من المرسلين رهبانًا وراهبات، كما قتلوا العشرات من الأوروبّيّين العلمانيّين. إلاّ أنّ المرسَل اللعازاريّ البلجيكيّ الأب "ليب LEBBE" (١٨٧٧ ـ ١٩٤٠) الذي اتّخذ موقفًا مناهضًا لنزعة تعصّب الأوروبّيّين وتعاليهم على الصينيّين، سوف يؤتى ثماره لاحقًا. وكذلك الأمر بالنسبة لليسوعيّين. إلاّ أنّ المسيحيّة لن تنتشر بشكل نسبيّ يُذكر في المستقبل المنظور.

في اليابان، حيث كانت نشاطات المرسلين قد أصيبت بنكسة خطيرة على أثر فتنة "شيمابارا SHIMABARA" سنة ١٦٣٥، التي أدّت إلى قتل خمسة وثلاثين ألف مسيحي، وأغلقت أبواب اليابان في وجه المرسَلين حتّى القرن التاسع عشر كما ذكرنا سابقًا، نجحت الولايات المتّحدة الأميركيّة في إقامة علاقات مع الدولة اليابانيّة سنة ١٨٥٣، وتلتها أوروبّا، ما مكّن من الحصول على حريّة إقامة بعض الكنائس للجاليات الأميركيّة والأوروبيّة. وقد اكتشف بعض المرسَلين أنّه كان لا يزال في ناغازاكي بعض الوجود المسيحيّ منذ القرن السابع عشر، بالرغم من عدم وجود مَن يهتمّ بهم من رجال الإكليروس. ومنذ سنة ١٨٧٣، فتحت اليابان أبوابها لحضارة الغرب، ومنحت الحريّة لمختلف العبادات. ومن ثمّ بادر كثيرون من الرهبان إلى السفر إلى هناك وأنشأوا المدارس التي تلبّي رغبة اليابانيّ في العلم والمعرفة. وفي سنة ١٨٩١،

أقام البابا لاون الثالث عشر نظامًا كنسيًّا لإدارة شؤون الكنيسة في اليابان. ومع أنّ اليابانيّين لم يخلطوا في فكرهم بين الإيمان المسيحيّ والحضارة الأوروبيّة، إلاّ أنّ نزعتهم الوطنيّة التي عمّقها انتصارهم على الصين وعلى روسيا وكوريا سنة ١٩٠٥، ألقت بظلال الشكّ حول ديانة يتبعها الأوروبيّ.

وفي سنة ١٨٨٥ سقطت فيتنام* تحت حكم الاستعمار الغربيّ، وعُرفت المنطقة التي تضمّها مع كمبوديا ولاوس باسم "الهند الصينيّة الفرنسيّة". وبالرغم من نشاط جماعة "بيت اللّه" المسيحيّة في فيتنام، بقي تعلّق الشعب الفيتناميّ بعبادة الأسلاف حائلاً دون انتشار الكلمة المسيحيّة[1].

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر، أصبحت أستراليا[2]، التي كانت منفى للمجرمين وللمحكوم عليهم منذ اكتشفتها إنكلترا، أصبحت منطقة جذب للمهاجرين وللمغامرين. وكان الإيرلنديّون أوّل جماعة كاثوليكيّة دخلت إلى أستراليا، فوضعوا لها تنظيمًا رئاسيًّا خاصًّا بهم. وأقام رئيس الأساقفة في منطقة "سيدني"، كما أقام أسقفان آخران في المدن الأخرى، وقد وجدت قوى الكثلكة النشطة في أستراليا مجالها بين عمّال المدن. وازدهرت بوجه عامّ خلال رئاسة الكاردينال موران MORAN الذي رأس الكنيسة

---

١ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

٢ - أستراليا AUSTRALIA: كبرى جزر أوقيانيا، هي اليوم جمهوريّة متّحدة ومن دول الكومنولث البريطانيّ، عدد سكّانها نحو ١٦ مليون نسمة؛ زار الهولنديّون أستراليا الغربيّة ١٦١٦، أسّست مستعمرة إنكليزيّة خُصّصت لنفي المذنبين ١٨٢٦، حكمتها "نيوساوث ويلز" حتّى ١٨٣١، وأصبحت ولاية في الكومنولث الأستراليّ ١٩٠١؛ زار الهولنديّون ساحل أستراليا الجنوبيّة ١٦٢٧، أصبحت مستعمرة بريطانيّة ١٨٣٦؛ أمّا الشعب الأستراليّ الأصليّ فمجموعة عرقيّة متجانسة من الصيّادين الرحّل من المرجّح أنّهم نزحوا إلى أستراليا من آسيا قديمًا، عددهم اليوم نحو ٢٧٠ ألف نسمة، لهم ثقافة بدائيّة وتتّسم شعائرهم الدينيّة وتنظيمهم الاجتماعي بالتعقيد، كان يعيش معظمهم في معازل وبحلول أربعينات القرن العشرين اندمج أكثرهم في المجتمع الأسترالي الجديد، أعاد لهم تشريع صدر ١٩٧٦ بعض الاستقلاليّة، حكمت المحكمة العليا في أستراليا بحقهم في تملّك الأرض التي كانوا يعيشون فيها ١٩٩٢ وحُصّن هذا الحكم بقانون ١٩٩٣.

الكاثوليكيّة في السنين ١٨٨٤ ـ ١٩١١. وأُنشئت المعاهد الإكليريكيّة الوطنيّة، وعُقدت المؤتمرات الوطنيّة، واندمج الكاثوليك في المجتمع الجديد وأسهموا في مختلف النشاطات الاجتماعيّة والسياسيّة[١].

وما يتوجّب ذكره في هذا المجال، أنّ البابا لاون الثالث عشر قد أظهر تفهّمًا لرغبات الشرقيّين، فاستدعى بطاركة الكنائس الشرقيّة إلى روما واستمع إلى مطالبهم، وأصدر رسالته الشهيرة "مقام الشرقيّين ORIENTALIUM DIGNITAS" سنة ١٨٩٤ التي تقضي باحترام الطقوس الشرقيّة، وتحدّد واجبات المرسَلين في الشرق[٢].

في النِّصفِ الأوَّل
من القَرن العِشرين

في سنة ١٩٠٢ أصبح "إميل كومب[٣]" رئيسًا للحكومة الفرنسيّة الجديدة، و في خلال ولايته التي استمرّت نحو ثلاث سنوات، شنّ كومب حربًا شعواء على كلّ ما هو كنسيّ، فأغلق ثلاثمائة مؤسّسة دينيّة بحجّة عدم تمتّعها بسند قانونيّ، وحرّم إنشاء الجمعيّات الدينيّة، ومنع الجمعيّات السابقة من ممارسة نشاطاتها في مجال التربية، فتشرّد الرهبان والراهبات، وطُرد المتوحّدون والنسّاك من خلواتهم وأُجبروا على مغادرة المدارس والأديرة دون مورد رزق أو عائل، وطُرد المسنّون والمرضى من المؤسّسات الاجتماعيّة الكاثوليكيّة من دون شفقة، وتصاعدت الاضطّهادات ضدّ ومراقَبين، ومُنعوا من الوظائف الكاثوليك المتمسّكين بأهداب الإيمان، وأضحوا

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٤.

٣ ـ إميل كومب EMILE COMBES (١٨٣٥ ـ ١٩٢١): سياسيّ فرنسيّ، طالب إكليريكيّ سابق، رئيس مجلس الوزراء الفرنسيّ ١٩٠٢ ـ ١٩٠٥، عُدّ رائد فصل الكنيسة عن الدولة في فرنسا.

محاصَرين في الدوائر الحكوميّة الرسميّة وفي خدمة الجيش، وأُوقفت تمامًا المواكب الدينيّة والمظاهر المسيحيّة، ونُزعت اللافتات التي تحمل أسماء القدّيسين أو الشهداء ووُضعت على رؤوس الشوارع والميادين أسماء أبطال الجمهوريّة. واتّخذ التيّار العلمانيّ خطوة أشدّ خطرًا حين قطع العلاقة الدبلوماسيّة بين فرنسا والفاتيكان سنة ١٩٠٤، تمهيدًا لإعلان فصل الدولة عن الكنيسة فصلاً تامًّا. وقد بدا ازدياد الرغبة الرسميّة في القضاء على السلطة المسيحيّة في فرنسا واضحًا ومتصاعدًا بالرغم من تمسك بعضهم بنصوص معاهدة ١٨٠١، التي نظّمت العلاقة بين الدولة والكنيسة. وفي كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٠٥، صدر القانون القاضي بفصل الدولة عن الكنيسة فصلاً نهائيًّا. وإذا كان ذلك القانون قد اعترف بحريّة الضمير، لكنّه ألغى ميزانيّة الشعائر الدينيّة، وسلّمت ممتلكات الكنيسة إلى مختلف المذاهب والطوائف.

في هذا الوقت، خلف البابا لاون الثالث عشر على سدّة روما البابا بيوس العاشر (١٩٠٣ ـ ١٩١٤)، ويبدو للمراقب أنّ اختيار هذ الحبر قد جاء تلبية لحاجة ملحّة للاهتمام برسالة الكنيسة الراعويّة، في مواجهة اجتياح العلمنة الرسميّة للمسيحيّة الكاثوليكيّة وكنيستها في فرنسا، فلقي انتخابه صدى ارتياح في أنحاء البلدان الغربيّة. وسرعان ما صبّ البابا الجديد اهتمامه لينهض بجانب الكنيسة الراعويّ، وهدف بذلك إلى إعادة المكانة للكنيسة من الجوانب الإجتماعيّة والروحيّة، كما قام بإصلاحات مهمّة في الطقوس الكنسيّة اللاتينيّة والحقّ القانونيّ الغربيّ، وحرّض على المناولة اليوميّة[١]. فقد كان البابا الجديد من عائلة فقيرة، ارتقى درجات الكهنوت من بدايتها كمساعد للراعي ثمّ راعيًا، إلى أن أصبح الكاردينال "سرتو"، وبانتخابه وضع حدًّا نهائيًّا

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

لممارسات الحكومات الأوروبيّة ضغوطها على الكنيسة، وتدخّلها في سير انتخابات البابوات. ومع أنّه كان ينفر من الأمور السياسيّة، إلاّ أنّ السياسة فُرضت عليه حين أعلنت فرنسا فصل الدين عن الدولة، وإلغاء المعاهدة الدينيّة الموقّعة سنة ١٨٠١ من دون الرجوع إلى أحد الأطراف الموقّعين عليها وهو البابا نفسه. وكان من الطبيعيّ أن يتصدّى البابا لهذا التيّار الجارف، فأصدر وثيقة بعنوان "بحدّة VEHEMENTER" سنة ١٩٠٦، رفض فيها فكرة إقامة مؤسّسات دينيّة خارج إطار السلطة الكنسيّة الشرعيّة. وظهرت في عصره أزمة دينيّة عميقة في طبقة المفكّرين الفرنسيّين اتّخذت اسم "البدعة العصريّة MODERNISME" التي تقوم بتفريغ الديانة من كلّ معتقد، لتتمسّك فقط بقيمتها التوجيهيّة والأخلاقيّة والعاطفيّة. فقاوم البابا بيوس العاشر هذه البدعة مقاومة شديدة، ورشقها بالحرم سنة ١٩٠٧.[١] وازداد الأمر تعقيدًا إذ وقعت أحداث عنف، واستولت الهيئات الحكوميّة على مساكن الكهنة وعلى الأديرة. لكنّ البابا استطاع أن يتّخذ موقفًا رائعًا في الدفاع عن حقوق الكنيسة دون معاداة روح العلمنة التي سادت الدولة، وعبَر بالكنيسة إلى برّ الأمان، ببسالته وإيمانه وجاذبيّة شخصيّته. أمّا في إيطاليا، فلم تمضِ الأمور بيسر، إذ رفض البابا محاولات التوفيق بين الحكومة والكنيسة لما رآه من إخلال بالقيم والمبادئ الإنجيليّة في أعمال الحكومة، فأعلن سجنه الاختياريّ في الفاتيكان بعد أن كشفت الحكومة عن عدائها السافر لكلّ ما هو دينيّ، وأوقفت كثيرًا من الأنشطة المسيحيّة، وحرمت الحجّاج من زيارة الأراضي المقدّسة، ومنعت كلّ المظاهر والمواكب الدينيّة وصادرت الأديرة. بيد أنّ تلك المضايقات التي لن تسفر مستقبلاً إلاّ عن تعزيز للمسيحيّة الكاثوليكيّة بوجه عام، قد أحدثت، إلى حين، تمزّقًا حادًّا في صفوف المؤمنين، ولاح تذمّر في الأفق، والبابا بيوس العاشر

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

يقضي أيّامه الأخيرة، سرت من خلاله دعوة إلى انفصال المسيحيّين عن قيادة الكنيسة وبخاصّة في كلّ أمورهم السياسيّة والزمنيّة. وكان الردّ على مسار الحكومة وتداعياته على الناس فتح ملف تطويب البابا المعتزل بعد وفاته، إذ رأى فيه الجميع "رجل الإيمان"، وسوف يتمّ إعلان قداسته سنة ١٩٥٤. وانطلقت، في الوقت نفسه، ردّة فعل كاثوليكيّة فرنسيّة على الطعنة العميقة في كيان كنيستهم، وعوَض اليأس، بدأ الكاثوليك الفرنسيّون مرّة أخرى ينظّمون الأنشطة الرسوليّة، معتمدين على تمويل ذاتيّ مصدره عطاء المسيحيّين وسخاؤهم. وبرغم كلّ النتائج السلبيّة للقانون الذي فصل الدولة عن الكنيسة، إلاّ أنّه أمدّ الكنيسة برؤية جديدة وفجّر في كيانها طاقة العمل وحريّة الحركة، دون التقيّد بقيود تفرضها الدولة، وبدأت في الاعتماد على الإمكانيّات الذاتيّة، بل وكأنّ الفصل بين الدولة والكنيسة قد أدّى إلى تقوية الروابط الرسوليّة والروحيّة بين رأس الكنيسة، البابا في روما، والأساقفة في فرنسا. ونشأت رهبانيّات جديدة في حماسة تجدّد العمل الرسوليّ، مثل رهبانيّة القدّيس يوحنّا بوسكو (السالزيان)[1].

كَنيسَــــــــــــةٌ
وَسطَ حربَين عَالميّتَين

لم يكن المتصارعون على المسرح السياسيّ ـ الإجتماعيّ ـ الفكريّ في فرنسا يتطلّعون إلى ما يحيط بأوروبّا من غيوم تنمّ عن هبوب شرّ مستطير سوف يقلب المسرح واللاعبين عليه، ويُنزل الويل والدمار في وسط كلّ من الفئات المتصارعة من دون التمييز بين علمانيّ وكنسيّ. فلقد كانت فظائع الحربَين العالميّتَين الأولى والثانية اللتَين عصفتا بأوروبّا والعالم في غضون ربع قرن من الزمن، لا تزالان قابعتَين في

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣١٦ ـ ٣١٧، ٣٢١.

بصائر الأنبياء والعرّافين دون سواهم. ففي تلك الحقبة القصيرة من الزمن، وقعت أهمّ أحداث القرون الحديثة: الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) والثورة الروسيّة الشيوعيّة (١٩١٧) والحرب العالميّة الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥). وسوف تمتدّ الثورة الشيوعيّة إلى دول شرق أوروبّا، ويرافقها ظاهرة تصفية الإستعمار وما رافقها من تبدّلات دراماتيكيّة في الخرائط الجيوبولوتيكيّة والفكريّة والديموغرافيّة للعالم قاطبة.

جاءت ويلات الحرب العالميّة الأولى، منذ بدايتها في العام ١٩١٤، لتبيّن للفرنسيّين وسائر الأوروبيّين كم كان هناك من العوامل المصيريّة المشتركة التي تجمع بين أبناء الوطن الواحد، والتي كانت كامنة في النفوس في فورة بروز المماحكات الفلسفيّة والسياسيّة. وسرعان ما تمازجت آلام الناس من مختلف التيّارات وأحلامهم في مختلف بلدان أوروبّا. وأضحى التنافس في خدمة البلاد السمة البارزة إبّان تلك المرحلة المؤلمة من التاريخ القريب، فراح أكثر المواطنين يبذل كلّ تضحية وفداء من أجل أبناء المجتمع ككلّ، من دون التفرقة بين تيّاراتهم الفكريّة والسياسيّة. وشغلت الحرب الدول فلم يعد الصراع بينها وبين بابا روما أو الكنيسة الكاثوليكيّة. ودوّت أصوات الأساقفة والكهنة الداعية إلى الصلاة لتحقيق انتصار الأمّة، وشارك الرهبان في حمل السلاح، مع جيش الدولة ومواطنيها، دفاعًا عن أوطانهم. وكأنّ هذا الشعور الوطنيّ الجارف قد أذاب ازدواجيّة الإنسان الفرنسيّ وتحوّلت فرنسا إلى جبهة واحدة تقاوم عدوّ الحريّة والاستقلال. أمّا البابا في روما، فقد كان في موقف حرج، ذلك أنّ المتحاربين جميعًا مسيحيّون، ولم يكن بوسعه السيطرة على جنون الحرب الضارية، وقضى البابا بيوس العاشر في السنة الأولى من الحرب، ليخلفه البابا بنديكتُس الخامس عشر (١٩١٤ ـ ١٩٢٢) الذي كان عليه أن يعايش سنوات الحرب الأربع مع تداعياتها في خلال سنوات أربع إضافيّة.

رفع البابا الجديد الصلوات من أجل شعوب العالم، وفي محاولة يائسة، سعى لمنع إيطاليا من الدخول إلى ساحة القتال، وعرض وساطته بين المتحاربين، وأظهر ميلاً إلى المصالحة وإقامة جسور من التفاهم بين جميع الدول، ولكنّ عروضه قوبلت بالرفض من جانب بعض الدول، وبالاستنكار من جانب بعضها الآخر، فذهبت نداءاته أدراج الرياح العابقة برائحة الموت وغبار الدمار. فراح يعمل على الصعيد الإنسانيّ ساعيًا لتخفيف الآلام عن طريق مبادلة الجرحى والأسرى بين القوى المتصارعة، ونظّم المساعدات لمنكوبي الحرب وضحاياها. وسجّل له التاريخ بشكل لافت عنايته بالأسرى المسلمين. وأخيرًا، انقشع غبار معارك السنوات الأربع عن خريطة جديدة لدول أوروبّا، فقد تمزّق شمل دولة النمسا الكبرى، واستعادت بولَندا حريّتها، وكذلك دول البلطيق، كما حقّقت إيرلندا الكاثوليكيّة حرّيتها. ولكنّ محاولة البابا التقرّب من روسيا السوفياتيّة، من خلال إرساله معونات لضحايا الحرب، لم توقف تيّار اضطهاد الكنيسة ورجالها هناك من قبل النظام الجديد، حيث لم يسلم بعض رجال الإكليروس من أساقفة وكهنة من القتل. وقبل نهاية عهد بنديكتُس، عادت العلاقات الدبلوماسيّة بين فرنسا والفاتيكان سنة ١٩٢٠، وكان بإعلانه "جان دارك[1]" قدّيسة في تلك السنة نفسها، قد أعطى انطباعًا عن تقديره العميق لمَن فدوا أوطانهم بدمائهم، وقد اشترك في حفل التطويب، الذي جرى في روما، مندوب فرنسيّ "فوق العادة". أمّا البابا بيّوس الحادي عشر، خليفة بنديكتُس (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩)، فقد سلك طريق سلفه في محاولات التقريب بين وجهات نظر الدول. وفي عهده تمّ تثبيت الوضع القانونيّ لنشاط الكنيسة في فرنسا سنة ١٩٢٤. وتُوّجت مساعي التقارب والمصالحة بين الدول الأوروبّيّة والكنيسة

---

١ ـ جان دارك JEANNE D'ARC (١٤١٢ ـ ١٤٣١): بطلة فرنسيّة حاربت لتحرير بلادها من الإنكليز فأُسرت وأُحرقت في روان، أصبح عيدها في فرنسا عيدًا وطنيًا يُحتفل به في الأحد الثاني من أيّار (مايو).

الكاثوليكيّة بـ"معاهدة اللاتران[1]" سنة ١٩٢٩، التي وقّعها "موسوليني[2]" واعترف عبرها الكرسيّ الرسوليّ بدولة إيطاليا، وبروما عاصمة لها، كما أقرّت حكومة إيطاليا بسيادة البابا على مدينة الفاتيكان، وهي أصغر دولة، إذ لا تتجاوز مساحتها ٤٤ هكتارًا.

بين صحوة أوروبّا من كابوس الحرب العالميّة الأولى، ودخولها في جحيم الحرب العالميّة الثانية، بدا أنّ تقدير "الحداثة" الذي هزّ قلب المجتمع المسيحيّ قبل أن تزلزله الحرب، كان مبالغًا فيه جدًّا من قِبَل مريديه ومعارضيه في آن. ذلك أنّ ويلات الحرب قد حسرت قدرة العلم العجائبيّة. فالعلم لم يُجب على أهمّ تساؤلات الإنسان. كما لا يمكن بناء أخلاق على العلم. وظهرت إنذاك عودة إلى الروحانيّة وغالبًا إلى المسيحيّة. يشهد على ذلك كتّاب عديدون أمثال: "هويزمانز[3]"، و"كلوديل[4]"، و"بيغي[5]"، و و"بلوا[6]"

١ ـ **معاهدة اللاتران** LATRAN: نُسبت إلى قصر LATRAN في روما الذي كان مقرًّا للبابوات طوال حوالي عشرة قرون، عُقدت فيه خمسة مجامع مسكونيّة بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، بالقرب منه كنيسة مار يوحنّا اللاتراني التي شيّدها الأمبراطور قسطنطين ٣٢٤ ثمّ أجريت فيها تعديلات عديدة، وهي إحدى كنائس روما الخمس الكبرى؛ ستكتمل بنود معاهدة اللاتران ١٩٤٥، كما ستُعاد صياغة المعاهدة الدينيّة بين مختلف دول أوروبّا والكنيسة خلال ١٩٨٤.

٢ ـ **بنيتو موسوليني** MUSSOLINI (١٨٨٣ ـ ١٩٤٥): من رجالات الدولة في إيطاليا، أسّس الحزب الفاشيستيّ ١٩١٩ واستولى على الحكم ١٩٢٢، تقرّب من ألمانيا وتحالف مع هتلر ودخلا معًا الحرب ١٩٤٠، أُقصي عن الحكم ١٩٤٣ فأعاده الألمان ١٩٤٤، هرب بعد هزيمة "المحور" فقتله الشعب.

٣ ـ **هويزمانز** GEORGES - CHARLES HUYSMANS DIT: JORIS - KARL (١٨٤٨ ـ ١٩٠٧): كاتب فرنسيّ باريسيّ، انتقل من المذهب الطبيعيّ إلى التصوّف المسيحيّ، له عدّة مؤلّفات.

٤ ـ **كلوديل** PAUL CLAUDEL (١٨٦٨ ـ ١٩٥٥): مؤلّف ودبلوماسيّ وشاعر فرنسيّ، له قصائد صوفيّة ومسرحيّات غنيّة بعمق بمواضيعها وتحليلها النفسي وما يتحلّى فيها من روح الإيمان، منها "الرهينة"، "الحذاء الحريري"، "بشارة مريم".

٥ ـ **بيغي** CHARLES PÉGUY (١٨٧٣ ـ ١٩١٤). كاتب وشاعر فرنسيّ، أنشأ "الدفاتر الأسبوعيّة"، من روّاد النهضة الروحيّة في القرن العشرين.

٦ ـ **ليون بلوا** LÉON BLOY (١٨٤٦ ـ ١٩١٧): كاتب فرنسيّ ذو موهبة نشيطة وفظّة، له "المرأة الفقيرة" و"الشحّاذ العقوق".

و"ماريتان[١]"، و"بسيكاري[٢]" حفيد رينان ... وفي ما بين الحربَين، تصدّر كتّاب كاثوليك الحياة الأدبيّة، أمثال: "بازان[٣]"، و"موريـاك[٤]"، و"برنانُس[٥]"، و"غبريـال مرسيل[٦]" ... وعلماء أمثال "برانلي[٧]"، و"ترمييه[٨]"، وسواهما، يشهدون على أنّ العلم لا ينـاقض الإيمان.

وكانت إدانات الحداثة قد أعقمت، إلى حين، مفسّري الكتاب المقدّس الكاثوليك عن الأبحاث. وجعلت الفطنة الكثيرين يتوقّفون عند البحث العلميّ وعلم الآثار. فانتظروا، وكانوا في انتظارهم مصيبيـن. إذ سوف يُصدر البابا بيوس الثاني عشر (١٩٣٩ ـ ١٩٥٨) البراءة البابلويّة "نفحة الروح القدس" سنة ١٩٤٣، التي سوف تريح العقول

---

١ ـ جاك ماريتان JACQUES MARITAIN (١٨٨٢ ـ ١٩٧٣): فيلسوف فرنسيّ باريسيّ، دافع عن "التوماويّة الحديثة"، حارب "البرغسونيّة".

٢ ـ جان بسيكاري JEAN PSICHARI (١٨٥٤ ـ ١٩٢٩): حفيد إرنست رينان ووالد إرنست بسيكاري، لغويّ وكاتب فرنسيّ، حصّل علومًا عالية في معهد اللغات الشرقيّة بباريس، علّم في السوربون وفي معهد اللغات الشرقيّة، حدّث اللغة اليونانيّة على طريقته ووضع بها مؤلّفه "رحلتي" ١٨٨٨، جمع آثاره الكتابيّة في "ورد وتفّاح".

٣ ـ رينيه بازان RENÉ BAZIN (١٨٥٣ ـ ١٩٣٢): روائيّ فرنسيّ، من مؤلّفاته "الأرض التي تموت".

٤ ـ فرنسوا مورياك MAURIAC" (١٨٨٥ ١٩٧٠) كاتب فرنسيّ، وُلد في بوردو وتوفّي بباريس، كتب قصصًا كثيرة عرض فيها مشاكل الإنسان بين إيمانه وحياته الخاصّة، اشتهر منها "الحمل" و"تيريز ديسكيرو" و"الفريسيّة" ومجموعة أشعار ومذكّرات، حاز جائزة نوبل سنة ١٩٥٢.

٥ ـ جورج برنانُس BERNANOS (١٨٨٨ ـ ١٩٤٨) كاتب فرنسيّ باريسيّ كاثوليكيّ متصلّب، صاحب "مذكّرات كاهن الريف" و"تحت شمس الشيطان" ومحاورات "الخوف الكبير لدى المفكّرين".

٦ ـ غبريال مرسيل GABRIEL MARCEL (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣): فيلسوف فرنسيّ وجوديّ، تحوّل إلى الروحانيّة الكاثوليكيّة، نال سرّ العماد وهو في الأربعين من عمره، قال بأن "الله هو أنت المطلق"، و"محبّة الله تكون عبر محبّة ما خلق"، وقال ببذل الذات ونكرانها قدر المستطاع.

٧ ـ إدوار برانلي EDOUARD BRANLY (١٨٤٤ ـ ١٩٤٠): فيزيائي فرنسيّ، حقّق أوّل جهاز لاسلكيّ ١٨٩٠.

٨ ـ بيار ترمييه PIERRE TÉRMIER (١٨٥٩ ـ ١٩٣٠): جيولوجيّ فرنسيّ، درس "تحرّكات التماس" في الألب، صاحب مؤلّف A LA GLOIRE DE LA TERRE.

وتشجّع أبحاث المفسّرين. ذلك أنّ الجوّ كان قد هدأ بالنسبة إلى علم التاريخ واللاهوت العقائديّ. وقدّم آباء لاهوتيّون معاصرون علم لاهوت متأصّل في الآباء وفي تاريخ الكنيسة، وارتاح العلم والكنيسة للعلاقات بين الكنيسة و"الحداثة"، ولم تعد الكنيسة أسيرة تعابير قانونيّة جامدة، ولا في حالة صراع مع نخبة المجتمع الدينيّ. وخير دليل على هذا الواقع الجديد كتاب "لاهوت الجسد السريّ" للأب "مارش" وكتاب "الكثلكة" للأب "دو لوباك سنة ١٩٣٨. وفي كتابه "الإنسانيّة الكاملة" سنة ١٩٣٦، أكّد "جاك ماريتان*" على التمييز بين الزمنيّ والروحيّ. "فيجب ألاّ يتخلّى المسيحيّون عن بناء العالم وهم يستلهمون القيم الإنجيليّة، لكن من دون أن يكون للكنيسة وصاية على الأمور الزمنيّة[١]".

كان عهد البابا بيّوس الحادي عشر (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩) حقبة فاصلة بين الحربَين العالميّتين، بدا في خلالها هدوء عاصفة فصل الدولة عن الكنيسة، ومعركة "الحداثة"، وسوى ذلك من مخلّفات القرن التاسع عشر. وسارت الأمور على نسق هادئ متوازن دون صراع أو عنف. فقد تصالح البابا مع الدولة الإيطاليّة بعقد اتّفاقيّة اللاتران التي وقّعها موسوليني سنة ١٩٢٩ كما سبق أن ذكرنا، وهي التي اعترفت بسلطة البابا على الفاتيكان، واستقلاله عن الحكومة الإيطاليّة. ذلك الاستقلال الذي منح البابا حريّة تامّة للقيام بمهامّه الدينيّة الشاملة[٢]. وعندما ذرّت بقرنها موجة جديدة من موجات اضطهاد الكنيسة في فرنسا سنة ١٩٢٤، في خلال رئاسة "إدوار هيريو[٣]" للحكومة الفرنسيّة،

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٢.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

٣ ـ إدوار هيريو EDOUARD HERRIOT (١٨٧٢ ـ ١٩٥٧): سياسيّ وكاتب فرنسيّ، رئيس لحزب الإشتراكيّ الراديكاليّ، محافظ ليون، ترأس مجلس الوزراء مرارًا، رئيس مجلس النواب ١٩٣٦ ـ ١٩٤٠، رئيس الجمعيّة الوطنيّة ١٩٤٧ ـ ١٩٥٤.

تخلّلها إغلاق سفارة الفاتيكان، وضمّ مقاطعة الـ"ألزاس[1]" والـ"لورين[2]" إلى النظام الفرنسيّ، وتشديد الرقابة على أيّ نشاط دينيّ. اتّخذ الكاثوليك موقفًا حاسمًا، فسارع وجهاؤهم وقادة الرأي وسائر الفعاليّات إلى عقد سلسلة من الاجتماعات في أنحاء متفرّقة من فرنسا، وتحت ضغط الأزمة الاقتصاديّة، استقالت حكومة إدوار هيريو، وتبيّن أنّ الشعب الفرنسيّ كان قد أصبح غير متجاوب مع الدعوة العدائيّة للكنيسة. حتّى اعتُبرت سنوات الثلاثينات من القرن العشرين حقبة ذهبيّة لنشاط الكنيسة الكاثوليكيّة في فرنسا. وعندما أكّد، سنة ١٩٣٦، رئيس الحكومة الفرنسيّة الإشتراكي "ليون بلوم[3]" على أنّ التعاون يمكن أن يقوم بين الكاثوليك و"الجبهة الشعبيّة"، ظهر من ردّة فعل الكاثوليك أنّ فكرة التعدّديّة السياسيّة قد بدأت تحوز القبول عندهم. وبرزت شخصيّات كاثوليكيّة في كلّ مجالات الفكر والفنّ والسياسة كما سبق أن أشرنا، أمثال "كلوديل* CLAUDEL" و"فرنسوا مورياك* MAURIAC" و"جورج برنانُس* BERNANOS"، إضافة إلى "إيمانوييل مونييه MOUNIER" (١٩٠٥ ـ ١٩٥٠) الفيلسوف والكاتب الفرنسيّ الذي حاول الوصول، انطلاقًا من الفلسفة، إلى خلاصة تجمع بين المسيحيّة والاشتراكيّة وتضمن كرامة الشخص البشريّ تجاه الفرديّة الجافّة والجماعيّة الماديّة؛ والفيلسوف الباريسي "جاك ماريتان* MARITAIN" الذي سبقت الإشارة إليه وهو الذي دافع عن "التومائيّة المحدثة[4]" وحارب

---

١ ـ ألزاس ALSACE: مقاطعة في شرقيّ فرنسا على حدود ألمانيا في محاذاة نهر الرين، عاصمتها ستراسبورغ.

٢ ـ لورين LORRAINE: مقاطعة في شرق فرنسا على حدود غرب ألمانيا.

٣ ـ ليون بلوم LÉON BLUM (١٨٧٢ ـ ١٩٥٠): سياسيّ فرنسيّ باريسيّ يهوديّ إشتراكيّ، رئيس "الحزب الاشتراكيّ الفرنسيّ S.F I O."، رئيس الحكومة الفرنسيّة ١٩٣٦ التي عُرفت بحكومة الجبهة الشعبيّة، نُفي إلى ألمانيا ١٩٤٣، رئيس للحكومة الفرنسيّة التي عُرفت بحكومة الوفاق الاجتماعيّ ١٩٤٦.

٤ ـ التومائيّة المحدثة NÉO-THOMISME: مذهب فلسفيّ حديث منبثق من فلسفة القديس توما الأكويني الدينيّة.

"البرغسونيّة[1]"، وغيرهم كثيرون.

على صعيد آخر، برزت في تلك الحقبة "حركة العمل الكاثوليكيّ[2]" التي وصفها "كمبي[3]" بأنّها "محاولة لإعادة الروح والملامح المسيحيّة إلى مختلف الأنشطة السياسيّة والاجتماعيّة والفرديّة". وقد انبثقت هذه الحركة عن رغبة حارّة لدى مسيحيّين علمانيّين لأداء رسالتهم كمبشّرين التزموا بحياة المسيح ونور الإنجيل منذ حصولهم على نعمة سرّ العماد. فاتّجه بعض المسيحيّين الملتزمين بقيم إيمانهم إلى المشاركة في نشر تعاليم الإنجيل، وقاموا، بدءًا من أواخر القرن التاسع عشر، بتأسيس جماعات اتّخذت أسماء مختلفة، سارت في تيّار التجديد للحياة المسيحيّة، وحاولت أن تضمّ إليها كلّ فئات المجتمع المسيحيّ. وكان من مظاهرها قيام السياسيّ والمناضل والخطيب المفوّه

---

١ - **البرغسونيّة** BERGSONISME: مذهب فلسفيّ منسوب إلى الفيلسوف الفرنسيّ "برغسون BEROSON" (١٨٥٩ - ١٩٤١) قائم على التمييز بين المعرفة العقليّة والحدس، قائل بأنّ الحدس وحده قادر على إدراك الواقع العميق. مع أن برغسون قد دافع عن الروحانيّة ضدّ المذاهب الوضعيّة والماديّة فكان لتعليمه تأثير كبير، تُعتبر مؤلفاته من مناهل الوجوديّة في بلاده، منها "المحاولة في درس أوضاع الوجدان" و"المادة والذاكرة" و"التطوّر الخلّاق".

٢ - **حركة العمل الكاثوليكيّ**: ليس لعبارة "العمل الكاثوليكيّ" المعنى ذاته في كلّ البلدان، وإن كانت تعني كلّ أشكال رسالة العلمانيّين. ففي إيطاليا، هي منظّمة مركزيّة تابعة للسلطات الكنسيّة؛ وفي بلد آخر، يحسبون، في عداد العمل الكاثوليكيّ، "الجيش المريميّ" وهو منظّمة روحيّة رسوليّة وُلدت في إيرلندا ١٩٢١ وانتشرت في العالم كلّه ابتداء ١٩٤٥، وهي تتوخّى رسالة دينيّة مباشرة محضة، بصرف النظر عن الأطر الاجتماعيّة والإقتصاديّة؛ بينما في بلدان عديدة، ومنها فرنسا، يشدّد "العمل الكاثوليكيّ المتخصّص" على تبشير المحيط وتغيير الأوضاع الاجتماعيّة، وقد بلغت هذه الحركات المتخصّصة في فرنسا ذروتها ١٩٥٠ - ١٩٦٠، تجتمع فيها حركات الشبيبة المؤسّسة قبل الحرب ومنها: الشبيبة العاملة المسيحيّة، الشبيبة المزارعة المسيحيّة، الشبيبة المستقلّة المسيحيّة، الشبيبة الطالبة المسيحيّة، وسواها من التجمّعات القديمة التي انضوت للدفاع عن الدين تحت لواء حركات العمل الكاثوليكيّ العامّ للرجال والنساء، إضافة إلى حركات البالغين التي وجدت هيكليّتها في خمسينات القرن العشرين، والشبيبة المستقلّة المسيحيّة التي وُلدت حديثًا نسبيًا. وبما أنّ العمل الكاثوليكيّ هو مشاركة في رسالة الكنيسة الرسوليّة، فهو يشمل المشاركة في رسالة الأساقفة، وهذا يفرض فكرة "التفويض" الذي تعطيه السلطة الكنسيّة للحركات والمناضلين، كما يفرض استقلال هذه الحركات عن الأحزاب السياسيّة والنقابات. ولا شكّ في أنّ الإلتزام الموقّت مطلوب من "المناضلين" في تلك الحركة، لكنّه التزام شخصيّ.

٣ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٢٣.

الكاثوليكيّ الفرنسيّ المدافع عن الحقوق الإجتماعيّة "ألبير دي مان ALBERT DE MUN" (١٨٤١ ـ ١٩١٤) سنة ١٨٨٦ بتأسيس الحركة الكاثوليكيّة للشبيبة الفرنسيّة ACTION CATHOLIQUE DE LA JEUNESSE FRANÇAISE A.C.J.F. لتضمّ شباب الطبقة المتوسّطة؛ وأسّس الأب "كارديجن[١]" سنة ١٩٢٥ حركة "الشبيبة العاملة الكاثوليكيّة J.O.C." لخدمة ورعاية الطبقة العمّاليّة التي أُهملت زمنًا طويلاً من قِبَل الأنشطة الكنسيّة. وقامت "حركة الشباب المزارعين الكاثوليكيّة J A C" سنة ١٩٢٩؛ ثمّ "حركة الطلاّب الكاثوليكيّة J E C" سنة ١٩٣٠. وكان من الطبيعيّ أن تضمّ تلك الحركات الشباب من الجنسَين، وقد امتدّ أكثرها إلى مختلف دول أوروبّا ثمّ تعدّاها إلى العالم. وضع البابا بيوس الحادي عشر إطارًا لاهوتيًّا لهذه الأنشطة، لتكون طاقة مجدّدة للحياة المسيحيّة، وعونًا لرجال الإكليروس في أداء رسالتهم. وقد سبق أن أشرنا إلى الحركة المتطرّفة التي قامت باسم "حركة العمل الفرنسيّة ACTION FRANÇAISE" سنة ١٨٩٨، وهي الحركة المشبوهة التي أسّسها "شارل موراس" الذي لم يكن يمتّ بصلة إلى الإيمان المسيحيّ، وقد أثارت حركته الشك عند البابا بيوس الحادي عشر لوجود سمات وثنيّة في نزعتها التي أخضعت الأمور لمنهاج سياسيّ، ولوقوفها حائلاً دون مصالحة الدولة والكنيسة، التي بذل الكرسيّ الرسوليّ جهده من أجل تحقيقها، فحرّمها. ويبدو من خلال هذه الظاهرة أنّ طوابير خامسة قد تسلّلت إلى مسرح الأحداث في فرنسا قبل نهاية القرن التاسع عشر، عاملة على تحقيق أهداف مشبوهة ليست لصالح أيّ من الطرفَين المتصارعَين. وعندما أدان البابا "حركة العمل" بحزم، وحرّم على الكاثوليك الانضمام إليها، لاحت ردود فعل متألّمة عند بعض أبناء الكنيسة، إذ رأوا في ذلك نوعًا من القسوة والظلم الفادح. وسرعان ما هدأت الأمور بعد اتّضاح حقائقها وعاد الحماس إلى

---

١ ـ كارديجن JOSEPH CARDINAL CARDIJN (١٨٨٢ ـ ١٩٦٧): كاهن كاثوليكيّ بلجيكيّ.

النشاط الكاثوليكيّ[1].

في الوقت نفسه، شهدت أوروبّا إثر الحرب العالميّة الأولى نشوء حركات سياسيّة خطيرة، لاح لروما أنّها تنذر بعواقب دمويّة خطيرة. وكان أبرز تلك الحركات: الفاشيّة[2]. وقد بدأت هذه الحركة بتجمّع جماعة المحاربين القدامى الذين كوّنوا رابطة في ما بينهم، دفعتهم حماسة وطنيّة غامرة لإنقاذ إيطاليا، بعد أن أخفقت في حروبها ولم تحقّق مآربها وتراكمت عليها الصعاب الاقتصاديّة. وقد لعبت الفاشيّة الإيطاليّة التي تزعّمها موسوليني* على أوتار النعرة القوميّة، وعدّت نفسها نصيرة النظام والقانون، وضمان الملكيّة الخاصّة، والمحافظة على الأخلاق المسيحيّة، وظهرت بمظهر الخصم العنيد لحكم الغوغاء والمخرّبين. وجاءت الثورة "البولشفيّة" في روسيا سنة ١٩١٧ والثورات العمّالية التي اندلعت في ألمانيا وإيطاليا والمجر* لتثير التخوّف عقب الحرب العالميّة الأولى. وامتزج الاضطراب الاجتماعيّ في إيطاليا بالسخط العامّ على الأسلاب الضئيلة التي نالتها من وراء دخولها الحرب. فانتهز موسوليني الفوضى العامّة التي سادت إيطاليا جرّاء عجز الحكومة الإيطاليّة عن الضرب على أيدي المشاغبين المأجورين، فتظاهر بأنّه المخلّص القويّ لإيطاليا من الفوضى والشيوعيّة. وأيّده حسن تنظيمه لحزبه الذي ضمّ "شباب القمصان السوداء" والعاطلين عن العمل والمتذمّرين على اختلاف ألوانهم، وقد جعل موسوليني شعار حركته "عصا السلطان" في عصر الرومان القديم. وانتهجت الفاشيّة نظريّة "داروين*" القائلة بـ"بقاء الأصلح"، وأقامت تنظيمها على تمثيل الطبقات في سبيل بناء دولة اشتراكيّة. وقد جذبت إليها تأييد الجماهير بخلق مجالات للعمّال البطّال وإغاثة الفقراء، ولكنّ السلطة الحقيقيّة

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٢٣، ٣٣٢.

٢ ـ الفاشيّة أو الفاشيستيّة FASCHISME: من الإيطاليّة FASCIO، بمعنى عصبة.

كانت في أيدي طبقة ممتازة[١]. ويذكر باحثون[٢] أنّ الفاشيّين كانوا في غالبيّتهم العديّة من الطبقة الشعبيّة التي نصبت العداء للكنيسة ولرجالها، إلاّ أنّ الخوف من المدّ الشيوعيّ الملحد قارب بين جماعتهم وبين عدد من الكاثوليك المحافظين، وقد نجح موسوليني في كسب الكاثوليك إلى جانبه من خلال عقد "معاهدة اللاتران*". على أنّ الفاشيّة لم تلبث، وزعيمها موسوليني، إلاّ قليلاً حتّى بدأت تكشف عن أهدافها الحقيقيّة، وقد عبّر عن ذلك زعيمها بقوله: "إنّي آخذ الإبن من مولده ولا أتركه للكنيسة إلاّ لحظة وفاته وهي لحظة على البابا أن يهتمّ بها...". وهكذا اتّضح أنّ الفاشيّة أرادت أن تضمّ إلى حزبها كلّ إنسان من مولده إلى وفاته، ولم تقبل أن يعيقها عائق في سبيل تحقيق هذا الهدف. وأخذت في التعدّي على كلّ المؤسّسات الدينيّة حتّى حسم البابا بيوس الحادي عشر الموقف في وثيقة أصدرها بعنوان "لسنا بحاجة NON ABBIAMO BISOGNO" سنة ١٩٣١، أعلنت رفضه للنظام الشموليّ وللحكم الدكتاتوريّ، وطالبت بحريّة الكنيسة وحقّها في حمل رسالتها التربويّة، ولم تخلُ وثيقة البابا من نبرة الرغبة في إقامة جسور من التفاهم بين الكنيسة والسلطة، إذ ناشد أعضاء حركة "العمل الكاثوليكيّ" الابتعاد عن أيّ نشاط نقابيّ أو سياسيّ. ولكنّ البابا لم يستطع خلال الحرب الإيطاليّة الحبشيّة (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩) إيقاف الموجة الوطنيّة التي جرفت معها كثيرين من الكاثوليك. وقد عبّرت الجريدة الناطقة باسم الفاتيكان: "أوسرفاتوري رومانو" عن موقف البابا من تلك الحرب بنشرها مقالات جاء فيها "أنّه لا يوجد مبرّر لشنّ حرب هيمنة على الشعوب".

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٣: ١٧٠٩ ـ ١٧١٠.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٢٤.

ومثلما مهّدت الظروف الناتجة عن تداعيات الحرب العالميّة الأولى لنشوء الفاشيّة في إيطالية، يمكن القول إنّ هزيمة ألمانيا في تلك الحرب قد أدّت إلى ظهور "النازيّة[1]" فيها. وقد تبلور الفكر النازيّ في كتاب هتلر: "كفاحي"، وهو الكتاب الذي تبنّى تحقيق ما جاء فيه "الحزب الوطنيّ الاشتراكي" في ألمانيا. وقد التفّ جميع الساخطين على نتائج الحرب حول هتلر، واتّهموا اليهود والـ"بلاشفة[2]" والاشتراكيّين بالخيانة، وبالعمل على هزيمة الوطن. وبالنظر لِما وضعه كتاب "كفاحي" من إيديولوجيّة ترتكز على تفرقة عنصريّة صارخة، وعداء حاسم للساميّة، وهدف، لا شكّ فيه، هو تدمير المسيحيّة، فقد أعلن الأساقفة بأنّه لا يمكن للمسيحيّ أن يكون نازيًّا. ولكن عندما قفز هتلر إلى السلطة إبّان أزمة سنة ١٩٣٣ الخانقة التي ألمّت بألمانيا، رغم أنّه لم يحظَ بأغلبيّة مطلقة، أيّده الكاثوليك، وبخاصّة كاثوليك "حزب الوسط" الخائفون من الخطر الشيوعيّ الزاحف. ولم يلبث هتلر طويلاً حتّى حلّ جميع الأحزاب وكشف عن عدائه للدين. فشهر الأساقفة الكاثوليك في وجه حزبه النازيّ سيف الحرمان الكنسيّ. ولكن الزعيم النازيّ نجح في أن يوقّع معاهدة دينيّة بين ألمانيا والفاتيكان سنة ١٩٣٣.[3] وظنّ الكاثوليك أنّ الفرصة قد سنحت لهم بقدر من الحريّة. ولم يدركوا، إلاّ بعد فوات الأوان، أنّ المعاهدة قد سحقت كلّ حقوق الكنيسة، وأنّ هتلر لم يضع في اعتباره أيّ

---

١ ـ النازيّة NAZISME: نسبة إلى نازي NAZI: الحروف الرمزيّة ABRÉVITION لعبارة NATIONAL - SOZIALIST الألمانيّة التي تعني "الاشتراكيّة الوطنيّة".

٢ ـ "بلاشفة BOLCHEVISTES: في الروسيّة BOLCHEVIK أي "أعضاء الأغلبيّة"، وهو الأسم الذي أُطلق على الفريق الأكبر للإشتراكيّة الروسيّة الذي تزعّمه لينين، وهو الفرع الذي نادى بالقضاء العاجل على النظام القائم في روسيا بثورة إجتماعيّة وإنشاء دكتاتوريّة الأجراء البروليتاريّة؛ بينما أطلق على فريق الأقليّة إسم "المنشفيك" أي "أعضاء الأقليّة" وهو الفريق الذي تزعّمه "بليخانوف" وكان يؤمن بأنّ روسيا لا يمكن أن تنتقل من حالتها المتخلّفة مباشرة إلى حكم البروليتاريا، بل لا بدّ من قيام مرحلة انتقاليّة أوّلاً هي مرحلة ديمقراطيّة بورجوازيّة كما كانت الحال في أوروبّا الغربيّة.

٣ ـ وقّع تلك المعاهدة عن الفاتيكان الكاردينال باشيلي، الذي أصبح البابا بيوس الثاني عشر (١٩٣٩ ـ ١٩٥٨).

احترام لبنودها. وفشلت جهود الكاثوليك والبروتستانت في وقف إعصار النازيّة المدمّر الذي بدأ في إبادة مَن يقف أمامه وتحطيم كلّ العوائق لامتداده. فكان للبابا بيوس الحادي عشر موقف صريح من الحركة النازيّة، إذ أعلن رفضه الواضح والحاسم للتفرقة العنصريّة التي نادت بها، وللعداء الذي شنّته على الساميّة، كما وقف ضدّ تأليه الدولة والموجة العارمة التي تعتدي على حرمة الأديرة والكنائس. وتوفّي البابا قبل أن ينشر خطابه الذي شبّه فيه الاضطهاد النازيّ بالاضطهاد النيرونيّ. إلاّ أنّ خطر النازيّة لم يكن قد تكشّف للكثيرين في أوروبّا وقد شغلهم المدّ الشيوعيّ[1].

في شبه خطوات منسّقة تقدّمت الشيوعيّة لتسيطر على روما. فمنذ سنة ١٩١٧ حتّى سنة ١٩٢٠، نجحت في الوصول إلى سدّة الحكم الروسيّ وأضحى لها وطن، ومن ثمّ بدأ القلق والخوف من المدّ الشيوعيّ يساوران البلدان الأوروبيّة. وازداد القلق عقب إعلان الجمهوريّة في إسبانيا سنة ١٩٣١، وقد صحب ذلك الإعلان اتّجاه عنيف لاضطهاد الكنيسة ورجالها، فخُرّبت الأديرة ونُهبت مؤسّسات الكنيسة، حتّى برز الجنرال "فرنشيسكو فرانكو[2]" كبطل وطنيّ مسيحيّ، وكرمز للمقاومة. واشتعلت الحرب الأهليّة في إسبانيا وراح ضحيّتها أكثر من مليون شخص، وأُحرق نحو ألفي كنيسة واغتيل سبعة آلاف كاهن. وحمل فرنكو لواء الدفاع عن الدين، إذ إنّ صورة البطل الصليبيّ تراءت للإسبان الذين ارتاعوا من الجمهوريّين الشيوعيّين.

١ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦.

٢ ـ **فرنشيسكو فرانكو** FRANCO (١٨٩٢ ـ ١٩٧٥): جنرال إسبانيّ ورئيس الدولة، سار في طليعة الحركة الثوريّة الوطنيّة التي آل أمرها بعد الحرب الأهليّة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ التي أدّت إلى قرار الحكم المطلق في إسبانيا، رئيس للحكومة ١٩٣٦، زعيم ١٩٣٧، رئيس للوزراء ١٩٣٩، وصيّ بانتظار تنصيب الملك على عرش إسبانيا ١٩٤٧، حلّ جميع الأحزاب ١٩٤٢، أبعد إسبانيا عن الحرب العالميّة الثانية بالرغم من تحريض موسوليني وهتلر، أعاد نظام الملكيّة الإسبانيّة بموجب قانون تولّي العرش ١٩٤٧ محتفظاً بمنصب الوصيّ وأعلن تنصيب الأمير خوان كارلوس وريثًا لعرش إسبانيا ١٩٦٩.

وفيما أعلن جميع الأساقفة الولاء لفرانكو سنة ١٩٣٧، ناهض كثيرون من المفكّرين والكتّاب الكاثوليك سياسة فرنكو بسبب الحالة الدمويّة التي صاحبت حركته، فكتب جورج برنانُس* يقول: "إنّ حرب إسبانيا هي مقبرة عامّة، توارى فيها عظام المبادئ الحقيقيّة والباطلة، والأهداف النبيلة والأهداف الرديئة...". وقد تمسّك كاثوليك إقليم الـ"باسك[١]" بالمبادئ الجمهوريّة، كما تمسّك بها بعض الكاثوليك في إسبانيا. وجدير بالذكر أنّ القوى العالميّة انقسمت في مواقفها إزاء الحرب الأهليّة الإسبانيّة سعيًا وراء مصالحها، فقد ساعدت القوى النازيّة الألمانيّة والفاشيّة الإيطاليّة فرانكو، وقدّمت له العون، كما تلقّى الجمهوريّون العون من باقي القوى العالميّة الأخرى[٢].

كان للأحداث الإسبانيّة تداعياتها على الوضع في دول أميركا اللاتينيّة التي لم تحصل على استقلالها قبل الحقبة الواقعة ما بين ١٨١٧ و١٨٢٣، وتجاه نشوء "النزعة الطبيعيّة الوضعيّة" في تلك الدول كما سبق التبيان، حاول الأساقفة الكاثوليك في أميركا اللاتينيّة، من خلال مجمع عامّ عُقد في روما سنة ١٨٩٩، إعلان الدعوة إلى تجديد شامل للكنيسة. إلاّ أنّ اندلاع ثورة المكسيك[٣] سنة ١٩١٠ قد أعاق تحقيق هذا النداء،

---

١ ـ باسك أو بشكُنش BASQUE: مقاطعات فرنسيّة وإسبانيّة واقعة في منحدرات جبال البيرينيه الشماليّة يقطنها شعب بهذا الإسم، مشهورة بالمضايق التي قُتل فيها القائد رولان ٨٧٧ بطل الملحمة الفرنسيّة المعروفة باسمه وجاء فيها أنّ "البشكنش ناصروا العرب على الفرنجة"، لغة الباسك خاصّة لا علاقة لها بلغات المحيط لم تنصهر نزعتهم القوميّة بالدولتين اللتين تضمّان إقليميهم إذ لا زالت حركتهم المطالبة بالاستقلال الذاتي حيّة خاصّة في المنطقة الإسبانيّة.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

٣ ـ **ثورة المكسيك**: أرسلت فرنسا بناء على طلب المحافظين المكسيكيّين حملة عسكريّة إلى المكسيك لمواجهة "بينيتو هوريس" الذي قام بحركة إصلاح ديمقراطيّة كان من ثمراتها دستور ١٨٥٧، استولت الحملة على العاصمة ١٨٦٣ وتوّج "ماكسيميليان" أمبراطورًا للمكسيك ١٨٦٤، قاوم هواريس هذا النظام وقضى عليه وأعاد الرئاسة ١٨٧٦، تولّى بعده "بورفيريو دياز" ١٨٧٦ وأصبح ديكتاتورًا حتّى ١٩١٠ حين نشبت الثورة ضدّه بزعامة "فرانسيسكو ماديرو" وأسقطته، ومن ثمّ أشعل بعض الزعماء نيران الفتن إلى أن أعلن دستور ١٩١٧ الذي أمّم الثروة المعدنيّة، تولّى "كاليس" الرئاسة لمدّة، وفي عهد "لازارو كارديناس" (١٩٣٤ ـ ١٩٤٠) أمكن تنفيذ عدّة برامج اجتماعيّة وتعليميّة وصناعيّة حقّقت للبلاد نهضة طيّبة، وسوف تعلن المكسيك الحرب على دول "المحور" ١٩٤٢ لتخرج مستفيدة من نتائج الحرب العالميّة الثانية بنظام جمهوريّ ما زال مستقرًا.

وبخاصّة أنّ الثورة جنحت إلى الحدّ من نفوذ الكنيسة ورجالها، ومنعتهم من الهيمنة على المدارس، وقلّصت من عدد الكهنة. فثار بعض الكاثوليك واشتعلت الحرب الأهليّة سنة ١٩٢٦ وظلّت ثلاث سنوات حتّى هدأت سنة ١٩٢٩، دون أن يتوقّف اضطهاد رجال الدين حتّى نهاية سنة ١٩٣٧ في عهد "لازارو كارديناس[١]".

في تلك الحقبة، كانت الجهود التي بذلتها البابويّة في بداية القرن العشرين في الحقل الاجتماعيّ، قد أدّت إلى انبثاق ما يُسمّى "تعليم الكنيسة الاجتماعيّ". فتوسّع البابوات في فكرة لاون الثالث عشر تلك وأغنوها. وفي سنة ١٩٢٩، دافع البابا بيوس الحادي عشر عن "مشروعيّة" النقابات المسيحيّة، كما دافع عنها الكاردينال "ليانار"، أسقف "ليل"، وكافّة الإكليروس، ضدّ أصحاب العمل في الشمال. وفي سنة ١٩٣١، ظهرت رسالة البابا بيّوس الحادي عشر "السنة الأربعون" التي وسّعت أطر "الشؤون الحديثة". وقد كان ذلك في الآونة التي قوي فيها التهديد الشيوعيّ، وظهرت الأزمة الاقتصاديّة العالميّة. فواصل البابا إدانة الاشتراكيّة، لكنّه تخطّى إطار المشاريع الفرديّة وواجه الإقتصاد على الصعيد الوطنيّ، إذ طالب "بتجديد النظام الاجتماعيّ والاقتصاديّ بالعموم". وكانت له أيضًا الرسالتان حول النازيّة والشيوعيّة سنة ١٩٣٧، الداعيتان إلى تعليم اجتماعيّ مسيحيّ يقوم في وجه "وثنيّة الحكم الشموليّ". ويتّضح من خلال متابعة مضامين رسائل البابا بيوس الحادي عشر وخطبه ومواقفه، أنّه شجب الماركسيّة الملحدة والعنصريّة النازيّة في آن[٢]. ولكنّ كلّ ذلك قد جاء في تأكيدات نظريّة لا تغني عن الحلول العمليّة التي كانت نتائجها قد اختُبرت من قبل.

---

١ ـ لازارو كاردينـاس LAZZARO CARDENAS (١٨٩٥ ـ ١٩٧٠): سياسيّ مكسيكيّ، رئيس المكسيك ١٩٣٤ ـ ١٩٤٠، أجـرى إصلاحات عديدة.

٢ ـ بتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

تَدَاعِياتُ الحَرب العَالميّة الأولَى
علَى الرّسالَـــــة العَالميَّـــــة

أدّت الحرب العالميّة الأولى إلى خمود جذوة الحماسة التبشيريّة، ويعزو باحثون الأسباب في ذلك إلى تجنيد الشباب، بمَن فيهم المرسَلون، ونضوب موارد العون، وتقاسم الإنكليز والفرنسيّين المستعمرات الألمانيّة في جزر المحيط: الكاميرون والغابون، وطرد المرسَلين الألمان، ووضع مَن بقي منهم تحت رقابة مشدّدة. وإلى أنّ تلك الحرب قد شوّهت صورة الكرازة المسيحيّة، إذ رأى المسيحيّون الجدد، من شعوب البلدان التي كانت مقصد المبشّرين، شراسة الحرب بين البلدان التي يفد منها المبشّرون، وهكذا فقد أشعلت تداعيات الحرب العالميّة الأولى، في وجدان الشعوب، نزعة العودة إلى القوميّة الوطنيّة، بعد أن اهتزّت صورة الحضارة المسيحيّة الغربيّة. وقد تطرّق البابا بندكتس الخامس عشر إلى هذه المعاني في رسالة نقد ذاتيّ لبنيان الكنيسة الجديدة في مناطق الإرساليّات، أصدرها سنة ١٩١٩، وعبّر فيها عن حزنه العميق إزاء الخلط بين رسالة الإنجيل ومصالح الدول المستعمِرة. وكان بعض المرسَلين قد مزج بين قضيّة اللّه ومصالح بلده. وتعجّب البابا كيف يمكن أن نفهم وضع الكنائس الجديدة وقد مضى عليها قرون من الزمان وليس لها إكليروسها المحلّيّ من أبنائها[1]. وكان هذا البابا قد اهتمّ بالكنائس الشرقيّة، وأسّس سنة ١٩١٧ "مجمع الكنائس الشرقيّة[2]".

وجاء البابا بيّوس الحادي عشر ليحقّق رغبة سلفه بندكتُس، سنة ١٩٢٦، من خلال وضع إطار رسوليّ لتعليم الكنيسة في مجال الكرازة، وقد شجّع هذا البابا حركات

---

١ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٣٥.

٢ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

"العمل الكاثوليكيّ" ونظّمها، ونشّط الإرساليّات التبشيريّة، وحثّ المرسَلين الأوروبيّين على تسليم الإكليروس المحلّيّ في الإرساليّات مهامّ الخدمة الدينيّة. ومنح الرسامة الأسقفيّة لأوّل أسقف أسود[1]. وتابع في مختلف النواحي خطّة البابا لاون الثالث عشر[2]. وذلك في وثيقة تحت عنوان "شؤون الكنيسة RERUM ECCLESIAE"، تقول بالفصل بين رسالة الكنيسة والعمل السياسيّ والمصالح السياسيّة، جاء فيها:

> لقد عصفت حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ بالإرساليّات المسيحيّة، واضطرّ المرسَلون الأوروبيّون إلى ترك رسالتهم ولم يكن قد تمّ إعداد وترتيب إكليروس محلّيّ ليحمل تبعاتها، وقد تكون نزعة وطنيّة غربيّة قد ظهرت فأعاقت رسالة الإنجيل. إنّ هناك عدّة مناطق عرفت الكنيسة الكاثوليكيّة منذ قرون طويلة مضت وليس فيها إكليروس محلّيّ، وهناك بلدان أشرق فيها نور الإنجيل وتمكّنت من النهوض إلى عالم الحضارة، وتخلّصت من أمور بربريّة كثيرة، بين أبنائها قادة في مختلف مجالات الفنون والعلوم والآداب، ولكنّها لم تتمكّن من الحصول على أسقف واحد من بين أبنائها، كما لم يكن لدَيها كهنة محلّيّون ذوو مكانة مرموقة. هذا الأمر يشير إلى خلل في منهج الكرازة وفي اتّجاه التكوين لأنشطة الإرساليّات. ألمنا لشديد ونحن نشهد ملكوت اللّه يتوارى خلف صراع المصالح الخاصّة. إنّ المرسَل الكاثوليكيّ ليس هو بالمرسَل من قِبَل وطنه، بل هو مرسَل من قِبَل المسيح، وعليه أن يسلك أمام شعوب الأرض سلوكًا يؤكّد على أنّ المسيحيّة ليست دين غرباء، بل هي ديانة الأمم قاطبة، "تضمّ في نور إيمانها جميع الأجناس الذين يعبدون اللّه بالروح والحقّ، ليس فيها يونانيّ أو يهوديّ، ولا ختان أو قلف، ولا أعجميّ ولا إسكوتيّ، ولا عبد ولا حرّ، بل المسيح الذي هو كلّ شيء وفي كلّ شيء". (قول ٣/١١).

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٣٥.

وأرسل البابا مندوبين إلى مختلف البلدان "كرجال دين، لا كرجال سياسة". وتحقيقًا لهذا الفصل بين الرسالة التبشيريّة والسياسة، تمّ نقل "المؤسّسة الخيريّة لنشر الإيمان" سنة ١٩٢٦ من ليون إلى روما. وبدأ، منذ ذلك العام، تقليد كنسيّ يكرّس يوم الأحد الثالث من شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) كيوم خاصّ بالرسالة والمرسَلين. وفي سنة ١٩٢٧، أُعلنت القدّيسة تريزيا الطفل يسوع شفيعة للإرساليّات، ثمّ أُنشئت وكالة الأنباء الخاصّة بالإرساليّات تحت اسم "فيديس FIDES" أي "الإيمان[١]".

وهكذا نلاحظ أنّ بعض التداعيات السلبيّة للحرب العالميّة الأولى على موضوع الكرازة، قد نبّهت الكنيسة الرومانيّة إلى وجوب تخلّصها من نزعة الاستعمار الغربيّة، التي كانت، إلى حدّ بعيد، قد تأثّرت بها من منطلق أنّها من صميم أوروبّا الإستعماريّة. وكانت تلك النزعة عند الكنيسة قد بدت جليّة في محاولات اللتننة التي مارسها المرسَلون الكاثوليك في مناطق رسالتهم، فيما حاول البروتستانت الأُنكلوساكسون تطبيق الشكل نفسه على الطريقة الإنكليزيّة. وبنتيجة ذلك التنبّه، نادى البابا بندكتُس الخامس عشر برسامة أساقفة وكهنة من أبناء البلدان الذين يتقبّلون المسيحيّة على أيدي الإرساليّات. وتطبيقًا لهذه الإرادة الكنسيّة الكاثوليكيّة العليا، عيّن البابا الذي خلفه: بيوس الحادي عشر، ستّة أساقفة صينيّين سنة ١٩٢٣، وأسقفًا يابانيًّا لمدينة ناغازاكي سنة ١٩٢٧، وأسقفًا فيتناميًّا سنة ١٩٣٣، وتمّت رسامة أوّل أسقف أسود سنة ١٩٣٩. وسرعان ما تسلّم الأساقفة الوطنيّون ما يقرب من ثمان وأربعين منطقة خاصّة بالإرساليّات. وأُقيمت المعاهد الإكليريكيّة في مناطق كثيرة من العالم لتخريج الإكليروس الوطنيّ، كما فَتحت "كليّة انتشار الإيمان" في روما أبوابها أمام الشباب من جميع أنحاء العالم. وكان من بين روّاد العمل الرسوليّ الذين بذلوا جهدًا خارقًا للتوفيق

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٣٥.

بين الفكر المسيحيّ وتراث الثقافات المحليّة، المرسَل اللعازاريّ البلجيكيّ الأب "ليب LEBBE" (١٨٧٧ ـ ١٩٤٠) الذي سبقت الإشارة إليه[١]. فقد كرّس حياته للدفاع عن حقوق الإنسان الصينيّ وأسّس جماعة رهبانيّة صينيّة من الجنسَين، وحصل على الجنسيّة الصينيّة سنة ١٩٣٣، وعمل في خدمة الجرحى خلال الحرب بين اليابان والصين، وكان يركّز دومًا في عمله لكي تظلّ الكنيسة في منأى عن صراع المصالح الغربيّة. إلاّ أنّ الصين الواسعة كانت تتطلّب ألوف المرسَلين أمثال "ليب" لكي تعمّ المسيحيّة فيها. فها هي اليوم، مع وجود جامعة لليسوعيّين في شنغهاي، لا يزيد عدد المسيحيّين في الصين، من كاثوليك وبروتستانت، عن خمسة ملايين مؤمن. وبديهيّ أنّ هذا العدد متواضع جدًّا، إذ لا يشكلّ أكثر من ١٪ من عدد الصينيّين. ذلك أنّ أمثال "ليب" قليلون، لذلك ظلّت المدارس المسيحيّة ومؤسّسات الإرساليّات أوروبيّة السمات، لاتينيّة المنهج والطابع، بعيدة عن الجذور الصينيّة وتراث الصين. كذلك بقي قليل أمثال زميل للأب "ليب"، هو الراهب البندكتيّ "هنري دو سو" الذي قام بتأسيس "دير أشرم" في الهند، في محاولة للتوفيق بين التصوّف المسيحيّ وحياة التوحّد على الطريقة الهنديّة[٢].

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٢٣٥.

٢ ـ المرجع السابق.

فِي خِلَالَ الحَربِ العَالَميَّة الثَّانيَة

عندما انتُخب بيّوس الثاني عشر ليكون رأس الكنيسة الكاثوليكيّة سنة ١٩٣٩ خلفًا للبابا الرحل بيّوس الحادي عشر الذي تسنّم الكرسيّ الرسوليّ في حقبة فاصلة بين حربَين (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩)، كانت الحرب العالميّة الثانيّة تذرّ بقرنها وسط أفق ينذر بشرّ مستطير. وكان البابا الراحل قد قام بين الحربَين بمحاولات كثيرة لتوطيد السلام. غير أنّ السياسة العدوانيّة التي اتّبعتها دول المحور: ألمانيا وإيطاليا واليابان، قد بلغت ذروتها باستيلاء الألمان على بوهيميا* ومورافيا* في آذار (مارس) ١٩٣٩. وهكذا فإنّ الدولتَين الغربيتَين: فرنسا وإنكلترا، اللتيَن كانتا قد حاولتا اتّباع سياسة التهدئة بتوقيعهما معاهدة ميونيخ سنة ١٩٣٨، راحتا تجدّان في إعادة التسلّح. في المقابل، طالب هتلر باستعادة "دانزغ[١]" و"الممرّ البولندي[٢]" وعقد ميثاق عدم اعتداء مع الإتّحاد السوفياتي في آب (أغسطس) ١٩٣٩، فأصبح حرًّا في قطع مفاوضاته مع الغرب. ثمّ هاجم بولندا في الأوّل من أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩، فأعلنت فرنسا وإنكلترا ومعها غالبيّة دول الكومنولث الحرب على ألمانيا. وهكذا بدأت الحرب العالميّة الثانية التي سوف تترك بصماتها على المسيحيّين وعلى الكنيسة في البلدان المعنيّة بالحرب، بدرجات متفاوتة.

---

١ ـ دانزغ DANZIG, DANTZIG, GDANSK : مدينة في بروسيا الغربيّة، احتلّها الفرنسيّون ١٨٠٧، مدينة حرّة ١٩١٩، ضُمّت إلى الرايخ في أوّل أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩، أصبحت بولونيّة ١٩٤٥.

٢ ـ **الممر البولندي** COULOIR DU DANTZIG : شريط من الأرض بطول نهر الفيستولا الأسفل، يفصل بروسيا الشرقيّة عن بقيّة ألمانيا، كان في زمن ما جزءًا من "بومرانيا" البولنديّة ولكنّ أقلّيّة ألمانيّة كانت تقطن فيه، كان سببًا لاحتكاك طويل بين ألمانيا وبولندا، مُنح الممرّ لبولندا بمقتضى معاهدة فرساي ١٩١٩ ليعطيها منفذًا إلى بحر البلطيك، شكّل إخفاق المفاوضات بصدد إعادة مدينة دانزغ الحرّة إلى الوطن الألمانيّ وإنشاء ممرّ ألماني ذي امتيازات السيادة عبر الممرّ البولندي السبب المباشر لغزو ألمانيا لبولندا ونشوب الحرب العالميّة الثانية.

فقد واجه المسيحيّون، كسائر مواطنيهم، نتائج الحرب، دمارًا ومجازر في أوروبا التي وقعت بنسبة ٧٥٪ تحت الحكم الألمانيّ النازيّ. إذ سرعان ما انتصرت ألمانيا على بولندا باتّباعها "تكتيكات الصاعقة". وفيما قضت القوّات البريطانيّة الشتاء بلا عمل في الجبهة الغربيّة، ومتحصّنة وراء "خطّ ماجينو [١]"، تابعت ألمانيا الغزو في نيسان (إبريل) ١٩٤٠، فاحتلّت الدانمارك والنروج والأراضي المنخفضة في أيّار (مايو) وانقضّت على شمال فرنسا واكتسحت ثغور القتال الإنكليزيّ عند بحر المانش [٢]، وقضت على الحلفاء [٣] الذين أسرعوا بالانسحاب من "دنكرك [٤]" إثر معركة جرت فيها. ودخلت القوّات الألمانيّة إيطاليا في ١٠ حزيران (يونيو) حربًا. وسلّمت فرنسا للنازيّين في الثاني والعشرين من الشهر نفسه. بينما وقفت إنكلترا وحدها في معركة بريطانيا، بزعامة تشرشل، تقاوم القاذفات الألمانيّة. واستمرّ القتال في شمال أفريقيا بين الإيطاليّين والبريطانيّين، وفي البلقان بين الإيطاليّين واليونانيّين في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٤٠. وغزت ألمانيا والمجر * وبلغاريا *، متحالفة، يوغوسلافيا * في نيسان (إبريل) ١٩٤١. وكسب المحور [٥] الشوط الأوّل من الحرب. وعندما غزا هتلر روسيا في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١، اقتربت الولايات المتّحدة من دخول الحرب، إذ أعلن

---

١ ـ **خطّ ماجينو** MAGINOT: خطّ دفاعيّ على الحدود الشرقيّة لفرنسا منسوب إلى المهندس ورجل الدولة الفرنسيّ أندريه ماجينو (١٨٧٧ ـ ١٩٣٢) الذي بناه.

٢ ـ **المانش** MANCHE: بحر في أوروبّا بين فرنسا وإنكلترا يصل بين بحرَي الشمال والأطلسي، عرضه في أضيق نقطة ٣١ كلم.

٣ ـ **الحلفاء**: اصطلاح يعنى به التحالف الإنكليزيّ الفرنسيّ الذي انضمّت إليه الولايات المتّحدة وسائر الدول التي حاربت ضدّ حلف المحور في الحرب العالميّة الثانية.

٤ ـ **دنكرك** DUNKERQUE: مدينة ومرفأ في شمال فرنسا على بحر الشمال.

٥ ـ **المحور**: تحالف ألمانيّ إيطاليّ أبرم ١٩٣٦ وتحوّل إلى معاهدة ١٩٣٩، انضمّت إليه اليابان عبر ميثاق برلين ١٩٤٠ ثمّ رومانيا وبلغاريا والمجر وإسبانيا وفنلندا وغيرها.

الكونغرس نظام "الإعارة والتأجير[١]". وسرعان ما احتلّت الولايات المتّحدة "إيسلندا" و"غرينلاند[٢]". وأدّى اعتداء اليابان على "الهند الصينيّة" و"تايلندا" إلى توتّر الموقف، فهاجمت اليابان "بيرل هاربر[٣]". و"الفيليبين[٤]" و"الملايو[٥]"

---

١ ـ **الإعارة والتأجير**. نظام أباح لرئيس الولايات المتّحدة سلطة التصرّف في مهمّات الحرب بالبيع أو النقل أو الإعارة أو التأجير للأمم التي وقفت إلى جانب الولايات المتّحدة في الحرب العالميّة الثانية، وفي نهاية الحرب أعلن عن إمكان تطبيق هذا القانون على أكثر أعضاء الأمم المتّحدة، انتهى العمل به في ٢١ اب (أغسطس) ١٩٤٥ بعد أن بلغت قيمة المساعدت التي قدّمتها الولايات المتّحدة بموجبه ٥٠,٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار.

٢ ـ **غرينلاند**: جزيرة دانماركيّة معظمها داخل في الدائرة القطبيّة بين كندا غربًا وإيسلندا شرقًا، معظم سكّانها (٦٠,٠٠٠ نسمة) خليط من سلالة الدانماركيّين والإسكيمو. بدأ استعمارها الحديث ١٧٢١ على يد المبشّر النروجي "هانس إيغدي"، أقامت فيها الولايات المتّحدة قواعد حربيّة ١٩٤٠ وقاعدة جويّة ١٩٥٢، أعطاها دستور الدانمارك مكانًا مساويًا لبقيّة أجزاء المملكة ١٩٥٣، منحت الحكم الذاتيّ ١٩٧٩، انسحبت من الجماعة الأوروبيّة ١٩٨٥.

٣ ـ **بيرل هاربر** PEARL HARBOR : مرفأ في جزيرة "أواهو" إحدى جزر هاواي في الأرخبيل الهاديّ، من الجزر التي أُلحقت بالولايات المتّحدة أواخر القرن التاسع عشر، في المرفأ هاجم اليابانيّون عبر غاراتهم الجويّة الصاعقة والانتحاريّة الأسطول الأميركيّ صباح ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١ ودمّروه في الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات الأميركيّة اليابانيّة حول بعض الشؤون في واشنطن.

٤ ـ **الفيليبين** PHILIPPINES : دولة مستقلّة تتألّف من أرخبيل بركانيّ يقع في بحر الصين، عاصمتها السابقة "كويزون" والحاليّة "مانيلا"، عدد سكّانها نحو ٨٨ مليون نسمة معظمهم من مجموعة "الملايي" العرقيّة التي تُعرف باسم "فيليبينو" و"التغالوغ" وأكثرهم كاثوليك وفيها أقلّيّة مسلمة، قاد "ماجيلان" أولى البعثات الأوروبيّة إليها ١٥٢١، بدأ غزوها من قبل الإسبان ١٥٦٤، انتقل حكمها إلى الولايات المتّحدة بعد الحرب الأميركيّة الإسبانيّة، قاد حركة العصيان "إميليو غوينالدو" وتأسّس اتّحاد الفيليبين رسميًا في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ عندما تولّى رئاسة الجمهوريّة "مانويل لويس كيزون" بإشراف الولايات المتحدة على أن تنال الاستقلال التام وفاقًا في ١٤ تمّوز (يوليو) ١٩٤٦، ولكنّ اليابان غزت الفيليبين في الحرب العالميّة الثانية ١٩٤١، حرّرتها الولايات المتّحدة بقيادة "ماك أرثر" ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ وحصلت البلاد على استقلالها المتّفق عليه ١٩٤٦ وانضمّت إلى الأمم المتّحدة، ثمّ إلى منظّمة جنوب شرق أسيا ١٩٥٤، تعرّضت الأقلّيّة الإسلاميّة المقيمة في جزيرة "منداناو" للمذابح على يد القوات الحكوميّة ١٩٧٣ إثر عصيان ومطالبة بالانفصال، منح الرئيس ماركوس الأقلّيّة الإسلاميّة بعض المزايا الاقتصاديّة والاجتماعيّة ١٩٧٤.

٥ ـ **الملايو أو ماليزيا** MALAYSIA: هي اليوم دولة اتحاديّة عضو في الكومنولث، عاصمتها كوالالومبور، تقع في جنوب شرق أسيا وبين بحر الصين الجنوبيّ من الشرق وخليج ملقًا من الغرب، تقوم في شبه جزيرة، سكّانها نحو ٢٠ مليون نسمة. دين الدولة الإسلام.

فـي كـانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١، فـأعلنت الولايــات المتّحـدة الأميركيّـة وغالبيّـة حلفائها، عدا روسيا، الحرب على اليابان؛ وأعلنت ألمانيا وحلفاؤها، عدا فنلندا، الحرب على الولايات المتّحدة. واحتلّت اليابان الفيليبّين وعدّة جزر فـي المحيط الهـادي وكـلّ جنوب شرق آسيا، ووصلت قوّات المحـور إلـى ستالينغراد الروسيّة والقوقـاز، وكـاد الجنرال "رومل[١]" أن يحتلّ القاهرة. وهدّدت الغوّاصات الألمانيّة ملاحـة الحلفـاء الذيـن قاموا بهجوم في جبهات عديدة وانتصروا في بعضها. وفي شمال أفريقيـا تبـع انتصـار "مونتغومـري[٢]" علـى "المحـور" فـي معركـة "العلمَيـن[٢]" فـي تشـرين الأول (أكتوبـر) ١٩٤٢، نزول قوّات أميركيّة في الجزائر، وانتهـى القتـال بانتصـار الحلفـاء فـي جبهـة أفريقيا، ثمّ غزوا جزيرة "صقلّية" وجنوب إيطاليا، فسلّمت إيطاليـا فـي أيلـول (سـبتمبر) ١٩٤٣، وانتصـرت أميركـا فـي معـارك بحريّـة ضـدّ اليابــان فـي "بحـر المرجـان[٣]" و"ميدواي"، ونزل جنودها في "غوادالكنال[٤]". سنة ١٩٤٢، وكسبت قوّاتها، بقيادة "مـاك آرثـر[٥]" سلسـلة معـارك فـي جـزر المحيـط الهـادي واسـتردّت الفيليبّيـن* سـنة ١٩٤٥، وانتقلت المعارك إلى اليابان في "أوجيما" و"أوكيناوا". فيما كانت روسيّا قد انتصرت في

---

١ ـ إرفين رومل ROMMEL (١٨٩١ ـ ١٩٤٤): مارشال ألمانيّ، قاد الفرقة المصفّحة والحملة على أفريقيا ثمّ الجبهة الغربيّة، وعندما قاوم النازيّة "انتحر" بأمر هتلر.

٢ ـ مونتغومري VICOMTE BERNARD LAW MONTGOMERY (١٨٨٧ ـ ١٩٧٦): قائد لندنيّ إنكليزيّ، هزم الجيش الألمانيّ بقيادة رومل في موقعة "العلمَين" في مصر ١٩٤٢، نزل بجيشه على سواحل النورماندي في فرنسا ١٩٤٤ وسار بالنصر حتّى البلطيق ١٩٤٥.

٣ ـ بحر المرجان: بحر يقع بين أستراليا وجزر "هبريد الجديدة" ـ أنظر حاشية غوادالكنال أدناه.

٤ ـ غوادالكنال GUADALCANAL : جزيرة بركانيّة من جزر سالومون ميلانيزيا التي تضمّ أيضًا "غينيا الجديدة" و"كاليدونيا الجديدة" و"هبريد الجديدة" و"فيدجي" وسواها.

٥ ـ دوغلاس ماك آرثر MAC ARTHUR (١٨٨٠ ـ ١٩٦٤): جنرال أميركيّ، قائد عام لجيوش الحلفاء في الباسيفيك في الحرب العالمية الثانية، انتصر على اليابان ١٩٤٥، القائد العام لقوّات الأمم المتّحدة في كوريا ١٩٥٠ ـ ١٩٥١.

"ستالينغراد" سنة ١٩٤٣ وقامت بهجوم مضادّ على طول الجبهة لطرد الألمان فوصلت جيوشها سنة ١٩٤٤ إلى بولندا والمجر * وطردت قوّات المحـور مـن البلقـان. وانتهت "معركة الأطلنطي" بطرد غوّاصات الألمان، ووُجه الحلفاء بمقاومـة ألمانيّـة عنيفـة فـي إيطاليا حيث نشأت ببطء حرب عصابات. ونزلت قوّات الحلفاء، بقيادة "أيزنهاور[١]" في "النورماندي[٢]" في ٦ حزيران (يونيو) في غرب فرنسـا، كمـا نزلـت قـوّات أخـرى فـي جنوبها. وهنا بدأ الدوران المعاكس للجولة الأولى من الحرب العالميّة الثانية، فتحرّرت فرنسا وبلجيكا في أواخر سنة ١٩٤٤ من الاحتـلال الألمـانيّ، بفضـل مسـاهمة مقاومـة داخليّة موصوفة، واتّجه القتال إلى هولندا وقلب ألمانيا التي أبيدت مؤسّساتها الصناعيّـة العسكريّة، ودُكّت المقاومة الألمانيّة فـي نيسـان (إبريـل) ١٩٤٥، وفـي ٧ أيّـار (مـايو) سلّمت ألمانيا دون شروط. وفي آب (أغسطس) أسقطت الولايـات المتّحدة الأميركيّة أوّل قنبلة ذريّة على "هيروشيما[٣]" والثانية على "ناغازاكي[٤]"، وأعلن الإتّحاد السوفياتيّ الحرب علـى اليابـان فغزت قوّاته "مانشوريا[٥]" فـأعلنت اليابـان التسـليم فـي ١٤ آب (أغسطس) ووقّعت شروط التسليم في ٢ أيلـول (سبتمبر) ١٩٤٥، وانتهـت الحـرب... وكانت الخسائر البشريّة والماديّة كارثيّة: فقد بلغت خسـائر القـوّات المسلّحة للولايـات

---

١ ـ دوايت أيزنهاور EISENHOWER (١٨٩٠ ـ ١٩٦٩): عسكريّ وسياسيّ وبطل قوميّ أميركيّ، قاد قوّات الحلفاء في الحرب العالميّة الثانية، رئيس الولايات المتّحدة ١٩٥٣ ـ ١٩٦١.

٢ ـ النورماندي NORMANDIE: مقاطعة قديمة في شمال غرب فرنسا، تتألّف من خمس محافظات.

٣ ـ هيروشيما HIROSHIMA : مدينة ومرفأ في اليابان جنوب جزيرة "هونشو"، خلّفت القنبلة الذريّة التي رماها عليهـا الأميركيّون فـي ٦ آب (أغسطس) ١٩٤٥ نحو ٨٠ ألف قتيل و٧٥ ألف مصـاب.

٤ ـ ناغازاكي NAGASAKI : مدينة ومرفأ في اليابان، جنوب جزيرة "كيوشو"، ألقيت عليها القنبلة الذريّة الثانية فـي ٩ آب ١٩٤٥ فحصدت ٤٠ ألف ضحيّة.

٥ ـ مانشوريا أو مانتشوكو MANDCHOURIE : منطقة في آسيا الشرقيّة هي حاليًا الصين الشماليّة الشرقيّة، قاعدتها "موكدن".

المتّحدة الأميركيّة حوالي ٢٩٢ ألف جندي، ولبريطانيا والكومنولث حوالى ٥٤٥ ألفًا، وللاتّحاد السوفياتي حوالى مليون و٧٥٠ ألفًا، ولفرنسا ٢١٠ آلاف، ولألمانيا ٨٥٠ ألفًا، ولإيطاليا ٣٠٠ ألف، وللصين مليونَين و٢٠٠ ألف، ولليابان أكثر من مليون ونصف، أي ما مجموعه حوالى ١٥ مليونًا يضاف إليهم خسائر بولندا[١] وتشيكوسلوفاكيا[٢] ورومانيا* ودول البلطيق وهولندا وبلجيكا والنروج، إلى جانب ضحايا المعتقلات والسجون الألمانيّة، والغارات الجويّة على المدنيّين، وضحايا القنبلتَين الذريّتَين في اليابان الذين يقدّر عددهم بحوالى ١٧٠ ألفًا[٣]. وفي النهاية، وُقّعت معاهدات الصلح سنة ١٩٤٧ بين إيطاليا ورومانيا* وبلغاريا* وهنغاريا هنغاريا أو المجَر* وفنلندا*، وترتّب على التنافر بين الاتّحاد السوفياتي والولايات المتّحدة تأخير توقيع الصلح مع ألمانيا والنمسا واليابان. وكان من أهمّ نتائج الحرب، على صعيد النظام الدولي، إنشاء الأمم المتّحدة[٤].

في خضمّ ذلك الواقع المرير، وجد الضمير المسيحيّ ذاته أمام خيارات صعبة: ماذا يجب أن يكون موقفنا من المحتلّ؟ هل يجب الرضوخ للسلطات القائمة أم تجب مقاومتها؟ وهل إنّ استعمال العنف بهدف تحرير الأوطان أمرٌ مشروع؟ ثمّ،

---

١ ـ فقدت بولندا ثلث سكّانها، بينهم عدد كبير من نخبة رجالها من ضبّاط وجامعيّين وكهنة، أعدمهم الروس والألمان.

٢ ـ **تشيكوسلوفاكيا** TCHÉCOSLOVAQUIE : جمهوريّة إشتراكيّة إتحاديّة سابقة (١٩١٨ ـ ١٩٣٩؛ ١٩٤٥ ـ ١٩٩٢) في قلب أوروبا الوسطى بين ألمانيا وبولونيا والنمسا والمجر والاتّحاد السوفياتي السابق، كانت تتألف من مقاطعات بوهيميا ومورافيا وسيليزيا، عاصمتها براغ. تألّفت أساسًا ١٩١٨ نتيجة تفكّك مملكة النمسا والمجر. قسّمت ١٩٣٩ إلى ولايات الأراضي التشيكيّة وهي بوهيميا ومورافيا وسيليزيا، تنازلت ١٩٤٥ عن المقاطعة الشرقيّة السابقة "روثينيا" لأوكرانيا السوفياتيّة، قسّمت منذ ١٩٩٣ إلى جمهوريّة "التشيك" وجمهوريّة "سلوفاكيا".

٣ ـ تختلف التقديرات حول عدد ضحايا القنبلتَين، والرقم الأكثر اعتمادا يقول بسقوط نحو ٨٠ ألف قتيل في هيروشيما و٤٠ ألفًا في ناغازاكي، لكنّ هذا الرقم لا يشمل الإصابات التي توفّي أصحابها أو تشوّهوا في ما بعد.

٤ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٢: ٩٦٧ ـ ٩٦٨.

ألا تمثّل البولشيفيّة الخطر ذاته الذي تمثّله النازيّة، إن لم يكن أكثر؟ وهل يمكننا السكوت تجاه إبادة اليهود؟... وكان من الطبيعيّ أن تختلف المواقف باختلاف البلدان، بل وحتّى في داخل كلّ من تلك البلدان. وعلى عكس البابا بنديكتُس الخامس عشر (١٩١٤ ـ ١٩٢٢) الذي كثيرًا ما انتُقد لدعواته إلى السلام إبّان الحرب العالميّة الأولى، فإنّ بيوس الثاني عشر استحقّ الثناء شبه التامّ، في حياته، على مواقفه طوال الحرب العالميّة الثانية. ذلك أنّه كان يفضّل المداخلات الدبلوماسيّة الرصينة على الإعلانات الرسميّة. فهو الذي عمل في السلك الدبلوماسيّ ثمّ سكرتير دولة الفاتيكان، قبل أن يصبح بابا. وكان على علم تامّ بقضايا ألمانيا، وهو الذي وقّع على الإتّفاقيّة بين هتلر والفاتيكان سنة ١٩٣٣، كما شارك في كتابة رسالة بابويّة حول ألمانيا. وهكذا يتّضح أنّ مواقف البابا بيوس الثاني عشر في خلال الحرب العالميّة الثانية، جاءت وليدة سياسة مدروسة مبنيّة على الدبلوماسيّة الواعية والرؤية الشاملة للأمور، والحرص على عدم التسبّب بردّات فعل من قبل أيّ من الدول المتحاربة ضدّ أبناء الكنيسة في ذلك الزمن المجنون، لذلك أراد أن يكون في خلال الحرب العالميّة الثانية مثلما بنديكتُس الخامس عشر في الحرب الأولى: محايدًا وفوق المعركة. ويبدو لنا أنّ المنظّرين، الكاثوليك وغير الكاثوليك، الذين استفاقوا بعد عشرين عامًا على انتهاء الحرب، ليوجّهوا اللوم إلى البابا بيوس الثاني عشر، لأنّه "لم يكن له موقف نبويّ"، أو لأنّه "لم يدن صراحة ذبح اليهود على يد النازيّين" برأي الكاتب الألمانيّ الشاب، "رولف هوكشيت"، الذي عبّر عنه في مسرحيّته "كاهن الرعيّة" التي لاقت نجاحًا باهرًا سنة ١٩٦٣، ولا شكّ في أنّ الصهيونيّة كانت وراء كلّ ذلك؛ أو لأنّ البابا بيّوس الثاني عشر "لم يعترض بشدّة أكثر" كما قال الكاردينال "ديغنر" في ميونيخ سنة ١٩٦٤... يبدو لنا أنّ هؤلاء المنظّرين، إمّا أنّهم غير بريئين وغير منصفين، أو أنّ بعضهم كان

"يحارب بالنظّارات" بعد انقضاء نحو عشرين سنة على الحرب، من دون أيّ شعور بخطورة المسؤوليّة التي كانت تترتّب على كلّ كلمة تصدر عن رأس الكنيسة في مثل تلك الظروف الهوجاء.

أمّا في الواقع، فبعد أن حاول البابا بيوس الثاني عشر، عبثًا، منع إعلان الحرب سنة ١٩٣٩، من خلال نشاطه الدبلوماسيّ الحثيث الداعي الأطراف الأوروبيّة إلى حلّ مشاكلهم بالتفاوض، وقد حضّ الملك الإيطاليّ على إبعاد موسوليني، وعندما لم يفلح، دعا موسوليني، عبثًا أيضًا، للبقاء خارج المعركة. ولطالما لعب بيّوس الثاني عشر دورًا هامًّا إبّان الحرب العالميّة الثانية في محاولاته توطيد العدل والسلام، فلم يتوقّف، طوال زمن الحرب، عن الدعوة إلى وقف العنف والاحتكام إلى الأخلاق والدين عبر خطبه المكثّفة ورسائل الميلاد، إذ كان يعود دائمًا إلى ذكر قساوة الحرب وإلى حسنات التفاوض وإلى أحقيّة السلام المبنيّ على توازن عادل. كما أسّس، برئاسة المونسينيور "مونتيني"، مكتب معلومات يتابع أخبار الأسرى والمفقودين. وكثيرًا ما لجأ عدد من اليهود المتّهمين إلى المؤسّسات البابويّة والأديرة. وغنيّ عن التذكير بأنّه قد بذل قصارى جهده في محاولاته لحماية روما عند وصول الحرب إلى إيطاليا ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤، كما أدان قصف المدينة بشدّة.

وفي ما يختصّ بنفي اليهود وإبادتهم، فقد دلّت التوضيحات التي تدارسها الباحثون على مدى عقدَين بعد الحرب، أنّ المعلومات التي وصلت إلى الفاتيكان في وقت مبكّر، لم تكن واضحة، وبدت "حكاياتها" الجنونيّة كإشاعات مستحيلة التصديق، ورغم ذلك، فقد ألحّ البابا على إدانة "الإبادة العرقيّة" في رسالة الميلاد سنة ١٩٤٢. وعندما تأكّد بعض المعلومات حولها في ربيع ١٩٤٣، وجد بيوس الثاني عشر أنّه ليس بمقدوره عمل شيء، لكنّه أشار إلى وحشيّة ما يجري في خطاب وجّهه إلى الكرادلة في ٢

حزيران (يونيو) ١٩٤٣، وإن كانت التلميحات قد ظلّت عامّة، فلم يذكر لا اليهود ولا الألمان، خوفًا من أن يعود تدخّله بالويل على مَن يريد أن يدافع عنهم. وإذ ترك للأساقفة مسؤوليّة أعمالهم، لم تخلُ النتيجة من بعض الالتباس. في حين كان للمداخلات الدبلوماسيّة البابويّة بعض المفعول في سلوفاكيا وكرواتيا والمجر*، حيث توقّف نفي اليهود إلى حين. وفي إيطاليا بقي البابا صامتًا يوم توقيف اليهود في ١٦ تشرين الأوّل (أكتوبر ١٩٤٣)، ولكنّ "تدخّله الصامت" منع أعمال نفي جديدة[١].

ليس بوسع الكاتب أو المطالع اليوم، أن يتلمّس مدى الدقّة والخطورة والحرج التي كانت تلقي بأثقالها على دوائر الفاتيكان، في تلك المعمعة الرهيبة التي سادت سنوات الحرب العالميّة الثانية. ففي بعض البلدان، أُصيب المسيحيّون في أعماقهم، وفي كلّ مكان طُرحت أسئلة على الضمير المسيحيّ في ما يتعلّق بخياراته. ففي فرنسا، رأى كثيرون في هزيمة سنة ١٩٤٠ "قصاصًا إلهيًّا سببه العلمنة". وبدا المارشال "بيتان[٢]" وكأنّه "جان دارك" جديدة. ففي عهده أصبح النظام مواليًا للكنيسة، وصار بوسع الرهبان والراهبات أن يرتدوا زيّهم التقليديّ، وخرج "سجين بيت القربان" في مواكب عبر الطرقات يوم خميس الجسد، وتكاثرت الزيارات إلى المقامات الروحيّة، ونعمت المدارس الخاصّة بالمساعدات الماليّة. وبالإجمال، كان أساقفة فرنسا،

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٧١؛ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٦٣.

٢ ـ **فيليب بيتان** PÉTAIN (١٨٥٦ ـ ١٩٥١): عسكريّ وسياسيّ فرنسيّ، من كبار القادة في الحرب العالميّة الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، اشتهر خاصّة في معركة فردان، رئيس الحكومة الفرنسيّة مدّة الاحتلال الألمانيّ ١٩٤٠ ـ ١٩٤٤، كان مقرّ حكومته في مدينة فيشي بوسط فرنسا فنُسبت إليها (راجع الحاشية التالية) وكان نفوذها الفعليّ مقتصرًا على الجزء الذي لا تحتلّه ألمانيا من الأراضي الفرنسيّة وعلى الأجزاء التي لم تخضع لحكومة "فرنسا الحرّة" برئاسة الجنرال ديغول، وبعد غزو الحلفاء لشمال أفريقيا ١٩٤٢ احتلّ هتلر كلّ فرنسا وظلّت حكومة فيشي مجرّد حكومة شكليّة، لجأت إلى ألمانيا ١٩٤٥، حُكم على بيتان بالإعدام ١٩٤٥ بعد التحرير بتهمة تعاونه مع العدو، توفّي في المنفى.

وجلّهم من جنود الحرب العالميّة الأولى، موالين لحكومة فيشي[1]، معترفين بشرعيّتها، معتبرين نشوءها من مشيئة اللّه.

لم يكن بوسع الفرنسيّين أن يفعلوا شيئاً بخصوص الإجراءات العرقيّة التي قام بها النازيّون في فرنسا، وبالرغم من ذلك، فعندما حصلت حملة اعتقالات "ڤال ديف" والنفي المنظّم لليهود من فرنسا إلى ألمانيا في تمّوز (يوليو) ١٩٤٢، عبّر المطران "سالياج" أسقف "تولوز[2]"، والمطران "تياس" أسقف "مونتوبان[3]"عن "اعتراض الضمير المسيحيّ الساخط: فجميع الناس، آريّون وغير آريّين، هم إخوة لأنّهم خليقة اللّه... جميع الناس، مهما كان عرقهم أو دينهم، يستحقّون احترام الأفراد والدولة". بينما هناك أساقفة آخرون، كالكاردينال "جرليه" أسقف "ليون"، قد عبّروا عن أمانتهم للسلطة القائمة، سلطة فيشي. وبسبب التمييز بين ما هو أخلاقيّ وما هو سياسيّ، انقسم الأساقفة والجمعيّات بالنسبة إلى الموقف من عمل الشباب الإجباريّ في ألمانيا. وعلى وجه العموم، لم يكن الأساقفة يحبّذون المقاومة المسلّحة لأنّهم ينتقدون العنف والتمرّد على السلطة القائمة. فالمسيحيّون تجنّدوا في المقاومة على مسؤوليّتهم الخاصّة وعبّروا عن ذلك في عدّة نشرات سرّيّة. ومنذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١، ظهرت "دفاتر الشهادة المسيحيّة" تساند المقاومة المسيحيّة. وهكذا أكّد المسيحيّون على استقلالهم في خيارهم السياسيّ، والتقى في المقاومة الفرنسيّة مناضلون من مختلف الأحزاب. وهناك منظّمات علمانيّة كاثوليكيّة قدّمت شهداء في هذا المجال، أمثال "جيلبير درو"

١ ـ فيشي VICHY: مدينة بوسط فرنسا، كانت مقرّ حكومة المارشال بيتان (راجع الحاشية السابقة) التي نسبت إليها.

٢ ـ تولوز TOULOUSE : مدينة في جنوب فرنسا على نهر الغارون.

٣ ـ مونتوبان MONTAUBAIN: في مقاطعة ILLE-ET-VILAINE على ضفّة الرين في شمال غرب فرنسا.

و"فرنسيس شيرا" من أعضاء "العمل الكاثوليكيّ"، ونجد مقاومين للاحتلال الألمانيّ شهداء أيضًا من الإكليروس أمثال الأب "دي مونشاي"[1].

ولا يغيب عن بال الباحث المجرّد أنّ الألمان النازيّين أرادوا أن يضفوا الطابع الجرمانيّ على غربيّ بولونيا، في "وارتاغو" التي ضُمّت بكاملها إلى ألمانيا، فقاموا باضطهاد كنيسة بولونيا التي لم يعد لها وجود شرعيّ في نظرهم، فتمّ إقفال الكنائس والأديرة، ومُنع كلّ تحرّك دينيّ، بل وسُجن الكهنة، وطُرد بولنديّون كثيرون إلى "وارسو" حيث الحكومة المركزيّة، وهناك لم يكن نصيبهم أفضل. وعندما التجأ كاثوليك بولونيا إلى البابا ليسألوه رأيه بما يجب أن يقوموا به، خاف من التورّط في التوجيه، خشية أن يزداد مصيرهم سوءًا. بيد أنّه لم يكن أمام البولنديّين أيّ خيار سوى المقاومة، لكنّ مقاومتهم وجدت نفسها مستفرَدة، ففقدت بولونيا في ذلك الزمن الرهيب، ستّة ملايين من أبنائها، وكان من جملة هؤلاء الأب مكسيميليان كولبه (١٨٩٤ ـ ١٩٤١) الذي استُشهد في مخيّم "أوشويتز"، وأُعلنت قداسته في ما بعد. أمّا في روسيا، فقد سهّل تقدّم الجيوش الألمانيّة على إعادة الحياة الدينيّة وعلى تأسيس كنائس منفصلة عن موسكو، وتنظّم كاثوليك أوكرانيا*، في حين استفادت الحكومة السوفياتيّة من العاطفة الدينيّة الروسيّة لتشجّع الروح الوطنيّة ضدّ الزحف الألمانيّ، فعاد أوّلاً البطريرك سرجيوس إلى موسكو سنة ١٩٤٣، ثمّ انتُخب البطريرك ألكسيوس في ٣١ كانون الثّاني (يناير) ١٩٤٥ ونُصّب بطريركًا باحتفال عظيم. لكن، مع انتهاء الحرب، انقلب الموقف فعادت الاضطهادات إلى حالها[2].

---

١ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٩ ـ ٣٦٠؛ يتيم وديك، مرجع سابق، ص٢٧٧؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٣: ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦.

أمّا في ألمانيا، فلم تلقَ الدعوة لمقاومة هتلر سوى أهميّة جدّ محدودة، لأنّ معارضة النظام كانت تعني العمل على هزيمة ألمانيا، أي أنّها كانت تعني الخيانة. وحين أخذت الكنيسة البروتستانتيّة موقفًا مبكّرًا ضدّ السياسة العرقيّة، أُدخل العديد من أعضائها معتقلات الموت حيث استشهد كثيرون في "بنهوفر" سنة ١٩٤٥. ويتبيّن للمدقّق أنّ الموقف الأكثر شيوعًا، لرجال الكنيسة الواعين لخطورة ما قد ينتج عن مواقفهم، كان "اللاموقف المعلن". وهكذا فعندما عقد الأساقفة الكاثوليك مؤتمرًا لهم في " فولدا" في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣، لم يتّفقوا على رأي يعارضون من خلاله علنًا "ما كان يُرتكب من إضرار بحقوق الإنسان، فاكتفوا بكلام عامّ من دون أن يدينوا الدولة مباشرة، فأصدروا رسالة جماعيّة حول الوصايا العشر".

وحده أسقف "مونستر [١]"، "فون كالن"، أدان بصراحة في آب (أغسطس) ١٩٤١ "قتل المعوّقين عقليًّا والضعفاء". وهناك لائحة طويلة تحمل أسماء شهداء مناضلين من الكهنة أمثال "برنهارت ليختنبزغ"، ومن جماعتَي "المناضلين المسيحيّين" و"الوردة البيضاء" وسواهما من الجماعات المسيحيّة التي قدّمن الشهداء بسبب مواقفهم الإنسانيّة الجريئة.

يتندّر بعض الخبثاء بأنّ هتلر قد نصّب أسقفًا رئيسًا للحكومة السلوفاكيّة. وفي الواقع، أنّه في ربيع ١٩٣٩، بعد أن ضمّ هتلر منطقة بوهيميا، أعطى سلوفاكيا نظامًا شبه استقلاليّ، وجعل على رأس الحكومة السلوفاكيّة المونسينيور "تيسو TISO" الذي أُلزم بموقف السياسة الألمانيّة، فحاول أن يوفّق بين التعاليم المسيحيّة والشموليّة [٢]. أمّا الاستقلال الكاذب لجمهوريّة كرواتيا، بقيادة "أنتي بافليتش"، فقد اعتبره كثيرون من

---

١ ـ مونستر MUNSTER : ضاحية إيرلنديّة.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٦٠.

الكاثوليك بمثابة أخذ ثأر من صربيا* الأرثذوكسيّة، إذ أصبح ذريعة للعنف ضدّ الأرثذوكس ولحرب أهليّة ضارية. ورأى المونسينيور "ستابيناك"، أسقف "زغرب"، نفسه ممزقًا بين عاطفته الوطنيّة الكرواتيّة وإرادة مقاومة انتهاك حقوق الإنسان. وفي هولّندا، منع الأساقفة، سنة ١٩٤١، كلّ الكاثوليك من الاشتراك في الحركة النازيّة الهولّنديّة. واتّفق الكاثوليك والبروتستانت على رفض نفي اليهود ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣، وطلب الأساقفة إلى الموظّفين الهولّنديّين ألاّ يساهموا في عمليّة نفي اليهود والعمّال. فثأر النازيّون الألمان منهم باعتقال المسيحيّين المتحدّرين من أصل يهوديّ، وكان من بين الضحايا: "إديث شتاين" الراهبة الكرمليّة الفيلسوفة. وسجّل التاريخ للكاردينال "فان روي" في بلجيكا محاولته أن يكون عمليًّا، فخلّص ما يمكن تخليصه من دون مقاومة رسميّة تُذكر، إذ وقف ضدّ النازيّين البلجيكيّين وضدّ المقاومة العنيفة في الوقت ذاته، وقام بجهود ضدّ نفي اليهود. ولكنّ مؤرّخين معاصرين سجّلوا لبعض رجال الدين الكاثوليك في بلجيكا أنّهم كانوا يحضّون الشعب على مقاومة النازيّين، وكان من بين أولئك الكهنة مَن يرفض إعطاء القربان للمقدّس لغير الشبّان المقاومين. ولا يغيب عن ذهننا ونحن نبحث في هذا الصدد، أنّ تلك الحرب قد أوقفت بعض الاحتفالات والممارسات الكنسيّة في العديد من أنحاء أوروبّا الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة بسبب أنّ كثيرين من الكهنة والقسس كانوا مرميّين في السجون النازيّة، ما يعني أنّ الكنيسة لم تكن بعيدة عن المقاومة بالقدر الذي تصوّره بعض المجتهدين. أضف إلى ذلك ما تناقلته المدوّنات التاريخيّة عن أنّ كهنة ومجاهدين علمانيّين قد التقوا، مباشرة، في المعتقلات والمنفى والمقاومة رجالاً ونساء لم يكونوا قد التقوهم من قبل في رعاياهم، فشكّل ذلك "اكتشافًا" لكثيرين. ورأى مدقّقون في اجتماعيّات تلك الحقبة مظاهر أخرى للحضور المسيحيّ، تجسّدت في قيام قدامى "الشبيبة العاملة المسيحيّة" بتأسيس "حركة

العائلات الشعبيّة" التـي أرادت أن تكون دائمًا حركـة عمل كـاثوليكيّ، ولكـن كحركـة شعبيّة لا كحركة نخبويّة فقط. لقد أرادوا أن يعيشوا المسيحيّة عيشًا قبل أن يتلوا قـانون الإيمان، فاهتمّوا بالخدمة الإجتماعيّـة فـي تلك الظروف العصيبـة، كمـا أوصـى السيّد المسيح. وفي ميادين عديدة شعر العلمـانيّون بضـرورة تدبير أمورهم بأنفسهم، وأخْذ المسؤوليّات بدون الرجوع حتمًا إلى الأساقفة، أو قُل: من دون توريط الكنيسـة فـي مـا لم يكن بوسعها أن تظهر به أمام أعين المتحاربين، محافظة على سـلامة أتباعهـا، قدر المستطاع. وبوسعنا أن نحصي العديد من المبادرات الشخصيّة المسيحيّة التـي ظهرت في قلب أوروبّا خلال سنوات الحرب وإثرها، منها قيـام الأب "لوبري" بتأسيس مجلّـة "إقتصاد وإنسـانيّة" سنة ١٩٤١ لخلق مبـادرات علميّـة قـادرة علـى إبداع فكر يجعل الإقتصاد في خدمة الإنسان. وأسّس الأب "مونتو كلار" مركزًا للأبحاث ومجلّة "شـباب الكنيسة" سنة ١٩٤٢، لكي يجد دواء لعزلة الكنيسة وسط عالم ابتعد عنها. أمّا "اليـنـابيع المسيحيّة" التي تنشر كتابات آباء الكنيسة، فقد أسّسها يسوعيّو مدينة ليون سـنة ١٩٤٢، وهي تضع كتابات الآباء في متناول المسيحيّين المهتمّين بـالعودة إلـى ينـابيع الإيمـان. وفي سنة ١٩٤٣، أسّس الآباء الدومينيكان في باريس "مركز الأبحاث الليتورجيّ" الذي أصبح نقطة انطلاق لمجلّـة "أعياد وفصول" ولكتب ومؤتمرات (فـانف،١٩٤٤) التـي أعادت إلى الليتورجيا مكانها في الحياة الروحيّة. أمّـا علـى الصعيد الكنسـيّ الرسـميّ، ففي تمّوز (يوليو) ١٩٤١ قرّر مجمع الكرادلة والأساقفة الفرنسيّين، نـزولاً عند رغبـة الكاردينال "سوهار"، رئيس أساقفة باريس، خلق إكليريكيّة "رسالة فرنسا" بإدارة "لويس أوغروس". وكانت الغاية من إيجاد تلك المؤسّسة تربيـة كهنـة للمنـاطق الفرنسيّة التـي فقدت الإيمان أو الروح المسيحيّة.

فـي موَاجَهَــة آثـــار
الحَربِ علَى الرّسَالَة

بدا أنّ الكاردينال "سوهار" كان مدركًا لخطورة مـا آل إليـه الإيمـان المسيحيّ فـي الغرب نتيجة الحرب العالميّة الثانية، وقد تأكّد ذلك سنة ١٩٤٣ عندما ظهر للأبوَين "غودان" و"دانيال" كتاب "فرنسا بلد الرسالات؟"، فأحدث صدمــة قويّـة ليس فـي فرنسا فقط، بل وفي العديد من البلدان الأوروبيّة المسيحيّة، إذ رأى المؤلّفـان أنّ هنـاك عـودة خطيرة إلى الوثنيّة، "لم تمسّ الهامشيّين فقط، بل طـالت قسمًا كبيرًا مـن سكّان المدن أيضًا، فالرعيّة التقليديّة والحركات الكاثوليكيّة لم تعد كافية، ونحن بحاجـة إلـى مؤمنين ملتزمين في قلب العالم وإلى كهنة يرون في الرسالة امتزاجًا نهائيًّا بعالم غريـب يجب تغييره". ولقد كان هذا الشعور في أساس انطلاقة "رسالة باريس" التي تهدف إلى زرع الكنيسة حيث يعيش الناس، أي في جماعات الأحياء السكنيّة وجماعات العمل وأوقـات الفراغ، لا بل إلى حملهم إلى الكنائس. وممّا يلفت في مجال المبادرات الخاصّة في هذا الصدد، نشوء حركة "الكهنة العمّال" في نهاية سنة ١٩٤٤، إذ أراد أعضاء تلك الحركة أن يساهموا في ملء الحاجة إلى الوجود الكهنوتيّ الحقيقيّ في عالم العمل، وعندما بـدأ الأب "لوف" يعمل، في مرسيليا، على المرفأ بتفريغ السفن وتحميلها، ظهر انزعاج مـن قِبَل كهنة الرعايا من تلك "الاختبارات الجديدة". ويرى باحثون في أسباب تلك الظـاهرة أنّ إستحالة دخول الكهنة في علاقة مع العمّال في محيطهـم العـائليّ، قد حدت ببعض الكهنة إلى الشغل في المصانع سنة ١٩٤٤. وكان هؤلاء من أعضـاء "رسـالة باريس" و"رسالة فرنسا" اللتَين أسّستا سنة ١٩٤٤، وضمّتا رهبانًا من سائر الرهبانيّـات، وكهنـة أبرشيّين، إلاّ أنّ عدد هؤلاء قد بقي ضئيلاً بحيث أنّه لم يكن قد تجـاوز المئـة فـي سنة ١٩٥٤، على الرغم من أنّ كتاب الأبوَين "دانيال" و"غـودان": "فرنسـا بلـد الرسـالات؟"

الذي أشرنا إليه، والرسالة الراعويّة التي أصدرها الكاردينال "سوهار" بعنوان "إنطلاقة الكنيسة أو انحطاطها" سنة ١٩٤٧، وغيرها من الكتابات التي راجت في تلك الحقبة، قد شدّدت على ضرورة العمل الراعويّ في كلّ محيط فقد الروح المسيحيّة وبخاصّة في عالم العمّال. هذا الاختبار عرّف عنه "جيلبيرت سيبرون" أمام الرأي العامّ، في كتابه "القدّيسون يذهبون إلى الجحيم" سنة ١٩٥٢، فكان له أثر كبير. فهو يعني تغييرًا في نمط معيشة الكاهن التي كان يُظنّ أنّها تحدّدت نهائيًّا في المجمع التريدنتينيّ* وفي المدرسة الروحيّة الفرنسيّة. وإذ لم يعد هؤلاء الكهنة يلبسون الثوب الأسود، بل أصبحوا يعيشون جماعات في بيت عاديّ ويشتركون في العمل مع غير المسيحيّين ومع الشيوعيّين... تسبّب هذا في الكثير من الجدل، لا من جانب المسيحيّين التقليديّين فقط، بل ومن قِبَل المناضلين في العمل الكاثوليكيّ أيضًا، حيث لم يفهم بعضهم رسالة الكاهن المباشرة هذه، التي تبدو وكأنّها أصبحت في غنى عن العلمانيّين. وفي الوقت نفسه، ظهرت اختبارات راعويّة جديدة في فرنسا، كاختبار الأب "ميشونو" اللعازاريّ في الضاحية الباريسيّة "كولومب" سنة ١٩٤٦، تحت عنوان: "الرعيّة جماعة إرساليّة"، بيّنت إمكانيّة تحويل الرعيّة إلى جماعة رسوليّة. كما انطلق الأب "راميليو" من الليتورجيا ليجعل من الرعيّة جماعة، وذلك من خلال مبادراته التي وصفها بعضهم بالـ"غريبة" إذ إنّها قضت بإجراء بعض التطوير كأن يكون وجه الكاهن إلى الشعب في خلال القدّاس، ووضعت برامج إعداد للزواج والعماد، وغيرها من التطويرات التي تبنّتها الرعايا في ما بعد في حياتها اليوميّة[1].

شكّل كلّ ذلك، في مرحلة ما بعد الحرب العالميّة الثانية، إنعاشًا لحركة كرازة كانت قد بدأت في الثلاثينات من القرن العشرين مع "ماري فارج" و"فرنسوا دركان".

---

١ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٦٠ ـ ٣٦٤، ٣٧١.

وكان "جوزيف كولمب"، مدير التعليم الدينيّ في ليون، المنعش لهذه الحركة، في كتبه العديدة[1]، منذ ١٩٤٦، التي شدّد فيها على نقص التعليم المسيحيّ، وطالب بالعودة إلى الينابيع الكتابيّة والليتورجيّة، وبخلق رابط بين عرض الإيمان واختبار الأطفال الإنسانيّ، فـ"يجب أن يكون التعليم المسيحيّ تدريجيًّا فلا يُعطى الولد إلاّ ما أمكنه فهمه في كلّ مرحلة من مراحل الحياة، وبلغة هي في متناوله". من هنا انطلقت عدّة مؤسّسات فربّت آلاف معلّمي التعليم المسيحيّ المحترفين أو المتطوّعين[2].

وكان الكاثوليك قد أصبحوا أكثر حريّة بالنسبة إلى الدروس الكتابيّة، مع ظهور البراءة البابويّة "نفحة الروح القدس" سنة ١٩٤٣، فظهرت ترجمات عديدة أهمّها "ترجمة أورشليم للكتاب المقدّس"، تشهد على اكتشاف حقيقيّ للكتاب المقدّس في الأوساط الكاثوليكيّة. فأصبح "الكتاب يُدرس لذاته بكونه كلمة اللّه، ولم يعد كمستودع استشهادات فقط لإسناد آراء لاهوتيّة". وصدرت مجموعة "القراءة الإلهيّة" بأقلام أهل الاختصاص الكاثوليك في الكتاب المقدّس. كما ظهرت دراسات تاريخيّة عديدة في مجموعات مختلفة، كمجموعتَي "واحدة مقدّسة" و"لاهوت"، لتدلّ على "أنّ اللاهوت لا يتخطّى الزمن". ونُشر العديد من النصوص ـ الينابيع الطقسيّة والآبائيّة في سلسلة "الينابيع المسيحيّة" التي كانت تُترجم وتنتشر بأساليب عمليّة.

تلك الحريّة الكتابيّة التي أثمرتها البراءة البابويّة "نفحة الروح القدس" سنة ١٩٤٣، أدّت أيضًا إلى تجدّد علم اللاهوت الذي أصبح "مسيحانيًّا وكنسيًّا". فظهرت إلى الوجود

---

١ ـ من مؤلّفات جوزيف كولمب: "الشفقة الكبرى في التعليم الدينيّ المسيحيّ"، "ينابيع الكرازة"، "لأجل تعليم مسيحيّ فاعل"، "جرح مفتوح في جنب الكنيسة".

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٧١.

مؤلفات اليسوعيّ "تيّار بيار دي شاردان"[1] الذي لم يُعترف به رسميًا في حياته فلم يستطع أن ينشر شيئًا. لكنّ كتابه "الظاهرة الإنسانيّة" انتشر بسريّة تامّة ولقي نجاحًا باهرًا يوم نُشر بعد وفاته، وقد قيل فيه: إنّه يعيد كلّ شيء إلى المسيح PANCHRITISME، أو إنّه يردّ كلّ شيء إلى التصوّف الكونيّ COSMOMYSTIQUE، أو إلى المسيح الكونيّ COSMOCHRISTOCENTRISME. وهو يقول "إنّ المادّة تحتوي على قوّة روحيّة نكتشف المسيح من خلالها"، و"إنّ الكون يتوجّه نحو نقطة الـ "أوميغا OMEGA" أي عودة المسيح". وجاء كتاب "جان مورو": "المعنى المسيحيّ للإنسان" ١٩٤٥، وكتاب "لويس ريشار": "الفداء"، ليشهدا على أنّ "الحياة المسيحيّة تتمحور حول المسيح". وهكذا راح علم الكنيسة يتطوّر في ما بين الحربين ولا يزال يتطوّر. فحاول "دي مونشاي" و"كونغار" و"دي لوباك" وسواهم، إيجاد جذور الكنيسة في التاريخ وصوّروا الكنيسة، لا كمجتمع كامل تنبأ المسيح عن كلّ تفاصيل تنظيمه، بل كسرّ النعمة وكمركز لقاء المسيح. هذه العودة إلى الينابيع، وأخذ التاريخ بعين الاعتبار، ساعدا على التقارب بين المسيحيّين المنتمين إلى مذاهب مختلفة، وفتح آفاقًا كانت مظلمة من قبل[2].

---

١ ـ تيّار بيار دي شاردان TEILHARD PIERRE DE CHARDIN (١٨٨١ ـ ١٩٥٥): عالم وفيلسوف يسوعيّ فرنسيّ، أستاذ علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) والمتحجّرات (باليونتولوجيا) في معهد باريس الكاثوليكيّ ١٩٢٠ ـ ١٩٢٣، اشترك في تنقيبات "شوكوتيان" في الصين حيث اكتشف "إنسان بيكين" أو "السينانثروب"، له عدّة مؤلّفات شهيرة منها "الظاهرة الإنسانيّة" و"قلب المادّة"، ترجم جلّ مؤلّفاته إلى العربيّة الأب د. جورج رحمة الأنطونيّ المارونيّ اللبنانيّ، أثّر دي شاردان تأثيرًا عميقًا في فكر الجيل المعاصر.

٢ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

الخَرِيطَةُ الجَدِيدَة

كان من الطبيعيّ أن تنشأ بعد الحرب العالميّة الثّانية خريطة جيوبوليتيكيّة جديدة. فقد كان هناك منتصرون ومهزومون. وجاءت إتّفاقيّة يالطا[1] سنة ١٩٤٥ لتحدّد مناطق نفوذ للحلفاء. فتقدّم الإتّحاد السوفياتيّ نحو الغرب ضامًّا بلدان البلطيق: "ليتوانيا*" و"لتونيا[2]" و"أستونيا[3]" وقسمًا من بولندا* ورومانيا*. كما تقدّمت بولندا نحو الغرب مستعيدة قسمًا من أراضي ألمانيا التي قُسّمت إلى قسمَين: شرقيّة وغربيّة. فقد تسبّبت هذه الحدود الجديدة في تنقّلات شعوب عديدة وبخاصّة من الألمان والبولنديّين، فكانت

---

١ ـ **يالطا أو يالتا** YALTA : مدينة في الاتّحاد السوفياتيّ السابق على البحر الأسود في شبه جزيرة القرم، عُقد فيها في أواخر الحرب العالميّة الثانية ٤ ـ ١١ شباط (فبراير) ١٩٤٥ مؤتمر الحلفاء بين بريطانيا والولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ يمثّلهم تشرشل وروزفلت وستالين لتنظيم العمليّات الحربيّة ضدّ ألمانيا وتقرير مصير العالم بعد الحرب. لم يُنشر النص الكامل لاتّفاق يالتا إلى في ١٩٤٧، من أهمّ بنوده: تحديد سياسة تسليم ألمانيا بلا قيد ولا شرط والاحتلال الرباعيّ لألمانيا من قِبَل الدول الثلاث وفرنسا، وعقد مؤتمر تأسيسيّ للأمم المتّحدة في سان فرنسيسكو، والاتّفاق على استخدام حقّ الفيتو في مجلس الأمن المقترح. وقد وافقت روسيا سرًّا على أن تدخل الحرب ضدّ اليابان في خلال ثلاثة أشهر من تسليم ألمانيا ووُعدت بجنوب سخالين وجزر كوريل وعودة بورت أرثر ودارين إلى ما كانتا عليه في ١٩٠٤، وبإدارة سوفياتيّة ـ صينيّة لسكك حديد منشوريا، وقد احتجّت الصين في ما بعد على المسائل الأخيرة لأنّ فيها مساسًا بسيادتها. كما كان اتّفاق يالتا موضوع نقد في الولايات المتّحدة إذ اتُّهم الرئيس روزفلت بتسليم أوروبّا الشرقيّة للسيطرة الشيوعيّة.

٢ ـ **لتونيا** LITUNIE, LIETUVA: دولة أوروبيّة على البلطيق سكّانها نحو ٤ ملايين نسمة جلّهم كاثوليك، ضمّت إليها "ميمال" ١٩٣٩ بعد احتلالها من قبل هتلر وإبادة سبع سكّانها الذين كانوا يهودًا، من جمهوريّات الاتّحاد السوفياتيّ السابق ١٩٤٠، احتلّها الألمان مرة ثانية ١٩٤٠ ـ ١٩٤٤ وعادت بعد الحرب للاتّحاد السوفياتيّ، استقلّت ١٩٩١.

٣ ـ **أستونيا** ESTONIE : جمهوريّة في شمال وسط أوروبا، سكّانها نحو مليون ونصف معظمهم بروتستانت، عاصمتها تالين، كانت جزءًا من "لفونيا" ١٥١٦، غزتها روسيا ١٧١٠، تخلّت عنها السويد رسميًّا إلى روسيا ١٧٢١، استقلّت ١٩١٨ وعقدت معاهدة مع روسيا ١٩٢٠، حصلت روسيا على قواعد حربيّة فيها ١٩٣٩، ثمّ احتلّتها ١٩٤٠ فأصبحت جمهوريّة سوفياتيّة، احتلّها الألمان ١٩٤١ ـ ١٩٤٤، استعادتها روسيّا حربًا ١٩٤٤، تنازلت لجمهوريّة روسيا عن بعض أراضيها الحدوديّة معها، استقلّت ١٩٩٠، انضمّت إلى الأمم المتّحدة ١٩٩١.

النتائج خطيرة على صعيد الديموغرفيا الدينيّة، إذ إنّ كثيرين من المسيحيّين أصبحوا عرضة للاضطهاد، مباشرة أو بوجه غير مباشر، من قِبَل النظام الشيوعيّ في الاتّحاد السوفياتيّ. وفي ألمانيا، أصبح المسيحيّون في حالة شتات: كاثوليكيّون يعيشون في مناطق بروتستانتيّة، وبروتستانت في مناطق كاثوليكيّة. فكان لذلك التشتّت تأثيره المباشر على التزام الناس بالممارسة الدينيّة[1].

لم يكن قد مرّ سنتان على انتصار الحلفاء على المحور سنة ١٩٤٥، حتّى نشأ محوران متصارعان داخل مجموعة الحلفاء. ففي أوروبّا الغربيّة، كان من نتائج تعاطي المسيحيّين المباشر المسؤوليّة الوطنيّة والسياسة، من خلال مشاركتهم الفعّالة في أعمال المقاومة الشعبيّة، ولادة رغبة إجتماعيّة في خلق مجتمع أكثر عدالة. وقد كوّن المسيحيّون الملتزمون، في بلدان عديدة من أوروبّا، قوّة ثالثة في وجه الشيوعيّين والاشتراكيّين. وهكذا نشأت في أوروبّا حقبة نشطة ازدهرت في خلالها "الأحزاب الديمقراطيّة المسيحيّة" بشكل غير مسبوق، خاصّة في إيطاليا وألمانيا وبلجيكا. أمّا في فرنسا فاختار المعنيّون تسمية غير دينيّة هي: "الحركة الجمهوريّة الشعبيّة". وعلى العموم، خرج الكاثوليك من تقوقعهم حيث كان العلمنة التي كانت قد حشرتهم في أقنيتها منذ بداية القرن العشرين. وعندما شُكّلت الحكومة الموقّتة في فرنسا (١٩٤٤ ـ ١٩٤٥)، ضمّت ستّة أعضاء من جماعة العمل الكاثوليكيّ. وبقيت "الحركة الجمهوريّة الشعبيّة" الحزب الأوّل في فرنسا، لعدّة شهور، بينما تفتّت اليمين التقليديّ المحافظ المتّهم بالتعامل مع المحتلّ الألمانيّ. وساعدت الأحزاب الديمقراطيّة المسيحيّة الناشئة الشعب الكاثوليكيّ على قبول الديمقراطيّة والنظام البرلمانيّ، في حين كان يرفضه من قبل. وقد كان لمشاركة المسيحيّين الملتزمين في التشريع الجديد فعل خلق اهتمامات

---

١ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٦٥.

اجتماعيّة على المستوى الأوروبيّ. غير أنّ ما درج من حديث يومذاك عن "أوروبّا فاتيكانيّة" يديرها البابا والأساقفة، لم يكن صحيحًا. ذلك أنّ تلك الأحزاب قد أُسّست في زمن المقاومة للنازيّة والفاشيّة بعيدًا عن وصاية الأساقفة. ولكنّ الخوف على مصير الإيمان من نشوء الشيوعيّة قد دفع البابا والأساقفة إلى دعم المرشّحين من أعضاء الحركة الديمقراطيّة المسيحيّة، من خلال النصح بانتخابهم. وفي فرنسا دفعت القضيّة الاجتماعيّة الكاثوليك، بعد الحرب مباشرة، نحو حزب "الحركة الجمهوريّة الشعبيّة"، لكنّ هذا التأييد راح يتراجع بسرعة أمام اليمين الذي أخذ يستعيد قواه، في حين قام تيّار من المسيحيّين اليساريّين، وهم قلّة، وانتقد التوجّه الدينيّ لمختلف الأحزاب اليمينيّة التي نشأت يومها. وحاولت الأحزاب الشيوعيّة، خاصّة في فرنسا وإيطاليا، أن تفرض ذاتها عن طريق الإضرابات العامّة والتظاهرات وسواها من التحرّكات الشعبيّة.

بينما في الجانب الآخر، بسط الإتّحاد السوفياتيّ سيطرته الإيديولوجيّة على مناطق نفوذه. وفي بضع سنوات، تمكّنت أحزاب الأقليّة الشيوعيّة في أوروبّا الشرقيّة، عن طريق مختلف الوسائل ولا سيّما العنفيّة منها، وبدعم الاتّحاد السوفياتيّ، من شغل مختلف المراكز الإداريّة. فوراء ما اتّفق على تسميته "الستار الحديديّ" الذي يفصل بين شطرَي أوروبّا، قامت الإضطهادات ضدّ المسيحيّين، آخذة أشكالاً وشدّة تختلف بحسب البلدان. إذ في الإتّحاد السوفياتيّ، اتّخذت محاربة الدين أعنف أشكالها في بلدان البلطيق. ففي ليتوانيا*، ساند الكهنة المقاومة الوطنيّة ضدّ حركة البلشفة السوفياتيّة حتّى سنة ١٩٥٢، ما أدّى إلى "إزالة" عدد كبير من رجال الإكليروس. أمّا كاثوليك أوكرانيا* الشرقيّون، بقيادة الكاردينال "سليبي" السجين، فذاقوا الاضطهاد المرير. كما شملت الإضطهادات الأرثوذكس أيضًا بالرغم من خضوع رؤساء الكنيسة الروسيّة ظاهرًا. وفي كلّ بلدان الشرق، نظّمت الدولة محاكمات صاخبة ضدّ المسؤولين الكاثوليك،

تتّهمهم فيها بالمتاجرة بالعملات الصعبة وبالتعامل مع العدوّ... وكان من بين هؤلاء المتّهمين الكاردينال "مندزنتي في المجر عام ١٩٤٩، والمطران "بيران" في تشيكوسلوفاكيا*، والكاردينال "ويزنسكي" في بولندا. ومنذ ١٩٥٦ بدأت حركة التنكّر للستالينيّة فتحسّنت أحوال المسيحيّين في بعض البلدان كبولندا حيث تمّ الإفراج عن الكاردينال ويزنسكي. وساءت في بلدان أخرى كالمجر* حيث بقي الكاردينال مندزنتي محتجَزًا، مدّة خمس عشرة سنة، في السفارة الأميركيّة في بودابست.

وفي سنة ١٩٤٩، وقعت الصين بكاملها في أيدي شيوعيّي ماوتسي تونغ[١]. ومنذ ذلك التاريخ طلبت الصين الشيوعيّة إلى المسيحيّين فيها التحرّر من التأثير الأجنبيّ بالحصول على الإستقلاليّة في شؤون ثلاثة: الحكم (لا علاقة بالفاتيكان)، والإدارة والماليّة (لا أموال من أوروبّا)، والكرازة (لا مبشّرون أجانب). تلا ذلك طرد جميع المرسَلين الأجانب وأسر أو إعدام كافّة المسؤولين الدينيّين الأمناء لروما، وأُسّست كنيسة وطنيّة لا علاقة لها بروما. بلغت الحرب الدينيّة في الصين ذروتها مع الثورة الثقافيّة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨، ثمّ همدت قليلاً بعد ذلك. وفي السنين التالية، تسلّم الشيوعيّون الحكم في فيتنام* الشماليّة سنة ١٩٥٤ ثمّ الجنوبيّة ١٩٧٥، وفي "كوبا[٢]" سنة ١٩٥٩.

---

١ ـ ماوتسي تونغ MAO-TSÉ-TOUNG (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦): رجل دولة صينيّ، ترأس الحزب الشيوعيّ وقاد الثورة على النظام السابق حتّى النصر النهائيّ ١٩٤٩ فأعلن جمهوريّة الصين الشعبيّة وكان رئيسها ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩، يختلف عن السوفيات في نهجه الشيوعي، نادى بالثورة الثقافيّة.

٢ ـ كوبا CUBA : جمهوريّة تشغل جزيرة كوبا في أقصى غرب جزر الهند الغربيّة في مدخل خليج المكسيك وهي أكبر الجزر، عاصمتها هافانا، عدد سكّانها نحو ١١ مليون نسمة بمَن فيهم سكّان جزيرة "بوث" التابعة لها والأكثريّة كاثوليكيّة، اكتشفها كولومبُس ١٤٩٢ وارتادها الإسبان الذين أقاموا فيها مستعمرة ١٥١١ عُرفت باسم "لؤلؤة الأنتيل"، سكّانها الأصليون من الهنود "الأراواك" الذين انقرضوا، استورد إليها المستعمرون أرقّاء زنوجًا، نشبت فيها ثورة كانت سببًا في الحرب الأميركيّة الإسبانيّة ١٨٩٨ التي انتهت بنيل كوبا استقلالها بمساعدة الولايات المتّحدة التي استمرّ وجودها العسكريّ فيها حتّى ١٩٠٢، شهدت حكمًا ديكتاتوريًا داخليًا وسلسلة انقلابات فتولّى "فولهنسيو باتيستا" رئاسة الجمهوريّة للمرّة الثانية بإحداث انقلاب ١٩٥٢، اضطرّ إلى الفرار إلى

فأصبح هناك كتلة شيوعيّة مؤلّفة من ١,٣٠٠ مليون نسمة تهدّد سائر البلدان بخطر التوسّع.

لم تقتصر الفوارق بين المعسكر السوفياتيّ الماركسيّ وبين المعسكر الغربيّ على مسألة الدين، بل تعدّته، كما هو معلوم، إلى النظام السياسي برمّته. وبنتيجة هذا الواقع، تجمّعت البلدان الغربيّة في كتلة، حول الولايات المتّحدة الأميركيّة، مناهضة للكتلة السوفياتيّة وحلفائها، في الحلف الأطلسيّ (معاهدة حلف شماليّ الأطلسيّ ١٩٤٩). تُعتبر الأحزاب الشيوعيّة في هذه البلدان متواطئة مع ما يجري وراء الستار الحديديّ. من هنا وجب الحذر تجاهها. لذلك، ففي سنة ١٩٤٩، صدر مرسوم من مجمع الإيمان يمنع كلّ تعاون بين الكاثوليك والشيوعيّين. لكنّ الأحزاب الشيوعيّة كانت تضمّ إليها جميع المحرومين الذين يحلمون بمجتمع أكثر عدالة. من هنا تولّدت مآسي الضمير لدى الكاثوليك العائشين وسط مشاكل زمانهم الاجتماعيّة.

وعلى الصعيد العالمي، تفسّخت، في خلال السنوات العشرين التي تلت الحرب، الأمبراطوريّات الإستعماريّة التي أسّستها الدول الأوروبيّة على مدى العصور وبخاصّة في القرن التاسع عشر، ونالت الشعوب المستعمَرة استقلالها، وظهرت المسيحيّة كديانة المستعمرين المستوردة من الغرب. وراحت الحركات القوميّات المحليّة تعيد

"دومينكا" ثمّ إلى "ماديرا" بعد أن أطاح بنظامه "جيش ٢٦ تمّوز (يوليو) الثوري" بقيادة "فيدل كاسترو" الذي دخل العاصمة وعيّن نفسه رئيسًا للوزراء وبدأ بإصلاح القوانين وبأعمال التأميم ١٩٥٩ وراحت كوبا تستولي على الممتلكات الأميركيّة المجاورة حتّى أوقفها عن ذلك الرئيس أيزنهاور ١٩٦٠ من خلال المقاطعة الاقتصاديّة ووقف استيراد قصب السكّر منها، أقامت كوبا علاقات اقتصاديّة مع الصين فقطعت الولايات المتّحدة علاقتها الدبلوماسيّة معها ١٩٦١ وأنزل المعارضون لنظام كاسترو قوّاتهم بالقرب من خليج "كوشينوس" بمساعدة الولايات المتّحدة فدحرتهم قوّات كاسترو الذي أعلن كوبا دولة إشتراكيّة وأنّه سيقود بلاده إلى الشيوعيّة ثمّ أمدّ الاتّحاد السوفياتيّ كوبا بالأسلحة الهجوميّة، في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٢ طلبت حكومة الرئيس كندي سحب الصواريخ السوفياتيّة من كوبا وفرضت الحصار البحريّ حولها فتأزّم الوضع الدوليّ بعد أن أعلن الرئيس الأميركيّ عزمه على تفتيش جميع السفن المتّجهة إلى كوبا، اجتمع مجلس الأمن وبعد مفاوضات عسيرة أصدر خروشوف تعليماته بفكّ الصواريخ من قواعدها والعودة بها إلى الاتّحاد السوفياتيّ.

للثقافات القديمة مكانتها بإحياء ماضيها الذي غالبًا ما كانت تضفي عليه طابع المثاليّة، بعد أن كان الاستعمار قد شوّهه. وقد لاقت الحركات القوميّة نصيرًا لها في الاتّحاد السوفياتيّ، فاستلهم بعضهم الماركسيّة. وتحوّل صراع الطبقات إلى صراع الشعوب الخاضعة للسيطرة الأجنبيّة السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة. هذا يفسّر مقاومة البلدان، التي كانت تحارب في سبيل استقلالها، للمسيحيّة. وبحصول البلدان المستعمَرة على الاستقلال، بدأت تؤلّف العالم الثالث الذي راح يعي تدريجًا قوّته ويحمّل الدول الغربيّة، بما فيها المسيحيّون، مسؤوليّة فقره. علمًا بأنّ المسؤولين الكنسيّين، على وجه العموم، كانوا قد حرصوا على التمييز بين التبشير والإستعمار. ففي رسالة الميلاد سنة ١٩٤٥، أكّد بيوس الثاني عشر على "أنّ الكنيسة فوق القوميّات، وأنّها ليست أمبراطوريّة مرتبطة بأوروبّا"، ولكنّ البابا عبّر عن "خوفه من الشيوعيّة التي تتّهم الكنيسة ظلمًا بأنّها استعماريّة". وكثيرًا ما كان يؤكّد أساقفة البلدان المستعمَرة على شرعيّة المطالبة بالاستقلال، كما فعل أساقفة "الكاميرون[١]" سنة ١٩٥٥، و"الكونغو البلجيكيّ[٢]"

١ ـ الكاميرون CAMERON : جمهوريّة في غرب أفريقيا الوسطى على الأطلسيّ في خليج غينيا عاصمتها "ياوُنده"، سكّانها نحو ١٥ مليون نسمة، سكّان الجنوب من شعوب "البانتو" ومعظمهم مسيحيّون، والشمال من الشعوب السامية والحاميّة ومعظمهم مسلمون، احتلّها الألمان ١٨٨٤ ثمّ الحلفاء ١٩١٤ ـ ١٩١٦، خضع شرقيها لفرنسا وغربيّها لبريطانيا، استقلّت ١٩٦١.

٢ ـ **الكونغو البلجيكيّ** أو زائير CONGO BEGGE, ZAÏR : هي اليوم **الكونغو الديمقراطيّة**، جمهوريّة في أفريقيا الاستوائيّة عاصمتها كينشاسا التي كان اسمها ليوبولدفيل، حوالى ٤٩ مليون نسمة، معظم سكّانها من "البانتو" وفيها سلالة من الأقزام الذين كانوا سكّانها الأصليّين قبل أن يغزوهم البانتو في القرن الأوّل ميلادي، زارها البرتغاليون ١٤٨٢، أصبحت فريسة لتجارة الرقيق منذ القرن السابع عشر، اعترف مؤتمر برلين ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ بما سُمّي "الكونغو الحرّة" ملكيّة شخصيّة لملك بلجيكا ليوبّولد الثاني الذي تنازل عنها لبلجيكا ١٩٠٨ التي أنشأت "الكونغو البلجيكي"، نالت استقلالها ١٩٦٠ باسم "الكونغو الديمقراطيّة" بنتيجة قرار صادر عن مؤتمر بروكسيل بعد حدوث اضطرابات في الكونغو طالب محدثوها بالاستقلال، أصبحت عضوًا في الأمم المتّحدة في العام نفسه، حصلت فيها لاحقًا اضطرابات خطيرة منها ما أدّى إلى انفصال إقليم "كاتانغا" ١٩٦٣ بعد تصاعد الأحداث الدمويّة، استمرّت فيها الانقلابات ما أدّى إلى تدخّل بلجيكا أحيانًا عسكريًا لحماية مصالحها، غيّر الرئيس موبوتو اسم الدولة إلى "زائير" وهو اسم نهر كبير يخترق البلاد، دخلت في "منظمة الوحدة الأفريقيّة" ١٩٦٣، ثار "كابيلا" على "موبوتو" فأسقطه ١٩٩٧ وتولّى رئاسة الدولة وأعاد إليها اسمها القديم: الكونغو الديمقراطيّة.

ورواندا ـ أوروندي[1] سنة ١٩٥٦، فاتّهمهم المستعمرون الأوروبيّون بأنّهم انتهازيّون يحافظون على مصالح الكنيسة ويعملون ضدّ بلدانهم الأصليّة. وأخذ الأساقفة الأوروبيّون يتركون مراكزهم تدريجًا لأساقفة محلّيين. أمّا أراضي الإرساليّات وممتلكاتها، التي كانت مرتبطة مباشرة بروما، فقد أصبحت تحت إشراف نوّاب رسوليّين، وتشكّلت أبرشيّات بكلّ معنى الكلمة تمامًا كمختلف أبرشيّات أوروبّا القديمة. وهكذا فقد خلّفت إزالة الاستعمار كنائس كاثوليكيّة فتيّة ومستقلّة حقًّا، وكانت هذه الاستقلاليّة قد ظهرت منذ زمن بعيد في كنائس ما وراء البحار البروتستانتيّة، حيث لم تكن المركزيّة التي تربطهم بأوروبّا قويّة كما هي الحال في الكنيسة الكاثوليكيّة. من هنا، نجد البابا بيّوس الثاني عشر في رسالته "هبة الإيمان FIDEI DONUM" التي أصدرها سنة ١٩٧٥، يذكّر بأنّ الكرازة في بلاد الرسالة ليست حكرًا على أشخاص اختصاصيّين، بل إنّ كلّ الأساقفة مسؤولون عنها، وبإمكانهم التعبير عن هذه المسؤوليّة بإرسال بعض كهنتهم الأبرشيّين ليساعدوا موقّتًا الكنائس الفتيّة[2].

---

١ ـ رواندا ـ أوروندي RUANDA - URUNDI : مقاطعة في أفريقيا الشرقيّة كانت تحت الانتداب البلجيكي، انقسمتها "رواندا" و"بوروندي". وروندا RUANDA جمهوريّة في أفريقيا الوسطى عاصمتها كيغالي. وبوروندي BURUNDI مملكة في أفريقيا الوسطى عاصمتها "بوجومبورا" كانت هي الأخرى جزءًا من المستعمرة البلجيكيّة رواندا ـ أوروندي.

٢ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٦٧ ـ ٣٦٩.

في النِّصفِ الثَّانِـي
مِنَ القَرنِ العِشرين

كان آخر باباوات النصف الأول من القرن العشرين: البابا بيّوس الثاني عشر (١٩٣٩ ـ ١٩٥٨)، الذي عاصر الحرب العالميّة الثانيــة وتداعياتهــا، وقـد اشـتهر بتوجيهاتـه الحكيمـة لحلّ المشاكل الجديدة الناشئة عــن تقـدّم العلـوم والاختراعـات والتطوّرات الاجتماعيّة. وحدّد سنة ١٩٥٠ عقيـدة انتقـال العذراء إلـى السماء بـالنفس والجسد. وفي عصره، بعد الحرب العالميّة الثانية، نشطت الحركة اللاهوتيّـة والفكريّـة ونشأت حركة التجديد الطقسيّ، وتطوّرت علـوم الكتـاب المقدّس، كمـا سبق وذكرنـا، وأخذت كنائس أفريقيـة وآسية الحديثة مكانًـا مرموقًـا بيـن الكنـائس القديمـة، ونشطت الكنائس الكاثوليكيّة الشرقيّة والحركة المسكونيّة لتقارب المسيحيّين، وقويت الكثلكة فـي الولايات المتّحدة، وبدأت الكنيسة في دول أميركا اللاتينيّة تنهض مـن سباتها[1]. بيـد أنّ سنوات بيوس الثاني عشر الأخيرة قد تعرّضت إلـى سلسلة من التوتّرات والأزمـات المتداخلة. ذلك أنّها جاءت نتائج عدم تفاهم ومخاوف عدّة، ودليـلاً علـى أنّ هنـاك، فـي عدّة ميادين، حدودًا ومصاعب لا بدّ منها.

في شهر آب (أغسطس) ١٩٥٠، نشر بيّوس الثاني عشر الرسالة البابويّة "الجنـس البشريّ" حول "بعض آراء خاطئة تهدّد أسس العقيـدة الكاثوليكيّـة"، ولكـنّ الرسـالة لـم تذكر قائمة الأخطـاء. بـل انتقـدت مـا أسموه "اللاهـوت الجديـد" أي التفكير اللاهوتـيّ المنسجم مع الفكر المعاصر والذي يعير التاريخ أهميّة كبرى. وقالت بالعودة إلى صحّة التعليم "التومائيّ" في ميدانَي الفلسفة واللاهوت. وبصدد العلاقات بين المسيحيّين، حـذّر

---

١ ـ بتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٢٧٠.

البابا في رسالته "من التضحية بـالعقيدة فـي سبيل الوحـدة"، مـن دون أن يسـمّي أحـدًا. ولكنّ مجتهدين قرأوا بين السطور اللاهوت واللاهوتيّين المحكوم عليهم. فنظريّـة تعدّد الأصول[1] تتناقض وعقيدة الخلق والخطيئة الأصليّة. والجدل حـول الطبيعـة ومـا فـوق الطبيعة وحول التاريخ والعقيدة يعني بعض اللاهوتيّين اليسوعيّين[2]. وفي سـنة ١٩٥٤، كان بعض الآباء الدومينيكان على صلة بـ"الكهنة العمّال*" فمُنعـوا أيضًـا مـن التعليم[3]. وإذا كان تحديد عقيدة انتقال السيّدة العذراء من قِبَل البابا بيّوس الثاني عشر في تشرين الثـاني (نوفمـبر) ١٩٥٠، قد سـرّ غالبيّـة الكـاثوليك، فإنّـه خلـق نوعًـا مـن النفـور فـي الأوساط المسكونيّة الأرثذوكسيّة والبروتستانتيّة.

في الوقت ذاته، لم يكن ممكنًا أن يتجاهل المهتمّـون بـالكرازة، فـي فرنسـا، انتمـاء قسم كبير من الطبقة الفقيرة والعمّال إلـى المـدّ الشـيوعيّ حزبًـا ونقابـات. فظـنّ بعض الكاثوليك أن باستطاعتهم الالتزام إلى جانب الشيوعيّين والتضامن معهم وتـأليف اتّحـاد للمسيحيّين التقدّميّين. ففي كتاب ظهر سنة ١٩٥١ بعنـوان "الأحداث والإيمـان"، يعتـبر الأب "مونتو كلارا" أنّ تغييرًا في المجتمع يجب أن يسبق التبشير. فمنع مجمع الإيمـان التعاون مع الشيوعيّة. ثمّ أصبحت روما قلقة من نمط حيـاة والتزام "الكهنـة العمّـال*"، واعتبر البابا أنّ هـؤلاء الكهنـة "لـم يعـودوا رجـال الـروح، وأنّهـم يشـكّكون فـي دعـوة العلمانيّين الخاصّة، وقد أصبح الكهنة العمّال علمانيّين". ويعتبر علماء كنسيّون كـاثوليك أنّ بيّوس الثاني عشر قد أراد، من خلال هذا الموقف، أن يحافظ على كمال الكهنوت،

---

١ ـ **نظريّة تعدّد الأصول:** تقول بأنّ البشريّة تتحدّر من عدّة أشخاص وليس من شخص واحد، وهذه النظريّة هي من بنات أفكار تيار دي شاردان.

٢ ـ رأى المراقبون الأخصائيّون أن من أبرز أولئك اللاهوتيّين الأبوان "دو لوباك" و"بوييار" اللذان أُجبرا علـى ترك التعليم وعلـى عدم النشر.

٣ ـ من هؤلاء الأبوان "كونغار" و"شني".

فهو يتمنّى وجود إكليروس رسوليّ ولكن من دون خلق نوع جديد من الكهنة. وقد ذهب البابا في هذا الموضوع إلى النهاية، إذ بالرغم من وجود الكرادلة الفرنسيّين، أُجبر الكهنة العمّال، في أوّل آذار (مارس) ١٩٥٤، على التخلّي عن العمل "كلّ الوقت" في المصانع. فكانت النتيجة أنّه من أصل المئة كاهن عامل، لم يبدِ الخضوع سوى خمسين، في حين ظلّ الآخرون يتابعون العمل، من منطلق شعورهم بأنّهم "مرتبطون بالطبقة العمّاليّة التي يبدو أنّ الكنيسة قد أهملتها". فكان لهذه القضيّة تأثير عميق في الأوساط الكاثوليكيّة الفرنسيّة. وإنّ إعادة تنظيم إكليريكيّة "رسالة فرنسا" وخلق "رسالة العمّال" باسم "كهنة وعمل كاثوليكيّ" بعد قرار البابا ذاك، يعنيان أنّ كنيسة فرنسا لم تتخلّ عن تطلّعاتها الأولى. وظهرت في فرنسا توتّرات بين مختلف حركات العمل الكاثوليكيّ للشبيبة[1]. فالمزارعون والطلاّب أعاروا اهتمامًا كبيرًا للجهود التربويّة والإنسانيّة ظانّين أنّ حركاتهم قادرة على أن تسمها بطابعها الخاصّ، في حين شدّدت حركة "الشبيبة العاملة" على التبشير، وقالت بـ"وجوب القبول بمؤسّسات الحركة العمّاليّة التي رأت النور خارج الإهتمامات المسيحيّة". وهذا ما أدّى إلى حلّ "التجمّع الكاثوليكيّ للشباب الفرنسيّ" سنة ١٩٥٦.

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٥٧، ظهرت، لأوّل مرّة، قضيّة التعليم المسيحيّ. فطلبت روما فصل ثلاثة مسؤولين من المركز الوطنيّ للتعليم الدينيّ في باريس، من بينهم "جوزيف كولومب". وظهر أنّ بعض الأصوليّين كانوا قد شكوا إلى روما التعليم المسيحيّ التدرّجيّ الذي دعاه بعضهم "التقدّميّ"، واتّهموا طريقة "كولومب" بأنّها لا تعلّم الأولاد كلّ العقائد المسيحيّة منذ الصغر: كالخطيئة الأصليّة، وسرّ الثالوث... واتّهموا

١ ـ من أبرز تلك الحركات: "التجمّع الكاثوليكيّ للشباب الفرنسيّ".

كولومب أيضًا بأنّه "يجعل من الحقائق فائقة الطبيعة أمـورًا طبيعيّـة، إذ إنّـه يدعـو إلـى الاختبار الإنسانيّ والدينيّ لدى الأولاد".

وهكذا نجد أنّ فـي نهايـة حبريّـة البابـا بيّوس الثـاني عشـر، تلـك الحبريّـة الغنيّـة بالمبادرات، ظهر بعض المعوّقات. بيد أنّ الدعوة إلـى المجمـع الفاتيكـانيّ الثـاني فـي بداية الحبريّة الجديدة، ستسـمح لهذه الجهود التـي ظهرت بعد الحـرب أن تؤتـي كـلّ ثمارها[1].

---

١ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٧٤ ـ ٣٧٥.

المَجمَع الفَاتيكَاني الثَّاني

خلف البابا بيّوس الثاني عشر، على سدّة الكرسيّ الرسوليّ، في ٢٨ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٥٨، الكاردينال "رونكالّي"، متّخذًا اسم البابا يوحنّا الثالث والعشرين (١٩٥٨ ـ ١٩٦٣). وإذ كان له من العمر سبع وسبعون سنة، حسبوه بابا انتقاليًّا. والبابا الجديد من أصل ريفيّ، مرّ بالسلك الدبلوماسيّ في مراكز مختلفة. وفي سنة ١٩٥٣، أصبح بطريرك البندقيّة، وطارت شهرته كرجل طيّب القلب. وخلال تنقّلاته في بلدان عدّة، ومنها فرنسا، وإذ رأى كيف أنّ العالم تطوّر كثيرًا وأنّ الكنيسة غائبة في كثير من القطاعات، أراد يوحنّا الثالث والعشرون، طبقًا لروح الإنجيل، أن "يبسّط الأمور المعقّدة"، فتبنّى نمطًا جديدًا. فكان أوّل بابا خرج من الفاتيكان منذ ١٨٧٠، حيث زار سجن روما، وحجّ إلى "لوريتو"[١] و"أسّيزي"[٢]. لكنّه بقي تقليديًّا في بعض النواحي، إذ لم يكن ممكنًا تغيير كلّ شيء دفعة واحدة[٣].

لم يكن قد مضى ثلاثة أشهر على انتخابه عندما فاجأ البابا يوحنّا الثالث والعشرون الجميع، إكليروسًا وحكومات وشعوبًا، في ختام أسبوع الصلاة لوحدة المسيحيّين، في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩، بإعلانه عن نيّته الطموحة "المثلّثة" في أن يدعو إلى: سينودوس أبرشيّة روما، وإلى تجديد الحقّ القانونيّ، وإلى مجمع مسكونيّ للكنيسة الجامعة، يلتئم فيه جميع أساقفة العالم الكاثوليكيّ للتداول في الأمور التي تهمّ الكنيسة

---

١ ـ لوريتو LORETO : مدينة في إيطاليا، فيها مزار شهير لمريم العذراء.

٢ ـ أسيزي ASSISE : مسقط رأس القديس فرنسيس الأسيزي ١١٨٢ ـ ١٢٢٦ موسس رهبانيّة الفرنسيسكان، كان أثره الديني كبيرًا في الغرب طوال القرون الوسطى، لا يزال ضريحه مزارًا.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

ودورها في العالم. فتمسك الناس بالنقطة الأخيرة. ذلك أنّ كلاً من بيّوس الحادي عشر وبيّوس الثاني عشر كان قد فكّر في هذا الأمر، من دون أن تسمح لأيّ منهما الظروف بتحقيقه. كلّ ذلك في وقت لم يكن ثمّة من أزمة تستدعي عقد المجمع، وكان يُظنّ أنّ عهد المجامع قد ولّى، نظرًا لإعلان عصمة البابا الفرديّة في المجمع الفاتيكانيّ الأول عام ١٨٧٠، ولسهولة الاتّصال التي أصبحت مؤمّنة بروما. ولاقى إعلان البابا ارتياحًا كبيرًا في معظم الأوساط، ولدى المسيحيّين من مختلف المذاهب، وفتح آمالاً جديدة لمزيد من الانفتاح والتوازن في حياة الكنيسة[1]. وإذ لم يكن لدى يوحنّا الثالث والعشرين أفكار واضحة حول مضمون المجمع، إلاّ أنّه كان قد عايش آخر عهد البابا بيوس الثاني عشر الذي اتّسم بشيء من الإنغلاق والجمود. فإزاء تباعد العالم عن الكنيسة وتنشيط الحركة المسكونيّة، كان على الكنيسة الكاثوليكيّة أن تحدّد ذاتها، وتنفتح على سائر الكنائس، بحيث تمهّد لإعادة الوحدة بين جميع المؤمنين بالمسيح. وإنّ الهدف الذي عيّنه البابا يوحنّا الثالث والعشرون للمجمع هو تجديد الكنيسة والسعي إلى الوحدة المسيحيّة. وكان لا بدّ من توضيح المنهجيّة العامّة ووضع جدول أعمال دقيق، إذ إنّ البرنامج واسع، ويمكن أن يضيع الوقت في المتاهات. ويعود الفضل للبابا يوحنّا الثالث والعشرين الذي أراد المجمع، في إعطائه التوجيه الصحيح، وقد توصّل بصبره وحكمته إلى أن يكسر مقاومات الفئات المحافظة من دون مجابهة صريحة، ويحقّق الانفتاح الذي أراده، وذلك بالإشتراك مع المصفّ الأسقفيّ[2]، بتعيين هدفَين كبيرَين للمجمع: تجديد الكنيسة والرسالة في عالم يتبدّل بسرعة، والعودة إلى وحدة المسيحيّين التي كان ينتظرها وشيكة، كما كان المسيحيّون الأوائل ينتظرون عودة الربّ. فهمّ

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٧٤.

٢ ـ المرجع السابق.

الكنيسة، برأيه، يجب ألاّ يكون محاربة الخصوم بل إيجاد لغة تخاطب بها العالم الذي تعيش فيه والذي يجهلها. "يجب نفض الغبار الأمبراطوري" الذي يغطّي وجه الكنيسة[١]. ويوجز باحثون كنسيّون خلفيّة قرار البابا يوحنّا الثالث والعشرين في عقد المجمع الفاتيكانيّ الثاني، برغبته في تجديد أنظمة الكنيسة، وتعميم التقدّم الدينيّ، القائم في بعض الأقطار، على العالم الكاثوليكيّ بأجمعه؛ وتهيئة الكنيسة الكاثوليكيّة لأن تلتقي، يومًا ما، سائر الكنائس المسيحيّة في الوحدة التامّة التي أرادها السيّد المسيح. وما يؤكّد على هذه الغاية الأخيرة أنّ هذا البابا قد خلق، منذ أن ارتقى السدّة الرسوليّة، جوًّا وديًّا بين الكاثوليك وسائر المسيحيّين، وبين الكنيسة والحكومات الملحدة نفسها، ونشر رسالتَين عامّتين موضوعهما العدل الاجتماعيّ والسلام العالميّ. بمعنًى آخر، كان الهدف، من عقد المجمع الفاتيكانيّ الثاني، تهيئة الكنيسة للقيام بواجباتها تجاه العالم الجديد، وإزالة العقبات التي تراكمت عبر الأجيال أمام وحدة المسيحيّين[٢].

ويبدو للباحث كأنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني جاء نتيجة عشرين سنة من الأبحاث الراعويّة واللاهوتيّة، ليشكّل نقطة تحوّل في فكر الكنيسة اللاهوتيّ الذي كان يستوحي المجمع التريدنتينيّ[٣]. فإنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني سوف يحقّق تجديد الكنيسة في عالم يتطوّر بسرعة، ويوقظ آمالاً كبيرة. ومن جهة أخرى، سيؤدّي إلى انقشاع لأسباب "سوء التفاهم" الذي كان قائمًا في حينه، إلى حدّ، بين الكنيسة والعالم. بيد أنّ صعوبات أخرى سوف تبرز للوجود. فبتحرير المجمع للكلمة، سوف تظهر أزمة ثقافيّة عامّة

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٧٨.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

٣ ـ **المجمع التريدنتينيّ**: هو المجمع الذي عُقد ١٥٤٥ ـ ١٥٦٣، فحرّم البروتستانت، وأجرى الإصلاح الكاثوليكيّ، وقد جئنا على تفاصيل هذا المجمع في مكانه.

لا بدّ من أن تترك بصماتها في قلب الكنيسة[1].

التَّهيئَةُ للمَجمَع
وبَدءُ أعمَالِـه

سارعت دوائر الفاتيكان، بناء على طلب البابا، إلى العمل في ورشة استشارات عامّة تمهيدًا لوضع جدول أعمال المجمع الفاتيكانيّ الثاني. وفي ١٧ أيّار (مايو) ١٩٥٩ شكّل البابا لجنة تمهيديّة برئاسة الكاردينال "تارديني"، أمين سرّ الفاتيكان، غايتها الاتّصال بأساقفة العالم والجامعات الكاثوليكيّة، لتستشيرهم عن المواضيع التي يودّون طرحها في المجمع. وإذ أُرسلت التعاميم إلى جميع الأساقفة والجامعات، جاءت الأجوبة غزيرة جدًّا، فقامت اللجنة بتبويبها وتنسيقها. وفي ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٠ شكّل البابا اللجان التحضيريّة التي كانت مهمّتها صياغة النصوص التي ستُطرح على آباء المجمع للنقاش، فتمّ تشكيل اثنتَي عشرة لجنة للإعداد في أواسط آب (أغسطس) ١٩٦٠، جاءت مختلفة عن لجان إعداد المجامع السابقة، إذ كان من بينها لجنة لرسالة العلمانيّين، و"أمانة سرّ لاتّحاد المسيحيّين يرأسها الكاردينال "بيا BEA"، وأعضاء لاهوتيّون وأساقفة من بلدان عدّة كلّفوا تهيئة سبعين موضوعًا كأساس للعمل. ووُزّعت النصوص على مختلف اللجان التي كان كلّ منها مشكّلاً من أعضاء، لهم حقّ التصويت، ومن خبراء مستشارين وأمناء سرّ. وكان رؤساء اللجان عادة رؤساء الدوائر الرومانيّة المناسبة لها، والأعضاء مختارين من أساقفة سائر أنحاء العالم ولاهوتيّين من مختلف المشارب. وابتدأ العمل التحضيريّ في مطلع تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٠. وعُهد إلى لجنة مركزيّة يرئسها البابا نفسه وضع البرنامج النهائيّ

---

١ ـ راجع: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٧٧.

للأعمال. وأعدّ نظام المجمع ثلاثة مراحل من الحلقات: اللجان: وهي تتألّف من أساقفة ولاهوتيّين خبراء، مهمّتها تهيئة النصوص وتقديمها للجمعيّة العموميّة: وهذه تضمّ جميع الأساقفة، وكان لكلّ أسقف الحقّ بأن يتكلّم عشر دقائق باللاتينيّة. ثمّ الجمعيّات العامّة: برئاسة البابا، وهي التي تتبنّى النصّ نهائيًّا. وتقرّر موعد المجمع: في ١١ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٢.[١]

لمّا أوشكت الأعمال التحضيريّة على الانتهاء، أصدر البابا يوحنّا الثالث والعشرون براءة بتاريخ ٢٥ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦١، يدعو فيها إلى عقد المجمع في كنيسة الفاتيكان في عام ١٩٦٢. وافتتح المجمع رسميًّا يوم ١١ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٢ في احتفال مهيب، بحضور ٢,٥٤٠ حبرًا من أحبار الكنيسة[٢]، وجمهور غفير من المدعويّين الرسميّين وجماهير الشعب. وهكذا يتّضح أنّ ذلك المجمع كان حقًّا أوّل تجمّع كاثوليكيّ عالميّ، فجميع القارّات والأعراق كان ممثّلاً. والجديد اللافت البارز في المجمع الفاتيكانيّ الثاني، أنّه، خلافًا للمجامع السابقة، ووفقًا لإرادة يوحنّا الثالث والعشرين، قد ضمّ مراقبين مسيحيّين وأرثذوكسيّين وأنكليكانيّين وكاثوليكيّين قدامى وبروتستانتيّين... وقد ازداد عدد هؤلاء المراقبين من ٣١ في بدء المجمع إلى ٩٣ عند نهايته. وفي الدورات التالية حضر المجمع ٣٦ علمانيًّا من بينهم سبع نساء[٣].

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٧٤ ـ ٣٧٥؛ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٧٧ ـ ٣٧٨.

٢ ـ كان عدد المدعوّين إلى المجمع الفاتيكانيّ الثاني ٢,٨٠٠ أسقف ورئيس علمّ، حضر منهم في الدورة الأولى ٢,٥٤٠، علمًا بأنّ الذين لم يتمكّنوا من الحضور، كانوا بغالبيّتهم أساقفة من البلدان الشيوعيّة.

٣ ـ لأوّل مرّة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكيّة، دُعي ممثّلون عن مختلف الكنائس المسيحيّة، بصفة مراقبين. وكان لحضور هؤلاء الممثّلين أهميّة كبرى لتقارب وجهات النظر، وقد أُخذت كثيرًا آراؤهم بعين الإعتبار.

رسم البابا يوحنّا الثالث والعشرون في خطابه الإفتتاحيّ بخطوط واضحة المهامّ الملقاة على عاتق المجمع، والروحَ التي يجب أن يتحلّى بها، وأبدى تفاؤلاً كبيرًا تجاه أوضاع عالم اليوم ضدّ "أنبياء الشؤم"، ودعا إلى التنبّه لمساوئ تجربتَي "التشاؤم" و"الأصوليّة"، وإلى الإنفتاح وإلى تحديث اللغة اللاهوتيّة وأساليب الرسالة، بدون أن يتصدّى مباشرة للمحافظين. وبعد الجلسة الإحتفاليّة الأولى التي كانت مفتوحة، تتالت الجلسات مقتصرة على أحبار الكنيسة، وعلى المراقبين غير الكاثوليك المندوبين رسميًّا عن كنائسهم. وقد تجلّت الديمقراطيّة الشفّافة في المجمع الفاتيكانيّ الثاني في ١٣ تشرين الأوّل (أكتوبر)، عندما طالب الكاردينال "تيسّران"، الذي كان يرأس الإجتماع العامّ، بانتخاب لجان جديدة للمجمع، ما يعني الاستغناء عن اللجان التي هيّأت المجمع، ويحمل على الظنّ أنّ المجمع ستديره آليًّا الإدارة الرومانيّة، فأخذ الكاردينال "ليانار" الكلام، وطالب بتأجيل الإقتراع لكي يتمكّن الأساقفة من التشاور والاختيار بحريّة تامّة ومعرفة، فيستطيع مطارنة كلّ بلد عرض أسماء مرشّحين يمثّلون اتّجاهات المجمع العميقة[1]. وقد بدا المجمع مؤتمر أناس أحرار، إذ لم يكن هناك غرفة لاعتماد نصوص معدّة سلفًا. وأثناء الجلسات، كانت تُناقَش تباعًا النصوص اللاهوتيّة والإداريّة التي وضعتها اللجان التحضيريّة، فيقدّمها رئيس اللجنة المعيّنة، ويبدي الآباء رأيهم الإجماليّ

---

١ ـ إعادة صياغة النصوص، وإجراء التعديلات فيها، لم يعودا من اختصاص اللجان التحضيريّة التي كان البابا قد عيّنها، والتي كان يهيمن عليها رجالات الدوائر الرومانيّة، بل من اختصاص لجان منبثقة عن المجمع، وينتخب أعضاءها الآباء، ولتشكيل هذه اللجان أهميّة كبرى. ولذا كان لمداخلة الكاردينال لينار أسقف "ليل" شماليّ فرنسا، أهميّتها، إذ إنّه، لمّا عرض الآباء أثناء الجلسة العمليّة الأولى اقتراح انتخاب أعضاء اللجان المجمعيّة، تجرّأ وطلب إرجاء التصويت، ريثما يتعرّف الأساقفة بعضهم إلى بعض. واستغرق نقاش النصوص والتعديلات التي أجريت مرارًا على البعض منها، أربع دورات مجمعيّة: الدورة الأولى: من ١١ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٢ إلى ٨ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٢؛ الدورة الثانية: من ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٣ إلى ٤ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٣؛ الدورة الثالثة: من ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٤ إلى ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٤؛ الدورة الرابعة: من ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٥ إلى ٨ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٥. وبين دورة وأخرى كان الأساقفة يعودون إلى أبرشيّاتهم، واللجان المجمعيّة تجتمع لإعادة النظر في النصوص وفق الملاحظات التي أبداها الآباء أثناء الجلسات.

فيها، ثمّ يناقشونها بندًا بندًا. ويتحدّث الآباء الذين طلبوا الكلام لدى أمانة السرّ، مبدين رأيهم في الموضوع، ومقدّمين الإقتراحات والتعديلات. وهناك نصوص رُفضت من أصلها، وطُلب إعادة صياغتها، وهناك نصوص أخرى أُجري فيها تعديلات[1]. بيد أنّه لم ينتج في الدورة الأولى أيّ نصّ نهائيّ. ففهم المجتمعون أنّهم لن ينهوا السبعين موضوعًا، وقرّروا حصرها في عشرين[2].

بُولُـــــس السَّــــادِس
يَخلفُ يُوحنَّا الثَّالثَ وَالعِشرين

في نيسان (إبريل) ١٩٦٣، أصد يوحنّا الثالث والعشرون الرسالة البابويّة الشهيرة بعنوان "السلام على الأرض"، فأحدثت تأثيرًا كبيرًا على كافّة المستويات. ذلك أنّ البابا قد توجّه برسالته إلى "كلّ الناس ذوي الإرادة الحسنة"، لا المسيحيّين وحدهم. وذلك في وقت كانت أعمال المجمع لا تزال ناشطة، وقد بدا أنّ تلك كانت رسالة "وداع ووصيّة". إذ بعد ذلك التاريخ بقليل، كان العالم بأسره يتابع، بتأثّر، نزاع البابا الطويل. إلى أن فارقت روحه هذه الفانية في الثالث من حزيران (يونيو) ١٩٦٣ في السنة الخامسة من حبريّته. وفي الحادي والعشرين من الشهر نفسه، انتُخب رئيس أساقفة ميلانو الكاردينال "مونتيني"، خلفًا له، فاتّخذ إسم بولس السادس. وأخذ على

---

١ ـ ظهر يومها اتّجاهان: غالبيّة، في خطّ يوحنّا الثالث والعشرين، يهمّها تكيّف الكنيسة مع العالم والحوار المسكونيّ والعودة إلى ينابيع الكتاب المقدّس؛ وأقليّة، غالبيّتها من المجامع الرومانيّة وأساقفة بلدان ذات طابع مسيحيّ قديم، كإيطاليا وإسبانيا، همّها الحفاظ على "وديعة الإيمان". وطوال مدّة انعقاد المجمع، كان من المهمّ التوفيق بين هذين الاتّجاهين، ما أدّى أحيانًا إلى التوصّل لصيغ أفضل، لكنّ ذلك قاد إلى إضعاف بعض النصوص.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٧٦؛ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٧٩ ـ ٣٨٠.

عاتقه إنجاز أعمال المجمع، ووجّه الدورات الثلاث الأخيرة. وهو الذي سيُصدر رسميًا القرارات[1].

أمر البابا بولس السادس (١٩٦٣/٦/٢١ ـ ١٩٧٨/٨/٦) فور انتخابه باستئناف أعمال المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وسهر على سير أعماله. فتطرّقت الدورة الثانية في خريف ١٩٦٣ إلى عدّة مواضيع أبرزها: عمل الأساقفة الجماعيّ، والمسكونيّة، والحريّة الدينيّة، وأصدرت مرسومًا في الليتورجيا وقرارًا في الاتّصالات الإجتماعيّة. وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤، زار بولس السادس الأراضي المقدّسة، ومنذ زمن بعيد لم يكن قد خرج بابا من إيطاليا. وقد كانت تلك "حَجّة إلى الينابيع، وبادرة مسكونيّة"، إذ التقى البابا بطريرك القسطنطينيّة أثيناغوراس*، وكان للقائهما عميق الأثر في أعمال المجمع، إذ في شهر أيّار (مايو) من العام نفسه، أُسّست في المجمع الفاتيكانيّ الثاني أمانة سرّ لغير المسيحيّين، وقد رأى خبراء في الشؤون الكنسيّة أنّ ذلك كان بناء على رغبة مشتركة تفاهم عليها البابا مع بطريرك القسطنطينيّة. واقتصرت أعمال دورة أيّار (مايو) ١٩٦٤ من أعمال المجمع على مناقشة ١٧ بندًا ـ موضوعًا من جدول الأعمال. أمّا في الدورة الثالثة التي انعقدت في خريف ١٩٦٤، فدار الجدل بين الآباء حول الحريّة الدينيّة. واقترعوا على عدّة نصوص وأعلنوها: الكنيسة، والمسكونيّة، والكنائس الشرقيّة. وعرض المجمع موضوع تكوين مجمع أساقفة يستشيره البابا دوريًّا. وفي كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٤، كان البابا بولس السادس يتعرّف إلى العالم الثالث من خلال رحلته إلى

---

١ ـ كان البابا الجديد قد عمل قبلاً في الأمانة العامّة لدى الفاتيكان. وكان خجولاً بعض الشيء، ولكنّه متوقّد الذكاء ونشيط ومتصوّف. وبخلاف يوحنّا الثالث والعشرين، كان يبدو ضعيف البنية.

"بومباي[١]" بالهند. وبينما كان المجمع الفاتيكانيّ الثاني يعقد دورته الرابعة والأخيرة في أيلول - كانون الأوّل (سبتمبر - ديسمبر) ١٩٦٥، سافر بولس السادس إلى نيويورك، وارتقى منبر الأمم المتّحدة في الرابع من تشرين الأوّل (أكتوبر) حيث أرسل صرخة "لا حرب بعد اليوم"، التي تركت انطباعًا قويًّا في العالم أجمع، خاصّة وأنّه قال أيضًا: إنّه "خبير في الأمور الإنسانيّة"، و"ديننا هو دين الإنسان". وفي ٤ كانون الأوّل (ديسمبر)، في احتفال مشترك جرى في الفاتيكان، هو الأوّل من نوعه في تاريخ البابوات، ودّع بولس السادس جميع المراقبين غير الكاثوليك. وفي السابع من كانون الأوّل (ديسمبر)، وفي كنيسة القدّيس بطرس في روما، رفع بولس السادس والبطريرك المسكونيّ الأرثذوكسيّ أثيناغوراس الحرم المتبادل بينَ الكنيستَين الشرقيّة والغربيّة منذ سنة ١٠٥٤، أي منذ تسعماية وأحد عشر عامًا، وقد عُدّت هذه البادرة مرحلة بالغة الأهميّة على طريق الوحدة المسيحيّة المسكونيّة. وفي اليوم التالي، نهار ٨ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٥، اختتم المجمع الفاتيكانيّ الثاني أعماله احتفاليًّا في جوّ من الأمل، بعد أن اتّخذت المقرّرات بالاقتراع، وبإعلان كافّة النصوص المدروسة سابقًا. وحرص البابا على نشر تلك المقرّرات، وهو أوّل مَن عمل على تطبيقها، فأسّس سينودس الأساقفة الذين يجتمعون حوله بشكل دوريّ لتدارس أمور الكنيسة الجامعة. ونظّم المجالس الأسقفيّة في مختلف الأقطار وأعطاها سلطات واسعة. كما وسّع الدوائر الرومانيّة وفتحها على جميع العناصر والشعوب. وأسّس أمانات السرّ الدائمة لوحدة المسيحيّين، وللعلاقات مع سائر الأديان وللحوار مع غير المؤمنين. كما عمل على الإصلاح الطقسيّ في الكنيسة الغربيّة. وشكّل اللجان لوضع الحقّ القانونيّ الجديد.

---

١ - بومباي BOMBAY: مدينة في غرب الهند على بحر عمان، عاصمة مقاطعة بومباي سابقًا، عدد سكّانها نحو ١٦ مليون نسمة، من كنائسها كنيسة الملابار التي ارتبطت تاريخيًّا بالكلدانيّة الكاثوليكيّة، والمقول إنّ تلك الكنيسة ترقى إلى الرسول القدّيس توما - راجع: كنيسة الملابار، في الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

وأبدى حكمة كبيرة في حقبة ما بعد المجمع، لإجراء الإصلاحات الضروريّة والانفتاح على عالم اليوم، متغاضيًا عن انتقادات المحافظين المتشدّدين، وكابحًا جماح التقدّميّين المتهوّسين. وأظهر البابا اهتمامه بالقضايا العالميّة في رحلاته وفي دفاعه عن حقوق الإنسان والعدالة، فوُلدت الفروع الوطنيّة للجنة "عدالة وسلام" سنة ١٩٦٧، وهي تكرّس عملها لهذه القضايا[١].

حَـــولَ مُقَـــرّراتِ
المَجمَع الفَاتِيكَانِيّ الثّانِي

أراد المجمع الفاتيكانيّ الثاني، على وجه العموم، أن يكون مجمعًا راعويًّا يتوجّه بالكلام إلى إنسان اليوم. وما ميّز هذا المجمع عن المجامع التي سبقته، أنّه، بما فيه من عمق التفكير العقائديّ، لم يأتِ بأيّ تحديدات أو إدانات، كما أنّه لم يصدر أيّ حرم كما كانت الحال في المجامع السابقة. ذلك أنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وحده بين المجامع السابقة، لم يُعقد ليحرّم أو يدين، بل كان للإنفتاح والحوار، حوار مع الفكر المعاصر، حوار مع العالم، مع سائر المسيحيّين، مع سائر الديانات، مع كلّ البشر حتّى غير المؤمنين. وكان له أبعاد لاهوتيّة ومسكونيّة ورعائيّة جزيلة الأهميّة، ولم يعطِ بعد جميع نتائجه لأنّ هناك أوساطًا لم تنجز تطبيقه، وهناك مَن أساؤوا فهمه وانحرفوا عن روحه. وقد أدخل في الكنيسة روحًا جديدة، ونمطًا جديدًا يتجاوب مع عقليّة اليوم وحاجات العصر، بدون أن يقطع مع الماضي ومتطلّبات الإنجيل، وكانت غايته الأساسيّة راعاويّة حسبما ردّد ذلك مرارًا البابا يوحنّا الثالث والعشرون، أي أن يعبّر عن العقيدة الثابتة والتي لا تتغيّر، بكلام يتلاءم وروح العصر، يفهمه رجل اليوم وهو

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٧٠؛ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٨٠ ـ ٣٨٢.

في خضمّ تطوّر سريع وتبديل لم يرَه عصر من قبل، وأن يقدّم التوجيهات العمليّة التي تراعي الظروف الراهنة، بغية تحقيق رسالة الكنيسة في العالم، وهي خدمة الإنسان وتوطيد ملكوت اللّه[1].

تناولت قرارات المجمع مسائل عميقة في الشأن الإيمانيّ. وقد أصدرها البابا بولس السادس رسميًا بعد أن صوّت عليها الآباء، وحظيت بشبه الإجماع[2]. وكان من أهمّ القرارات ما يتعلّق بموضوع "الوحي الإلهيّ"، فشدّدت على وحدة الوحي، حيث "لا يجوز التمييز بين الكتاب المقدّس والتقليد الشفويّ. فالوحي ليس مجمّدًا في نصّ، بل إنّه محفوظ في الشعب المؤمن الذي يكتشف دومًا غناه الجديد". والعودة إلى كلمة اللّه تحمل على إعادة الاعتبار، في الكنيسة الكاثوليكيّة، إلى وجهات نظر تقليديّة كادت أن تُنسى بسبب الجدل بين البروتستانت أو الأرثذوكس، كـ"كهنوت المؤمنين العامّ"، فالكنيسة شعب اللّه أكثر منها مؤسّسة قانونيّة. أمّا عبارة "عمل الأساقفة الجماعيّ" التي

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٧٣.

٢ ـ قائمة النصوص النهائيّة التي انبثقت عن المجمع: ـ **في الدساتير العقائديّة والرعائيّة**: دستور عقائديّ في الكنيسة، يعلن أنّها شعب اللّه و"نور الأمم"؛ دستور عقائديّ في الوحي الإلهيّ، ومصدره الكتاب المقدّس والتقليد الكنسيّ؛ دستور راعويّ في الليتورجيا؛ دستور راعويّ عن الكنيسة في عالم اليوم، تشاطره فرحه وآماله. ـ **في القرارات المسلكيّة**: قرار في وظيفة الأسقف في الكنيسة والجماعيّة الأسقفيّة؛ قرار في حياة الكهنة وخدمتهم الكنسيّة ورعاية النفوس؛ قرار في التنشئة الكهنوتيّة (الإكليريكيّات)؛ قرار في الحياة الرهبانيّة والمؤسّسات الجديدة المماثلة لها؛ قرار في رسالة العلمانيين؛ قرار في رسالة الكنيسة بين الأمم والشعوب؛ قرار في الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة؛ قرار في الحركة المسكونيّة واتّحاد الكنائس؛ قرار في وسائل الإعلام. ـ **في التصريحات**: تصريح في التربية المسيحيّة؛ تصريح في علاقات الكنيسة بالديانات غير المسيحيّة؛ تصريح في الحريّة الدينيّة. ـ محور هذه النصوص جميعًا **الدستور العقائديّ في الكنيسة**، وهي تتّسم بثلاث ميزات: تركيز على الجوانب السريّة والروحيّة في كيان الكنيسة وحياتها أكثر من الجوانب القانونيّة والنظاميّة التي كانت مهيمنة من قبل؛ تركيز على المشاركة بين جميع أعضاء شعب اللّه، وعلى مختلف المستويات، بين المؤمنين ورعاتهم، بين الكهنة وأسقفهم، بين الأساقفة والحبر الأعظم، بدون التنكّر للميزات القانونيّة والهيرارخيّة؛ تركيز على الانفتاح والحوار مع العالم، مع سائر المسيحيّين، مع مؤمني كلّ الديانات، وعلى الخروج من روح العزلة ونبذ الآخرين، من منطلق أنّ دفاع الكنيسة لا يقوم بمقارعتها الآخرين، بل بأن تتجلّى بوضوح كنور للأمم وخادمة للشعوب.

تضمّنتها القرارات، فتعني أنّ الأساقفة يحملون، مع أسقف روما، مسؤوليّة الشعب المسيحيّ المشتركة. وكان إعداد القرار في "الحريّة الدينيّة" من أصعب النصوص، إذ كان مثقلاً بوطأة قرون من الجدل. وكما كان في عهد غريغوريُس السادس عشر (١٨٣١ ـ ١٨٤٦) الذي أدان "تجاوزات" العقلانيّة والاشتراكيّة والليبراليّة، كانت الأقليّة في المجمع الفاتيكانيّ الثاني تريد الانطلاق من الدفاع عن الحقيقة وعن الكنيسة الكاثوليكيّة كديانة حقيقيّة واحدة، فرفضت الأكثريّة هذا الطريق المسدود وطلبت الانتقال من الشخص البشريّ ومن حقوقه التي لا تُمسّ، ومن بينها حقّ الوصول بحريّة إلى الحقيقة التي يقرّها الضمير. فالحريّة "قيمة شاملة لا يمكن أن يطالب بها الكاثوليك وحدهم عندما يكونون أقليّة مضطهدة. فهي أيضًا من حقّ الأقليّات غير الكاثوليك العائشين في محيط كاثوليكيّ". أمّا القرار حول "المسكونيّة" فطلب إلى الكنائس المسيحيّة المختلفة أن تنظر، أوّلاً، إلى الجوهر المتمثّل في الإيمان المشترك: بالمسيح والإنجيل. "فلا يجوز اتّهام المسيحيّين غير الكاثوليك بخطيئة الإنفصال، بل فليعترف الكاثوليك أيضًا بنقائصهم وبمسؤوليّتهم التاريخيّة إزاء الانفصالات[١]". وهناك إصلاحات أجراها المجمع في نظام الأسرار (بند ١٢ ـ ١٨) والعبادة (١٩ ـ ٢٣) والعلاقات مع الإخوة المنفصلين (بند ٢٤ ـ ٢٩) وأبرزها الاعتراف بصحّة الزواج المختلط المعقود بحضور خادم الكنيسة الأرثذوكسيّة، وتسهيل الإشتراك في القدسيّات مع الأرثذوكس[٢]. وجاء القرار حول الـ"ليتورجيا" ليشكّل نقطة انطلاق لنهضة ليتورجيّة، إذ قال باستعمال لغة البلاد في كلّ إقليم، وبإمكانيّة المناولة "تحت الشكلَين"، وبإظهار أهميّة ليتورجيّة الكلمة، وبالقدّاس المشترك.

---

١ ـ القرار الصادر في ٧ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٥، عن بولس السادس وأثيناغوراس.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

وكان "من أجدّ جديد المجمع"[١]، القرار بخصوص "الديانات غير المسيحيّة". فقد حاول المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، هنا، اكتشاف ما تحتفظ به سائر الديانات من معرفة اللّه، بدءًا بالديانات المسمّاة بدائيّة حتّى التي تشترك في تراث الوحي التوحيديّ كاليهوديّة والإسلام. فجاء في القرار أنّ "الكنيسة تأسف للبغض والاضطهادات ولكلّ مظاهر محاربة الساميّة التي، مهما كانت حقباتها وفاعلوها، وُجّهت إلى اليهود[٢]". وجاء تأسيس أمانة عامّة لغير المسيحيّين نيسان (إبريل) ١٩٦٥ ليؤكّد على نيّة الكنيسة الكاثوليكيّة متابعة الاهتمام بموضوع الديانات غير المسيحيّة.

وفي قراره "نور الأمم"، أظهر المجمع الفاتيكانيّ الثّاني الكنيسة في سرّها، حيث جاء أنّ "شعب اللّه مدعوّ إلى القداسة، حيث الأساقفة والعلمانيّون والرهبان يجدون مكانهم المميّز، وتظهر مريم في علاقتها بسرّ الكنيسة". وفي قراره "فرح ورجاء"، حول "الكنيسة في عالم اليوم"، وهو أطول القرارات نصًّا، وضع المجمع الكنيسة في حالة حوار مع العالم، حيث "عليها أن تأخذ بعين الاعتبار تغيّرات هذا العالم التي كانت أساس عدّة نزاعات وأخطاء في الماضي[٣]". ودعا المجمع إلى "اعتبار الإلحاد كما هو، والبحث عن أسبابه". كما بُحث بعض مشاكل العصر بطريقة مميّزة، ومنها: الزواج والعائلة، الثقافة، الإقتصاد، المجتمع السياسيّ، وبناء السلام.

***

لقد أوحت مقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني بأنّ عصرًا جديدًا قد بدأ في الكنيسة، أنهى عصر المجمع التريدنتينيّ، ودرج القول بـ"قبل المجمع" و"بعد المجمع". وساد

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٨٢.

٢ ـ هذا المقطع مرّ بصعوبة في إطار الشرق الأوسط الشائك.

٣ ـ راجع: قرارات المجمع الفاتيكانيّ الثاني، القرار "فرح ورجاء".

الانطباع بأنّ الكنيسة، التي عاشت أربعة قرون تبعًا لاعتبارات المجمع التريدنتيني، انتقلت لتعيش عصرًا جديدًا تبعًا لاعتبارات المجمع الفاتيكانيّ الثاني. ومع أنّ البعض يرى أنّه كان بالامكان الإفادة بشكل أفضل من المقرّرات البالغة الأهميّة للمجمع الفاتيكانيّ الثاني[1]، فإنّ الوقائع تدلّ على أنّ المؤسّسات التي نادت بها نصوص المجمع قد بدأت تظهر للوجود بسرعة في السنين اللاحقة، إذ أُسّست المجالس الأسقفيّة في كافّة البلدان، وإن اقتصرت أحيانًا على تنظيم تجمّعات كانت موجودة، فالمجلس الأسقفيّ الفرنسيّ أخذ يجتمع سنويًّا في مدينة "لورد*" منذ ١٩٦٦، ويتوزّع الأساقفة على عدّة لجان تجتمع مرّات في السنة. وجاء مظهر آخر من مظاهر العمل الجماعيّ الذي قرّره المجمع، وهو سينودوس الأساقفة الذي أصبح يعاون البابا في إدارة الكنيسة الجامعة[2]. وأُسّست، وإن بصعوبة، مجالس راعويّة في الأبرشيّات. وعملت الرهبانيّات على تحديد قوانينها وفق ما تتطلّبه حياة العصر، وانطلاقًا من القرار حول تجديد وتكييف الحياة الرهبانيّة. واحتُفل في الطقوس باللغات الحيّة، أي بلغات أهل البلاد في كلّ من الكنائس المنتشرة في العالم. وبالرغم من أنّ هذه التغييرات قد قوبلت برضى عامّ، فإنّ بعض الذين يحنّون إلى اللاتينيّة قد أطلق أولى التهجّمات ضدّ الكاردينال "لركارو" رائد عن هذه النهضة، غير أنّ البابا قد انبرى ليدافع عن الكاردينال، فصمت المنتقدون.

---

١ - يرى باحثون أنّه كان يكفي لتحقيق هذه الآمال أن تُطبّق النصوص، بيد أنّ الأمور لم تجرِ، في الواقع، هكذا تمامًا. فإنّ إعادة النظر في تطبيق قرارات المجمع، بالإضافة إلى الأزمة الحضاريّة، أظهرت حاجة الكنيسة إلى الثبات حيث تجد اختلافات الرأي فيها تعابير أكثر حريّة - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٨٣.

٢ - اجتمع هذا السينودس للمرّة الأولى في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٧، وهو يضمّ ١٩٧ عضوًا ثلثاهم منتخَبون من قِبَل المجالس الأسقفيّة، وهو شكل من الدورات الدراسيّة، برنامجه غير محدّد، يشمل الأخطار التي تهدّد الإيمان: كالإلحاد، والزيجات المختلطة، وتجديد المدارس الإكليريكيّة، والحقّ القانونيّ...

في الوقت نفسه، أخذت الكنيسة بُعدًا عالميًّا، إذ أصبحت شريكة في أهمّ قضايا العالم. واكتسبت رحلات البابا بولس السادس ولقاءاته وأعماله حبّ المسيحيّين وغير المسيحيّين. فقد ذهب إلى مقرّ الأمم المتّحدة في نيويورك سنة ١٩٦٥، وإلى البرتغال وإلى اسطنبول حيث التقى البطريرك أثيناغوراس مرّة ثالثة سنة ١٩٦٧،[1] ثمّ إلى "جنيف[2]" و"أوغندا[3]" سنة ١٩٦٩، و"كولومبيا[4]" و"الفيليبّين*" سنة ١٩٧٠. وكان قد التقى رئيس أساقفة "كَنتربري*" في سنة ١٩٦٦. ولم تقتصر علاقات الكنيسة الكاثوليكيّة في عهد بولس السادس على الكنائس البيزنطيّة، فالكنائس الشرقيّة القديمة

---

١ ـ في العام نفسه ردّ له البطريرك أثيناغوراس الزيارة في الفاتيكان، وكان اللقاء الأوّل قد حصل في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤ عندما زار بولس السادس الأراضي المقدّسة، والتقى البابا بطريرك القسطنطينيّة أثيناغوراس، وفي السابع من كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٥ وفي كنيسة القدّيس بطرس في روما رفع بولس السادس والبطريرك المسكونيّ الأرثوذكسيّ أثيناغوراس الحرم المتبادل بين الكنيستين الشرقيّة والغربيّة منذ سنة ١٠٥٤، كما ذكرنا سابقًا.

٢ ـ **جنيف** GENÈVE: مدينة في سويسرا على بحيرة ليمان، فيها مركز الصليب الأحمر الدوليّ ومكتب العمل الدوليّ، كانت مركزًا لجمعيّة الأمم التي خلفتها الأمم المتّحدة بعد الحرب العالميّة الثانية وجعل مركزها في نيويورك.

٣ ـ **أوغندا** OUGANDA, UGANDA: جمهوريّة في وسط أفريقيا الشرقيّ بين السودان وبحيرة فيكتوريا جنوبًا، عاصمتها "كامبالا"، عدد سكّانها نحو ٢٢ مليون نسمة معظمهم من "البانتو" وديانة السكّان المسيحيّة والإسلام، من أوائل مستكشفيها الأوروبيين "جون سبيك" و"جيمس غرانت" ١٨٦٢ و"سير صموئيل بيكر" ١٨٦٤ و"هنري ستانلي" ١٨٧٥، كانت مملكة أسّس فيها البريطانيون محميّة ١٨٩٤ وضمّوا إليها لاحقًا ممالك مجاورة، استقلّت ١٩٦٢، انضمّت إلى الأمم المتحدة وإلى منظمة الوحدة الأفريقية ١٩٦٣، تعرّضت لعدّة انقلابات، وعندما زارها بولس السادس كان رئيسها "أوبوتي" الذي أطاح بالرئيس "موتيسا الثاني" ١٩٦٦ وأطاح به الجنرال عيدي أمين ١٩٧١، طرد منها عيدي أمين جميع الأسيويّين الذين لا يحملون الجنسيّة الأوغنديّة ١٩٧٢، حدثت فيها عدّة انقلابات عدّة ١٩٧٨ ـ ١٩٨٦، تعاني حاليًا انتشار مرض الإيدز فيها على نطاق واسع.

٤ ـ **كولومبيا** COLOMBIA: جمهوريّة في شمال غربيّ أميركا الجنوبيّة بين فنزويلا والبرازيل، والبيرو، وأكوادور، وباناما، تجاور شواطئها بحر الكاريبي والمحيط الهادي، عاصمتها بوغوتا، عدد سكّانها نحو ٣٩ مليون نسمة أكثرهم كاثوليك، كان إقليمها نواة مستعمرة إسبانيّة تطوّرت إلى ولاية "نيوغرانادا" وكانت تضمّ "باناما" ومعظم "فنزويلا"، أنشئت في بوغوتا جامعة شهيرة ١٥٧٢، بدأت ثورة كولومبيا على الإستعمار الإسباني ١٨١٠ وخُتمت بانتصار "بوليفار" في "بوياكا" ١٨١٩ الذي أقام جمهوريّة كولومبيا العظمى التي ضمّت فنزويلا وإكوادور، قضت على المملكة حركة إنفصاليّة ثمّ فصلت عنها باناما ١٩٠٣ بعد شقّ قناة باناما، انضمّت إلى الحلفاء في الحرب العالميّة الثانية ١٩٤٣، عضو في الأمم المتحدة ١٩٤٥، تتالت فيها الانقلابات.

هي أيضًا كانت موضوع اهتمام. وقد زار كاثوليكوس الأرمن الأرثذوكس "خورين"، الذي مقرّه في أنطلياس ـ لبنان، البابا بولس السادس عام ١٩٦٧، وتبعه كاثوليكوس الأرمن الأعلى "فاسكين" عام ١٩٧٠، ثمّ كانت زيارة البطريرك السريانيّ مار أغناطيوس يعقوب الثالث عام ١٩٧١، والبطريرك شنودا القبطيّ عام ١٩٧٣، وكان هذا أوّل تلاقٍ رسميّ منذ قرون. وإذ كان لاستقبال يوحنّا الثالث والعشرين لصهر الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشوف قد أثّره الإيجابيّ البالغ، فتح بذلك بابًا على الشرق، تبعه فيه بولس السادس، الذي أسند المضيّ قدمًا بهذه المهمّة إلى المطران "كازارولي". كما عادت العلاقات الدبلوماسيّة بين الفاتيكان و"يوغوسلافيا" سنة ١٩٧٠. ولاقت قضيّة الكاردينال "مندزنتي"، رئيس أساقفة المجر حلاً سنة ١٩٧١. وقد استقبل البابا بولس السادس مرارًا مسؤولين سوفياتيّين. وعندما توقّف في هونغ كونغ سنة ١٩٧٠، حيّا الصين "فالمسيح هو لها أيضًا الفادي الحنون". كما جعل بولس السادس إدارة الكنيسة المركزيّة إدارة عالميّة تتألّف من مختلف الجنسيّات فأصبح الأساقفة الطليان منذاك أقليّة. وقد أكّد البابا بولس السادس، في رسالته "ترقّي الشعوب" لسنة ١٩٦٧، على أنّ "القضيّة الإجتماعيّة أصبحت شاغلاً عالميًّا". وقال "بوجوب أن يشمل التطوّر كلّ القطاعات: الإقتصاديّة والثقافيّة والروحيّة". و"بوجوب توجيه العلاقات الاقتصاديّة للدفاع عن البلدان الضعيفة ضدّ المنافسة الظالمة". فكان لرسالته تلك تأثير هامّ في المجالس الأسقفيّة وفي سينودوس سنة ١٩٧١. كما أنّ بعض مسيحيّي البلدان الشماليّة أخذوا ينتقدون المجتمع الإستهلاكيّ وتبديد الموارد العالميّة[1]. وقد سعى البابا بولس السادس لتعزيز أوضاع الكنيسة في البلاد النامية، بعد أن تحرّرت من الاستعمار،

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٨٥؛ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

فأخذت طابعًا وطنيًا بأنظمتها وطقوسها ورجالها، كما بدأت تلعب دورًا له أهميّته في الكنيسة الجامعة، وانفتحت بدورها على الرسالة المسيحيّة في الخارج[1].

فِي مُوَاجَهَةِ الاضْطِرَابَات وقَضَايَـــا العَصـــــر

لقد كان لاضطرابات فرنسا الاجتماعيّة، التي ولدت في شهر أيّار (مايو) ١٩٦٨ في جامعة باريس، إمتداداتها، ليس إلى المصانع والمجتمع العلمانيّ فحسب، بل وإلى داخل الكنيسة أيضًا. ذلك أنّ الانتقادات الفكريّة قد شملت المؤسّسات الكنسيّة، وظهرت عناوين من نوع: "ها هو الشارع دخل الكنيسة"، و"الروح القدس اعتلى الحواجز". وقد أعلن أسقف باريس يومها، الكاردينال "مارتي" أنّ "اللّه ليس محافظًا". تلك الاضطرابات جعلت الكهنة يجتمعون للتحاور، وظهرت بنتيجة ذلك اتّهامات للكنيسة بأنّها ضامنة للنظام القائم.

وعنما زار بولس السادس كولومبيا (بوغوتا ومدلّان) في شهر آب (أغسطس) ١٩٦٨، بمناسبة انعقاد مجلس أساقفة أميركا اللاتينيّة، أعلن هناك أنّ "للسلام إسم هو الإنماء"، ولكنّه، في الوقت ذاته، أدان حركات التحرير بعنف. بيد أنّ فلسفة الإنماء، في نظر الكثيرين، تقود إلى الفشل، "لأنّها تدعم رأسماليّة الشركات العالميّة المتمركزة في أميركا الشماليّة والتي تدعمها أنظمة أميركا اللاتينيّة العسكريّة". علمًا بأنّ الكنيسة متّهمة دائمًا بأنّها محافظة ومتضامنة مع هؤلاء، مع أنّه، في سنة ١٩٦٦، مات الأب "كاميليو تورز" الكولومبيّ في حرب العصابات في معارك التحرير. ويقول "لاهوتيّو التحرير" إنّ على المسيحيّين أن يشاركوا في هذه الحروب بغية الحصول على العدالة

---

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

في سبيل الفقراء، من دون أن يقتصر هذا الجهاد على الحروب المسلّحة. وبرأي أولئك اللاهوتيّين أنّه "إذا كان هناك من ظلم، فلأنّ البنى السياسيّة والاقتصاديّة هي التي تفرضه، لذا يجب مقاومة هذه البنيات". وقد كان لتلك الآراء المعارِضة ردود فعل لدى المحافظين والأصوليّين الذين يحمّلون المجمع الفاتيكانيّ الثاني مسؤوليّة هذا الغليان. أمام هذا الواقع، شعر بولس السادس بالألم، وعبّر عنه مرّات عديدة في السنين التالية بترداده: "تجديد، نعم. تبديل، لا". و"كان ظنّنا أنّ ما بعد المجمع سيكون أيّامًا مشمسة، فإذا بالغيوم والعواصف والظلام" سنة ١٩٧٢.[١]

ورأى البعض، في غمرة تلك الاضطرابات الاجتماعيّة، أنّ تطبيق مقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني لا يسير بالسرعة المطلوبة، وطالب بحثّ الخطى. وكان في نهار العنصرة سنة ١٩٦٨، قد جرى احتفال من قِبَل عدد كبير من المسيحيّين والكهنة بأفخارستيّا مشتركة للإسراع في وحدة الكنائس، في حين ترك كهنة عديدون الكهنوت بحجّة "العودة به إلى خضمّ الحياة البشريّة في الزواج والعمل والالتزام السياسيّ". وما يجب ذكره في هذا المجال أنّ آباء المجمع الفاتيكانيّ الثاني لم يبحثوا، في المجمع، موضوع تنظيم النسل، والمقول إنّ البابا أراد أن يحتفظ بهذا الموضوع لنفسه. وقد أسند دراسته إلى لجنة تميل إلى الحدّ من الموقف التقليديّ في الكنيسة بخصوص منع الحمل، لكنّ البابا لم يأخذ بكلّ نصائح تلك اللجنة، وفي رسالته "الحياة البشريّة" في تمّوز (يوليو) ١٩٦٨، رفض كلّ الطرق غير الطبيعيّة لمنع الحمل، فلقيت الرسالة تذمّرًا، لا من قِبَل غير الكاثوليك فقط، بل ومن قِبَل العديد من الكاثوليك في البلدان المتطوّرة. أمّا العالم الثالث فاستقبلها بطريقة أفضل. وقد أخذ الإعتراض أوجهًا عديدة.

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٨٧.

إذ بينما رأى الكثيرون في الرسالة أنّ السلطة في الكنيسة لم تطبّق جماعيًّا كلّ المواضيع الدقيقة من مثل: تحديد النسل، ورعاية المطلّقين، وتبتّل الكهنة...، وأنّ تلك المواضيع لم تخضع لدراسات المجمع وللتطبيق الجماعيّ، عبّر بعض الأساقفة، ومنهم الكاردينال "سواننس"، عن تحفّظه. كما أُخذ على الرسالة أنّها لم تنطلق من الشخص البشريّ، بل من وجهة نظر بيولوجيّة. وفكرة "الطبيعة" التي يرتكز عليها الموقف الرومانيّ لا تخلو من اللبس. وطُرح التساؤل: هل توقّف الإنسان يومًا عن تحسين الطبيعة وهو غالبًا ما يجاهد ضدّها كما في أحوال الكوارث الطبيعيّة، والأمراض، والموت؟ من هنا فإنّ كثيرين من الكاثوليك لم يقرّوا بأنّ الرسالة موجّهة إليهم، فكان في ذلك إشارة إلى تراجع في السلطة البابويّة. فالمسيحيّون، وبأولى حجّة غير المسيحيّين، يستصعبون، يومًا بعد يوم، قبول سلوك محدّد من علٍ عن طريق سلطة خارجيّة. والبعض يرفض إسناد حقّ الكلام إلى "شيوخ عازبين" يتكلّمون في أمور لا تهمّهم.

وبينما كانت آباء المجمع الفاتيكانيّ الثاني يتوقّعون من نتائج ذلك المجمع، جعل الكنيسة أشدّ جاذبيّة، جاءت نتائج السنوات اللاحقة لتبيّن العكس، إذ ظهر تراجع خطير في الممارسة الدينيّة وفي التمسّك بالسلوك المسيحيّ، أقلّه في الغرب، ففي فرنسا مثلاً، كانت نسبة الذين يشاركون في قدّاس يوم الأحد، في خمسينات القرن العشرين، ٣٠٪ من مجموع عدد الفرنسيّين، وقد هبطت تلك النسبة إلى ٢٣٪ سنة ١٩٦٦؛ وإلى ١٧٪ سنة ١٩٧٢؛ فإلى ١٢٪ في ثمانينات القرن العشرين[1]. وظهر هبوط حادّ في عدد الزيجات الدينيّة. وقفزت نسبة الطلاق من ١٠٪ سنة ١٩٦٣ إلى ٢٠٪

---

١ ـ تختلف هذه النسب بين منطقة وأخرى، والراجح أنّ هذه الإحصاءات تقريبيّة ولكنّها تعكس الواقع الأقرب إلى الحقيقة، وقد استقيناها، كما الإحصاءات التالية، من كتاب: كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٨٧.

سنة ١٩٧٩، وإلى ٣٣٪ سنة ١٩٨٥. ناهيك عن تنامي ظاهرت المساكنة بين الشبّان والشابّات من دون عقد قران كنسيّ أو مدنيّ. كما ظهر هبوط في عدد الأطفال المعمّدين، ولكن بنسبة أقلّ. ولكنّ الهبوط في نسبة سماع التعليم المسيحيّ كان أكثر بروزًا. أمّا عدد الكهنة فقد تدنّى من ٤٠,٠٠٠ كاهن أبرشيّ في فرنسا سنة ١٩٦٥، إلى ٣٦,٠٠٠ سنة ١٩٧٥، و٢٨,٠٠٠ سنة ١٩٨٥[١]. وتدنّى عدد تكريس الراهبات من حوالي الألف سنة ١٩٥٠، إلى ٥٠٠ سنة ١٩٦٨، إلى ١٠٠ في كلّ من السنوات الأخيرة.

هذا التقهقر في السلوك الدينيّ في أوروبّا، كان موضوع دراسات علماء الاجتماع قبيل انعقاد المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وقد رأى البعض أنّه نابع من انتشار ظاهرة "روح العالم" المتصاعدة منذ القرن التاسع عشر. وبينما يرى "علم الاجتماع الدينيّ"، الذي بدأ أعماله قبل المجمع بزمن على يد "لوبريه LEBRET" و"بولار BOULARD"، أنّ "الكنيسة لم تفهم المجتمع الجديد الذي اتّخذ بناه خارجًا عنها... فقد سقط الحائط الأخير، ولكن يمكن البنيان على أسسه". يرى باحثون، أجروا دراساتهم في حقبة لاحقة لانعقاد المجمع، "أنّ الانحطاط بدأ بسرعة في الستّينات، فكأنّ الأزمة آنذاك قد جاءت ثمرة مبادرة تعيسة، أي ثمرة المجمع. ذلك أنّ قلّة من الناس يدّعون أنّهم تقدّميّون، سواء كانوا لاهوتيّين أوعلماء طقوس أو علمانيّين من أعضاء حركات العمل الكاثوليكيّ، قد عكّروا صفاء الكنيسة، ما جعل الناس يفقدون ثقتهم بها". ويرى هؤلاء، وهم لا شكّ أصوليّون تقليديّون، أنّ "تبديل ليتورجيا آبائنا القويمة بخزعبلات عقلانيّة قد أدّى إلى هذه النتائج". وقالوا بأنّ "ردّات الفعل الشعبيّة هذه، ليست دليل فقدان الجمهور لإيمانه

---

١ - يسترعي الانتباه هنا عدد الكهنة الذين يتركون خدمتهم الكهنوتيّة ليتزوّجوا أو ليلتزموا سياسيًا واجتماعيًا، وتتراوح عدد هؤلاء في ربع القرن الأخير بين خمسة وستّة آلاف.

المسيحيّ، إنّما هي ظاهرة ابتعاد عن الكنيسة أو إبعاد عنها". وقد بلغت مواقف بعض الأصوليّين، مثل المطران "لوفافر LEFEBVRE" حدّ رفض المجمع رفضًا باتًّا، ورأوا في الأزمة الكنسيّة "مجرّد قضيّة كنسيّة داخليّة، تميّزت بهدمٍ ذاتيٍّ من دون أن يكون هناك أيّ علاقة بقضايا المجتمع المعاصر العامّة". وفي المقابل، ردّ لاهوتيّون كانوا فاعلين في المجمع بالقول بأنّ هؤلاء إنّما يتكلّمون من منطلق تفسير خاطئ لقرارات المجمع، وأنّ عليهم بتقبّل صحيح له". ولكنّ آباء المجمع هؤلاء يُقرّون بأنّ الكنيسة تواجه ردّ فعل لأزمة عامّة في الحضارة الغربيّة، إذ لا شكّ في أنّ الكنيسة قد فقدت شيئًا من هيمنتها على المجتمع، وأنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني، الذي حرّر الكلمة، سمح بقيام أنشطة في الكنيسة آتية من الخارج، وهكذا فإنّ "ما كانت المؤسّسات السابقة للمجمع تتمسّك به بداعي الخوف والضغط المعنويّ، لم يتمكّن زمن ما بعد المجمع من الإبقاء عليه بقوّة الإقناع الداخليّ". ويتساءل باحثون[1]: "هل بدأت المؤسّسات المجمعيّة تعمل بسرعة وبطريقة سلطويّة في نظر مسيحيّين لم يُعدّوا كفاية للأمر؟"، ويجيبون: "إنّ انعدام البُعد الزمنيّ لا يسمح لنا بحكم نهائيّ. فهذه الأزمة لم تُدرس كفاية بعد".

غير أنّ هناك ظاهرة إيجابيّة بدأت منذ سبعينات القرن العشرين، في مقابل تقلّص الممارسات الدينيّة، تدعو للتفكير العميق ولإعادة تقييم الواقع من أساسه. تلك الظاهرة هي العودة إلى التديّن التي برزت منذ سنة ١٩٦٨ في فرنسا. ذلك أنّ العلوم والفلسفة الإجتماعيّة، ولا سيّما الماركسيّة، والسياسة والأنشطة الرسميّة، لم تعطِ أجوبة مُرضية لتساؤلات الناس وقلقهم. فبرزت عودة إلى الروحانيّة[2]، ولكنّ تلك العودة جاءت أحيانًا بعيدة كلّ البعد عن الدين المسيحيّ، إذ رافقها اتّباع بدع تقوم على العرافة، والتنجيم،

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٨٨.

٢ ـ استعمل سواننا هنا تعبير "الروح الدينيّة"، ولكنّ الحقيقة أنّ تلك الردّة كانت روحانيّة أكثر ممّا هي "روح دينيّة".

والباطنيّة، وممارسة العلوم الخفيّة، وسواها من البدع. كما قامت حركة حول شخص يسوع لا علاقة لها بالكنائس، وقد عالجنا هذه المواضيع في جزء خاصّ أفردناه للبدع الغربيّة الحديثة، يمكن الرجوع إليه[1]. وقد أظهر استقصاء أوروبّيّ حديث أنّ التديّن المعاصر، في مختلف البلدان، قد أصبح واقعًا اجتماعيًّا، من مظاهره الواضحة الأهميّة التي تُعطى في وسائل الإعلام للشخصيّات الدينيّة، أمثال: مارتن لوثر كنغ[2]، الأمّ تيريزا[3]، البابا يوحنّا بولس الثاني... وصارت مواسم الحجّ، التي تشبه أحيانًا نوعًا من السياحة التقويّة، تجتذب الجماهير.

وهنا أيضًا يتساءل باحثون[4]: هل هذه العودة إلى التديّن هي تعويض عن التقلّص الذي ذكرناه سابقًا؟ ويجيبون: من السابق لأوانه الجزم بذلك.

---

١ - راجع: الجزء الرابع والعشرين من هذه الموسوعة.

٢ - مارتن لوثر كنغ King (١٩٢٩ - ١٩٦٨): رجل دين وزعيم زنجيّ أميركي، دكتوراه في الفلسفة واللاهوت، ناهض التفرقة العنصريّة وسعى سلمًا للمحافظة على الحقوق المدنيّة للزنوج في الولايات المتّحدة الأميركيّة وخارجها، فاز بجائزة نوبل للسلام ١٩٦٤، له مؤلّفات في موضوع فلسفة نضاله، اغتيل في "ممفيس". ألّفت عنه الكتب وأخرجت الأفلام، جعلت الحكومة الأميركيّة ذكرى اغتياله يوم عطلة رسميّة.

٣ - الأمّ تيريزا (١٩١٠ - ١٩٩٧): مبشّرة كاثوليكيّة في الهند، من أصل ألبانيّ، سافرت إلى الهند في سنّ السابعة عشرة وأصبحت راهبة ومدرّسة في كلكوتا، تركت الدير ١٩٤٨ وأسّست "إرساليّة الإحسان" و"راهبات مرسلات المحبّة" للإهتمام بالبؤساء في الشرق الأقصى وفي العالم كلّه، تدير مؤسّساتها اليوم مدارس ومستشفيات وملاجئ للأيتام في أكثر من ٢٥ دولة بما فيها الشرق الأوسط، نالت الأمّ تيريزا جائزة نوبل للسلام ١٩٧٩، وهناك بحث بتطويبها قدّيسة.

٤ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٨٨.

بَعدَ عشرينَ عامًا

عُقدت دورة "خارقة العادة" لسينودوس الأساقفة في روما من ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) إلى ٨ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٨٥، بمناسبة مرور عشرين عامًا على انتهاء أعمال المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وغايتها الإحتفاء بذكرى المجمع، وتقويم الثمار التي حققّها، وإعطاء دفع جديد لتطبيق مقرّراته. وجاء في التقرير حول نتائج المجمع:

> **النقاط الإيجابيّة:** هناك شبه إجماع في تقبّل الإصلاح الليتورجيّ؛ وتركيز أكبر على دور الكتاب المقدّس؛ وتفهّم أعمق للكنيسة ولمشاركة العلمانيّين في الأعمال الكنسيّة؛ وإدراك أعمق لعلاقة الكنيسة مع العالم... شهادة الكنيسة تجاه حقوق الإنسان؛ والحوار مع العلم والثقافة العصريّة؛ وتحسّن في علاقات الأساقفة والكهنة، وتفهّم للحياة الرهبانيّة، وتنشيط التعاون المسكونيّ؛ وإدراك أعمق لمسؤوليّة الأساقفة الجماعيّة في الكنيسة، ومفهوم الكنيسة كشركة.
>
> **النقاط السلبيّة:** في مجال الليتورجيا كان هناك أحيانًا تجديد ارتجاليّ وسطحيّ، فنسي بعض الكهنة أنّ الخدمة الليتورجيّة هي صلاة الكنيسة، وليست مجرّد تعبير عن عواطف الذات الشخصيّة؛ والكتاب المقدّس فُصل أحيانًا عن تقليد الكنيسة وتعليمها الرسميّ؛ كما حاول بعضهم وضع إسفين بين الكنيسة والسرّ والكنيسة المؤسّسة، ثائرين على كلّ الأنظمة، ومستندين إلى مفهوم منحرف للكنيسة شعبِ الله؛ وفي مجال علاقة الكنيسة والعالم، كان المجمع قد أعلن عن استقلاليّة أمور هذه الدنيا عن أمور الدين، فراح بعضهم، ولا سيّما في البلاد المتقدّمة، يشيد بالعلمنة الكاملة التي تنفي البعد القدسيّ للإنسان، وتحول دون تأثير الإلهيّات على شؤون البشر؛ وكان المجمع قد أعلن ضرورة الإلتزام بالجهاد في سبيل العدالة والرقيّ، فراح بعضهم ولا سيّما في البلاد النامية، يتبعون في نضالهم الأساليب المنافية لروح الإنجيل[1].

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٨٣ ـ ٣٨٤.

وبعد التقرير العام، أوضح الأساقفة المشتركون في السينودوس، كلّ بدوره، وُجهة نظر الدوائر المسؤولين عنها، أو البلاد التي يمثّلونها. وركّز رؤساء الكنائس الشرقيّة بشكل خاصّ على ضرورة الإسراع بصياغة الحقّ القانونيّ الشرقيّ، بحيث يراعى ارتباط أبناء الكنيسة الشرقيّة المغتربين بالكنيسة الأمّ؛ كما طلب أساقفة الهند الشرقيّون بأن توسّع صلاحيّاتهم لتشمل كلّ الهند، أسوة بالأساقفة اللاتين. وفي اليوم الأخير من الاجتماعات، ألقى الحبر الأعظم يوحنّا بولس الثاني خطابًا شاملاً قوّم فيه أعمال السينودوس. وكان أبرز الإقتراحات الثلاثة التي وردت في تقرير السينودوس النهائيّ:

> إنشاء كتاب تعليم مسيحيّ رسميّ مستوحى من روح المجمع، ومرتكز على الكتاب المقدّس والليتورجيا، يكون نموذجًا للكتب التعليميّة في مختلف الأقطار والكنائس المحليّة؛ توضيح دور المجالس الأسقفيّة وطبيعتها اللاهوتيّة وصلاحيّاتها؛ الإسراع في إنجاز دستور الحقّ القانونيّ للكنائس الشرقيّة، وفق تقاليد هذه الكنائس ومقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني[1].

تَقَارُبٌ بَيْنَ رومَا وسَائر الكنَائس

كان لنتائج المجمع الفاتيكانيّ الثاني أشدّ التأثير على انفتاح الكنيسة الرومانيّة على الحركة المسكونيّة من خلال التقارب الذي ولّده بين ممثّلي الكنائس، فبالإضافة إلى التقارب الذي نشأ بعيد المجمع بين الكنائس الكاثوليكيّة و"مجمع الكنائس العالميّ"[2]، نشأت علاقات مميّزة بين الكنيستَين الكاثوليكة المتجدّدة والكنائس الأرثذوكسيّة. وقد بدأ

---

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٨٤ - ٣٨٥.

٢ - راجع: مجمع الكنائس العالميّ، المجلد السادس عشر من هذه الموسوعة.

ما سُمّي "حوار المحبّة" بالمراسلات الوديّة بين البابا يوحنّا الثالث والعشرين والبطريرك المسكونيّ أثيناغوراس. وتابعه البابا بولس السادس، فكان لقاؤه التاريخيّ مع أثيناغوراس عند قبر المسيح مطلع عام ١٩٦٤، كما سبق وذكرنا، وما تمّ، في ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥ ليلة انفضاض المجمع الفاتيكانيّ، من رفع للحرم المتبادل منذ عام ١٠٥٤ بين الكنيستَين الرومانيّة والقسطنطينيّة، وقد جرى الإحتفال بذلك في آن واحد في كنيسة القدّيس بطرس في روما وفي "الفنار [١]" في اسطنبول. وكانت زيارة البابا بولس السادس للبطريرك المسكونيّ أثيناغوراس في مقرّه في اسطنبول في ٢٥ ـ ٢٦ تمّوز (يوليو) ١٩٦٧. وردّ الزيارة في العام نفسه من قِبَل البطريرك أثيناغوراس إلى الفاتيكان في ٢٦ ـ ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر). وجُمعت المراسلات والخطب التي تبودلت بهذه المناسبات في كتاب سُمّي "كتاب المحبّة". وتبع تحسين العلاقات على مستوى القمّة، تقارب ملموس بين الكاثوليك والأرثذوكس على مختلف المستويات وفي كافّة المناطق. ومن بوادر تحسين العلاقات بين الكنيستَين الرومانيّة الكاثوليكيّة والبيزنطيّة الأرثذوكسيّة، إعادة الإعتبار والثقة للكنائس الشرقيّة، من خلال إرجاع عدّة ذخائر ثمينة من روما وإيطاليا إلى البلاد الشرقيّة، حيث كانت أصلاً رفاة القدّيس مرقس الرسول، رأس القدّيس أندراوس، رفاة القدّيس بطرس الرسول والقدّيس سابا المتقدّس. هذا بالإضافة إلى ما لاقاه سائر الكنائس الشرقيّة القديمة من اهتمام بالتقارب كما ذكرنا سابقًا [٢].

١ ـ الفنار: حيّ في اسطنبول يقيم فيه البطريرك المسكونيّ الأرثذوكسي.

٢ ـ زيارة كاثوليكوس إتشميادزين الأرمنيّ خورين للبابا بولس السادس ١٩٦٧، وزيارة كاثوليكوس الأرمن الأعلى فاسكين لروما ١٩٧٠، وزيارة البطريرك السريانيّ مار اغناطيوس يعقوب الثالث ١٩٧١، وزيارة البطريرك شنودا القبطيّ ١٩٧٣...

يُوحنَّا بُولُس الثَّاني

رَسُـــولُ الانفِتـاح

إذا كان البابا يوحنّا الثالث والعشرون قد افتتح مسيرة التقارب بين الكنائس في النصف الأوّل من القرن العشرين، والبابا بولس السادس قد أكمل درب سلفه بامتياز، من خلال متابعة إدارة المجمع الفاتيكانيّ الثاني وبالتالي العمل بطاقة فريدة على إنجاحه، وعلى تنفيذ مقرّراته، وبخاصّة تلك التي تختصّ بالتقارب والتلاحم بين الكنائس، فبالإمكان وصف البابا يوحنّا بولس الثاني، بأنّه رسول الانفتاح، ليس بين الكنائس وحسب، بل وبين الأمم جمعاء.

بعد وفاة البابا بولس السادس في السادس من آب (أغسطس) ١٩٧٨، انعقد مجمع الكرادلة الانتخابيّ في روما وانتخب في السادس والعشرين من الشهر نفسه يوحنّا بولس الأوّل خلفًا له في اليوم الأوّل للمجمع الكارديناليّ الانتخابيّ، وتُوّج في الثالث من أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨. غير أنّ هذا البابا الذي سرعان ما اكتسب قلوب الجميع بانفتاحه ومحبّته، وعُقدت عليه الآمال، سرعان ما تُوفّي فجأة في ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨، ودُفن في ٤ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٧٨. وبعد اثنَي عشر يومًا، التأم مجمع الكرادلة الانتخابيّ من جديد، وانتخب الكاردينال كارول فويتيلا خلفًا له في ١٦ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٧٨، فاتّخذ اسم البابا يوحنّا بولس الثاني، ونُصّب في ٢٢ من الشهر نفسه. وهو الخليفة الخامس والستّون بعد المائتَين للقدّيس بطرس الرسول على كرسيّ روما. وُلد بمدينة "كراكون" ببولندا سنة ١٩٢٠، وعمل في بداية شبابه في المناجم، دخل السلك الكهنوتيّ وسرعان ما أصبح لاهوتيًّا وخطيبًا وواعظًا مميّزًا، كان من أبرز المتحدّثين باسم الكنيسة الكاثوليكيّة في الدول الشيوعيّة السابقة، عايش مآسي بلاده بولندا وملاحم مقاومتها في خلال الحرب العالميّة الثانية، عيّن كاردينالاً ١٩٦٧، وهو

أوّل بابا يُنتخب من خارج إيطاليا منذ سنة ١٥٤٢. وقد اعتُبر انتخاب هذا الكاردينال الآتي من الشرق الأوروبيّ، نتيجة للتوزيع العالميّ الجديد للكرادلة، ما يعني استقلال الكنيسة عن السياسة الإيطاليّة، وعن الكنائس الغربيّة.

يعتبر يوحنا بولس الثاني البابا الأكثر تجوالاً في العالم بتاريخ الكنيسة، فقد تابع منهاج أسلافه الذين اتّصفوا بالانفتاح على العالم المعاصر والكتلة الاشتراكيّة والدول النامية والكنائس الأخرى. زار عشرات البلدان داعيًا إلى المحبّة والسلام بين الشعوب. وفي ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ توجّه إلى اسطنبول لزيارة البطريرك ديمتريوس الأوّل، خليفة أثيناغوراس، ليشترك بأعياد القدّيس إندراوس شفيع الكنيسة القسطنطينيّة. وعلى أثر الزيارة أعلن الحبران بدء الحوار اللاهوتيّ الرسميّ بين الكنيستَين الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة البيزنطيّة، وعيّنت كلّ من الكنيستَين ثلاثين مندوبًا للقيام بهذا الحوار، وعقدت اللجنة المشتركة اجتماعها الأوّل التمهيديّ في جزيرتَي "بطمس" و"رودوس" عام ١٩٨٠، ووضعت أسس عملها ومنهاجها وبرنامج أبحاثها. كما أُنشئت عدّة لجان تحضيريّة. وعقدت اللجنة المشتركة اجتماعها الثاني في ميونيخ بألمانيا سنة ١٩٨٢، فأصدرت أوّل نصّ لاهوتيّ مشترك حول "سرّ الكنيسة والإفخارستيّا على ضوء سرّ الثالوث الأقدس". وفي عام ١٩٨٤ عقدت اللجنة المشتركة اجتماعها الثالث في جزيرة "كريت"، ولم تتمكّن من إنهاء برنامج عملها حول أسرار الكنيسة. وفي عام ١٩٨٦ عقدت لجنة الحوار المشتركة اجتماعها الرابع في مدينة "باري" في إيطاليا، وتغيّب عن الاجتماع وفود الكنائس الأرثوذكسيّة. وتوبع خلال هذا اللقاء العمل الذي بوشر في كريت عام ١٩٨٤، حول موضوع الإيمان والأسرار ووحدة الكنيسة. وعلاوة على ذلك، ناقشت اللجنة طويلاً موضوع سرّ الكهنوت في نظام الكنيسة الأسراريّ. وتوبعت أعمال الإجتماع الرابع في باري في

حزيران (حزيران) ١٩٨٧. وصدر في نهاية الأعمال النصّ الثاني المشترك بعنوان "الإيمان والأسرار ووحدة الكنيسة". وعُقد الاجتماع الخامس في فنلندا* في حزيران (يونيو) ١٩٨٨، ونُشر في نهاية الأعمال النصّ المشترك الثالث وعنوانه " سرّ الكهنوت في نظام الكنيسة الأسراري"، ولا سيّما أهمّيّة الخلافة الرسوليّة في تقديس شعب اللّه ووحدته.

وقال البابا يوحنّا بولس الثاني أمام وفد كنيسة القسطنطينيّة الرسميّ الذي اشترك في احتفالات أعياد القدّيسَين بطرس وبولس في روما عام ١٩٨٦:

> إنّ الحوار اللاهوتيّ يقتضي دومًا تضحيات حقيقيّة. التحاور يعني أن نأخذ بعين الإعتبار الآخر بوضعه المتشابك، اللاهوتيّ، الرعائيّ، التاريخيّ الثقافيّ السيكولوجيّ. وهذا يعني أنّ هناك احتمالاً واقعيًا للعثور على صعوبات تعرقل أحيانًا مسيرة نريدها أكثر سرعة وحريّة. إلاّ أنّنا نريد أن نسير حتّى النهاية إلى مذبح المشاركة... إنّ شفاء الجرح الذي سبّبه انفصال الشرق والغرب للجماعة المسيحيّة سيعود بالفائدة، ليس فقط على الكاثوليك والأرثذوكس، ولكن على جماعة المسيحيّين بأسرها، وسيساهم مساهمة كبرى في إعلان إنجيل المسيح للعالم. الوحدة خير للجميع، ولا تحمل أيّ تهديد لأحد. الوحدة ليست امتصاص جماعة لأخرى، بل شركة كاملة في الإيمان ضمن احترام تنوّع التقاليد، بمقدار ما هي تعبير عن الإيمان الواحد وتجسّد الإنجيل الواحد ضمن مختلف الثقافات[1].

في هذه الأثناء، شملت زيارات البابا يوحنّا بولس الثاني الرسوليّة كافّة أقطار العالم، وقد قام حتّى اليوم بنحو ٦٠ زيارة إلى خارج إيطاليا. وقد تعرّض في ١٣ أيّار (مايو) ١٩٨١ لمحاولة اغتيال في ساحة القدّيس بطرس، نجا منها بمعجزة. وفي ٢٥

---

١ ـ يثيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠.

كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣ أصدر التشريع الجديد للكنيسة الغربيّة الذي أُعيد النظر فيه على ضوء روح المجمع الفاتيكانيّ الثاني وقراراته. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥ عقد في رومة سينودوسًا خارق العادة، بمناسبة مرور عشرين عامًا على انتهاء المجمع الفاتيكانيّ الثاني، لدراسة ما أُنجز في هذه الحقبة من مقرّرات المجمع. ومن أهمّ توصيات ذلك السينودوس، التعجيل في إنجاز التشريع الخاصّ بالكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، ووضع كتاب تعليم مسيحيّ للمؤمنين يكون قاعدة لكتب التعليم في سائر الأقطار، وتعزيز المجالس الأسقفيّة الإقليميّة. وقد صدر رسميًّا التشريع الجديد للكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة في ٢٥ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٩٠. ودعا يوحنّا بولس الثاني سينودوس الأساقفة إلى جمعيّة خاصّة من أجل لبنان في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٩١ عُقدت في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٥ بعنوان "المسيح رجاؤنا: بروحه نتجدّد، ومعًا للمحبّة نشهد"، نتج عنها ما سُمّي بالإرشاد الرسوليّ "رجاء جديد للبنان"، الذي وجّهه البابا بعد السينودوس إلى البطاركة والأساقفة والإكليروس والرهبان والراهبات وجميع المؤمنين في لبنان، وزار البابا لبنان في أيّار (مايو) ١٩٩٧ حيث وقّع على الإرشاد الرسوليّ في حريصا* وسط مهرجان رسميّ وشعبيّ قلّ نظيره، ورافقه في تجواله البطريرك المارونيّ مار نصرالله بطرس صفير. وبعد سنتَين زار دمشق حيث لاقى استقبالاً تاريخيًّا حافلاً، اشترك فيه رسميّون ورجال دين مسيحيّون ومسلمون من مختلف المذاهب.

إضافة إلى ذلك، أصدر البابا يوحنّا بولس الثاني عدّة رسائل هامّة، منها "العمل الإنساني"، و"الأسرة البشريّة"، و"الألم الفادي"، و"الروح القدس الربّ المحيي"، و"أمّ الفادي"، و"الإهتمام بالمعضلة الاجتماعيّة"، و"كرامة المرأة"، و"المؤمنون والعلمانيّون". وفي رسالة أصدرها في الأوّل من أيّار (مايو) ١٩٩١ بمناسبة الذكرى المئة لرسالة

البابا لاون الثالث عشر الاجتماعيّة، استخلص العبر من انهيار الأنظمة الشيوعيّة. وأعاد تنظيم الكنيسة الكاثوليكيّة بفرعَيها الشرقيّ واللاتينيّ في بلاد أوروبّا الشرقيّة بعد أن عادت إليها الحريّة الدينيّة سنة ١٩٩١. وأعدّ الكنيسة لبلوغ الألف الثالث[1].

الحـــــــــوَارُ

المَسيحيُّ الإسلاَميّ

في بداية الاستعداد لهذه المحطّة الهامّة في تاريخ البشريّة، طرح البابا يوحنّا بولس الثّاني السؤال: كيف سيحتفل العالم بنهاية الألف الثّالي للمسيحيّة؟ وكيف يتطلّع الفاتيكان إلى ولوج الألف الثّالث؟ وبدا في خطبه أنّ التكاثر السكّانيّ في العالم يقلقه. ذلك التكاثر الذي لم يعد قائمًا على التمايز بين المسيحيّة والإسلام، بقدر ما أصبح قائمًا على الاختلال في نسبة الذين يؤمنون بالإله الواحد، من مسيحيّين ومسلمين ويهود، تضاؤلاً أمام تزايد الذين لا يؤمنون باللّه، وهم الشعوب التي يتضاعف عددها في كلّ عقد، في بلدان العالم الثّالث والقارات التي كانت بعيدةً عن الحضارات القديمة، في خلال الألف الثاني. إنّها صدمة وَعيٍ لأبناء الرسالتَين المسيحيّة والإسلاميّة، بتوحيد الرؤية والمواقف، لمواجهة تكاثر الذين لا يؤمنون باللّه، والذين سيصبحون الأكثريّة الغالبة من سكّان الأرض. وللتقارب بين الذين يؤمنون بالإله الواحد، باشر الفاتيكان سلسلةً من الحوارات بين أهل الدّيانات السماويّة، إلى جانب السعي لتوحيد الكنائس المسيحيّة في مختلف فروعها، حوارًا بين المسيحيّة والإسلام على محاور عديدة، منها المحور الإعلاميُّ الذي هو الأفعل في عالمنا الحديث. وقد تمّ حتّى الآن عقد ندوتَين: الأولى في ليبيا بين الثالث والسّادس من تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٩٣، والثانية في

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٧٠.

فبينًا بين السّابع والثّامن من تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٩٤، حول الدّين ووسائل الإعلام، ودور الإعلام في الحوار المسيحيّ الإسلاميّ. وقد شارك في كلّ منهما إعلاميّون من مختلف بلدان العالم يمثّلون وسائل الإعلام المكتوبة والسمعيّة والبصريّة[1].

نَدوَةُ طَرابُلس ـ ليبيَا، جاءت تحت عنوان "الدّين ووسائل الإعلام". وقد نظّمها "جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة العالميّة" و"المجلس البابويُّ للحوار بين الأديان بالفاتيكان"، وجاءت مواصلةً لندواتٍ سابقةٍ عُقدت بين الجانبَين، أثمرت نتائج إيجابيَّةً ملموسةً في تعزيز التقارب المسيحيّ الإسلاميّ. وقد تمّ في خلال الندوة عرض ومناقشة أوراق الجانبَين المسيحيّ والإسلاميّ، حول ثلاثة محاور:

١ ـ الإعلام ودوره في بناء الإنسان الملتزم دينيًا وخلقيًا.

٢ ـ الإعلام وأثره في تشويه عقائد الآخرين ومعتقداتهم.

٣ ـ المؤسّسات الدّينيّة ودورها في تصحيح الانحرافات الإعلاميّة حيال الدّين.

وخلُص المشاركون في الندوة إلى التوصيات التالية:

١ ـ ضرورة تعاوُن المؤسّسات الدّينيّة مع وسائل الإعلام لتكون في خدمة القِيَم الإنسانيّة.

٢ ـ التأكيد على أهميّة الموضوعيّة والنزاهة في الأعمال الإعلاميّة والأدبيّات الدّينيّة، من أجل تعزيز التفاهم والتعايش المشترك بين أتباع الأديان.

٣ ـ ضرورة ترشيد الإعلام ليساهم في تعزيز قيم الفضيلة والاستقامة والحفاظ على الروابط الأسَريّة، ومواجهة النزعات الماديّة والعنصريّة، وتجنُّب إثارة الفتن بين المؤمنين.

---

١ ـ مكاف جورج، صفحات من لبنان، منشورات دار نوبليس (بيروت،٢٠٠٢) المُجلّد الثّامن، ص ١٨٧.

٤ ـ ضرورة تطوير الخطاب الدّينيّ والبرامج الإعلاميَّة الدِّينيَّة لمواكبة متطلّبات العصر والتأثير في الرأي العامّ.

٥ ـ التأكيد على الدّور الهامّ الذي تلعبه المؤسَّسات التربويّة في تعزيز روح التسامح والمحبّة بين أتباع الأديان، وتعميق المعرفة المتبادلة في ما بينهم من أجل إزالة الأحكام المسبقة والتعصُّب والتطرُّف.

٦ ـ أهميّة عقد اللّقاءات بين الإعلاميّين المسلمين والمسيحيّين والمساهمة المشتركة في أدبيّات الجانبين والإنتاج الإعلاميّ.

٧ ـ ضرورة إتاحة المجال للأقليّات الدّينيَّة والعرقيَّة للتعبير عن آرائها ومواقفها والمطالبة بحقوقها.

٨ ـ التأكيد على أهميّة مواصلة لقاءات الحوار المسيحيّ الإسلاميّ وانتهاج منهج المفاوضات في حلّ الأزمات بين الدُّول.

٩ ـ ضرورة التعاون بين المؤسّسات الإعلاميّة المسيحيّة والإسلاميّة لتصحيح الانحرافات حيال الدّين وتشجيع المبادرات الإعلاميّة الإيجابيّة، وذلك عن طريق تشكيل لجنةٍ مشتركةٍ لمتابعة الأعمال الإعلاميّة ضمن الإمكانات المتاحة.

أمّا ندوة فيينّا فقد ضمّت إعلاميّين من لبنان والولايات المتّحدة وكندا وبلجيكا وليبيا وأندونيسا وبريطانيا، ومثّل روما في الندوة وفد برئاسة الكاردينال مايكل فيتزجيرالد، أمين سرّ دائرة الحوار بين الأديان في الفاتيكان.

تركّز البحث على النواحي السلبيّة والإيجابيّة لتعاطي وسائل الإعلام في القضايا الدّينيّة، أو التي لها تفاعلاتٌ دينيّة. لوحظ أنّ وسائل الإعلام، كثيراً، ما تقع في أخطاء غير مقصودة لعدم توفُّر المعلومات الصحيحة في ما يتعلّق بالقضايا الحسّاسة، إمّا لأنّ الإعلاميّ غير مطّلعٍ على القضايا الدّينيّة بدقّة، أو لأنّ المصادر التي يُفترض فيها أن تزوّده بالمعلومات الصحيحة تتأخّر في الإجابة، أو أنّ سرعة العمل الإعلاميّ لا

تمكّن الصحافيَّ من انتظار ورود الأجوبة التي تأخذ وقتها وطرقها الروتينيّة. ولوحظ التباين أيضًا في أساليب عمل وسائل الإعلام. فهي في الغرب المسيحيّ متطوّرةٌ جدًّا تقوم بها مؤسّساتٌ خاصّةٌ لا سيطرة لرجال الدّين أو للمؤسّسات الدّينيّة عليها، وهي تتعاطى مع الأحداث من حيث أهميّتها الإخباريّة، لا من حيث أهميّتها الدّينيّة والروحيّة والأخلاقيّة. بينما يرتبط معظم وسائل الإعلام في الشرق الإسلاميّ، بالدُّول ذات الأنظمة الدينيّة، أو يخضع، بطريقةٍ أو بأخرى، لتأثير رجال الدّين والحركات الدّينيّة. وفي الحالتَين فإنّ وسائل الإعلام في الغرب، لا تعبّر عن وجهة نظر الكنيسة عندما تتناول قضايا دينيّة، وكذلك في الشرق، فقد تتعصّب لبعض القضايا الدّينيّة دون أن تعبّر حتمًا وبصورة دقيقةٍ عن رأي رجال الدّين. وعلى كلّ حال، تبقى وسائل الإعلام في الشرق أقلّ حريّة، منها في الغرب.

وفي سبيل الوصول إلى مواقف أقرب إلى الحقيقة، وأبعد عن التجنّي، مع مماشاة العصر، لا بدَّ من إعطاء الإعلام أهميّته في التأثير على الناس وعلى تفكيرهم وعلى مواقفهم، بسبب سرعة وصول المادّة الإعلاميّة إليهم، وبالأسلوب المناسب والمتوافق مع السياسة الخاصّة للوسيلة الإعلاميّة. لذلك، يجب تزويد وسائل الإعلام القائمة، بالمادّة الإعلاميّة الصالحة التي تعبّر عن الحقيقة بكلّ صدق، ومتابعة الأحداث بتبادل الأفكار والمعلومات، وإجراء الأحاديث التي تجيب عن كلّ الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الناس. ورأى المنتدون أنّ قلّةً من الوكالات العالميّة تسيطر على سوق الأخبار، ما يحتكر المعرفة، أو يجعل الإعلاميَّ "أسير نماذج إعلاميّةٍ لا تمتُّ بصلةٍ إلى متطلّبات الإعلام". كما شدّد المنتدون على عدم تجاهل هذه الوسائل الإعلاميّة، إذ بالرغم من أنّ للفاتيكان وسائل إعلاميّةً متطوّرةً تتوجّه إلى جميع الناس بكلّ اللغات، فهي تعجز عن منع تحريف مواقف الكنيسة في وسائل الإعلام الخاصّة. وعليها أن

تتعامل معها بسرعةٍ لتصحيح هذه المواقف، وتتحسَّب لأيّ تحريفٍ يمكن أن يحصل، وذلك بالإسراع في الإعلان عن الموقف الصحيح قبل أن يسبقه إعلامٌ انفعاليٌّ متسرِّعٌ يتعمَّد الإساءة. وكذلك بالنسبة إلى وكالة الأنباء الإسلاميَّة.

وارتأى المنتدون أنَّ لوسائل الإعلام تأثيرًا كبيرًا على الأشخاص والجماعات، إيجابًا وسلبًا. فلا بدَّ من التركيز على الدَّور الإيجابيّ:

١ ـ العمل على تطوير الأشخاص والحضارات واحترام هويَّة الناس وحريَّتهم.

٢ ـ العمل على إنعاش العلاقات بين الأشخاص والجماعات.

٣ ـ العمل على تشجيع الحوار داخل الجماعات في سبيل توضيح حاجات أفرادها وتطلُّعاتهم.

٤ ـ تطوير سبُل أفضل لخدمة القيم الروحيَّة.

ومن الناحية السلبيَّة لوحظ أنَّ وسائل الإعلام تنتقص، في كثيرٍ من الأحيان، من احترام كرامة الإنسان وحريَّته، وتساهم في تطوير حضارة المادَّة الاستهلاكيَّة واللاإنسانيَّة وتُخضع قيمًا إنسانيَّةً للإرهاب الفكريّ، ولا تؤمِّن الحقّ بالإعلام للجميع، فتصبح حريَّة الإعلام رهنًا للثروة والنفوذ السياسيّ.

وقد استخلص بعض المشاركين المسلمين[1] في أعمال الندوة، أنَّ الحوار بين الأديان هو روح الإسلام، وممَّا يحثُّ عليه القرآن الكريم أن يكون الحوار بالتي هي أحسن، وبحيث أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة. وأنَّ هذه الندوة كانت ذات جدوى وفائدة، لأنَّنا نعيش الآن في عالمٍ يعرف العداء الكثير للإسلام والمسلمين، وإذا دخلنا نحن في حوارٍ يُظهر تعاليم الإسلام وانفتاح الإسلام ونهجه التعدُّديَّ في ما يتعلَّق

---

[1] ـ د. محمود أيّوب، لبناني الأصل، عضو الوفد الأميركي، أستاذ الفقه الإسلامي في جامعة فيلادلفيا في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة.

بتنوُّع الحضارات والأديان في العالم، هذا الحوار سيفيد في النهاية بحيث يكون لنا أصدقاءً في الغرب. وأخذ مثلاً قضيَّة سلمان رشدي التي لم تعد، بنظر الغرب، قضيَّة تهجُّمه الشخصيّ على الإسلام، بل أصبحت قضيَّة التهجُّم على الإسلام من قِبَل الكثيرين ممَّن يُسمُّون بالمتحرِّرين الغربيِّين.

ورأى إعلاميّ لبنانيّ مسيحيّ مشارك في الندوة[1]، في لبنان مثالاً للحوار الدائم بين المسيحيَّة والإسلام، وتناول الناحية "الأصوليَّة" التي تقضُّ مضاجع العالم، وكيف أنَّها قد تقلَّصت إلى حجمها الطبيعيّ في لبنان بفضل هذا الحوار. فالذي حكم ونفَّذ الحكم بالإعدام في بعلبك باسم الشريعة الإسلاميَّة، قد تبخَّر أمام القانون؛ والحزب الذي كان ينادي بإنشاء جمهوريَّةٍ إسلاميَّةٍ قد دخل المعترك السياسيّ للعمل ضمن المؤسَّسات وفقًا للقانون. وكثيرًا ما يتحالف مع أخصامه العقائديِّين باسم الحريَّة واحترام الخصوصيَّة الذاتيَّة. ثمَّ نوَّه بالمؤسَّسات الإعلاميَّة في لبنان التي تُعتبر بحقّ، النواة الحيَّة للتعايش الإسلاميّ المسيحيّ، بل هي ندوةٌ دائمةٌ للحوار بين المسيحيَّة والإسلام، تأخذ ما يزخر به الدِّين من قيمٍ ومن أخلاقيَّاتٍ لتحصين الحريَّة واحترام خصوصيَّة الغير. وأخيرًا، تمنَّى على أصحاب الدَّعوة أن تكون الندوة المقبلة في لبنان، حيث يتوفَّر للمنتدين مناخ الحوار والحريَّة ليعيشوا في الواقع، ما يتصوَّرونه نظريًّا... وحيث توصَّلت الحريَّة الإعلاميَّة إلى مرحلةٍ متقدِّمةٍ من تجسيد الحوار السياسيّ الوطنيّ والاجتماعيّ، فجعلت المجتمع اللبنانيّ أكثر حضارةً وتطوُّرًا من الأنظمة والقوانين التي ترعاه[2].

---

١ ـ جورج سكاف، إعلاميّ وسياسيّ، وزير سابق، نائب نقيب الصحافة اللبنانيّة، عضو المجلس الملّي الكاثوليكيّ، له مؤلّفات، عضو الوفد اللبناني إلى الندوة.

٢ ـ سكاف جورج، صفحات من لبنان، مرجع سابق، المُجلّد الثّامن، ص ١٨٧ وما يليها.

كَنيسةُ رُومَا اليَوم

يقول باحثٌ كنسيّ معاصر [1]: لن ننتهي من إحصاء أزمات وآمال كنيسة اليوم. إنّما هناك مفتاح يسمح بفهم هذه الأمور، وهو هذا التوتّر القائم بين شموليّة الكنيسة والرسالة الإنجيليّة من جهة، وبين الكنائس المحليّة من جهة أخرى. وقد أظهر سينودوس سنة ١٩٧٤ هذا الواقع. فقد كان موضوع ذلك السينودوس: "الكرازة بالإنجيل للعالم المعاصر". وقد بدا أنّ هناك طرقًا عديدة يتوجّب سلوكها، في الوقت نفسه، لمواجهة الموضوع. فأساقفة البلدان المتقدّمة يفكّرون خاصّة بقضايا التعلمن والابتعاد عن المسيحيّة والإلحاد؛ في حين أنّ أساقفة أفريقيا وآسيا مهتمّون بتبشير غير المسيحيّين بلغة تحترم ثقافاتهم؛ وأساقفة أميركا اللاتينيّة يحاولون خلق رابطة بين الكرازة والتحرير الاقتصاديّ والسياسيّ؛ وأساقفة الشرق الأوسط رازحون تحت عبء دورة العنف وتداعياتها على كنائسهم؛ لذلك، فإنّ واجب الكرازة يصطدم بصعوبة انتشار المسيحيّة في بلدان عديدة، ولأسباب مختلفة. وإذ لم يجد السينودوس حينئذ عرضا موحّدًا لهذه الآراء، أسند إلى البابا أمر وضعه. فنشر بولس السادس في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٧٥ الإرشاد الرسوليّ: "واجب الكرازة بالإنجيل" أي "تبشير إنسان اليوم". وقد عاد البابا إلى الوثائق المجمعيّة التي كانوا يعيّدون ذكراها العاشرة، واستند إلى دراسات الأساقفة، وبحث، بطريقة لبقة، كلّ عناصر الكرازة في العالم المعاصر: ضرورة الكرازة بالرغم من الإحباط وبدون التناقض، مع احترام الحريّة الدينيّة؛ كرازة تأخذ بعين الاعتبار الثقافات القائمة، بمعنى: تأقلم المسيحيّة؛ العلاقة بين التبشير

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٩١ ـ ٣٩٢.

والتحرير؛ دور الجماعات الأساسيّة... ليخلص إلى "وجوب أن تصبح كنيسة القرن العشرين أكثر كفاءة بتبشير إنسان القرن العشرين... وإنّه لفرح أن نكرز ولو زرعنا بالدموع".

هذا في وقت تفقد فيه كنيسة الغرب شيئًا فشيئًا تلك الهيمنة شبه المطلقة التي مارستها منذ البدء. ففي نهاية القرن العشرين، كان مركز الكنيسة ينتقل نحو الجنوب أو الشرق أو الغرب. فالتزايد السكّانيّ في أفريقيا يعطي هذه القارّة مكانًا في الكنيسة لا يزال يكبر. ولكن أكثر من نصف الكاثوليك موجودون في أميركا اللاتينيّة. فالبرازيل اليوم هي أكبر بلد كاثوليكيّ في العالم[1]. وفي الشرق، نرى أنّ بولندا، بجمهورها التقيّ، وبالبابا الذي هو ابنها، تعرض نمطًا كنسيًّا مدعوًّا للعب دور يزداد أهميّة في العالم الكاثوليكيّ. في هذا الوقت، نجد أنّ لكلّ قطاع كبير في الكنيسة مراكز اهتمام وأولويّات خاصّة به، فكنيسة الغرب مهتمّة بقضايا التعلمن والبحث عن سلّم قيَم، وذلك بفضل نهضة أخلاقيّة معاصرة؛ وكنيسة أميركا اللاتينيّة مدعوّة إلى مواجهة البؤس والاستغلال الاقتصاديّ والثورة الاجتماعيّة، فالنزاعات اللاهوتيّة النظريّة قلّما تهمّ مسيحيّي أميركا اللاتينيّة، ولاهوت التحرير يرفض أن يقلّد أوروبّا حيث أصبح التعلمن مقبولاً على نطاق واسع، حيث بدأ الناس يتخوّفون من المقدّسات؛ أمّا في بولندا، وطن البابا يوحنّا بولس المعاصر، فالنزعة الإكليريكيّة والإكثار من المقدّسات هما في أساس النظام الكنسيّ وشرط من شروط استمرارهما. فلو عاشت كنيسة بولندا مثل كنيسة فرنسا، لاختفت من الوجود في سنوات قليلة. ولو كانت كنيسة فرنسا مثل كنيسة بولندا، لخلقت، مرّة أخرى، حركة معادية للإكليروس كالتي كانت في بدء القرن العشرين. كما أنّ هناك، على الصعيد العالميّ للكنيسة الكاثوليكيّة، عدّة تناقضات،

---

١ - عدد سكّان البرازيل نحو ١٨٠ مليون نسمة، غالبيّتهم يعتنقون المذهب الكاثوليكي.

فالعلاقات بين مذاهب دينيّة مختلفة في الغرب، تبقى، بوجه العموم، مهذّبة، لكنّها في الشرق الأوسط مرادفة لعدم التسامح والحروب الأهليّة. أمّا في الغرب فهناك مجالات أخرى لعدم التسامح. وإذا ما أضفنا التوتّرات داخل الكنائس المحليّة لأسباب لاهوتيّة أو سياسيّة، فهمنا صعوبة إيجاد كلام واحد للكنيسة الجامعة، ولو استعمل المسؤولون الروحيّون لغة روحيّة أو عقائديّة أو تقويّة تبدو مناسبة للجميع، فهذه اللغة تبقى غير قادرة على تلبية الأسئلة المطروحة من قِبَل الشعوب في الظروف الراهنة. وقد حاولت تجديدات الإدارة الكنسيّة الرومانيّة، في العقود الأخيرة، أن تجيب، ولو جزئيًّا، على هذه المشاكل. ففي سنة ١٩٦٨، حدّدت القوانين الأساسيّة للكنيسة مبادئ حكم مركزيّ، وذلك من خلال تعدّد جنسيّات الكرادلة الذين أصبحوا ينتمون إلى مختلف البلدان، وبذلك أصبح حكم الكنيسة الرومانيّة عالميًّا، إذ لم يعد أعضاء السلطة الكنسيّة العليا إيطاليّين يختار بعضهم بعضًا. وقد تسلّم كرادلة من بلدان مختلفة أعلى المستويات في الفاتيكان. كما إنّ ممارسة العمل، جماعيًّا، في المجالس الأسقفيّة وسينودوس الأساقفة الذي اجتمع سبع مرّات، وضعت حدًّا للمركزيّة الرومانيّة وخلقت نوعًا من التوازن[١]. وجرى تطويرٌ لبعض المفردات والتسميات التنظيميّة الكنسيّة الرومانيّة التي كان وقعها غير مرغوب به على العموم، فـ"المجمع المقدّس" أو "محكمة التفتيش" أصبح "مجمع عقيدة الإيمان". وحدّد سنّ الإحالة إلى التقاعد... كلّ هذه المسائل، طبعت الكنيسة الرومانيّة في نهاية حبريّة بولس السادس، الذي عبّر غالبًا في سنواته الأخيرة عن قلقه، وأحيانًا عن حزنه. هذا الوضع يفسّر انتخاب يوحنّا بولس الأوّل ثمّ يوحنّا بولس الثاني لتبوّء السدّة البابويّة. فقد اختار الكرادلة في شخص الأوّل رجل المصالحة، راعيًا يهتمّ

---

١ ـ يرى البعض، بشيء من خيبة الأمل، أنّه مع ذلك، لا يزال بوسع النظام الرومانيّ وضع يده على المؤسّسات المجمعيّة، كما أنّ الموظّفين غير الإيطاليّين في روما لا يلبثون أن يصبحوا رومانيّين.

بالفقراء، وفي الوقت نفسه إنسانًا لا ينتمي إلى الديوان الرومانيّ، ولكنّه إيطاليّ مستقلّ بالنسبة إلى الفريقين. أمّا انتخاب الكاردينال فويتيلا[1]، فجاء نتيجة للتوزيع العالميّ للكرادلة، وهو يعني استقلال الكنيسة عن السياسة الإيطاليّة وعن الكنائس الغربيّة[2]. ولا يزال هذا البابا الشيخ النشيط يسعى لتجديد بشارة الإنجيل وإعادة وحدة المسيحيّين وتوطيد السلام في العالم، حاملاً في وجدانه، ليس همّ التسعمئة ومليونَي كاثوليكي في العالم فقط، ولا مضافًا إليهم همّ باقي المسيحيّين الذين يشكّلون ٨٢٧ مليونًا مجتمعين فحسب، بل وهمّ البشريّة جمعاء. ولا نظنّ أنّ على وجه البسيطة رجل بوسعه أن يتحمّل هذا العبء الثقيل، إلاّ إذا كان الله له معينًا ونصيرا.

---

١ ـ الكاردينال فويتيلا: هو الذي اختار اسم يوحنّا بولس الثاني عند انتخابه بابا سنة ١٩٧٨، وهو بولنديّ الأصل.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٩٢.

الحَرَكَة المَسكُونيَّة

كلمة "مسكونيّة" تعني، بحسب ما هو متعارف عليه، إرادة التقارب بين مختلف الجماعات المسيحيّة. والحركة المسكونيّة هي روح جديدة نشطت في الكنيسة، لمعالجة الإنقسامات التي تفصل بين جميع المؤمنين بالمسيح، بغية التوصّل إلى الوحدة التي أرادها المسيح.

الكَنَائِسُ والمَذَاهِب

حاول باحثون كنسيّون[1] رسم لوحة عن مختلف الجماعات المسيحيّة الكائنة اليوم، وعن نظرتها لوحدة الكنيسة. فجاءت على الشكل التالي:

١ ـ **الكنيسة الكاثوليكيّة:** هي أكبر مجموعة مسيحيّة، وعدد الكاثوليك، حسب الإحصاء الأخير، ٩٠٠ ومليونان. وهم أكثر من باقي المسيحيّين الذين يشكّلون ٨٢٧ مليوناً مجتمعين. والكنيسة الكاثوليكيّة كتلة متماسكة منظّمة، تخضع لسلطة مركزيّة واحدة هي كرسيّ روما. وهي تضمّ كنائس الغرب القديمة التي ظلّت أمينة للكرسيّ الرومانيّ، والكنائس التي تأسّست بفضلها في العالم الجديد وفي بلاد الرسالات، وتتبع الطقس اللاتينيّ. وفروع الكنيسة الشرقيّة التي أقرّت بسلطة الحبر الرومانيّ العليا، وارتبطت بالعالم الكاثوليكيّ مع الإحتفاظ بشيء من الإستقلال الذاتيّ في مجال التنظيم والليتورجيا، وهي موزّعة على عدّة أسر طقسيّة: الأسرة البيزنطيّة (الملكيّون، الأوكرانيّون بمختلف فئاتهم، الرومانيّون، الإيطالوألبانيّون، وقلّة في اليونان وبلغاريا)؛ الأسرة الأرمنيّة؛ الأسرة السريانيّة (الموارنة والسريان والكلدان، والملابار والملانكار في جنوب الهند)؛ والأسرة الإسكندريّة (الأقباط والأحباش).

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٨٨ وما يليها.

٢ ـ **الكنائس الأرثذوكسيّة الشرقيّة: أ ـ** الكنائس البيزنطيّة التي تقرّ بالمجامع المسكونيّة السبعة الأولى، وهي مجموعة كنائس يربطها إيمان واحد وتشريع واحد وليتورجيا واحدة، ولكن ليس لها سلطة مركزيّة واحدة، وإنْ كان للبطريرك القسطنطينيّ أوّليّة شرفيّة، وحقّ المبادرة لدعوة السينودوس الأرثذوكسيّ العام. وهي تضمّ البطريركيّات الرسوليّة الشرقيّة الأربع القديمة: القسطنطينيّة والإسكندريّة وأنطاكيا وأورشليم؛ والبطريركيّات المستحدثة: الروسيّة واليوغوسلافيّة والرومانيّة والبلغاريّة والجيورجيّة؛ وكنيستا قبرص واليونان؛ وكنائس تنعم بإدارة ذاتيّة بدون استقلال كامل: فنلندا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا؛ وجاليات تابعة للكنائس الأمّ في أميركا وأوروبّا الغربيّة وأستراليا وأفريقيا. **ب** ـ الكنائس الأرثذوكسيّة القديمة غير الخلقيدونيّة: بطريركيّة الشرق الأشوريّة النسطوريّة. تقبل المجمع النيقاويّ الأوّل وترفض مجمع أفسس وكلّ ما يليه من مجامع؛ ـ الكنائس التي تقرّ بالمجامع الثلاثة الأولى: الكنيسة السريانيّة وكنيسة الهند المرتبطة بها؛ الكنيسة الأرمنيّة؛ الكنيسة القبطيّة والكنيسة الحبشيّة.

٣ ـ **المجموعات البروتستانتيّة**: تضمّ عدّة مجموعات مسيحيّة مختلفة في العقيدة والنظام؛ إنّما يربط بينها مواقف دينيّة وروحانيّة مشتركة، منبثقة عن حركة الإصلاح في القرن السادس عشر، وهي تركّز على الكتاب المقدّس كمصدر أوحد للإيمان، وعلى عجز الإنسان المطلق تجاه اللّه. هذه الكنائس هي: ١) الكنائس الرسميّة القديمة التي نشأت مباشرة عن حركة المصلحين: أ ـ المجموعة الأنكليكانيّة: حافظت على بنى الكنيسة الكاثوليكيّة كالأسقفيّة والأسرار والليتورجيا، ولكنّها تأثّرت، بعد هنري الثامن* (ملك إنكلترا ١٥٠٩ ـ ١٥٤٧)، بالعقليّة البروتستانتيّة من جرّاء كتب الصلاة التي أدخلها إدوار السادس (ملك إنكلترا ١٥٤٧ ـ ١٥٥٣). ويتمتّع رئيس أساقفة كانتربري* بأوّليّة شرفيّة على المجموعة الأنكليكانيّة، وهناك أبرشيّات حتّى خارج إنكلترا مرتبطة به، وكنائس في مناطق أخرى مستقلّة، وتتقبّل الشركة الأنكليكانيّة في داخلها نزعات ثلاث: النزعة الكاثوليكيّة (الكنيسة العليا)، النزعة البروتستانتيّة (الكنيسة السفلى)، والنزعة

الليبراليّة أو المتحرّرة. ب ـ المجموعة اللوثريّة: وهي أقرب الكنائس البروتستانتيّة إلى الكثلكة (بعد الأنكليكان الذين لا يُعدّون بروتستانت بالمعنى الحصري) وقد حافظ اللوثريّون على لقب الأسقف (وإن لم يعُد يتمتّع بالسلطات نفسها كخليفة الرسل)، وعلى شكل بناء الكنيسة، إذ ما زال يتوسّطها المذبح، وعلى عقيدة وجود المسيح الحقيقيّ في القربان المقدّس، واللوثريّون متأصّلون خاصّة في ألمانيا والدول الإسكندينافيّة. ج ـ المجموعة الكالفينيّة: تتبع مبادئ كالفين [1] في إصلاحه. ومن جهة التنظيم تنقسم إلى مشيخة [2] حيث الرعايا ترتبط بسلطة أعلى هي السينودوس، وإلى جمهوريّة [3] حيث كلّ رعيّة قائمة بذاتها. ٢) المذاهب: تفرّعت عن هذه الجماعات الأساسيّة عدّة مذاهب احتجاجًا على ارتباط هذه الكنائس بالدولة، أو نتيجة حركة روحيّة تجدّديّة، وتميّزت عن الجماعات الأمّ بالتنظيم أو بأسلوب الصلاة وأحيانًا بالعقيدة. ونظرًا لعدم وجود سلطة تعليميّة مسؤولة، ولحرّيّة الفرد حسب إلهام الروح في تأويل الكتاب، كان مجال لتعدّد الفروع والمذاهب [4]. أهمّ هذه الجماعات: المعمدانيّون والمثوذيّون، وهناك أيضًا السبتيّون والعنصريّون وشيعٌ تفرّعت عنها، يعتبر أكثر المسيحيّين أنّها لا تكاد تستحقّ لقب مسيحيّين، كالمورمون وشهود يهوه [5].

---

١ ـ يوحنّا كلفين CALVIN (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤): مصلح كنسيّ فرنسيّ، نشر في فرنسا وسويسرا مذهبًا حمل اسمه، أنشأ في جنيف حكومة ثيوقراطيّة، له كتاب "الأسس المسيحيّة" جعل منه أكبر لاهوتيّ عرفه الإصلاح.

٢ ـ ينتمي البروتستانت العرب في سورية ولبنان الذين نشأوا جرّاء حركة المرسلين في القرن التاسع عشر بأغلبيّتهم الساحقة إلى هذه المجموعة.

٣ ـ ينتمي البروتستانت الأرمن بأغلبيّتهم إلى هذه المجموعة.

٤ ـ يؤسّس مذهب جديد كما تؤسّس في الكنيسة الكاثوليكيّة رهبانيّة أو أخويّة.

٥ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٨٩ ـ ٣٩٠.

الكَنيسَة الجَامعةُ

والمَذاهِـــــب

في ظلّ هذا التشرذم والتنوّع، يتسائل الباحثون: أين هي الكنيسة الواحدة الجامعة الرسوليّة؟ ويشرحون:

إنّ البروتستانت بنوع الإجمال يقولون إنّ كنيسة المسيح حقيقة غير منظورة، ستتجسّم في آخر الأزمنة، وإنّ الجماعات المسيحيّة هي مجرّد تجمّع تعمّد أفراده في المسيح، كما يجتمع اثنان أو ثلاثة للصلاة باسم المسيح ويكون هو في وسطهم. ولكنّ الكنيسة ليست حقيقة واقعة كوسيلة خلاص توزّع كلام اللّه والنعمة.

وفي نظر الأنكليكان كنيسة المسيح قائمة في فروع ثلاثة.

وفي نظرة الأرثذوكس التقليديّة أنّ الكنيسة الأرثذوكسيّة هي، دون سواها، كنيسة المسيح الواحدة الجامعة المقدّسة الرسوليّة، وأنّ الخلافات التي فصلت عنها سائر المسيحيّين لم تبدّل من حقيقة وضعها. هذه النظرة بدأت تتطوّر إثر تجدّد العلاقات مع الكنيسة الكاثوليكيّة. فقد جاء في رسالة البطريرك المسكونيّ ديمتريوس[1] المرسَلَة إلى البابا يوحنّا بولس الثاني، بمناسبة عيد القدّيس بطرس، عام ١٩٨٤: إنّنا ونحن نحتفل معًا بعيد كنيسة روما المقدّسة، هذه التي تترأس المحبّة، نرى أنّنا أكثر وعيًا لكوننا، رغم انقسامنا الناجم عن أحكام نجهلها نحن وأنتم، مبنيّين على أساس الرسل والأنبياء. ويسوع المسيح هو رأس الزاوية.

---

١ - **البطريرك ديمتريوس**: خليفة أثيناغوراس، منذ جلوسه على السّدة البطريركيّة ١٩٧٢ تابع انفتاح سلفه على الحركة المسكونيّة وباشر الحوار الرسميّ بين الكنيسة الأرثذوكسيّة والكنيسة الكاثوليكيّة، كما نشطت في عهده تهيئة المجمع الأرثذوكسيّ العام، وعُقدت عدّة مؤتمرات ضمّت ممثّلي سائر الكنائس الأرثذوكسيّة، وزار البابا يوحنّا بولس الثاني في روما من ٣ إلى ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧.

وفي نظر الكاثوليك أنّ كنيسة المسيح الواحدة تتجسّم بملء أبعادها وفعاليّتها في الكنيسة الكاثوليكيّة. أمّا سائر المسيحيّين فمنهم مَن ينعمون حقيقةً بصفة كنائس، إذ حافظوا على الخلافة الرسوليّة وهم يعطون الأسرار بشكل صحيح، وإنْ كان ينقصهم بعض ما يؤهّلهم ليكونوا في شركة تامّة مع كنيسة المسيح كما أرادها (الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة)، ومنهم مَن هم مجرّد جماعات مسيحيّة تنعم بكثير من الخيرات التي سلّمها المسيح لكنيسته (كالمعموديّة ووديعة الإيمان القديم والكتاب المقدّس)، إنّما تنقصها المقوّمات الأساسيّة لبُنية الكنيسة.

هذا الوضع، برأي كنسيّين منفتحين، منافٍ لإرادة المسيح الذي أراد أن يكون جميع المؤمنين به واحدًا، ليس فقط في علاقتهم الحميمة مع الله، ولكن أمام الملأ في شهادتهم المشتركة أمام العالم. وهو ناجم عن ضعف العقل البشريّ إزاء تفهّم سرّ المسيح وعجز اللسان عن التعبير عن ملء غناه، كما هو ناجم عن عوامل حضاريّة وسياسيّة، ولا سيّما عن فتور المحبّة وعن الخطيئة. وهو يضعف من فعاليّة الكنيسة في نفوس أبنائها، وفي دعوة الذين في الخارج إلى ملء حقيقة المسيح ونعمة خلاصه، ولذا لا يمكن أن نقبل هذه الإنقسامات كواقع لا مناص منه. ويجب السعي لتقليص الإنقسامات وتضييق شقّة الخلاف والعودة إلى الوحدة التي أرادها المسيح[1].

تَمَايُــزُ الحَرَكَــة المَسكُونِيَّة الحَدِيثَة

وفي محاولة لاستجلاء ما يميّز الحركة المسكونيّة المعاصرة عن المحاولات السابقة، للقضاء على انقسامات الكنيسة والمبادئ التي تسيّرها، أوضح باحثون كنسيّون

---

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٩٠ - ٣٩١.

معاصرون[١] أنّ معضلة الوحدة المسيحيّة ليست بنت اليوم، وقد اتُّبعت في الماضي أساليب مختلفة لمعالجتها. منها: **أسلوب القمع والعنف** للقضاء على الخارجين عن المعتقد الرسميّ، أو حرمانهم من الحقوق المدنيّة والمساواة، غير أنّ هذا الأسلوب قد عمّق الخلافات، وجعل المواقف تزداد صلابة؛ **أسلوب الجدل والمهاترة** الذي ظلّ عقيمًا، لأنّ كلّ فريق كان يبغي أن يجرّ إلى نظرته الفريق الآخر، بدون أن يتفهّم موقفه وما يبغي حقيقةَ التعبير عنه، وكانت البراهين المقدّمة غير مقنعة لأنّها لا تنطلق من نقاط أساسيّة غير متّفق عليها، ولا تراعي المضمون الحقيقيّ لتعابير الفريق الآخر ومفاهيمه؛ **أسلوب الحملات التبشيريّة** بين أفراد الشعب، لحملهم على الاهتداءات الفرديّة، وقد أعطى هذا الأسلوب بعض الثمار الجزئيّة قبل تصلّب المواقف... ففي القرن السادس توصّل البطريرك الأنطاكيّ غريغوريُس[٢] إلى إرجاع الكثير من القبائل العربيّة بالوعظ والإقناع إلى الكنيسة الملكيّة، كما توصّل القدّيس فرنسوا دي سال[٣] في منطقة الـ"سافوا[٤]" واليسوعيّون في المجر* إلى إرجاع الكثير من البروتستانت إلى حضن الكنيسة الكاثوليكيّة. هذ الأسلوب قد يقلّص رقعة الإنقسامات في بعض المناطق، أو بالعكس، قد يزيدها، بانتقال أفراد من كنيسة إلى أخرى؛ ولكن لا يحلّ مشكلة الإنقسام بل يعمّق الهوّة بين الكنائس.

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٢ وما يليها.

٢ ـ **غريغوريُس يوسف الأوّل سيّور**: بطريرك الكنيسة الملكيّة الكاثوليكيّة (١٨٦٤ ـ ١٨٩٧)؛ راجع الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ **فرنسيس دي سال** FRANÇOIS DE SALES (١٥٦٧ ـ ١٦٢٢): وُلد في "السافوا" فرنسا، أسقف جنيف، أسّس رهبانيّة "الزيارة" للنساء، طبّق مبادئ الحياة الروحيّة على العلمانيّين، ردّ إلى الروحانيّة المسيحيّة أبعادها الإنسانيّة، له مؤلّفات روحيّة منها "مدخل العبادة".

٤ ـ **سافوا** SAVOIE: بلاد جبليّة في جنوب شرقي فرنسا على الحدود الإيطاليّة، كانت دولة مستقلّة ضمّت إلى فرنسا ١٨٦٠، قاعدتها "شامبراي"، منها خرجت الأسرة المالكة في إيطاليا إلى ١٩٤٦.

بعد تلك المحاولات، برزت عقليّة جديدة وروح جديدة في علاقات الكنائس ببعضها البعض وسعيها إلى الوحدة، بعيدة عن روح الجدل العقيم والتدخّلات السياسيّة، وقد استُنبطت تسمية جديرة بالتعبير عن هذه الظاهرة الثقافيّة والروحيّة الجديدة هي: "الحركة المسكونيّة". فما هي جذور هذه الحركة وميزاتها وروحها؟

هناك عمل الروح القدس، روح العنصرة الذي يتغلّب على بلبلة الألسن والشقاق، والروح الذي هو رابطة الوحدة بين الآب والإبن، هو الذي يقودنا إلى الوحدة. إنّ وحدة الكنيسة سرّ من أسرار النعمة، والحركة المسكونيّة المعاصرة من ثمار أعمال الروح القدس. إلاّ أنّ عمل الروح هذا يرافق تطوّرًا تاريخيًّا وحضاريًّا وثقافيًّا يمهّد له ويؤهّل الإنسان لتقبّله، إذ إنّ النعمة لا تتجاهل الطبيعة. فهناك انفصال الكنيسة عن الدولة وتحرّرها من العوامل السياسيّة والقوميّة. وتقدُّم علوم الكتاب المقدّس، والآباءُ وتاريخُ الكنيسة، وهناك الإنفتاحُ العالميّ الذي يميّز إنسان القرن العشرين، وتلاقي الثقافات واحترام الشخص الإنسانيّ وحرّيّته، واكتشاف البُعد النسبيّ والتاريخيّ للقيم الإنسانيّة، ولا سيّما في أساليب التعبير وفي الممارسات... ومن البديهيّ أنّ الروح المسكونيّة نشطت أكثر في المناطق التي تأثّرت أكثر بهذه العوامل، وهي شبه معدمة في المناطق التي ظلّت عقليّتها ملتصقة بالقرون الغابرة[١].

إنّ الموقف المسكونيّ يعتمد نظرة جديدة، إلى الإخوة المنفصلين، مبنيّة على الاعتبار والتفهّم، وتركّز على ما لديهم من قيم إيجابيّة تجمعنا بهم. إنّه موقف يرفض التعصّب الذي لا يرى في الغير إلاّ الأخطاء، كما يرفض عدم المبالاة والنسبيّة العقائديّة التي تعتبر أنّ جميع المذاهب تتساوى. فالروح المسكونيّة تقتضي الأمانة

---

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٩٢ - ٣٩٣.

التامّة لمبادئ الكنيسة، ولا تكتفي بالقاسم المشترك، بل تبغي الوصول إلى ملء الحقيقة. إنّما الأمانة هي أيضًا انفتاح على الآخرين؛ فالحقيقة والخير ليسا كلاهما من جانب، والضلال والكبرياء من الجانب الآخر. يجب أن نقرّ بما فينا من أخطاء، وأحيانا من ضعف في إبراز الحقيقة الإنجيليّة، وما قد يظهر بأكثر جلاء عند الآخرين. فالوحدة لن تكون مكسبًا فقط للآخرين، بل لنا جميعًا، ولذا فالعمل المسكونيّ يتفاعل بين جماعة وجماعة، وهو على مستوى الكنائس لا الأفراد[1].

فالميزة الثانية للحركة المسكونيّة، علاوة على إعادة النظر تجاه الآخرين، هي في نظرتها إلى معضلة الإنقسام بجملتها. إنّ الإهتداءات الفرديّة، إن كانت عفويّة وعن قناعة، لا تتعارض مع الحركة المسكونيّة، وإن كانت ليست من أهدافها، ولا تسعى إليها بشتّى الطرق. فالمطلوب ليس جرّ الآخرين إلى تغيير مذهبهم، بل التقارب الروحيّ واللاهوتيّ بين مختلف المذاهب، بغية الوصول إلى مِلء الوحدة والكمال الإنجيليّ. هذا التقارب يفترض أوّلاً، تهيئة الجوّ بإزالة عوامل الإنقسام غير اللاهوتيّة، وكلّ ما تراكم عبر الأجيال من ريبة وانعزال وحزازات ومنافسات وعداوات، من جرّاء الأحداث الماضية المؤلمة. ثمّ يتطلّب منّا أن نزيل من الكنيسة ما كان مدعاة للشقاق، بتجديد أنظمتها ولاهوتها والتقوى الشعبيّة، فنتمكّن بعد ذلك من إيجاد تعبير لاهوتيّ مشترك، انطلاقًا من الحقائق التي نتمسّك بها كلّنا معًا، بغية السير كلّنا نحو نموّ أكبر في الحقائق المشتركة، حتّى الوصول إلى الاتّفاق الكامل. هذه المهمّة المسكونيّة منوطة بجميع أبناء الكنيسة، فالمؤمنون العاديّون لهم دورهم كما اللاهوتيّون المختصّون والرؤساء الكنسيّون المسؤولون. وهي تتجسّم في علاقات الحياة اليوميّة والعمل المشترك في الحقول الاجتماعيّة والرعائيّة، وشهادة الحياة المطابقة لمتطلّبات

---

١ ـ يتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٢.

الإنجيل، والمتوازنة روحيًّا، وتتجسّم في الصلاة، ولا سيّما الصلاة المشتركة والأبحاث العلميّة في المجالات التاريخيّة واللاهوتيّة، والحوار اللاهوتيّ بالمعنى الحصريّ على مستوى الخبراء، ثمّ على المستوى الرسميّ بين ممثّلي الكنائس. من هنا فإنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني الذي عُقد بغية تجديد الكنيسة وتنشيط المساعي الوحدويّة، أصدر بتاريخ ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٤ مرسومًا خاصًّا بالحركة المسكونيّة يوضّح المبادئ الكاثوليكيّة للعمل المسكونيّ. وهو إذ يدعو إلى التعارف المتبادل والعمل المشترك والصلاة، يقرّ بما يترتّب على الكنيسة الكاثوليكيّة، رغم كونها كنيسة المسيح الحقيقيّة، من تجدّد في حياتها الداخليّة وفي لاهوتها في سبيل تقارب الإخوة المنفصلين وإعادة الوحدة[1].

ولادَة الحَرَكَـــــة المَسكُونِيَّة المُعاصِرَة

من ميزات الحركة المسكونيّة المعاصرة أنّها لم تقتصر على جماعة مسيحيّة واحدة، بل شملت جميع الفئات المسيحيّة إلاّ بعض الفئات الصغيرة المتطرّفة. وقد نشطت الحركة أوّلاً خارج الكنيسة الكاثوليكيّة بين الجماعات البروتستانتيّة التي يعود لها الفضل في تأسيس "مجلس الكنائس العالميّ[2]".

لم ينتظر المسيحيّون القرن العشرين لكي يعرفوا أنّ انقساماتهم حال مرضيّة. وقد لاحت بوادر فكرة "المسكونيّة" عندما أراد مسيحيّو المذهب الواحد أن يحافظوا على الوحدة وسط التشتّت العالميّ. فقام اتّحاد إنجيليّ عالميّ، سنة ١٨٤٦، يجمع

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٤.

٢ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٥.

البروتستانت بصرف النظر عن مللهم المختلفة. وقد جمع مؤتمر لَمْبث[1] الأول، الذي جرى في هذا الإطار سنة ١٨٦٧، ممثّلين من كافّة الكنائس الأنكليكانيّة في العالم[2]. ثمّ المؤتمر العالميّ للكنائس المتجدّدة، فالمؤتمر المعمدانيّ العالميّ، فالرابطة اللوثريّة العالميّة، فالاتّحادات المسيحيّة للشبّان والشابّات. وفي سنة ١٩١٠، جمع مؤتمر "إدنبرغ[3]"، لأوّل مرّة، ممثّلين عن كافّة الإرساليّات البروتستانتيّة. وكان بين الألف ومائتي ممثّل بعض الآسيويّين والأفريقيّين الذين عبّروا عن العثار الذي يشعرون به تجاه انقسام المرسلين المسيحيّين الذين يعملون كلّ لحساب كنيسته أو جمعيّته[4]. وهكذا تبيّنت للمؤتمرين آفة الانقسامات على العمل التبشيريّ. وشدّد التقرير النهائيّ على"ضرورة تأسيس كنيسة غير منقسمة في كلّ بلد غير مسيحيّ"، وعلى أنّه "سيأتي يوم تحلّ فيه الكنائس المحليّة مشكلة الوحدة بنفسها بمعزل عن رغبات المرسَلين الغربيّين". وإذا كان المؤتمرون لم يتمكّنوا من إقامة احتفال موحّد طوال المؤتمر، فقد وُلدت آنذاك فكرة "المسكونيّة"، وتقرّر عقد اجتماعات منتظمة، وأعطيت لجنة المؤتمرين إسم "المجلس العالميّ للإرساليّات[5]". كما صمّم أحد المشاركين، الأسقف

---

١ ـ لمبث: ضاحية في لندن، فيها قصر لمبث رئيس أساقفة كانتربري حيث يُعقد مؤتمر لمبث الدوليّ للأساقفة الأنكليكان كلّ عشر سنوات

٢ ـ بشأن هذه الكنائس راجع: الجزء السادس عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ إدنبرغ ÉDIMBORG, EDINBURGH : مدينة اسكتلنديّة، عاصمة اسكوتلندا، فيها قصر أثريّ رائع على ربوة بركانيّة، وجامعة شهيرة، منحها نشاطها الثقافيّ المميّز لقب "أثينا الجديدة".

٤ ـ قال ممثّل إحدى كنائس الشرق الأقصى في هذا المؤتمر: بعثتم إلينا بمرسلين عرّفونا بيسوع المسيح، فنشكركم على ذلك، لكنّكم حملتم إلينا أيضًا خلافاتكم، فالبعض يبشّر بالميتوديّة، والبعض باللوثريّة، والبعض بالمسيحيّة.. نسألكم أن تبشّروا بالإنجيل وأن تدعوا يسوع المسيح يقيم بيننا، بقوّة الروح القدس، نريد كنيسة تطابق متطلّبات يسوع المسيح وتطابق أيضًا عبقريّات شعوبنا، كنيسة تكون كنيسة المسيح في الصين، كنيسة المسيح في الهند...

٥ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٤ ـ ٣٥٥.

الأنكليكانيّ الأميركيّ الأصل "برانت"، الذي وعى أهميّة المسائل العقائديّة، على إنشاء حركة "الإيمان والنظام" للتقارب العقائديّ والتنظيميّ بين سائر الفئات البروتستانتيّة[1]. وقد اعتبر أكثر الباحثين أنّ ذلك المؤتمر كان نقطة انطلاق للمسكونيّة التي انتهت إلى نشوء مجلس الكنائس المسكونيّ[2].

في هذه الأثناء، كان "فرنان بورتال[3]" اللعازاريّ، قد التقى صدفة في "ماديرا[4]" سنة ١٨٩٠، "اللورد هاليفاكس[5]" الأنكليكانيّ فتصادقا. لم يكن بورتال يعرف شيئًا عن الأنكليكانيّة، ففكّر أوّلاً بالعمل على ارتدادات فرديّة لبعض الأنكليكان إلى الكثلكة. واعتبر أنّ الكنيستين، الكاثوليكيّة والأنكليكانيّة، ستتوحّدان قريبًا، أي بعد اتّفاق الرؤساء الروحيّين، ظنًّا منه أنّ الأنكليكان قد حافظوا على أهمّ ما في التقليد الكاثوليكيّ، لا سيّما التعاقب الرسوليّ للأساقفة. لكن، في سنة ١٨٩٦، أعلنت روما أنّ الرسامات الأنكليكانيّة باطلة[6]. فأُحبط حلم هذه الوحدة. وظنّ بورتال، عندئذ، أنّ الوحدة لن تأتي

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٩٥.

٢ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٤ - ٣٥٥.

٣ - فرنان بورتال FERNAND PORTAL (١٨٥٥ - ١٩٢٦): بادريّ لعازريّ فرنسيّ.

٤ - ماديرا MADÈRE, MADERA : جزيرة برتغاليّة في الأطلسي غربيّ المغرب، قاعدتها "فونشال".

٥ - إدوارد فريديريك لندلي وود هاليفاكس EDWARD FREDERICK LINDLEY WOOD HALIFAX (١٨٨١ - ١٩٥٩): سياسيّ بريطانيّ، دخل مجلس العموم عن المحافظين ١٩١٠، وكيل وزارة المستعمرات ١٩٢٢، رئيس لجنة التعليم ١٩٢٤، رئيس لجنة الزراعة ١٩٢٤ - ١٩٢٥، الحاكم العام في الهند ١٩٢٦ - ١٩٣١، زعيم المحافظين بمجلس اللوردات ١٩٣٥، وزير الدولة لشؤون الحرب ١٩٣٥، لعب دورًا هامًّا في مفاوضات معاهدة ميونيخ عندما كان وزيرًا للخارجيّة ١٩٣٨ - ١٩٤٠ مؤيّدًا سياسة تشمبرلين الهادفة لمهادنة النازي، سفير بريطانيا في واشنطن ١٩٤١ - ١٩٤٦، مدير لجامعة أكسفورد وشفيلد ١٩٤٨، له مؤلّفات منها "المشكلات الهنديّة" ١٩٣٢.

٦ - صدر هذا الإعلان في عهد البابا لاون الثالث عشر (١٨٧٨ - ١٩٠٣) الذي اشتهر برسالته في "الشؤون الإجتماعيّة" حول القضايا الحديثة.

إلاّ من القاعدة، أي من تغيير داخليّ لدى المسيحيّين. واعتبر أنّه يجب العمل ببطء على تقريب الذهنيّات وعلى البحث الفكريّ. فأسّس مجلّة تهدف إلى هذا العمل باسم "المجلّة الكاثوليكيّة للكنائس". ثمّ وسّع آفاقه نحو الأرثذوكس والبروتستانت. وبالرغم من إبعاده سنة ١٩٠٨، ظلّ بورتال يعمل في الخفاء، بين ١٩٢١ و١٩٢٥، حيث استؤنفت المحادثات مع الأنكليكان في "مالين"[١] بقيادة الكاردينال "مرسييه"[٢]. لكنّ موت بورتال ومرسييه سنة ١٩٢٦ وضع حدًّا لهذه المبادرة. من ناحية أخرى، كان الأب "كوتوريه" (ت١٩٥٣) قد نظّم في مدينة ليون أسبوع صلاة لوحدة المسيحيّين على أسس جديدة[٣]، وقد أصبح هذا الأسبوع مسكونيًّا حقًّا. وفي مقال ظهر سنة ١٩٣٥، أكّد الأب كوتورييه على "أنّ الوحدة لن تأتي نتيجة حملة تبشيريّة تقوم بها الكنيسة لكسب الآخرين... لن تأتي الوحدة إلاّ من اللّه، ويجب أن تتحقّق عن طريق صلاة جميع المسيحيّين. يجب أن يطلبوا الوحدة التي يريدها المسيح وبالوسائل التي يريدها. فعلى كلّ واحد، في كنيسته، أن يقرّ بأخطائه إلى الوحدة، على مدى العصور. فإذا بقيت كلّ كنيسة أمينة لتقاليدها وللصلاة، فلا يستطيع اللّه أن يرفض الوحدة التي صلّى المسيح من أجلها[٤]". وإذ راق هذا الكلام غير الكاثوليك، دعا الأب كوتورييه إلى التعارف

---

١ ـ مالين MALINES ، مدينة بلجيكيّة إسمها الفلمندي MECHELEN، مركز رئيس أساقفة بلجيكا.

٢ ـ ديزيريه ـ جوزيف مرسييه DÉSIRÉ - JOSEPH MERCIER (١٨٥١ ـ ١٩٢٦): أسقف مالين وكاردينال، له أعمال بالغة النبل في خلال الاحتلال الألماني لبلجيكا إبّان الحرب العالميّة الأولى.

٣ ـ كان قد بدأ في سنة ١٩٠٨ قسّان أنكليكانيّان تكريس أسبوع صلاة لأجل الوحدة من ١٨ إلى ٢٥ كانون الثاني (يناير)، ثمّ أعطى الأب كوتوريه هذا الأسبوع انطلاقة جديدة، إذ عمّق معناه الروحيّ.

٤ ـ ومن أقوال الأب كوتورييه سنة ١٩٣٥: لا يعزبنّ عن بالكم أنّ أسبوع الصلاة هذا (١٨ ـ ٢٥ كانون الثاني ـ يناير) هو عمل روحيّ، يرفعه كلّ واحد في قرارة نفسه وبصدق، الأرثذوكسي وهو باق أرثذوكسيًّا، والأنكليكاني وهو باق أنكليكانيًّا، والكاثوليكي وهو باق كاثوليكيًّا

المتبادل، فأسّس جماعة "دومبْ" سنة ١٩٣٧، من قسوس وكهنة يجتمعون كلّ سنة في دير دومب، في رياضة مسكونيّة يتغذّون فيها روحيًا معًا. وقد توسّع الأب كوتورييه، في أواخر حياته، بدراسة هذه المسكونيّة الروحيّة التي أسماها "الدير غير المنظور[١]". وفي ما بعد، بدأت هذه الجماعة تدرس اللاهوت المقارَن لدى جميع الطوائف المسيحيّة[٢]. وكان "دون لمب بودوان BAUDOUIN" قد أسّس، في بلجيكا، سنة ١٩٢٥، ديرًا خصّصه للتقرّب من المسيحيّين الشرقيّين، حيث يُحتفل بالليتورجيا في الطقسَين اللاتينيّ والبيزنطيّ، ثمّ أسّس رهبانه مجلّة تابعت هذا الخط. وفي العام نفسه، عُقد في "ستوكهولم[٣]" المؤتمر الأول لحركة "المسيحيّة العمليّة" بهمّة أسقف "أوبسالا[٤]". وكان برنامج الحركة "التعاون في شتّى المجالات العمليّة والأخلاقيّة والإجتماعيّة والإقتصاديّة". وفي عام ١٩٢٧ عُقد في "لوزان[٥]" المؤتمر الأوّل لحركة "الإيمان والنظام" ذات البرنامج العقائديّ؛ وفي عام ١٩٢٨ عُقد في القدس المؤتمر الأوّل لمجلس الرسالات العالميّ، الذي كان قد أُسّس سنة ١٩٢١؛ وفي عام ١٩٣٧ عُقد في "أوكسفورد[٦]" المؤتمر الثاني لحركة "المسيحيّة العمليّة"، وفي "إدنبرغ*"، "اسكوتلندا[٧]"،

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

٣ ـ **ستوكهولم** STOCKHOLM : عاصمة السويد، تقع في جنوب شرقي البلاد، شهيرة بالجامعة العلميّة والمتاحف والمعاهد العسكريّة.

٤ ـ **أوبسالا** UPPSALA : مدينة في شرق السويد شهيرة بجامعتها.

٥ ـ **لوزان** LAUSANNE : مدينة في جنوب غربي سويسرا على بحيرة "ليمان"، عُقدت فيها معاهدة الصلح بين تركيا والحلفاء ١٩٢٣، شهيرة بجامعتها.

٦ ـ **أوكسفورد** OXFORD : مدينة في إنكلترا عند ملتقى نهري "التاميز" و"شرول"، اشتهرت بجامعتها التي يرتقي عهدها إلى القرن الثاني عشر.

٧ ـ **اسكوتلندا** SCOTLAND, ÉCOSSE : المنطقة الشماليّة من بريطانيا العظمى عاصمتها إيدمبورة أو إدنبرغ.

المؤتمر الثاني لحركة "الإيمان والنظام". وكان تزامُن اجتماع المؤتمرَين مناسبة لإنشاء لجنة تمهيديّة لدمج الحركتَين في ما يُسمّى "مجلس الكنائس العالميّ". كما قرّر "مجلس الرسالات الدوليّ"، في العام التالي، إقامة لجنة ارتباط مع مجلس الكنائس الناشئ. ثمّ كانت الحرب العالميّة الثانية.

مَجلسُ الكنَائس العَالَميّ

سهّلت الحرب أسباب اللقاءات في المحن المشتركة: جمعيّات مسيحيّة عديدة وحّدت المسيحيّين في خدمة اللاجئين غير المسيحيّين. سنة ١٩٤٨، بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية، عُقدت عدّة اجتماعات تمهيديّة، وكان عام ١٩٤٨ سنة المولد الرسميّ لـ"مجلس الكنائس العالميّ"، إذ عُقد مؤتمره الأوّل في "أمستردام"، وكان قد انضمّ إلى الكنائس البروتستانتيّة العديد من الكنائس الأرثذوكسيّة.

ليس مجلس الكنائس العالميّ سلطة عليا تؤلّف بين أعضائها، بل هي حسب تحديده الرسميّ "رابطة أخويّة لكنائس تعترف بالربّ يسوع إلهًا ومخلّصًا وفق ما جاء في الكتب، وتسعى للاستجابة معًا لدعوتها المشتركة لمجد الإله الأوحد، الآب والإبن والروح القدس". وهناك قاعدة إيمانيّة مشتركة هي الحدّ الأدنى المطلوب من الأعضاء المنتسبين إلى المجلس، وبرنامج عمل يتابع مهامّ الحركات الثلاث التي نشأ عنها. فهو ينشّط التعاون بين الكنائس، ويساعدها على تحقيق رسالتها التبشيريّة والإجتماعيّة في العالم، كما يساعدها على دراسة الأمور العقائديّة معًا، وعلى مناقشة متطلّبات الوحدة المسيحيّة. ويضمّ "المؤتمر العام لمجلس الكنائس" ممثّلي جميع الكنائس الأعضاء، وهو أهمّ سلطة في المجلس، يلتئم كلّ ستّة أو سبعة أعوام. وقد عُقد حتّى الآن سبعة مؤتمرات عامّة: الأوّل في أمستردام* سنة ١٩٤٨ ودار موضوعه حول "خلل الإنسان

وخطّة اللّـه"؛ الثّاني في "أفانستون[1]" عام ١٩٥٤، وموضوعه "المسيح رجاء العالم الأوحد"؛ الثالث في "نيودلهي[2]" عام ١٩٦١، وموضوعه "المسيح يسوع نور العالم"؛ الرّابع في أوبسالا* (السويد) عام ١٩٦٨ وموضوعه "ها إنّي سأجعل كلّ شيء جديدًا"؛ الخامس في "نيروبي[3]" عام ١٩٧٥ وموضوعه "المسيح يسوع يحرّر الجميع"؛ السابع في "فانكوفر[4]" عام ١٩٨٣ وموضوعه "المسيح حياة العالم"؛ والسابع في "كانبيرا[5]" عام ١٩٩١ وموضوعه "تعال أيّها الروح القدس وجدّد الخليقة كلّها". وينتخب المؤتمر العامّ سبعة رؤساء، ولجنة مركزيّة مؤلّفة من مئة عضو. وتجتمع اللجنة المركزيّة مرّة في السنة، وهي تنتخب من بين أعضائها لجنة تنفيذيّة تشرف على الأعمال. وللمجلس أمانات دائمة مركزها جنيف، وفيها الأمانة العامّة، وأقسام الدراسات، والتربية والمعونات الإجتماعيّة والتبشير والعلاقات الدوليّة ودوائر الماليّة والإعلام[6].

ويضمّ المجلس حاليًا ٣٠٠ كنيسة موزّعة على ١٠٥ أقطار، أي معظم الكنائس الأرثذوكسيّة والبروتستانتيّة، وهو يمثّل زهاء ٤٠٠ مليون مسيحيّ. وليست الكنيسة الكاثوليكيّة عضوًا في المجلس، إنّما يتعاون لاهوتيّوها بشكل رسميّ مع لجنة الإيمان

---

١ ـ **أفانستون**: مدينة في شمال شرقي ولاية إلينوي الأميريكيّة، على بحيرة ميتشيغان شمال مدينة شيكاغو، أسست ١٨٢٦ وأعلنت مدينة ١٨٩٢، جعلها موقعها الجميل على شاطئ البحيرة من أشهر مدن النزهة والاصطياف، مقر جامعة "نورث وسترن".

٢ ـ **نيودلهي** NEW DELHI : عاصمة الهند الجديدة، تقع في شمال البلاد شرقي مدينة دلهي.

٣ ـ **نيروبي** NAIROBI : عاصمة كينيا، أنشئت ١٨٩٩، أعيد بناؤها على نسق التخطيط الحديث ١٩٢٠، مقر جامعة وعدة معاهد فنيّة، والعديد من المنظّمات الدوليّة مثل "برنامج الأمم المتّحدة للبيئة".

٤ ـ **فانكوفر** VANCOUVER : جزيرة كنديّة في كولومبيا البريطانيّة على المحيط الهادى، ومرفأ في غرب كندا على المحيط تجاه الجزيرة.

٥ ـ **كانبيرا** CANBERRA : العاصمة الفدراليّة لأوستراليا، تقع في الجنوب الشرقيّ لغاليا الجنوبيّة الجديدة.

٦ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

والنظام فيه، ويشتركون مع اللاهوتيّين الأرثذوكس والبروتستانت في الأبحاث. وكان من ثمرة هذه الجهود ما عُرف بوثيقة "ليما[1]" لعام ١٩٨٢، حول المعموديّة والإفخارستيّا والخدمة الرعويّة. وقد حاز هذا النصّ موافقة جميع اللاهوتيّين الأرثذوكس والبروتستانت والكاثوليك الأعضاء، وهو يدور حول مواضيع شائكة كانت تقسم مختلف المسيحيّين... ويُعدّ هذا النصّ نصرًا للحركة المسكونيّة، وتتويجًا لجهود بُذلت خلال عشرين عامًا.

ويقول باحثون كنسيّون[2] ظلّت التحفّظات الكاثوليكيّة تجاه الحركة المسكونيّة قائمة. وبقي التجاذب بين القائلين بعودة الإخوة المنشقّين إلى الكنيسة الحقيقيّة، أي كنيسة روما وبين القائلين بالمسكونيّة، أي بحوار بين شركاء متساوين. ففي الكنيسة الكاثوليكيّة، التي تعتبر أنّها وحدها تمتلك الحقيقة، لم يكن من رأي البابوات مشاركة سائر المسيحيّين تبادل الآراء على قدم المساواة. فإنّ البابا بندكتس الخامس عشر (١٩١٤ ـ ١٩٢٢) رفض، بطريقة مهذّبة، أن يشترك في حركة توحيد التربية، كما دعا جميع المسيحيّين إلى الانضمام إلى "الكنيسة الحقيقيّة". وفي براءته "نفوس الأموات" سنة ١٩٢٨، منع البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩) الكاثوليك من المشاركة في أيّ حركة مسكونيّة، من منطلق أنّ "الحقيقة تسبق المحبّة". والحقّ يُقال، لم يكن الكاثوليك يرون آنذك في البروتستانتيّة سوى الآراء المتحرّرة التي لا تهمّها الدقّة العقائديّة[3]. رغم ذلك، فقد سمح البابا بيوس الثاني عشر عام ١٩٤٩ بالمحادثات

---

١ ـ ليما LIMA : عاصمة "البيرو"، تقع غربي البلاد، شهيرة بجامعتها.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٧، ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

٣ ـ المرجع السابق.

اللاهوتيّة بين الكاثوليك وغير الكاثوليك بشيء من التحفّظ[1]. وفي شهر آذار (مارس) ١٩٥٠، اعترف "مجمع الإيمان" بأنّ "الحركة المسكونيّة، عمل رائع. وثمرة من ثمار الروح القدس"، كما خوّل الأساقفة السماح بقيام اجتماعات بين سائر الطوائف. فالكاثوليك يستطيعون أن يصلّوا "الأبانا" مع غير الكاثوليك[2]".

إنّ انفتاح الكنيسة الكاثوليكة الرسميّ على الحركة المسكونيّة نشط خصوصًا مع البابا يوحنّا الثالث والعشرين (١٩٥٨ ـ ١٩٦٣). فالكنيسة لم تعد تكتفي بدعوة "الإخوة المنفصلين" إلى الرجوع إليها، بل سعت إليهم بروح جديدة من التفاهم والحوار. والمجمع المسكونيّ الذي نادى به البابا يوحنّا في ختام أسبوع الصلاة لوحدة المسيحيّين في مطلع حبريّته في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩، كان هدفه الرئيسيّ السعي لتجدّد الكنيسة الكاثوليكة بغية التقارب مع سائر المسيحيّين. وإنّ الأمانة العامّة لاتّحاد المسيحيّين، التي أُنشئت، في بادئ الأمر، لجنة من لجان المجمع الفاتيكانيّ الثاني التحضيريّة، أصبحت جهازًا دائمًا في الفاتيكان مسؤولاً عن العلاقات بين المسيحيّين غير الكاثوليك، وعن تنشيط الحوار المسكونيّ[3].

لقد فتح المجمع الفاتيكانيّ الثاني أمام الكاثوليك طريق المسكونيّة واسعة. فقد دُعيت مختلف الكنائس غير الكاثوليكيّة لإرسال مراقبين إلى المجمع، ولبّى معظمها الدعوة. وأُحيط المراقبون بكثير من الاهتمام والتكريم. وكان لحضورهم تأثير كبير، إذ أطلعوا كنائسهم على مواقف الكاثوليك الحقيقيّة فأزالوا الكثير من الإلتباسات، كما أنّهم

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠.

ساعدوا آباء المجمع على اتّخاذ مواقف أكثر توازنًا وأكثر انسجامًا مع سائر المسيحيّين. وقد التقى بولس السادس عددًا كبيرًا من مسؤولي الكنائس المسيحيّة: بطريرك القسطنطينيّة، بابا الأقباط، رئيس أساقفة كانتربري، وغيرهم. فتلطّفت القوانين الكاثوليكيّة بخصوص الزواجات المختلطة، فلم يعد الزوج غير الكاثوليكيّ يشعر بنوع من الإذلال كما في الماضي. ومن دون أن تكون الكنيسة الكاثوليكيّة عضوًا في مجلس الكنائس العالمي، فإنّها ترسل مراقبين إلى اجتماعات المجلس الكبرى وتتابع أعماله بانتباه، فإنّ مشاكل هذا المجلس قريبة من مشاكل الكاثوليك: إنّه يدعم الشعوب المجاهدة في سبيل التحرير، لذا اتُّهم بالتسيّس وتركه بعض أعضائه. كما أنّ المجلس لاقى اعتراضات من الشباب في "أوبسالا" سنة ١٩٦٨، حيث طرح شعار: "قليل من الأوراق والخطب وكثير من الأعمال!"[١].

لقد بدأ التعاون الحقيقيّ بُعيد المجمع الفاتيكانيّ الثاني مع "مجلس الكنائس العالميّ" في المجالات العقائديّة والاجتماعيّة، كما بدأ الحوار اللاهوتيّ مع عدّة كنائس بروتستانتيّة، وأخذ يعطي نتائج ملموسة[٢]. فعلى مستويات عدّة وفي بلدان مختلفة، أُعدّت وثائق مشتركة بين الكنائس. ففي سنة ١٩٧٣، نشر "المجلس الدائم لأساقفة فرنسا" و"مجلس اتّحاد البروتستانت" مذكّرة مشتركة بموقفهما من تجارة السلاح. وفي سنة ١٩٧٢ لاقت الترجمة المسكونيّة للكتاب المقدّس نجاحًا باهرًا. ونشرت مجموعة "دومب" عدّة وثائق تعرض اتّفاقًا لاهوتيًا بين البروتستانت والكاثوليك حول أكثر من موضوع: نحو إيمان إفخارستيّا واحد (١٩٧١ ـ ١٩٧٢)، وحول اتّفاق الخدمات

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٩٠.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق ص٣٩٨ ـ ٤٠٠.

(١٩٧٣)، والخدمة الأسقفيّة (١٩٧٦)، والروح القدس ثمّ الكنيسة والأسرار (١٩٧٩)، وخدمة المناولة في الكنيسة الجامعة (١٩٨٦). ومع ذلك فهنالك شعور باستنفاد الطاقة على صعيد المسكونيّة الفكريّة. وتتمنّى الأجيال الشابّة أن تكون هناك أعمال مشتركة عديدة تسبق الوحدة العقائديّة[١].

وفي ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٨٤ زار البابا يوحنّا بولس الثاني، أثناء رحلته إلى سويسرا، مقرّ مجلس الكنائس العالميّ، ودار حوار صريح بينه وبين الأمين العام للمجلس، وقال البابا في خطابه:

نحن الآن في زمن العنصرة، الروح القدس دعا الجميع إلى الوحدة. وجودي بينكم دلالة على رغبة الوحدة. الكنيسة الكاثوليكيّة ملتزمة بالعمل الوحدويّ، وهي تشعر أنّها تحمل رسالة الشهادة للإيمان غير المتزعزع، وهي تتزعّم الكنيسة التي خضّبها دم الرسولَين بطرس وبولس. الشركة مع كنيسة روما ضروريّة، هذه قناعتنا، وأنا أعلم أنّ هذا يشكّل صعوبة لأغلبيتكم. يجب أن نتباحث في ذلك بصراحة وبمودّة. وإذا كانت الحركة المسكونيّة يقودها الروح، فسنتوصّل إلى ذلك. بين الكنيسة الكاثوليكيّة وبين الكنائس أعضاء المجلس، تاريخ طويل تشوبه أحداث مؤلمة ومنازعات صدّعت الوحدة. والآن أخذنا نكتشف من جديد ما لا يزال يجمعنا: المعموديّة ـ كلام الله ـ تفهّم دور الروح القدس. هذا الإكتشاف يجعلنا نتحسّس أبعاداً جديدة من حياتنا الكنسيّة. الروح ينبوع حريّة يتيح التجدّد في الأمانة، لما تسلّمنا من الأجيال السالفة، ويبتكر سبلاً جديدة في سيرنا نحو الوحدة، ضمن الأمانة للحقيقة، واحترام غنى التنوّع في القيم المسيحيّة الحقيقيّة المتأصّلة في التراث المشترك[٢].

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٩١.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٧.

في الحقبة نفسها، كانت كنيسة روسيا تعيش آخر أيّامها، تحت حكم القياصرة، الذي كان يمنع كلّ تطوّر في المؤسّسات. غير أنّ ذلك لم يتمكّن من الحدّ من حريّة المفكّرين. ونرى، في هذا الصدد، الروسي سولوفييف[1] يعتنق الكثلكة ويعمل جاهدًا في سبيل وحدة الكنيسة. وتولستوي[2] يعرض مسيحيّة إنجيليّة لا عنف فيها، ما حمل السينودوس المقدّس على حرمه. ويوحنّا كرونشاد (١٨٢٩ ـ ١٩٠٨) المتصوّف العظيم وكاهن الرعيّة، يجمع إلى حياة روحيّة عميقة، عمل المحبّة حتّى الفقر المدقع، وقد ترك مؤسّسات تذكّرنا بمؤسّسات دون بوسكو*. وجاءت الثورة البولشيفيّة لتعرّض الكنيسة الروسيّة بعد حين لاضطهادات رسميّة. وقد أدّت تطوّرات أواخر القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين، إلى نزوح مسيحيّين شرقيّين إلى سائر أقطار الدنيا، إلى أوروبّا الغربيّة والولايات المتّحدة وكندا وأستراليا. في الوقت نفسه، كانت شعوب مسيحيّة مختلفة تمرّ في حالة نزوح وهجرة، لتتلاقى في عوالم جديدة، حيث تجد الكنيسة كنائسا، ما دفع أتباع الكنائس المختلفة إلى اللقاء والعيش في محيط واحد. فتساءل بعضهم: لماذا هذا التمزّق في المسيحيّة في عالم أصبح فيه المسيحيّون أقليّات؟

وجاء تقارب أجزاء العالم بعضها من بعض بواسطة وسائل النقل السريعة المتعدّدة، وانتشار الحضارة الأوروبيّة لتجاور الحضارات المتنوّعة، ليجعل العالم يتمخّض اليوم عن مدنيّة جديدة لها طابع عالميّ شامل، لا سيّما بعد أن

---

١ ـ **فلاديمير سولوفييف** SOLOVIEV (١٨٥٣ ـ ١٩٠٠): مفكّر وفيلسوف روسي.

٢ ـ **لاون تولستوي** TOLSTOI (١٨٢٨ ـ ١٩١٠): كاتب قصصيّ روسيّ كبير، حاول إصلاح المجتمع عن طريق العدل والمحبّة وعدم العنف، صوّر العادات الروسيّة وانتقد المساوئ، أشهر رواياته "الحرب والسلم" و"آنا كارنينا".

انهارت[1] عامَي ١٩٨٩ و١٩٩٠ النظم الشيوعيّة في شرقيّ أوروبّا وزالت الحرب الباردة القائمة بين العملاقَين: الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ.

١ - بتيم ونيك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٧.


Bibliotheca Alexandrina
0586473